

أنور السادات

البحث عن الذات

قصة حياتي

**** معرفتي ****

www.ibtesama.com

منتديات مجلة الإبتسامة

البحث عن الذات

قصة حياتى

أنا أنور السادات فلاح نشأ وترى على ضفاف النيل حيث شهد الإنسان مولد الزمان - أهدى هذا الكتاب إلى القارئ فى كل مكان . . .
إنها قصة حياتى التى هى فى نفس الوقت قصة حياة مصر منذ ١٩١٨ . . . هكذا شاء القدر .

فقد واكبت أحداث حياتى الأحداث التى عاشتها مصر فى تلك الفترة من تاريخها . . . ولذلك فأنا أرى القصة كاملة لا كرئيس لجمهورية مصر العربية . . . بل كمصرى ارتبطت حياته بحياة مصر ارتباطاً عضوياً منذ بدايتى إلى الآن . . .

وحياتى . . . مثل قصة حياة أى منا . . . ليست فى الواقع إلا رحلة بحث عن الذات .

فكل خطوة خطواتها عبر السنين إنما كانت وما زالت من أجل مصر والحق والحرية والسلام .
هذه هى الصورة التى رسمتها لنفسى منذ الطفولة . . . والآن وأنا أنظر إلى بانوراما حياتى وحياة مصر تمتد أمام عيني بكل ما شهدته وما صاحبها من أحاسيس . . . هل أستطيع أن أرى صورتي لنفسى وقد التقت بصورة مصر كما كنت أحلم بها من فوق سطح الفرون فى قريتي ميت أبو الكوم وأنا ما زلت صبياً فى العاشرة من عمره ؟

وهل يمكن أن أقول إن هذه الصورة قد تحققت أو على الأقل أصبح فى الإمكان التعرف عليها ؟
هذا ما أتركه للقارئ ليراه بنفسه . . .

أنور السادات

البحث عن الذات

الطبعة الأولى أبريل ١٩٧٨

هذا الكتاب نشر باللغات التالية :

الإنجليزية - الألمانية - الفرنسية - البرتغالية - السويدية - الهولندية - الإيطالية -
النرويجية - العبرية - الفنلندية - الدانماركية - الأسبانية - اليابانية .
كما نشرت أجزاء وفصول من الكتاب في الصحف والمجلات التالية :

الأهرام

Time Magazine

مجلة التايم الأمريكية

Paris Match

» بارى ماتش الفرنسية

Panorama

» بانوراما الإيطالية

La Repubblica

» لاريوبليكا الإيطالية

The Observer

الإوبزرفر البريطانية

Book Club

نادى الكتاب (كتاب الشهر) بأمريكا

Book Digest

بوك ديجست بأمريكا

Der Spiegel

مجلة دير شبيجل الألمانية

المكتب المصرى الحديث للطباعة والنشر

٢ ش شريف ت ٥٣١٢٧ القاهرة

٧ ش نوبار ت ٢٦٦٠٢ الإسكندرية

أنوار السادوات

الحث عن الذات

قصة حياتي

**** معرفتي ****

www.ibtesama.com

منتديات مجلة الإبتسامة

المكتب المصري الحر

للطباعة والنشر

جميع حقوق التأليف المادية المترتبة على نشر هذا الكتاب أو استعمال أجزائه منه
مخصصة لتنمية وتطوير قرية ميت أبو الكوم .

لا يجوز نشر أى جزء من هذا الكتاب أو نقله على أى نحو سواء بالتصوير أو بالتسجيل
أو خلاف ذلك إلا بموافقة الناشر على هذا كتابة ومقدماتاً .

الناشر : أحمد يحيى

٢ ش شريف عمارة اللواء - القاهرة

ت ٥٣١٢٧ - ٨٠١٠٨٠

من أجل السلام

**** معرفتي ****
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

البحث عن الذات قصة حياتى

أنا أنور السادات فلاح نشأ وترى على ضفاف النيل حيث شهد
الإنسان مولد الزمان - أهدى هذا الكتاب إلى القارئ فى كل مكان . .
إنها قصة حياتى التى هى فى نفس الوقت قصة حياة مصر منذ
١٩١٨ . . هكذا شاء القدر .

فقد واكبت أحداث حياتى الأحداث التى عاشتها مصر فى تلك
الفترة من تاريخها . . ولذلك فأنا أروى القصة كاملة لا كرئيس لجمهورية
مصر العربية . . بل كمصرى ارتبطت حياته بحياة مصر ارتباطاً عضوياً
منذ بدايتى إلى الآن . .

وحياتى . . مثل قصة حياة أى منا . . ليست فى الواقع إلا رحلة
بحث عن الذات .

فكل خطوة خطوتها عبر السنين إنما كانت وما زالت من أجل مصر
والحق والحرية والسلام .

هذه هى الصورة التى رسمتها لنفسى منذ الطفولة . . والآن وأنا أنظر
إلى بانوراما حياتى وحياة مصر تمتد أمام عيني بكل ما شهدته وما صاحبها
من أحاسيس . . هل أستطيع أن أرى صورتي لنفسى وقد التقت بصورة
مصر كما كنت أحلم بها من فوق سطح القرن فى قريتي ميت أبو الكوم
وأنا ما زلت صبياً فى العاشرة من عمره ؟

وهل يمكن أن أقول إن هذه الصورة قد تحققت أو على الأقل أصبح
فى الإمكان التعرف عليها ؟

هذا ما أتركه للقارئ ليراه بنفسه . . .

السادات

الفصل الأول

من ميت أبوالكوم إلى سجن الأجانب

**** معرفتي ****
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

العسل وصل . . يعلن المنادى فى أزقة وساحات القرية . . وتهرع جدتى وأنا
أمسك بيدها وأسير إلى جوارها نحو التربة حيث رست مركب العسل القادمة إلى
(كفر زرقان) المجاورة لنا . .

ليس الطريق طويلاً . . ولكن كل خطوة نخطوها تملأ قلبى فرحاً وفخاراً . .
فالرجال على طول الطريق تقف تحية لجدتى - هذه المرأة التى لا تعرف
القراءة والكتابة ومع ذلك كنت أرى الجميع يلجأون إليها لتحل مشاكلهم
ولتشفيهم مما قد يصيبهم من أمراض بوصفات وأعشاب الطب العربى القديم التى
لم يكن فى قرينتنا أو فى القرى المجاورة من يتقنها مثلها . .

ونشترى زلعة العسل الأسود ونعود إلى دارنا . . أسير خلف جدتى صبيها
أسمر ضئيل الجسم حافى القدمين يرتدى جلباباً تحته قميص أبيض من البفنة . .
لا تفارق عينيه زلعة العسل .. ذلك الكنز الذى استطعنا الحصول عليه أخيراً . .

كم كان شهباً عندما نخلطه باللبن الرايب (الزبادى) . .

وكم كان يسعدنى كما لا يسعدنى أى شىء آخر . .

كل شىء فى القرية كان فى الحقيقة مصدر سعادة لى لا تماثلها سعادة
أخرى . .

عندما نخرج لنشترى الجزر لا من بائع الجزر . . بل من الأرض نفسها . .

عندما أضع بصلة في محمي القرن وهم يحزرون العيش ثم أعود آخر النهار فأخرج البصلة وأكلها . .

وحينما كنت ألعب مع أقراني في القرية في ليالي القمر أو نسهر على المصطبة نحن والطبيعة من حولنا والسماء فوقنا لا فاصل بيننا . .

وشروق الشمس . . عندما كنت أسير مع عشرات الصبية والفتية والرجال أصبح الدواب والبهائم في موكب خروج الفلاحين للعمل وسط خضرة لا يحدها البصر وبسطة الأرض التي تبدو كأن لا أرض بعدها .

كل شيء كان يسعدني في ميت أبو الكوم قريتي الوديدة القابعة في أحضان دلتا النيل . . حتى برودة الماء في الشتاء عندما كنت أخرج في الفجر لأن التربة قد امتلأت بالمياه ولكن لفترة لا تتعدى الخمسة عشر يوماً هي (النوبة) أو نصيب قريتنا من الري . . ولذلك كان الإسراع بالعمل والمشاركة فيه أمراً ضرورياً فنحن كل يوم في أرض واحد منا نرويها بطنبوره أو بطنبور غيره لا يهم . . المهم أنه بانتهاء النوبة تكون أرض القرية كلها قد ارتوت . .

هذا العمل الجماعي مع الغير ومن أجل الغير دون أن أنتظر منه ربحاً أو فائدة لي جعلني أشعر أنني لا أنتمي إلى أسرتي الصغيرة في دارنا أو أسرتي الكبيرة في قريتنا . . بل إلى شيء أكبر وأهم هو الأرض . .

ولذلك ففي رحلة العودة مع الغروب والدخان ينبعث من البيوت مؤذناً بعشاء شهي ينتهي بعده اليوم في القرية . . والهدوء يخيم على الجميع والسلام يعمر قلوبنا . . كنت أتأمل الشجر والزرع وأحس برباط خفي من الحب والصدقة يربطني بكل ما حولى . .

فهذه الشجرة الوارفة من صنع الله . . أراد لها أن تكون فكانت . . وهذا الزرع البانع الخضرة قد زرعنا حباته بأيدينا ولكن لولا إرادة الله ما كان . . وهذه الأرض التي أمشي فوقها . . ومياه التربة تنساب بين ضفتيها . . كل شيء حولى من صنع إله كبير يرعاه ويتولاه . . وكذلك أنا . .

الشجرة والحبة والثمرة كلهن إذن زميلاتي في الكون . . ألسنا جميعاً من نبت الأرض وبدونها لا نكون ؟ .

والأرض قوية صلبة . . وكل من ينتمى إليها لا بد أن يكون مثلها . . وإذا كانت هذه الخواطر تمر برأسي الصغير كنت أستعيد قول جدتي :

« لا شيء يساوى أنك ابن الأرض . . فالأرض هي الخلود لأن الله أودعها كل سره . . »

كم كنت أحب هذه السيدة . . كانت شخصية في غاية القوة بالإضافة إلى الحكمة . . حكمة الفطرة . . والتجربة . . والحياة . . وطوال فترة نشأتي في القرية كانت هي رأس العائلة ، فقد كان والدي يعمل مع الجيش في السودان . . وكانت هي ترعانا وتخرج وراء الأنفار كأي رجل تتعهد الفدانين والنصف التي اقتناها والدي . .

أم الأفندي . . هكذا كانوا يطلقون عليها في القرية . . ولهذا قصة . .

كان منتهى أمل القروى عندنا أن يدخل الأزهر . . ولكن جدي الذي كان يعرف الكتابة والقراءة وهو أمر نادر في وقته . . أراد أن يشق لأبي طريقاً آخر . . فأدخله التعليم العام حيث حصل على الشهادة الابتدائية . . وكانت في ذلك الوقت تعتبر مؤهلاً هاماً . . فالإحتلال البريطاني كان في أول مراحله . . وجميع المواد كانت تدرس باللغة الإنجليزية . .

كان والدي أول من حصل على الشهادة الابتدائية في قريتنا . . ولذلك رغم أن بقريتنا الآن مهندسين وأطباء وأساتذة جامعات إلا أنه عندما يأتي ذكر الأفندي وأولاد الأفندي يعرف كل إنسان أنه والدي وأبناؤه . .

ويبدو أن جدتي أرادت لي أن أسير في نفس الطريق الذي سار فيه والدي فأدخلتني كتاب القرية حيث تعلمت الكتابة والقراءة وحفظت القرآن ثم نقلتني إلى مدرسة الأقباط بطوخ حيث يوجد دير قديم مشهور مطرانه هو نفس مطران دير وادي النطرون . .

لم تكن المدرسة تبعد عن قريننا بأكثر من كيلو واحد ورغم أنني لم أستمِر بها طويلاً إلا أنني ما زلت أذكر بوضوح مسيو (مينا) المدرس الذي كان يعلمنا كل شيء والذي كنا نخشاه ونحبه في نفس الوقت . . وما زالت ترن في أذني دقات الجرس الكبير تعلن بدء اليوم الدراسي فيدق معها قلبي رهبة واحتراماً للعلم . .

أما كتاب القرية فما زلت أراه بعين الخيال وكأني فارقتَه بالأمس . . العريف الطيب الشيخ عبد الحميد رحمه الله الذي شيعت جنازته منذ فترة غير بعيدة . . وكنت أدين له بالكثير فهو أول من فتح لي أبواب المعرفة والإيمان . .

وأقراني في الكتاب وأنا أجلس بينهم على الأرض أحمل اللوح (الصفيح) والقلم البسط . . كل عدتي في تلقى العلم . . وجيب جلابيتي الفضفاض الذي كنت أحشوه في الصباح بالخبز الناشف المخلوط بكسر الخبز التهمه حفنة بعد حفنة أثناء الدروس وما بينها . .

كان إقبالي على العلم يتزايد يوماً بعد يوم ولكنه لم يشغلني يوماً عن القرية . .

كانت حياتي بها بهجة تتلوها بهجة . . فكل يوم يأتي بشيء جديد . . موسم الزرع . . موسم الري . . موسم حصاد القمح . . الاحتفال بموسم الحصاد . . وأفراح القرية وصواني الكنافة التي كنا نلتهمها في نهم . . وموسم حصاد القطن الذي كان يأتي دائماً مع البلح . . وكيف كنت أغترف القطن وأضعه في عبي ثم أهرع إلى بائعة البلح وأعطيها فتعطيني ما يقابله من البلح .

وعندما كنت آخذ البهائم إلى التربة لتشرب . . أو أجلس على النورج لدرس القمح . . أو أشترك مع غيري من الصبية في جمع القطن . كنت أحس في كل مرة أنني أفعل هذا لأول مرة . . فقد كانت حياتي بالقرية اكتشافات تعقبها اكتشافات . . وكأنها ساقية تدور على بحر كل ما به دائماً جديد .

هذا الإحساس بأن كل شيء أفعله أو أراه جديد لم يفارقني أبداً طوال فترة نشأتي بالقرية . . وكان مصدراً لا ينضب من مصادر سعادتي .

حتى القصص التي كانت تحكيها لي أمي أحياناً وجدني أحياناً أخرى كل ليلة . . . كنت في كل مرة أستمع بها وكأنها جديدة وكأنني لم أسمعها من قبل مع أنها هي نفس القصص لم تتغير .

ولم تكن هذه القصص حواديت الشاطر أو بطولات أبو زيد الهلالي . . بل كانت أقرب إلينا وألصق بحياتنا من تلك الأساطير البعيدة .

كانت إحدى هذه القصص تروى كيف دس الإنجليز السم لمصطفى كامل حتى لا يكمل كفاحه ضدهم . . لم أكن أعرف في ذلك الوقت من هو مصطفى كامل وأنه مات فعلاً في ريعان شبابه ولكني عرفت لأول مرة أن هناك قوماً اسمهم الإنجليز . . وأنهم ليسوا منا . . وأنهم أشرار لأنهم يضعون السم للناس .

وكانت جذني تحكي لنا أيضاً موال أدهم الشرقاوي وبطولاته وكفاحه ودهاءه في محاربة الإنجليز والسلطة .

ولكن لعل مما ترك في نفسي أثراً عميقاً موال زهران بطل دنشواي . . وأنا أستمع إليه من أمي وقد اعتليت سطح القرن الدافئ وإلى جانبي الأرناب وإخوتي الصغار وقد استغرقوا جميعاً في النوم أما أنا فكنت بين اليقظة والمنام .

كان هذا الموال يستهويني كل مرة أستمع إليه . . فدنشواي قرية لا تبعد عن قريتنا بأكثر من خمسة كيلو مترات . . والموال يحكي كيف أن عساكر الإنجليز عندما شاهدوا أبراج الحمام في دنشواي أطلقوا عليها الرصاص .

وطاشت طلقة أحرقت جرننا من أجران القمح . . وتجمع الفلاحون فأطلق عليهم الرصاص أحد عساكر الإنجليز وجرى . . جرى الفلاحون وراءه وأمسكوا به وحصلت معركة مات فيها العسكري الإنجليزي . . وفي الحال قبضوا على الأهالي . . وشكلت محكمة عسكرية في القرية . . وعلقت المشانق قبل صدور الأحكام التي قضت بجلد عدد من الفلاحين وشنق عدد آخر .

وكان زهران بطل المعركة التي قامت مع الإنجليز وكان أول من حكموا

بشقه . . ويحكى الموالم عن شجاعة زهران وصموده فى المعركة وكيف أنه تقدم من المشنقة مرفوع الرأس فخوراً مزهواً بنفسه لأنه استطاع أن يتصدى للمعتدين وأن يقتل أحدهم .

كنت أستمع إلى الموالم ليلة بعد ليلة وأنا بين النوم واليقظة - كما قلت - ولعل هذا ما جعل عقلى الباطن يحتزن القصة . . وأطلق العنان لخيالى فكلم رأيت زهران وعشت بطولته فى الصحو وفى المنام . . وكلم تمنيت لو كنت زهران .

وهكذا أدركت من فوق سطح القرن فى دارنا بالقرية أن هناك خطأ ما فى حياتنا . . وقبل أن أرى الإنجليز . . وأنا مازلت داخل قريتى . . تعلمت أن أكره المعتدين الذين قتلوا وجلدوا أهلنا .

ولكن لم يكن هذا كل ما تعلمته فى ميت أبو الكوم فقد تعلمت ما بقى بعد ذلك معى طول العمر وهو أننى أينما ذهبت وفى أى مكان كنت فسوف أعرف دائماً أين أنا . . لن أضل الطريق أبداً . . لأننى أعرف أن جذورى هناك حية متأصلة فى أرض قريتى التى انبتتني كما تنبت الزرع والشجر .

هكذا قضيت السنوات الأولى من حياتى فى قريتى الوداعة إلى أن كان يوم وجدت نفسى فيه أنتقل فجأة مع أسرتى إلى القاهرة لأن والدى - كما قالوا لى - قد عاد من السودان .

كم كان عمرى حينذاك ؟ لم أكن أعرف . . عرفت فقط بعد ذلك أن أحداث حياتى كانت تسير جنباً إلى جنب مع أحداث التاريخ .

هكذا - كما يبدو شاء القدر .

جئت إلى القاهرة في سنة ١٩٢٥ في أعقاب مقتل السردار الإنجليزي سيرلي ستاك في سنة ١٩٢٤ . . فقد كان من أهم العقوبات التي وقعت إنجلترا على مصر أن يعود الجيش المصري من السودان . . فعاد وعاد معه والدي . . .

كنا نسكن في بيت صغير بكوبرى القبة وكان على أن أكمل تعليمي العام الذي بدأته بمدرسة طوخ فاختر لي والدي مدرسة الجمعية الخيرية الإسلامية لأنها كانت مدرسة أهلية ومصاريفها تناسب دخله . . .

وبالفعل أخذت أوراقى وذهبت إلى المدرسة لألتحق بها . . عندئذ فقط ومن واقع الأوراق التي تقدمت بها عرفت أنى ولدت في ٢٥ ديسمبر سنة ١٩١٨ .

كانت المدرسة في الزيتون وكنت أذهب إليها وأعود كل يوم سيراً على الأقدام . وفي الطريق كنت أمر بسرأى القبة . . أحد قصور الملك فؤاد في ذلك الوقت .

ومازالت أذكر كيف كنت وبعض أقرانى في المدرسة نتلكاً حول سور حديقة السراى في الربيع لنقتطف بعض ثمار المشمش . . رغم ما كان يعتلج في صدورنا من إحساس بالخوف والرغبة . . فجرد الإقتراب من أى شىء ينخص الملك كان معناه الهلاك لى ولعائلى ولأى إنسان .

لم أكن أعرف في ذلك الوقت السحيق أننى سأشارك وزملاء لى في تغيير وجه التاريخ . . وأنى سوف أجتاز يوماً ما هذا السور الرهيب . . وأجلس في نفس المقعد الذى كان يجلس عليه الملك فؤاد ومن بعده فاروق . .

قضيت بمدرسة الجمعية الخيرية الإسلامية فترة التحضيرى وسنة أولى وثانية ابتدائى . . وأذكر أنى في تلك المرحلة كنت متفوقاً في التعليم فكنت أتناوب

الأولوية على الفصل مع الدكتور حسن الشريف وزير التأمينات الأسبق رحمه الله . .

بعد السنة الثانية انتقلت إلى مدرسة السلطان حسين في أول مصر الجديدة حيث أخذت الشهادة الابتدائية . . وبعدها التحقت أنا وأخى الأكبر طلعت بمدرسة فؤاد الأول الثانوية . .

كان ذلك في سنة ١٩٣٠ . . وكان القانون يقضى بأن يدخل أحدنا مجاناً والآخر بمصاريف ولكن رفض طلبنا . . فاضطر والدى إلى دفع المصاريف لى ولأخى . . كان القسط الأول ستة عشر جنيهاً . . هى كل مرتب والدى . . أعطاه لى فدفعته للمدرسة . . ولما حل ميعاد القسط الثانى أخذه أخى طلعت من والدى ولكن بدلا من أن يدفعه للمدرسة هرب به إلى حيث لا نعرف وانفقه إلى آخره ثم عاد ليعلن أنه لا يرغب الاستمرار فى التعليم . .

ربما كانت هذه مشيئة القدر . . فبدون إحجام أخى عن التعليم كيف كان سيتسنى لوالدى بدخله المحدود الإنفاق على تعليمنا نحن الإثنين . . أغلب الظن أنه كان سيضطر إلى إيقاف تعليمى . . وخاصة أن طلعت هو أخى الأكبر . .

فى المدرسة الثانوية تفتحت عيناي لأول مرة على أهل المدينة وعرفت معنى الطبقة والفوارق . . فى المدرسة كان معى ابن وزير الحرية وابن وكيل وزارة المعارف . . وكان كل منهما ينتقل إلى المدرسة ويعود منها إلى البيت فى سيارة فاخرة (كونييل) كما كنا نسميها فى القرية . . منظر مبهر للغاية ولكنه لم يترك فى نفسى أى أثر للغيرة أو الحقد . . وطبعاً زملائى فى الفصل كانت ملابسهم أفضل من ملابسى بكثير ولكن هذا لم يصبنى بأى عقدة . .

كان لى أصدقاء كثيرون من أولاد الذوات وكانوا يعيشون فى بيوت فخمة لم أرها من قبل ولكنى لا أذكر أننى تطلعت يوماً إلى ما هم فيه . . اطلاقاً . . فى البلد عندنا دارنا وبهائمتنا والجميع يعرفون أننى ابن الأفندى - وقبل كل شئ - عندنا الأرض التى انتمى إليها . . صلبة . . دائمة . . لا تزول . . تماماً مثل قيم القرية التى لا يعرفها أهل المدينة . . .

في الحارة التي كنا نسكن فيها بالقاهرة نزلت مرة لأشترى علبة كبريت من البقال . . قلت « أنا عاوز علبة كسفریت »

وفجأة انفجر الزبائن بالضحك . . اندهشت فيما يضحكون ؟ قالوا لي « ضرورى تقول كبريت . . » صممت على « كسفریت » . واستمرت سخریتهم منى . . وفي مواجهة هذه السخرية جاءنى شعور بأننى أقوى منهم . . فمن هم لكى يسخروا منى ؟

إن أفضلهم فى نظرهم أغناهم مالا وأكثرهم حسباً ونسباً . . أما نحن فى القرية فلا نغير مثل هذه الأشياء أى اهتمام . . الرجل الذى على خلق عندنا قيمة عليا فى ذاته رغم ما قد يكون عليه من فقر مدقع . . وفى القرية عندنا شىء اسمه العيب . . ونحن ينتمى بعضنا إلى البعض بالتآخى والتعاون والحب . . أما هم فى المدينة فينتمون إلى مالهم وسلطانهم وبيوتهم الكبيرة الفاخرة وكلها عرض زائل فاقد القيمة . .

وهكذا كانت مجموعة القيم التى نشأت عليها فى القرية ولم أجد مثلها فى المدينة سنداً لى فى تلك المرحلة المبكرة من حياتى فقد عمقت إحساسى بالتفوق الداخلى الذى لم يفارقنى لحظة منذ أن نشأت والذى هو فى الحقيقة — كما أدركت بمرور الأيام — قوة داخلية لا تستند إلى أى مصدر مادی . . بل بالعكس . . فربما كان هذا الشعور بالتفوق الداخلى أقوى ما يكون عندما تنعدم أو تكاد المصادر المادية الخارجية .

فى مرحلة التعليم الثانوى كنت أعيش تحت خط الفقر فقد كان والدى بدخله المحدود يعول أسرة مكونة من ثلاثة عشر ولداً وبناتاً . . ولذلك فرغم أننا كنا نعيش فى القاهرة كان بمنزلنا فرن نخبز فيه العيش . . إذ أن شراء الخبز من السوق كما يفعل أهل المدينة . . كان أمراً لا طاقة لنا به . .

وكان مصروف يدي مليمين فى اليوم وبهذا المبلغ الضئيل كنت أشتري كوباً من الشاي باللبن وأشربه وأنا أحس أنى أسعد إنسان فى العالم . . فى حين كنت أرى زملائى من حولى يشترون أفخر أنواع الشكولاته والحلوى من

(كاتنين) المدرسة . . وكان لدى الواحد منهم أكثر من حلة فاخرة يختار من بينها ما يروق له فهو دائماً أنيق متجدد . . أما أنا فكانت عندى حلة واحدة أكل عليها الدهر وشرب ولكنى لا أملك تغييرها أو حتى تجديدها . .

وحين أتذكر هذه الأشياء الآن لا أذكر أنها يوماً جعلتنى أحس أنى أقل من زملائى فى شىء بل وفى تلك السن المبكرة لم تكن على الإطلاق مدعاة إلى أن أقارن بينى وبينهم . .

أذكر فقط أنى عندما تقدمت للحصول على شهادة إتمام الدراسة الثانوية كان علينا أن نرفق بالاستمارة صورة شخصية . . وكان لهذه الصورة أهمية خاصة فى نظر أى طالب . . فشهادة التوجيهية هى بطبيعة الحال نقطة تحول فى حياته . . ولذلك ذهبت إلى والدى وطلبت منه حلة جديدة أتصور بها هذه الصورة التاريخية . . وأدرك والدى أهمية مطلبى ولكنه قال . . « أمهلنى يوماً أو اثنين لأدبر المبلغ » . . وفى اليوم الثالث جاء إلى وهو باسم الوجه وقال « وجدت الحل . . اذهب إلى وكالة البلج . . هناك الدكاكين كلها متشابهة ولكن هذا هو اسم صاحب الدكان الذى أريدك أن تذهب إليه . . » وأعطانى مائة وخمسين قرشاً . .

لم يكن حجم الدكان يزيد على متر ونصف فى مترين . . وفى واجهة الدكان طاولة بطوله تقريباً يقف وراءها صاحب المحل وخلفه أثواب القماش وقد رصت على عدة رفوف . . وفى الزاوية ماكينة خياطة . . انتقيت القماش وتناولته منى الرجل وأعمل فيه المقص ثم جلس إلى ماكينته . . وبعد ساعة ونصفناولنى حلتى الجديدة . .

لم تكن بالطبع لتقارن بما أعده زملائى فى المدرسة لهذه المناسبة ولكنى كنت سعيداً بها كل السعادة . . فهى تنى بالغرض ولا يهتم على الإطلاق إذا كانت خشنة الملمس أو رخيصة المظهر . . ثم بها أو بدونها أنا هو أنا . . ذلك القروى الصغير الذى يرى فى فلاحه الأرض ما يميزه ويميز من يمارسها على أهل المدينة الذين يعيشون على التجارة . .

هكذا كانت حياتى طوال مدة تعليمى بالقاهرة سلسلة من المقارنات

أو المفارقات المستمرة بين المدينة والقرية . . ولكنها لم تكن في أى وقت في صف المدينة بأى حال من الأحوال . . على العكس أشياء كثيرة أزعجتني في القاهرة .

مثلا منظر (الكونستابل) الإنجليزي على الموتوسيكل يجوب الشوارع ليل نهار وبدون انقطاع كالمجنون . . بوجهه الذى فى لون الطماطم فظ . . بليد . . وعينيه الجاحظتين وفمه المفتوح دائماً كضم الأبله . . ورأسه المنتفخة يغطيها طربوش طويل قرمزي يصل إلى أذنيه . .

كان الجميع يخشونه . . أما أنا فكنت أكره النظر إليه . . وأتساءل في نفسى . . ما الذى أتى بهذا الغريب القبيح المنظر إلى المدينة ؟

لو أتى إلى قريتنا لما استطاع أن يسير خطوة واحدة . . ولكنه لم ولن يأتى . . لأنه لا يجرو . .

ووابور الزلط الذى فى كل مرة أصادفه كنت أراه يسير ورائى . . أسرع الخطى فيسرع خطاه . . أجرى فيجرى خلنى . . ما قصده بالضبط ؟ واضح أنه يسعى ليدوسنى تحت عجلاته الحديدية الضخمة . . ولكن لم ؟ وأنا لا أعرفه وهو لا يعرفنى . . ؟ ولم تنفعنى هذه الأسئلة فى شىء . . فكلما نظرت خلنى رأيته يلاحقنى فيزداد زعزى . . ولم يكن لينقذنى منه كل مرة إلا إذا انعطفت فى حارة ضيقة لا تسمح بمروره أو أطلقت ساقى للريح بحيث لا أراه ولا يرانى . . فقد كان واضحاً أنه رغم جبروته ورغم ضآلتى إلا أنى كنت أسرع منه بكثير .

وأول مرة دخلت فيها السينما فى حياتى . . كان ذلك يوماً عصيباً . . فقد شاهدت قطار سكة حديد قادماً من أقصى الشاشة ومندفعاً بسرعة مذهلة نحوى . . ماذا أفعل ؟ أغمضت عيني ورجعت بجسدى إلى الوراء . . ولكن صوت القطار ما زال يدوى فى أذنى . . فقيم الانتظار ؟ قمت لتوى من مقعدى وبسرعة رحت اخترق الصفوف مهرولا فى طلب النجاة . . ولفت نظرى أن الناس كلها قابعة فى مقاعدها وكأن شيئاً لم يحدث . . هذا شأنهم قلت فى نفسى . . ولكن بمجرد أن بلغت نهاية الصف — وعيناي قد تسمرت على الشاشة — لم أجد القطار . . وجدت بدلا منه رجلا وامرأة يتناولان الطعام فى مقهى صغير فاخرقت الصف

مرة أخرى وعدت إلى مقعدي . . أرقب أحداث الفيلم في هدوء كما يفعل الآخرون . .

كم انبهرت ذلك اليوم بما رأيته . . وكان من نتيجة انبهارى أن حجزت تذكرة الحفلة التالية من الساعة الثالثة إلى السادسة بعد الظهر . . وتسمرت في مقعدي لأشاهد القطار العجيب مرة أخرى .

كنت في ذلك الوقت قد انتقلت من السنة الثانية الثانوية إلى السنة الثالثة . . ولكن بمجموع صغير فطلبوا مني أن أعيد السنة الثانية حفاظاً على النتيجة العامة للمدرسة في شهادة الكفاءة وهي شهادة عامة كنا نتقدم لها بعد السنة الثالثة . . رفضت . . وسحبت أوراقى من المدرسة (مدرسة فؤاد الأول) وقدمتها إلى مدرسة أهلية هي مدرسة الأهرام حيث قبلوني بالسنة الثالثة . . وحصلت على شهادة الكفاءة في نفس السنة .

وبإرادة التحدى - التى لم أكن بعد قد اكتشفتها في نفسى في ذلك الوقت المبكر - أخذت أوراقى مرة أخرى إلى مدرسة فؤاد الأول حيث التحقت بالسنة الرابعة ولكن في الإمتحان في السنة الرابعة إلى الخامسة وهي نهاية مرحلة التعليم الثانوى تكرر ما حدث لى عندما انتقلت من السنة الثانية إلى الثالثة فسحبت أوراقى من فؤاد الأول وذهبت بها ثانية إلى مدرسة الأهرام حيث قبلوني بالسنة الخامسة . . وتقدمت في نهاية العام للحصول على شهادة التوجيهية . . ونجحت في جميع المواد ولكنى رسبت في المجموع .

كانت هذه نقطة تحول . . فقد أدركت أن رسوبى إنما كان دليلاً على عدم رضا الله عنى وعقاباً لى منه عز وجل . . لاستهتارى ربما . . وربما للثقة الزائدة عن الحد في نفسى . . لم يكن أمامى من ملجأ سوى قيم القرية تحفظ على نفسى كما فعلت دائماً . . وبهذا الإحساس الغامض بالذنب والتوبة معاً نقلت أوراقى إلى مدرسة رقى المعارف بشبرا وحصلت على شهادة إتمام الدراسة الثانوية .

قد يوحى ما حكيت عن إحساسى بالتوبة أنى أثناء تعليمى تخلّيت عن القرية ولو لبعض الوقت ولكن هذا لم يحدث على الإطلاق . . فبمجرد أن تنتهى الدراسة كنت أهرع إلى قريتي وأرتنى بين أحضانها . . مجتمعى المثلّى الذى كنت أجد فيه نفسى . . بل وأجد فيه الوطن بأجمعه فلفترة طويلة كانت مصر عندى هى ميت أبو الكوم أما المفهوم الشمولى للوطن فلم أدركه ولم أشعر به إلا بعد انتهاء مرحلة التعليم الثانوى .

ولم يكن هذا بالأمر المستغرب فقد بدأ إحساسى بشىء أفقده . . وبأن هناك وضعاً خاطئاً يجب إصلاحه وأنا أستمع إلى موال زهران ليلة بعد ليلة على سطح الفرن فى دارنا بميت أبو الكوم .

كان زهران مرتبطاً فى وجدانى بمصطفى كامل وبأدهم الشرقاوى فكلهم رجل واحد . . أو هكذا بدوا لى فى تحديهم للإنجليز البرابرة المعتدين الذين شنقوا وجلدوا أهلنا فى قرية دنشواى المتاخمة لقريتنا ولكن عندما جئت إلى القاهرة رأيت فى بيتنا صورة كمال أتاتورك وسألت عنه أبى فقال إنه رجل عظيم . . وكان أتاتورك فى ذلك الوقت مثلاً أعلى فى العالم الإسلامى يتردد اسمه على كل لسان فقد قام ليحرر بلاده . . ويعيد بناءها . . وكان والدى شديد الإعجاب به كما كان معجباً بنابليون الذى حدثنى عنه طويلاً وذكر لى فيما ذكر أنه عندما نفاه الإنجليز فى سانت هيلانه تعمد الحاكم الإنجليزى للجزيرة أن يجعل بوابة بيت نابليون قصيرة بحيث يضطر القائد الفرنسى الأسير إلى أن يحنى قامته فى كل مرة يدخل بيته أو يخرج منه . . ولكن نابليون لم يمكنه من غرضه فكان يجلس على الأرض ويدخل أو يخرج زاحفاً ولكنه رافع الرأس .

طبعاً هذه لم تكن إلا خرافة . . ولكنها تعكس صورة البطل في وجدان الشعب المصرى وخاصة إذا كان هذا البطل خصماً قوياً من خصوم الإنجليز الذين كنا نعانى من احتلالهم لبلادنا ونرفض وجودهم بيننا بكل الوسائل التى كانت فى أيدينا فى ذلك الوقت .

من هنا كان إعجابى بسعد زغلول بدليل أنى كنت أخرج إلى شارع الخليفة المأمون كل مساء لانتظار خليفته النحاس باشا عندما ينتقل من بيته فى مصر الجديدة إلى بيت الأمة وعندما يعود . . فقد كنت أرى فى النحاس وفى الوفد فى ذلك الوقت رمزاً لكفاح المصريين جميعاً ضد الإنجليز .

لا أستطيع أن أقول إن كان وعي السياسى قد نضج أو حتى تشكل فى هذه الفترة المبكرة من حياتى . . كنت أشارك طبعاً فى الأحاسيس الوطنية التى كانت تغلج فى صدر كل مصرى فأخرج فى المظاهرات . . وأساهم فى تكسير الصحون وحرق الترموايات وفى الهتاف بسقوط صدق باشا وإعادة دستور سنة ١٩٢٣ . . دون أن أدرك ماذا كان ذلك الدستور .

ولكنى أستطيع أن أقول إنه إلى أن تركت المدرسة الثانوية كان قد تأصل فى نفسى شعور دفين بالكره للمعتدين وبالحب والإعجاب لكل من يحاول تحرير بلده . . أذكر أنه فى سنة ١٩٣٢ مر غاندى بمصر فى طريقه إلى إنجلترا . . وامتألت الصحف والمجلات المصرية بأخباره وتاريخه وكفاحه فأخذت به واستولت صورته على وجدانى فما كان منى إلا أن قلده . . خلعت ملابسى وغطيت نصفى الأسفل بإزار وصنعت مغزلاً واعتكفت فوق سطح بيتنا بالقاهرة عده أيام إلى أن تمكن والدى من إقناعى بالعدول عما أنا فيه . . فلن يفيدنى ما أفعله أو يفيد مصر فى شىء بل على العكس كان من المؤكد أن يصيبنى بمرض صدرى وكان الوقت شتاء قارس البرودة .

وعندما زحف هتلر من ميونخ على برلين ليخلص بلاده من آثار هزيمتها فى الحرب العالمية الأولى ويعيد بناءها كنت فى ذلك الوقت أقضى الصيف فى القرية . .

فجمعت أقرانى وقلت لهم إننا يجب أن نفعل كما فعل هتلر وإننى أنوى الزحف على القاهرة من ميت أبو الكوم . . كان عمرى فى ذلك الوقت ١٢ سنة فضحكوا منى وانصرفوا عنى .

كانت هذه فى أغلبها إرهابات تلقائية بخط كفاح لم أكن بعد قد تبينته ولكن من بين هذه الإرهابات التى كانت فى الحقيقة مجموعة انفعالات وتفاعلات مع الأحداث - بقى لى شىء واحد هو حىي لكمال أتاتورك . . فن أتاتورك استهوئنى البدلة العسكرية وهو لم يستطع أن يفعل شيئاً ويحقق ثورته إلا بالقوات المسلحة .

كانت أحداث حياتى تسير جنباً إلى جنب مع أحداث التاريخ كما سبق أن قلت . . فقد انتهت من إتمام دراستى الثانوية سنة ١٩٣٦ وفى نفس السنة كان النحاس باشا قد أبرم مع بريطانيا (معاهدة ١٩٣٦) . . وبمقتضى هذه المعاهدة سمح للجيش المصرى بأن يتسع . . وهكذا أصبح فى الإمكان أن ألتحق بالكلية الحربية . . قبل ذلك التاريخ كان الجيش المصرى ضيق الرقعة ضئيل الفاعلية وكان دخول الكلية الحربية قاصراً على أبناء الطبقة العليا .

ولكن رغم هذه التسهيلات الجديدة التى واكبت رغبتى فى دخول الكلية الحربية لم يكن التحاق بهذه الكلية - وهو منتهى أملى حينذاك - بالأمر السهل .

صحيح أنهم سمحوا لأبناء الطبقة المتوسطة والفقيرة بدخول الكلية ولكن كان باستمارة الدخول شرطان . . دخل الأب و ثروته ثم الواسطة . . وفى كشف الهيئة كان ينادى رسمياً علينا . . فلان ابن فلان . . وواسطة فلان .

بالنسبة للشرط الأول كان والدى موظفاً بالحكومة فهو على الأقل عنده دخل ثابت أما الواسطة فمن أين لى بها ووالدى كما سبق أن ذكرت - مجرد باشكاتب بالقسم الطبى - لا يعرف أحداً من الباهوات أو الباشوات ؟

قالوا له إن رئيس اللجنة التى تقبل الطلبات هو اللواء إبراهيم باشا خيرى ولا بد من الوصول إليه ولكن كيف ؟

كان إبراهيم باشا يمثل قمة الأرستقراطية في ذلك الوقت . . فهو الذي عهد إليه الملك فؤاد بتعليم فاروق في صدر شبابه الفروسية . . هو إذن معلم الملك وإلى جانب هذا هو وكيل وزارة الحرية . . ثم إنه متزوج سيدة من العائلة المالكة . . باختصار كان إبراهيم باشا نجماً من نجوم المجتمع . . فكيف الوصول إليه ونحن لا نملك الوصول حتى إلى سكرتير وزير ؟

أخيراً اهتدى والدى ببساطته المعهودة إلى أنه أيام خدمته في السودان كان يعرف أحد الصولات .

وتصادف أن كان هذا الصول في خدمة إبراهيم باشا فرتب لي ولوالدى — لا أعرف كيف — فرصة للقاء إبراهيم باشا . . وذات صباح توجهت مع والدى إلى قصر الباشا في حدائق القبة أحد أحياء القاهرة الأرستقراطية في ذلك الوقت . دخلنا الفيلا الأنيقة ووقفنا في الأنتريه . . هكذا كان الترتيب بحيث لا بد أن يمر بنا الباشا في طريقه إلى الخروج فنستلفت نظره ويسألنا عما نريد . . وفعلاً نزل الباشا بعد قليل .

واقترب منه الصول وهمس في أذنه ببعض الكلمات . . التفت بعدها إبراهيم باشا إلى والدى وقال له بكل عنجهية :

« آه . . آه . . أنت باشكاتب القسم الطبي . . ودا الولد ابنك اللي . . طيب . . طيب . . » ومضى مسرعاً نحو الباب . . وأبى يسير خلفه وهو يتمتم بكلمات لم أدركها ولا أحسب أنه هو نفسه كان يدرك ما يقول .

تجربة لم تبرح وجداني أبداً ولا أظن أنني سأنساها مدى الحياة فقد كانت هذه أول مرة أدخل فيها بيت باشا أو التقي بأحد أفراد هذه الطبقة . . وتشاء الصدفة أن ألتقي بإبراهيم باشا نفسه بعد ذلك بسنوات وكان ذلك عندما استقبلته في مكنتي وأنا رئيس مجلس الأمة . . كانت عنده مشاكل خاصة بأبنائه وفرض الحراسة وما شابه ذلك . . فساعدته في حل جميع مشاكله وبعدها ذكرته بلقائنا الأول في منزله ولكنني قلت له :

« إياك أن تتصور أن هذا اللقاء ترك في نفسي أى أثر بالنسبة لك . . بالعكس أرجو أن تعتبر أنى في أى وقت مستعد لتلبية جميع طلباتك . . فأنا أدين لك بالكثير : لا بالنسبة للقائنا في قصرك بجداثى القبة . . بل لأنك كنت رئيس لجنة القبول التى أدخلتني الكلية الحربية كما أدخلت جمال عبد الناصر وجميع ضباط مجلس قيادة الثورة . . فلولاك ما قامت الثورة . . » .

متناقضات ومفارقات لا نهاية لها ولكن لعل أبرزها أن الإنجليز الذين كان هدفي من دخول الكلية الحربية خلاص البلاد منهم هم الذين ساعدوني على الالتحاق بالكلية .

فبعد أن تم لقائنا مع إبراهيم باشا خيري في قصره كان لابد أن أجد الوسيلة كما تنص استمارة القبول كما أسلفت . . لم يجد والدى أحداً يلجأ إليه إلا حكيمباشى الجيش المصرى الذى كان والدى يعمل معه وهو انجليزى اسمه الدكتور فيتس باتريك . . واستجاب الرجل للطلب وكتب التزكية كما أوصى بى كبير المعلمين بالكلية وهو عضو لجنة القبول وانجليزى مثله .

وهكذا قبلت بالكلية الحربية وكان ترتيبى آخر المقبولين وعددهم إثنان وخمسون وذلك لأن واسطى كانت أقل الوساطات شأناً . . فى ذلك الوقت كانت الوساطات تتدرج من الأمير محمد على ولى العهد إلى الباشوات والباكوات من قوى النفوذ .

ولكن بعد أن قبلت وذهبت لأدفع المصاريف حدثت مفاجأة لم تكن فى الحسبان . . فقد كان حمدى باشا سيف النصر وزير الحربية مع النحاس باشا فى مونترية لعقد معاهدة إلغاء الإمتيازات الأجنبية التى كانت تعنى الأجانب من الخضوع للقانون المصرى (وكان أمراً شاذاً ومقرزاً أن يرتكب الأجنبي الجناية فى مصر فلا تستطيع الحكومة المصرية أن تحاسبه أو تلقى عليه القبض وإنما تملك ذلك سفارته فقط ويحاكم أو يعفى من المحاكمة بمقتضى تلك الإمتيازات) أعود إلى القصة فأقول إن وزير الحربية وهو فى مونترية لما أرسلوا له طلب التصديق على قبولنا بالكلية الحربية كما يقضى القانون أرسل برقية يطلب حجز ستة أماكن

لبعض أقربائه . . فاضطرت إدارة الكلية إلى حذف أسماء الست الأواخر وكنت أنا طبعاً أول المستبعدين .

عناء بعد ذلك كثير . . فقد التحقت بكلية الآداب ثم كلية الحقوق فكلية التجارة . . . ثم عاد حمدى سيف النصر وألحق أقاربه بالكلية . . وبعدها تدخل حكيمباشى الجيش وكبير المعلمين الإنجليز . . وأخيراً وبعد أن فقدت الأمل تماماً . . فوجئت ذات صباح بوالدتى تطلب منى أن أتوجه فوراً إلى أبى فى مقر عمله لآخذ منه مصاريف الكلية الحربية فقد قبلت بها . . وكان قد مضى على دخول أقرانى فى الدفعة ستة وعشرون يوماً كاملة .

فى الكلية الحربية كان أتاتورك مازال مثلى الأعلى . . فبدأت أقرأ عن الثورة التركية . . ورجعت أيضاً إلى تاريخ مصر لكن ليس إلى أبعد من حملة نابليون . . فقد كنت أركز على الاحتلال البريطانى فى سنة ١٨٨٢ والخديعة التى دخل بها الإنجليز مصر وما ترتب عليها من المأساة التى كنا نعيشها .

مصطفى كامل كنت مازلت أحبه ولكنى أخذت عليه أنه لم يلجأ إلى القوة . . وكان إيمانى أن الإنجليز لن يخرجوا إلا بالقوة .

ولكن هل كان الإنجليز هم المدانون وحدهم ؟

ماذا عن العائلة المالكة وهى أجنبية ؟ وماذا عن الخديوى توفيق واستعراضه للجيش الإنجليزى فى ميدان عابدين وكأنه بذلك يقر شرعية الاحتلال الإنجليزى فى مصر بعد هزيمة الجيش المصرى بالخديعة عام ١٨٨٢ ؟

إن نظام الحكم كان المسئول الأول عما حدث ويحدث لنا . . فى حادث دنشواى مثلاً كان القاضى والمحامى والنيابة كلهم من المصريين .

ومع هذه التساؤلات تطرح نفسها على الواحدة بعد الأخرى . . بدأت مداركى تتفتح على الأوضاع شيئاً فشيئاً وبت أنتظر يوم تخرجى من الكلية الحربية بفارغ الصبر حتى أستطيع أن أفعل شيئاً . . فقد كنت أزرع بالعديد من الأمانى والآمال لمصر ولكنها كانت كلها مازالت حبسه فى صدرى لم تترجم بعد إلى واقع .

تخرجت من الكلية الحربية في فبراير سنة ١٩٣٨ ومع خروجي إلى الحياة بدأت الطاقة المخزنة في عقلي الباطن منذ سنين في الإنطلاق .

في طفولتي - كما حكيت - كنت أستمع إلى موال زهران كل ليلة قبل أن أنام . . . وكنت أرى زهران وهو يصعد إلى المشنقة بخطى ثابتة . . رافع الرأس لا يخشى الإنجليز الذين حكموا بإعدامه ولا يخاف الموت الذي سيلاقيه بعد دقائق . . . فرغم قوة العدو وجبروته إلا أن زهران كان أقوى منه بكثير لأنه يملك أقوى الأسلحة وأمضاها وهو سلاح الرفض لكل ما يسعى إلى قهره وقهر أهله .

لم يفارقني طيف زهران بعد ذلك . . التقيت به كثيراً في الصحو وفي المنام . . وفي كل مرة كنت أتمنى أن أكون زهران وأن تحكي الناس قصتي كما جعلوا من قصته موالاً تتغنى به الأجيال .

ومرت الأيام وبدأ الوعي ينمو . . فعرفت مصطفى كامل ومن قبله عرابي ثم أتاتورك . . وكانوا جميعاً موضع إعجابي ولكن زهران ظل أقربهم إلى قلبي أرى نفسي فيه وأتمنى أن أفعل ما فعل ولكن بدلاً من أن يحكم على الإنجليز بالإعدام أقود أنا ثورة تؤدي إلى هلاكهم وخلص البلاد من حكمهم .

إن سلاح الرفض كان وسيظل دائماً أقوى أسلحة أهل الأرض الطيبة التي أحبها أكثر من أي شيء في الوجود . . وهل يملك الإنسان إلا أن يكون ابن أرضه ووريث أسلافه ؟

كان إحساسي بالقوة الداخلية مازال يلزمني بطبيعة الحال ولكن كان يصاحبه

الآن إحساس بقوة خارجية فقد أصبحت ضابطاً بالقوات المسلحة وكنت أومن بأنه لن يخلص مصر من الإنجليز وفساد الحكم إلا القوة .

فيم الإنتظار إذن؟ لابد من عمل تنظيم يهدف إلى ثورة تقوم بها القوات المسلحة.. هذا هو طريق الخلاص . . ولا طريق غيره . ولكن هل يمكن أن تقوم الثورة من فراغ ؟ لابد من تهيئة النفوس وهذا لا يتأتى إلا بخلق وعى كامل على قدر المستطاع بالأوضاع التي تعاني منها مصر في ذلك الوقت .

قلت أبداً بوضعنا نحن كضباط في الجيش المصرى فأقرب الطرق إلى قلب الإنسان ما يمسه هو شخصياً ولذلك ركزت في أحاديثي مع زملائي الضباط على وضعين لم يكن أحد يختلف على أنهما سيئان إلى الجيش وإلى حياتنا في القوات المسلحة وهما البعثة العسكرية البريطانية وما لها من سلطات مطلقة ثم جيل كبار الضباط المصريين وانسياقهم الأعمى إلى ما يأمر به الإنجليز . .

كنا في ذلك الوقت في منقباد وكانت الاجتماعات تتم في حجرتي بميس الضباط فقد كانت بالصدفة حجرة ضابط عظيم . . شقة صغيرة تقريباً . . إذ عند نقلى إلى منقباد كانت حجرات صغار الضباط أمثالى كلها مشغولة فأعطوني هذه الحجرة . .

كنا نجتمع فيها كل ليلة نشرب الشاي ونتسامر ، وفي أثناء السمر كنت أعمل – دون تعمد واضح – على تفتيح أعين زملائي على أوضاع البلد عامة ووضع الإنجليز بصفة خاصة . .

كانت جلساتنا تستغرق وقتاً طويلاً . . وكانت تدور بيننا مناقشات لا حصر لها ولكنها كانت ليلة بعد ليلة تضيف إلى إدراك زملائي الضباط لأوضاع البلد وتعمق إحساسهم بخطئها .. أغلبهم كانت تنقصه الثقافة السياسية . . وكنت أنا أبدأ إلى التاريخ أنتقى منه الصور المناسبة ثم أعقد المقارنات بين هذه الصور وبين الحاضر الذى نعيشه بمشاكلة ومآسيه . . ولكنى كنت . . عن عمد . .

أتحاشى إقتراح الحلول . . وكان لهذا الأسلوب في الإثارة والإقناع أثره الفعال فقد كنت أرى الزملاء ينصتون إليّ في صمت ثم يستفسرون ويسألون ويستوعبون . وإذا كانت مداركهم تتفتح شيئاً فشيئاً كنت أرى بعضهم يثير قضايا جديدة ويقلبون الأمور على وجهه بعد وجهه والحماس يملأ صدورهم والألم أحياناً يعتصر قلوبهم .. وكانت كل القضايا تدور دائماً حول مصر وخلص مصر مما تعانيه حتى أنهم أطلقوا على حجرتي الكبيرة بميس الضباط (بيت الأمة) . .

طبعاً كان يتخلل حديثنا بعض المزاح والنكات والسمر . . وكنت أشاركهم في الهزل كما أشاركهم في الجدل . . فقد كنا جميعاً شباباً لا يتجاوز أكبرنا سنّاً العشرين من عمره . . هذا إلى جانب أن هذه كانت الطريقة المثلى . . فلم يكن من المصلحة في شيء أن أعزل عن إخواني أو أن أشعرهم أنني أختلف عنهم . .

المرّة الوحيدة التي شعرت فيها بأني أختلف عن زملائي كانت عندما زارنا عزيز باشا المصري بصفته المفتش العام للجيش المصري وأخذنا معه لزيارة الدير المحرق الذي لم يكن يبعد عن المعسكر كثيراً في الوجه القبلي . .

كان قصده من هذه الزيارة تثقيفنا فقد كان دائماً الدعوة إلى الثقافة . . المهم أننا عندما دخلنا الدير المحرق . . ولم يكن أحد منا قد رآه من قبل . . وجدنا القسيس أو الكاهن الصغير يعيش في صومعة . . وهي قاعة ليست لها شبابيك فيما عدا فتحة صغيرة في الحائط لا يزيد قطرها على البوصتين . . وينام على مصطبة من الطين . . . ودهش الجميع من هذا الأسلوب في الحياة وأشفقوا على القسيس من كل هذا التقشف أما أنا فلم أدهش ولم أجد في هذه الحياة أي تقشف . . فقد ولدت في صومعة مشابهة وإن كنا في القرية نسميها القاعة . . أما المصطبة فهي نفس المصطبة التي قضيت فوقها أيام وليالي حياتي في ميت أبو الكوم .

تركت زيارة عزيز المصري أثراً عميقاً في نفسي فقد شاهدت بعيني هذه الشخصية الأسطورية التي شاركت في الثورة التركية مع أتاتورك كما كان أحد مؤسسي جمعية الاتحاد والترقي وجمعية تحرير الأمة العربية . . هذا إلى جانب تاريخه الطويل المليء بالكفاح . . وولعه بالثقافة والدعوة إليها . .

والثقافة كانت دائماً تستهويني وبوجه خاص في تلك المرحلة المبكرة في حياتي فجنباً إلى جنب مع الخط السياسي الذي بدأته مباشرة بعد تخرجي من الكلية الحربية التزمت بخط ثقافي لم يكن في نظري يقل أهمية عن الخط السياسي لأنه في الواقع يدعمه ويقويه .. ولذلك حاولت الالتحاق بالمعهد البريطاني بالقاهرة للحصول على البكالوريوس في الآداب من جامعة لندن .. وكنت مولعاً بالقراءة وأتصيد الكتب من على سور الأزبكية كلما ذهبت إلى القاهرة أما وأنا في الأقاليم فكنت أكتب إلى الناشرين والمكتبات في طلب قوائم الكتب أنتقى منها ما يروقني فيرسلونها إلى الملازم ثان محمد أنور السادات .. أينما كنت ..

في هذا بالذات كنت أختلف عن بقية زملائي .. أذكر ونحن في منقباد كان يحملنا عصر كل خميس أتوبيس عسكري خاص إلى أسبوط لقضاء ساعات المساء بها .. وكان زملائي يذهبون إلى السينما أو أماكن اللهو الأخرى .. أما أنا فكنت أجلس في مقهى وسط ميدان قريب من محطة السكة الحديد أدخن النيشة وأقرأ الكتب التي تسوقها من القاهرة وأنا في غاية السعادة إلى أن يعود إخواني من هومهم ويعود بنا الأتوبيس جميعاً إلى المعسكر ..

كانت جلساتنا في حجرتي بالميس تتسع يوماً بعد يوم وكان عدد الضباط الذين يشاركون فيها يزداد وأذكر أنني رأيت جمال عبد الناصر لأول مرة في هذه الجلسات فقد لحق بنا هو الآخر مع كتيبته في منقباد .. وكان انطباعي عنه أنه شاب جاد لا يميل إلى المزاح مثل غيره من الزملاء ولا يقبل أن يضحكه أي إنسان لأنه كان يرى في هذا مساساً بكرامته مما جعل أغلب الزملاء يبتعدون عنه بل ويتحاشون الكلام معه حتى لا يسبى فهمهم .. كان ينصت إلى مناقشاتنا باهتمام ولكنه لا يتكلم إلا في القليل النادر وقد توسمت فيه الجدية لأول وهلة وكنت تواقاً إلى المزيد من التعرف عليه .. ولكن كان من الواضح أنه يقيم بينه وبين غيره من الناس حاجزاً من الصعب اجتيازه .. فقد كان منطوياً على نفسه بشكل يلفت النظر ولذلك فكل ما قام بيننا - في تلك المرحلة - لم يخرج عن نطاق الاحترام المتبادل ولكن عن بعد ..

استمرت الجلسات ولم ينقطع الكلام أو الحوار عن أوضاع مصر ومشاكلها

ولكن كل هذا كان يدور في نطاق محدود . . . وكنت أريد مجالا أوسع لتنفيذ الخطة التي وضعتها للعمل السياسي عند تخرجي وكان هذا المجال الذي أتطلبه هو القاهرة بطبيعة الحال . . . ولكنني كنت بعيداً عنها وسأظل كذلك ما دمت في سلاح المشاة . . .

من هنا بدأت أضيق بالخدمة في هذا السلاح إلى جانب تيرمي بالبعثة البريطانية وبقائد محطتنا في منقباد الذي كنا نسميه السلطان عبد الحميد لقسوته وبطشه الذي كان يحاول عن طريقه إخفاء جهله من جهة وإرضاء رؤسائه الإنجليز من جهة أخرى . . . ولكن أين المفر ؟

وأخيراً حانت الفرصة فقد كنت واحداً من الضباط الذين اختارتهم القيادة للحصول على فرقة إشارة بمدرسة الإشارة بالمعادي قرب القاهرة . . . كان ذلك في أوائل سنة ١٩٣٩ وكان معي في نفس الفرقة عبد الناصر الذي وصل منقباد بعد وصولنا بستة أشهر ولكن كان الحاجز مازال قائماً بيننا . . .

انتهى التدريب بعد شهرين ونصف وهي المدة المحددة للفرقة وعقد الامتحان ثم أقاموا لنا حفل تكريم قبل أن نعود إلى وحداتنا . . . لم يكن عندي أي أمل في أن التحق بسلاح الإشارة الذي أنشئ حديثاً في الجيش . . . فقد كان في ذلك الوقت أهم الأسلحة جميعاً ولا بد لدخوله من واسطة كبيرة مثل كل شيء آخر . . . وعهد إليّ بالقاء كلمة في حفل الوداع نيابة عن زملائي . . .

وقد وجدت في إعدادها متعة لم أعرفها من قبل وهنا اكتشفت لأول مرة أن لدى قدرة على الكتابة وسياق مفاهيم ومعاني جديدة مترابطة . . .

كانت كلمتي هادفة ولها معنى متكامل ولم أقرأها من الورق بل ألقيتها من الذاكرة ويبدو أنها راقت قائد سلاح الإشارة الأميرالاي إسكندر فهمي أبو السعد وكان أديباً فما أن عدت إلى كتيبتى بمنقباد حتى نقلت للعمل بسلاح الإشارة بالمعادي وكان ذلك من أسعد أيام حياتي فأخيراً أتيت لي الفرصة التي انتظرتها طويلاً . . .

بدأت الاتصالات فوراً وعلى نطاق واسع شمل أغلب أسلحة الجيش ففي

القاهرة التجمع الأكبر من الضباط . . وبدلاً من حجرتي بمنقباد بدأنا نلتقي في شقتي بكوبرى القبة . . في نادى الضباط . . وفي المقاهى وبيوت بعضنا . .

كان الاتصال أول الأمر قاصراً على زملاء السلاح والسن في دفعتي . . ولكن انتصارات هتلر المتلاحقة في سنة ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ . . وهزائم الإنجليز شجعتني على أن أوسع الدائرة شيئاً فشيئاً حتى شملت الكثيرين ممن التحقوا بالجيش بعدنا ونفراً غير قليل ممن كانوا أسبق في الخدمة منا .

كان الجميع يستجيبون للدعوة بسرعة وحماس . . وكانت الدعوة أننا يجب أن ننتهز الفرصة ونقوم بثورة مسلحة ضد الإنجليز في مصر . .

هكذا قام أول تنظيم سرى من الضباط وكان ذلك في سنة ١٩٣٩ . . كان ضمن أعضائه عبد المنعم عبد الرؤوف وكان يعتبر الرجل الثانى بعدى . . وعبد اللطيف بغدادى وحسن إبراهيم وخالد محي الدين وأحمد سعودى حسين الله يرحمه . . وحسن عزت والمشير أحمد إسماعيل . . الذى كان يحضر اجتماعاتنا دون مشاركة سياسية فقد كان يرحمه الله رجل عسكرية كرس حياته لعمله وتخصه . .

لم ألبأ إلى الخلايا السرية للدفع بهذه الثورة المسلحة لبلوغ أهدافها كما فعل عبد الناصر بعد عودته من السودان في ديسمبر سنة ١٩٤٢ وتسلمه التنظيم في أوائل سنة ١٩٤٣ بعد اعتقالى في صيف ١٩٤٢ ففي تلك السنة كان خط هتلر قد بدأ في الإنكسار وبالتالي استعاد الإنجليز قوتهم في مصر فكان على عبد الناصر أن يخطط للمستقبل . .

أما أنا فلماذا أخطط لثورة على مدى زمنى بعيد ؟ كانت الأحداث وما أعقبها من ردود أفعال - أى انتصارات هتلر المتلاحقة وهزائم الإنجليز كنتيجة حتمية لهذه الانتصارات قد جعلت الباب أمامى مفتوحاً للعمل المباشر . . فقيم الإعداد للمستقبل والفرص متاحة أمامنا وواجبنا أن ننتهزها قبل أن تفوت .

في هذا الاتجاه سرت وأسرعت الخطى . . فإلى جانب اتصالاتى الواسعة

بالضباط وتشكيل الهيكل التنظيمي للثورة بدأت أتصل بالجنود في وحدتي بالمعادي وألقي عليهم محاضرات عن المعركة والموقف العسكري في العالم وموقفنا من الإنجليز والأوضاع في مصر . . كيف كانت وكيف أصبحت . . وإلى جانب هذا كنت أحدثهم عن الوطن والوطنية كما كنت أصلي بهم . .

وتصادف وجود بعض الإخوان المسلمين بين جنودي فقوجئت يوم مولد النبي سنة ١٩٤٠ بأحدهم يهمس في أذني بأن بالباب رجل ممتاز في الدين يريد أن يقول كلمتين للجنود بمناسبة المولد وكنت ضابط النوبة في تلك الليلة . . سألت من يكون . . ولما عرفت أنه الشيخ حسن البنا المرشد العام للإخوان المسلمين رحبت به وجعلته يلقي المحاضرة على الجنود بدلا مني . .

كان ممتازاً في اختياره للموضوعات وفهمه للدين وشرحه وإلقائه . . من كل النواحي فعلا كان الرجل مؤهلاً للزعامة الدينية . . هذا إلى جانب أنه كان مصرياً صميماً بكل ما تحمله هذه الكلمة من دماثة خلق وسماحة وبساطة في معاملة الناس . .

كنت قد سمعت الكثير عن الإخوان المسلمين وكنت أتصور أنها جماعة دينية هدفها الوحيد الإصلاح الخلق وإحياء قيم الإسلام . . ولكني بعد أن استمعت إلى الشيخ البنا بدأ مفهومي يتغير بعض الشيء فقد كان الرجل يتكلم عن الدين والدنيا معاً . . وبأسلوب جديد لم نألفه من رجال الدين .

أعجبت به كل الإعجاب فبعد أن انتهى من المحاضرة هنأته من كل قلبي . . وجلسنا نتبادل الحديث لبعض الوقت . . وقبل أن يخرج دعاني لحضور درس الثلاثاء الذي كان يلقيه كل أسبوع بعد صلاة المغرب في مقر المركز بالحلمية الجديدة .

وذهبت إليه وحضرت بعض الدروس وفي كل مرة كان يصطحبني إلى مكتبه الخاص لتتجاذب أطراف الحديث . . ولفت نظري ما كان عليه الإخوان من تنظيم وما كانوا يحيطون به المرشد العام من احترام وتبجيل يكاد يصل إلى درجة التقديس حتى أنهم في معاملتهم لي كادوا يقبلون الأرض بين يديّ لمجرد أنه كان يدعوني للجلوس معه في مكتبه . .

كان الإخوان دون شك قوة لا يستهان بها ويكفى للتدليل على هذه القوة أنه كانت أمام مقرهم بالحلمية فيلا رائعة أراد الشيخ البنا أن يجعلها مقراً جديداً للجمعية فطرحها للاكتتاب وفي أقل من يوم غطى الاكتتاب واشتراها . .

بعد سماعي لعدد من دروس الثلاثاء وقبل ذلك المحاضرة التي ألقاها على جنودى يوم مولد النبي ساورنى الظن بأن الشيخ البنا إنما كان يعمل على مستوى سياسى وبطريقة ذكية للغاية فهو فى أحاديثه لا يتعرض للسلطة على الإطلاق . . وإنما يتكلم عن الإسلام فحسب ديناً ودنيا . . وكيف أنه صالح للروح كما أن لا صلاح للحكم بدونه . .

وأكد هذه الظنون ما سبق أن دار بينى وبين الضابط العظيم لفرقتى من حديث حول الشيخ البنا . . فبعد محاضرتة فى الجنود يوم مولد النبي . . زارنى الضابط العظيم فى حجرتى فى ساعة متأخرة من الليل . .

قلت : خيراً . .

قال إنه إنما جاء ليقول لى كل سنة وأنت طيب بمناسبة المولد . . ثم دخل فى الموضوع مباشرة فأخبرنى أن المخبرات قد علمت بزيارة الشيخ البنا . . فحركاته مرصودة من الدولة لأن تنظيمه فى الواقع تنظيم سياسى ولذلك فهو يحاول أن يجند أفراد القوات المسلحة لبلوغ أهدافه . .

وعرفت بعد ذلك ما لم يقله لى الضابط العظيم أن عند الشيخ البنا وتنظيم الإخوان ضابطاً متقاعداً اسمه محمود لبيب هو رئيس الفرع العسكرى بالإخوان قد استطاع بالفعل تجنيد بعض الجنود والضباط .

كان هذا أول تنبيه لى . . ومع ذلك داومت على حضور دروس الثلاثاء . . ولكن لم يكن يعجبني منظر الإخوان وهم يقبلون يد المرشد العام . . فأنا لا أميل بطبعى إلى هذا النوع من العلاقة بين الناس فكلنا بشر وكلنا سواء (ولو أننى كنت أقبل يد أبى إلى أن مات وبعد ولايتى كرئيس للجمهورية) ولذلك تعمدت بعد ذلك أن أذهب للقائه قبيل انتهاء الدرس فيصطحبني كعادته إلى مكتبه الخاص ويبدأ الحديث معي . .

كان دائماً في منتهى اللباقة والحرص فهو يتلمس طريقه إلى قلبي في كل حوار يدور بيننا أما الأسئلة التي يوجهها إلى فقد كان هدفه منها استكشاف نواياي ومقاصدي . . وكنت أنا على وعي تام بما يحاول صنعه في إحدى اجتماعاتنا قلت له . .

- اسمع يا شيخ حسن . . واضح أنك حريص أكثر من اللازم في الحديث معي وأنا لا أرى داعياً لهذا . . بصراحة أنا أسعى إلى عمل تنظيم عسكري هدفه قلب الأوضاع في البلد . .

باغتت الرجل هذه المفاجأة . . فنظر إلى في دهشة ولم يعرف ماذا يقول . . ربما كنت أحد رجال المخابرات . . وربما كنت مدسوساً عليه من جهة أو أخرى . . وقطعت عليه صمته بقولي :

- نعم أنا أسعى إلى ثورة مسلحة . . ومعى عدد كبير من الضباط من كل أسلحة الجيش . . وحركتنا تسير . . بدأ يسألني أسئلة محددة . . أى أسلحة الجيش معكم ؟ وما مدى قوتكم ؟ وكم عدد الضباط الذين يمكن أن تعتمد عليهم للقيام بهذه الثورة ؟

وأجبت . . وفجأة طلب مني أن ننسق العمل معاً . . قلت له :

- لقد صارحتك بكل شيء . . وأحب أن أقول لك بنفس الصراحة . . نحن تنظيم لا يخضع ولا يعمل لحساب أى حزب أو هيئة وإنما لمصلحة مصر ككل . . وأرجو أن يكون ذلك واضحاً منذ البداية . .

وأمن الرجل على كلامي وقال :- يكفي فقط أن نتعاون . .

ولم يمض بعد ذلك وقت طويل حتى كان قد جند لحساب الإخوان عبد المنعم عبد الرؤوف الرجل الثانى بعدى في تنظيم الضباط الأحرار .

كنت مفتوناً بشخصية عزيز المصرى منذ لقائنا فى منقباد وكان معروفاً عنه أنه يكره الإنجليز حتى أن سير مايلز لامبسون السفير البريطانى فى ذلك الوقت طلب من على ماهر إقالته من منصبه بالجيش ولكن على ماهر اكتفى باعطائه إجازة مفتوحة . .

كنا بحاجة إلى الإفادة من خبرات هذا المحارب العظيم وإرشاداته . .

هكذا أحسست ، فطلبت من الشيخ حسن البنا أن يجمعنى به وكان ذلك فى سنة ١٩٤٠ وهى نفس السنة التى التقيت فيها بالشيخ البنا . .

واستجاب الرجل على الفور . . فطلب منى أن أتوجه إلى عيادة الدكتور إبراهيم حسن بالسيدة زينب . . وكان فى ذلك الوقت وكيل الإخوان . . وأحجز تذكرة كأى مريض عادى ثم أدخل للكشف وبعد ذلك يقوم الدكتور حسن بالمطلوب . . وفعلاً بمجرد أن دخلت على الدكتور حسن وقدمت التذكرة . . فتح باب حجرة مكتبه وهناك وجدت عزيز باشا فى انتظارى . .

حيثه وذكرته بلقائنا فى منقباد ثم بدأت أتكلم فى شئون البلد وأحوال الإنجليز وأحوالنا . . لن أنسى أبداً هذا اللقاء الأول مع عزيز المصرى . . كان متردداً فى التحدث معى . . وصارحنى بأنه متشكك فى أمرى . . وأنى ربما كنت أحد رجال المخابرات أو أى شىء من هذا القبيل . . قلت له . . لو كان الأمر كذلك لالتقيت بك مباشرة ولكنى كما ترى أتيت إليك عن طريق الشيخ حسن البنا وأظنك تثق به . .

فلما اطمأن سألتني : ما سبب مجيئك وماذا تريد مني ؟

قلت : نحن ضباط في مرحلة تنظيم يهدف إلى طرد الإنجليز من مصر وتغيير الأوضاع في مصر .. وباعتبارك شخصية عسكرية كبيرة نتطلع إليها جميعاً .. نرجو أن نسمح لنا بأن نرجع إليك من الآن لآخر لكي ترشدنا وتفيدنا بخبرتك وتجاربك .

قال : أول درس أقوله لكم .. اعتمدوا على أنفسكم .. ولا تنتظروا أي رائد .. المبادرة يجب أن تأتي منكم أنتم .. نابليون وصل لرتبة جنرال وكان زعيماً وعمره سبعاً وعشرون سنة .. كم سنك أنت ؟

قلت : ٢٢ سنة ..

قال : عال .. تعاونوا مع بعضكم البعض .. وهذا يكفي ..

ثم أخذ يشكو لي من البلد وأنه قد احتك بأناس كثيرين للقيام بأعمال من هذا القبيل ولكن كانوا كلهم نصايين وانتهى الأمر كل مرة إلى لا شيء .. قلت له إننا جادون وإنه سيرى ذلك بنفسه عندما يسمح لنا بمداومة الاتصال به للمشورة وتبادل الرأي ..

قال : عظيم .. أول شيء كما قلت .. لا بد أن تعتمدوا على أنفسكم .. ثاني شيء الثقافة .. لا بد أن تثقفوا أنفسكم .. والثقافة ليست بالشهادات .. الثقافة بالقراءة .. اقرأوا في كل الاتجاهات وفي كل المجالات .. الشيء الثالث الذي أوصيكم به هو أن تجعلوا تنظيمكم محكماً بحيث لا يتسرب إليه أي غريب أو تنال منه أية دسيسة .. لقد عانيت الكثير في حياتي من الخيانات والغدر .. ثم التفت إلى وسألني فجأة ..

ماهي علاقتكم بالإخوان المسلمين ؟

قلت : لقد صارحت الشيخ البنا منذ البداية أننا نعمل من أجل مصر لا من أجل أي حزب أو كتلة ..

قال : رائع ! .. هذه هي نقطة البدء .. سليم .

فى نهاية اللقاء اتفقنا كيف نتقابل وأين . . كان بيته فى عين شمس ولكنه كان مراقباً من المخابرات المصرية والبريطانية . . قلت إنه يمكننا التغلب على هذا . . فمعنا فى التنظيم بعض ضباط الشرطة وفعلاً كنت أذهب لزيارته فى بيته وأحياناً كنا نلتقى فى جروبي . . وفى مرحلة من المراحل كان يسكن فى بنسيون وسط البلد اسمه الفينواز . . وكنت ألتقى به هناك أيضاً . .

وهكذا استمرت اتصالاتى بعزيز باشا المصرى . . كما لم تنقطع صلتى بالشيخ حسن البنا . . وفى هذه الأثناء كنت أوسع دائرة الضباط الأحرار يوماً بعد يوم . .

تلاحقت الأحداث فقوات هتلر تجتاح أوروبا بسرعة غير متوقعة ومركز الإنجليز يزداد ضعفاً كل يوم وفى كل مكان . . بحيث جعل الفرصة تبدو أمامنا قريبة جداً لكى نضرب ضربتنا ونخلص من المستعمر والأحزاب . .

فى هذه الأثناء صدرت الأوامر بنقلى إلى مرسى مطروح فى أقصى الشمال كضابط إشارة لآلاى المدفعية . . وهناك تابعت نشاطى بشكل مكثف بين الضباط . .

كان الجيش المصرى إلى ذلك الوقت يشترك مع القوات البريطانية فى الدفاع عن الصحراء الغربية ضد قوات المحور مما جعل مصر طرفاً فى النزاع العالمى رغم أن المحور لم يعلن الحرب علينا . . وأصبحت الصورة بهذا أننا نحارب لحساب إنجلترا مما ينتقص بطبيعة الحال من سيادة مصر التى نصت عليها معاهدة سنة ١٩٣٦ . . هذا إلى جانب الشعور العام بأن عدونا الأصيلى إن لم يكن الوحيد هو إنجلترا وليست أية قوة خارجية أخرى . .

لم يكن رأى العام فى مصر راضياً بأى حال من الأحوال عن هذا الوضع بل كان فى الواقع ساخطاً عليه كل السخط . . فى حديث دينى لشيخ الجامع الأزهر محمد مصطفى المراغى . . وكان شخصية مرموقة . . قال عبارة

أصبحت تتردد على كل لسان . . . وهى أنه لا ناقة لنا ولا جمل فى هذه الحرب . . . ثم جاء على ماهر رئيس الوزراء فى ذلك الوقت وأعلن فى البرلمان سياسة تجنب مصر ويلات الحرب . . . وهى السياسة التى أقرها البرلمان على الفور وبالإجماع وبناء عليه صدرت إلينا الأوامر بالنزول من مرسى مطروح وكان هذا معناه أن يتولى الإنجليز وحدهم الدفاع عن القطاعات الثلاثة الموجودة فى المنطقة - وكنا قبل ذلك نتولى نحن الدفاع عن قطاعين منها . . .

أغضب الإنجليز هذا الإجراء فطلبوا منا تسليم أسلحتنا قبل انسحابنا من مواقعنا . . . وهنا ثارت ثائرتى ولكنى سعدت لأن هذا الطلب كفيل بتعبئة الشعور العام للضباط ضد الإنجليز وضد قيادة الجيش المصرى التى وافقت على الطلب فهذه إهانة عسكرية لنا ثم إننا بحاجة إلى السلاح . . . اتصلت بجميع الضباط وكانت النتيجة الإجماع على عدم التخلي عن السلاح . . . وإذا صمم الإنجليز على تجريدنا منه فليس أمامهم وأماننا إلا القتال . . . ولما علمت إدارة الجيش بقرارنا سلموا بمطالبنا فصدرت الأوامر بالانسحاب مع الاحتفاظ بالسلاح . . .

كان هذا فى صيف ١٩٤١ وهنا دبرت أول خطة لأول ثورة . . . فاتفقت مع جميع الوحدات المنسحبة من مرسى مطروح على أن نلتقى فى وقت محدد عند فندق مينا هاوس فى نهاية طريق الإسكندرية القاهرة الصحراوى وهناك نبدأ التجمع وندخل القاهرة فنضرب الإنجليز . . . ونستولى على السلطة . . .

إلى هذا الحد كان الإنجليز فى ذلك الوقت على قدر من الضعف جعلنى وزملائى نقدم على هذه المغامرة دون أن نحسب حساب نتائجها . . . نعم . . . كانت هناك خطة مرسومة وكانت تفاصيلها كلها معى ولم يكن للإخوان المسلمين أو لآى تنظيم مدنى آخر أى دور فيها . . . ولكن هل كان هذا يكفى ؟ المهم أنى أخذت وحدتى من مرسى مطروح وفى قفزة واحدة وصلنا إلى العجمى عند مدخل الإسكندرية . . . حيث قضينا ليلتنا وأنا فى غاية السعادة فى الغد سوف ألتقى

بالوحدات الأخرى عند مدخل مينا هاوس وسوف ندرس الحطة معاً ونوزع الواجبات ونختار الوقت المناسب ثم ندخل القاهرة ونحقق ثورتنا . .

ولكن شيئاً من هذا لم يحدث . . فعند مينا هاوس لم تكن هناك أية تجمعات فغسلنا العربات . . وجلست أنا وجنودى فى انتظار الوحدات . . ولكن عبثاً . . لا بد أنهم سبقونا إلى القاهرة . . قلت فى نفسى . . وبعد طول الانتظار . . أمرت وحدتى بالسير إلى معسكرنا فى المعادى . .

وهكذا لم تتحقق لنا أول ثورة دبرتها . . ولكن ربما كان هذا من فضل الله . . فلو أن هذه الثورة قامت ثم فشلت لتنبه المسئولون ولشددوا الرقابة على الجيش ولما قامت ثورة ٢٣ يوليو . .

أخذت المسألة بروح رياضية ولذلك بدلا من أن يعرف اليأس طريقه إلى قلبى رحت أكشف اتصالاتى بجميع أسلحة الجيش . .

واتسعت الدائرة كما لم تتسع من قبل فى كل يوم كان ينضم أعضاء جدد إلى تنظيم الضباط الأحرار . . كان عبد المنعم عبد الرؤوف نائبي . . وكنا نعقد الاجتماعات فى بيته بالسيدة زينب أو عندى فى كوبرى القبة أو فى فيلا حسن عزت وسعودى بكوبرى القبة أيضاً . . وفى هذه المرحلة بدأنا فى عمل اللجان فكانت هناك لجنة للاتصالات بالهيئات السياسية ولجنة للاتصال بالضباط المنتظمين للتنظيم فى الأسلحة المختلفة . . ولجنة ثالثة لا أذكر الآن ماذا كانت مهمتها بالضبط . . وفى نفس الوقت داومت على اتصالى بالإخوان المسلمين وعزيز المصرى .

في أواخر عام ١٩٤١ التقيت بعزيز المصري في جروبي بناء على طلبه . . . كان بحاجة إلى مساعدة تنظيم الضباط الأحرار لتمكينه من السفر إلى العراق . . . فقد وصلته رسالة من الألمان يطلبون فيها سفره لمعاونة رشيد عالي الكيلاني في ثورته التي قام بها في العراق ضد الإنجليز . . . في هذه الأثناء كان الإنجليز قد أفلحوا في استصدار أمر من الحكومة المصرية بإحالة عزيز باشا إلى المعاش . . . وكانت المخبرات على علم باتصالاتي به فأندروني بالابتعاد عنه ولكني لم أعبأ بإنذارهم فقد كان من واجبي مساعدته . . . إلا أننا - كما قلت له - لا نملك من الوسائل سوى ما قد يمكنه من بلوغ بيروت وهناك يستطيع أن يتصرف . . .

بعد ذلك بقليل أبلغني عزيز باشا أنه تسلم رسالة ثانية من الألمان يقولون فيها إن طائرة ألمانية ستكون في انتظاره عند جبل رزة في مدخل طريق الفيوم في يوم معين ساعة الغروب . . .

هنا أدركت سر مجموعات الرحالة الألمان الذين كانوا يفسدون إلى الصحراء الغربية ويضلون طريقهم فيها - كما كنا نقرأ في الجرائد قبل الحرب . . . كانت هذه الرحلات في الحقيقة بعثات استكشاف فقد أصبح من الواضح أن الألمان قد درسوا توبوجرافيا الصحراء دراسة كاملة وإلا فكيف توصلوا إلى معرفة جبل الرزة وهو نقطة صغيرة على الخريطة لا تكاد العين تتبينها ؟

اشترينا عربة من نوع (البيك آب) الصالح للسير في الصحراء ولكن صاحب المحل أبلغ عن بيع السيارة طبقاً للأوامر حينذاك . . . عرفت المخبرات أنني اشتريتها . . . شكوا في الأمر فصدرت الأوامر بإبعادى إلى مكان اسمه الجراولة

لا يبعد كثيراً عن مرسى مطروح . . تمارضت ودخلت المستشفى العسكري حيث أعطوني إجازة لمدة أسبوع لم تكن كافية لتنفيذ خطة هروب عزيز باشا فوضعت الخطة بين يدي عبد المنعم عبد الرؤوف وذهبت إلى الجراولة حيث التقيت لأول مرة بالدكتور يوسف رشاد طبيب الملك فاروق بعد ذلك . . والذي لعب دوراً مرموقاً دون أن يدري في مسيرة ثورتنا نتيجة للصدقة التي نشأت بيننا . .

لا أعلم ما الذي حدث للعربة الـ (بيك آب) . . أغلب الظن أن الإنجليز استولوا عليها . . وإلا لما لجأ عبد المنعم عبد الرؤوف بالاشتراك مع حسين ذو الفقار صبرى وكلاهما طيار ماهر إلى الاستيلاء على طائرة حربية وضعا فيها عزيز المصري وحقائبه للسفر إلى بيروت (التي كانت في ذلك الوقت خاضعة لحكومة فيشي التي سلمت للألمان) . ولكن بعد أن أقلعت الطائرة بدقائق معدودة اكتشف حسين ذو الفقار صبرى أن الزيت قد نفذ فيبدو أنه بدلا من أن يفتح طلعة الزيت أغلقها فاضطر إلى الهبوط فوق شجرة في أحد الحقول بجوار بنها . . ومن هناك استطاع ثلاثهم بمساعدة مأمور قلوب الوصول إلى القاهرة حيث اختبأوا . .

في هذه الأثناء اكتشفت حادثة الطائرة واكتشفت أيضاً حقيقة في مكان الحادث وعليها الحرفان A.M. أي . . عزيز المصري . . فاتجهت الشكوك إليه وخاصة بعد أن وجدوا أن الطائرة كانت موجهة إلى بيروت . . ولعلمهم بميوله المعادية للإنجليز أدركوا أنه كان في طريقه للاتصال بالألمان في العراق . .

ولما كانوا على معرفة باتصالاته به قبضوا على فوراً في الجراولة ونزلوا بي إلى القاهرة وأنا تحت الحراسة . .

وصلت القاهرة في الصباح المبكر فتوجهوا بي إلى وزارة الحربية حيث جلست في مكتب سكرتير الوزير أقرأ في كتاب أرمسترونج « الذئب الأغبر »

وهو كتابه المعروف عن أتاتورك . . كنت مستغرقاً في القراءة فلم أشعر إلا بعد فترة أن هناك من يقف أمامي ينظر إلى ويتفحصني . . كان إبراهيم باشا عطا الله رئيس الأركان ومن حوله طاقمه . . وقفت على الفور وأديت له التحية العسكرية . . نظر إلى من حوله وقال :

— هذا هو اليوزباشى محمد أنور السادات ؟

أخبروه أنى قد وصلت فى الصباح من الصحراء الغربية فنظر إلى فى ازدراء ومضى . .

قلت فى نفسى إنه لو كلف خاطره ونظر إلى الكتاب لأدرك الكثير . . ربما . . وربما لم يكن ليدرك شيئاً على الإطلاق . .

استدعونى فى المساء للقاء وكيل النيابة وانتظرت دورى . . كان الرجل مشغولاً فى أخذ أقوال شهود حادث الطائرة وشهود سلاح الطيران وكان عددهم كبيراً فانتظرت طويلاً وفى هذه الأثناء كنت قد أعددت نفسى للقاء إعداداً كاملاً . . فقد قرأت الجرائد وعرفت منها كل ما حدث . . أخيراً وفى منتصف الليل استدعيت وسألنى وكيل النيابة . .

— هل لك صلة بعزيز المصرى ؟ وهل كنت تزوره ؟

وأجبت : نعم لى صلة به وقد طلبت منى المخابرات قطع هذه الصلة ولكنى لم أستمع إليهم فليس فى هذه الصلة فى نظرى أى جرم أو مخالفة . . وعاد يسألنى :

— هل تعرف عبد المنعم عبد الرؤوف وحسين ذو الفقار صبرى ؟

— طبعاً ونحن دفعة واحدة وأصدقاء

— ألم يتصل بك عزيز المصرى بشأن سفره خارج القطر ؟

وأجبتة : أنا اتصلاقي بعزير باشا تقوم كلها على الحب والوفاء . . فمئذ أن زارنا في منقباد وأنا معجب به . .

واسترسلت في وصف تلك الزيارة وكيف أخذنا إلى الدير المحرق وماذا رأينا هناك إلى أن اختتمت حديثي الطويل بقولي :

— بعد أن أحيل عزير باشا إلى المعاش وجدت أنه من باب الوفاء أن أزوره بين الحين والحين . . هذا كل ما في الأمر .

وعاد وكيل النيابة إلى سؤالي :

— هل عندك أية معلومات عن محاولة السفر أو أية اتصالات تمت بينه وبين الألمان ؟

قلت : ومن أين لي مثل هذه المعلومات وأنا على بعد ٥٥٠ كيلو من القاهرة وقد سافرت إلى الجراولة قبل الحادث بخمسة أيام ؟

لم يجد وكيل النيابة أي دليل على إدانتى فأمر بالإفراج عني وعودتي إلى عملي بالجراولة . .

« هذه ميزة سيادة القانون » قلت في نفسي وأنا في طريق العودة إلى الصحراء . . ولم يكن هذا كل ما قلته . . كان الحوار بيني وبين نفسي طويلا . . ما الذي حدث لعبد المنعم عبد الرؤوف ولحسن ذو الفقار صبرى ؟ لم أكن أعرف . . وعزير المصرى .. ماذا كان مصيره ؟ وتساءلت عن سبب قلقي لفشل خطة سفره إلى العراق . . وجاءني الجواب . .

مما لا شك فيه أنه كان سيساعد في نجاح ثورة رشيد عالي الكيلاني للتخلص من الإنجليز في العراق . . وكل ما من شأنه إضعاف مركز الإنجليز في الشرق الأوسط كان يهمني في المقام الأول .

أليس في إضعاف العدو — أينما كان — مزيداً من الفرص لكي نضرب ضربتنا . . ؟

فى أواخر عام ١٩٤١ صدرت إلينا الأوامر بالنزول من مرسى مطروح وأذكر أن كتيبة عبد الناصر كانت على مقربة منا فى جهة اسمها الحمام . . ولكنه لم يكن فيها . . كان فى السودان ولم يعد منها إلا فى ديسمبر سنة ١٩٤٢ . . فى القاهرة أخذت فرقة للترقى وفى أثناء عملى بالفرقة داومت نشاطى السياسى فى بناء تنظيم الضباط الأحرار .

كان ذلك فى أوائل سنة ١٩٤٢ وقد وصل روميل إلى ليبيا مع فرق البانزر (الدبابات) الألمانية وكان الشعور العام فى مصر معادياً للإنجليز وبالطبع فى صف أعدائهم . . وكان الإنجليز يعلمون ذلك .. فطلبوا من فاروق فى فبراير ١٩٤٢ أن يكلف النحاس زعيم الأغلبية بتشكيل الوزارة أملاً منهم فى استمالة الرأى العام المصرى . . ولكن فاروق رفض فما كان من السفير البريطانى لورد (كيلرن) إلا أن حاصر قصر عابدين بالدبابات يوم ٤ فبراير ١٩٤٢ فيما أن يستجيب فاروق لمطلبهم أو يتنازل عن العرش . . وأمام هذا التهديد استدعى فاروق النحاس وكلفه بالوزارة .

كان ذلك فى ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ . . تاريخ لا ينساه جيلنا . . فى ذلك اليوم سقط النحاس فى نظرنا . . إذ كيف يقبل أن يفرضه المستعمر على البلد بقوة السلاح ؟ فتجمع الضباط بالقاهرة وسرنا إلى قصر عابدين تحية للملك الذى خرج لرد التحية .

لم نكن بطبيعة الحال راضين عن فاروق ولكن ما حدث كان إهانة لمصر جيشاً وشعباً واعتداء على سيادتها بصرف النظر عن شخص من يمثل هذه السيادة . .

لذلك عندما سمعنا أن لورد (كيلرن) قد وجه إنذاراً ثانياً إلى فاروق إثر حادث وقع في مطار القاهرة بعد أيام من حصار عابدين جرحت فيه كرامة إنجلترا . . اتفقنا نحن الضباط الأحرار أن نخطط بالقصر الملكي ونشتبك مع الإنجليز لو حاصروا القصر بدباباتهم مرة أخرى . . ومن ثم استعرت عربية زكريا محيي الدين وكان الوحيد بيننا الذي يملك عربية خاصة . ورحت أطوف بها حول القصر طوال الليل أرصد الحركة من قريب ومن بعيد لأنذر إخواننا لو حدث ما كنا نتوقعه . . ولكن الليل انقضى دون أن يحدث شيء فرجعت بالعربة في الصباح المبكر وأعدتها لصاحبها .

كان الشعور العام ضد الإنجليز يزداد يوماً بعد يوم إلى أن أتى الصيف وحطم روميل الجيش الثامن البريطاني ووصل إلى العلمين وهي تبعد ٧٠ كيلو متراً عن الإسكندرية . . وهنا كشف المصريون عن شمتهم في الإنجليز فخرجت المظاهرات تنادى « إلى الأمام ياروميل » فقد كانت الجماهير ترى في هزيمة الإنجليز الطريق الوحيد لخلاص البلاد منهم .

وأصاب الإنجليز الذعر فراحوا يحرقون وثائقهم وأوراقهم ويرحلون رعاياهم والموالين لهم إلى السودان . . فبعد أن سقطت العلمين في يد روميل أصبح الطريق أمامه مفتوحاً لغزو مصر .

لم يكن هناك أي شك في أن روميل سوف يواصل سيره إلى الإسكندرية ومنها إلى القاهرة . . المسألة فقط مسألة وقت . . ووقت قصير أيضاً .

وكان مقرراً أن تكون مصر من نصيب إيطاليا وإن موسوليني قد جهز بالفعل حصاناً أبيض ليدخل القاهرة على ظهره كما كانت العادة أيام الإمبراطورية الرومانية .

اجتمعت مع إخواني في تنظيم الضباط الأحرار وقلت لأبد من عمل شيء . . فكيف نترك روميل يغزو مصر بدون أية مقاومة ؟ اتفقنا على أن نرسل أحدنا إلى روميل في العلمين ليقول له إننا مصريون شرفاء وإن لنا تنظيمنا داخل الجيش ونحن

مثلكم ضد الإنجليز وعلى استعداد لكى نجند من بيننا فرقاً كاملة تحارب إلى جانبكم وأن نزودكم بصور جميع خطوط ومواقع القوات البريطانية بمصر وفوق هذا كله فنحن نتكفل بأن لا يخرج عسكري إنجليزى واحد من القاهرة . . كل هذا مقابل أن تنال مصر استقلالها التام فلا تكون من نصيب إيطاليا أو تحكمها ألمانيا وأن لا يتدخل أحد فى شئونها الداخلية أو الخارجية بأى حال من الأحوال .

كانت هذه هى شروط المعاهدة التى أملتيا وحملها المرحوم الطيار أحمد سعودى على طائرة هرب بها من القاهرة إلى العلمين وأنا عندى ٢٢ سنة بعد أن عرضتها على إخوانى وحازت قبولهم ولم يكن عبد الناصر معنا فقد كان فى السودان كما سبق أن أوردت .

وتعزيزاً لحركة المقاومة وضماناً لتنفيذ بنود مشروع المعاهدة اهديت إلى سوق الزجاج حيث اشترت عشرة آلاف زجاجة أعدناها على هيئة كوكتيل مولوتوف . ثم قام بغدادى وحسن إبراهيم مع سعودى وحسن عزت بتصوير المواقع البريطانية بالطائرة ووضعنا الأفلام ومشروع المعاهدة فى حقيبة وعهدنا إلى سعودى بتوصيلها إلى روميل فى العلمين .

فى ذلك اليوم كانت طائرة حسن إبراهيم هى التى تحت الإنذار فأعطاهما لسعودى الذى طلع بها كأنه فى دورية عادية ثم اتجه إلى العلمين .

كانت طائرة من طراز بريطانى طبعاً يسمى جلادياتور ولذلك فرغم إشارة الصداقة أطلق الألمان نيرانهم عليها فوق العلمين فانفجرت بسعودى وما فيها . وعندما اكتشف فقدان الطائرة قدم حسن إبراهيم للمحاكمة وتأخرت أقدميته ولكنهم لم يتمكنوا من الكشف عما وراء الحادث من تنظيم .

فى ذلك الوقت كنت أعمل بسلاح الإشارة فى الجبل الأصفر بالقرب من القاهرة . . وكنت أنتظر إشارة من سعودى أو من الألمان ولكن طال الإنتظار فبدأت أقلق . . فى هذه الأثناء حدثت مفاجأة لم أكن أتوقعها فقد أتى إلى زميلى حسن عزت ليقول إن ضابطين من الجيش الألمانى يريدان الاتصال بى للتعاون ففرحت وقلت هذه نجدة من السماء .

كان أحدهما واسمه (ابلر) من أم ألمانية متزوجة من مستشار مصرى أنجبت منه ولدا اسمه حسن جعفر . . كان حسن الخلق .. أما (ابلر) واسمه العربى حسين جعفر فقد طرده زوج أمه المستشار لسوء سلوكه بعد أن عاش فترة غير قصيرة من عمره فى مصر ولذلك عندما التقيت به وجدته يتكلم العربية كأحد أبنائها . . أما الضابط الآخر زميله - وكان ضابط إشارة فلم يكن يعرف العربية إطلاقاً . . سألتهما كيف دخلا مصر فعرفت أنهما تنكرا فى ملابس ضباط الجيش الثامن البريطانى ثم عن طريق طرق القوافل التى لا يعرفها إلا بدو الصحراء دخلا إلى الواحه الخارجة ومنها إلى أسيوط فالقاهرة .

فى القاهرة توجه أبلر ومعه زميله ساندى إلى ملهى (الكيت كات) يسهران ويعربدان ليلة بعد أخرى دون حساب فقد كانت معهما كميات كبيرة من الجنيات الاسترلينية المطبوعة فى اليونان . . ولفت البذخ الذى يعيشان فيه أنظار الجميع فأبلغت عنهما إحدى راقصات (الكيت كات) . . ومنذ ذلك اللحظة وضعا تحت رقابة المخابرات البريطانية . . كل هذا عرفته بعد ذلك . . أما عندما التقينا فلم أكن أعرف سوى أنهما يعيشان فى ذهبية على النيل قرب (الكيت كات) أستأجرتها لهما حكمت فهمى إحدى فنانات ملهى بديعة مصابنى . . وأن معهما جهاز لاسلكى ألمانى ولكنه معطل . .

ذهبت معهما إلى الذهبية لأرى الجهاز فوجدت جهازين أحدهما ألمانى وهو المعطل وآخر أمريكى جديد تماماً Hallicrafter / Sky Challenger وهو جهاز قوى تماماً وممتاز ولكن أبلر أخبرنى أنه بعد عطل الجهاز الألمانى اتصل سراً بسفارة سويسرا التى كانت ترعى شئون ألمانيا فى مصر . . وأن القائم على هذه الرعاية وهو ألمانى قد أمدهما بجهاز لاسلكى أمريكى وجدت أنه أفضل بكثير من الجهاز الألمانى المعطل ولكن ليست عند الحاسوسين مفاتيح فاقترحت أن أشغله بمفاتيح مصرية . .

ووافقا بالفعل أخذت الجهاز معى وناديت (تاكسى) وضعته فيه وتوجهت إلى بيتى فى كوبرى القبة . .

فى البيت جربت الجهاز فوجدته فى منتهى القوة والحدودة . . وكنت سعيداً بذلك كل السعادة فأخيراً ستمكن من الاتصال بروميل ونعرض عليه شروطنا التى سبق أن ضمنتها مشروع المعاهدة معه والتى بت أعتقد أنها لم تصله . . وإلا ففيم هذا الصمت وإلى متى نترك الأمور كما هى والوقت يجرى بسرعة وروميل قد يدخل القاهرة فى أية لحظة وإذا حدث هذا دون اتفاق سابق ودون علم بوجود حركة مقاومة مصرية ضد الإنجليز ومدى ما يمكن أن يقدمه التنظيم له من مساعدات مقابل استقلال مصر فسوف يكون مصير البلاد استبدال الاحتلال البريطانى باحتلال آخر ألمانى أو إيطالى . . ونحن لا نريد هذا بأى حال من الأحوال . .

لم يكن أمامى أى مخرج من هذا المأزق سوى الاتصال بروميل . . وها أنا أخيراً قد حصلت على وسيلة الاتصال بعد أن فشلت الوسيلة الأولى كما أصبح واضحاً . .

لم يبق أمامى إلا أن آخذ الجهاز إلى الورشة عندى فى الجبل الأصفر وأجربه تجربة نهائية ثم نبدأ الاتصال . .

لم تكن عندى أية فكرة أن أبلر وزميله ساندى مراقبان . . ولذلك فوجئت فى الصباح عندما وصلتنى أنا وحسن عزت رسالة من عبد الغنى سعيد - وهو الأصل فى صلتنا بالحاسوسين - بأن أبلر وزميله قد قبض عليهما بمعرفة المخبرات البريطانية . .

كان لابد من إخفاء الجهاز فأخذته وذهبت مع حسن عزت إلى صديق له يسكن فى شبرا ولكن لسوء الحظ وجدنا بيته مغلقاً وقالوا لنا إنه سافر إلى قريته فعدت بالجهاز إلى بيتى فى كوبرى القبة وأخفيت فى حجرة من الحجرتين اللتين كنت أشغلهم . . وفى نفس الليلة وصل زوار الفجر .. قرعوا الباب مرة . . مرتين . . عدة مرات حتى استيقظ أهل البيت . .

- الـوزباشى أنور السادات ساكن هنا ؟

- نعم . .

دخلوا مباشرة . . فرقة ضباط كاملة من المصريين والإنجليز . . وحوالي ٢٠ أو ٣٠ مخبراً ملأوا الحديقة والبيت كله حتى أصبح من الصعب معرفة عددهم وكان عندنا في الحديقة كلب بلدى عادى فما أن شاهد هذا الجيش من الغزاة الغرباء حتى اتخذ لنفسه موقعاً إلى جانب الفرن وأخذ ينبح بشدة ولا يكف عن النباح محتجاً ربما . . ولكن في أغلب الظن مدافعاً عن الفرن مصدر لقمة العيش لأهل هذا البيت الهادئ المطمئن الذى يأوى إليه والذى هو في الواقع أحد أفراد . .

— أين حجرتك . . ؟

سألوني فأشرت إلى إحدى حجرتين كنت أشغلها في بيت أبى وكانت حجرة نومى . . فتشوها وفي أثناء التفتيش لاحظ سيف اليزل ضابط المخابرات المصرى وجود مسدس آخر إلى جانب مسدسى العسكرى فما كان منه إلا أن تناوله ووضعها في جيبه ببساطه . . لم أكن أعرفه معرفة خاصة أو يعرفنى ولكن كانت تربطنا صلة أقوى من أية صلة . . وهى الوطنية المتأججة في صدر كل مصرى . . أيا كانت وظيفته .

بعد الانتهاء من تفتيش حجرة نومى طلبوا تفتيش الحجرة المجاورة وكانت حجرة مكتبى . . قلت لهم إن حريم الأسرة بهذه الحجرة وإن تقاليدنا تقتضى إخلاءها قبل دخولهم . . فسمحوا لى بذلك . .

ودخلت الحجرة . . كان بها جهاز اللاسلكى وصفحة بارود كنا نصنعه فى القرية من خشب شجر الصفصاف والسماد . . طلبت من أخى الأكبر طلعت أن يأخذ الصفحة والجهاز ويخفيهما فى أى مكان . . وفعلاً أخذهما طلعت وخرج من الباب الخلفى للبيت حيث دفن الجهاز فى وقود الفرن وتركه والصفحة فى حراسة الكلب الطيب الذى غطى نباحه المستمر جميع تحركات طلعت . .

فى حجرة المكتب لم يجدوا غير بعض الكتب فأخذوها . . وطلبوا منى أن أذهب معهم . . وأخذونى إلى سجن الأجانب . . رفضت دخوله فالقانون

يقضى بأن حبس أى ضابط فى الجيش المصرى لا يكون إلا فى ميس الضباط حيث يقوم على حراسته ضابط مثله . . هكذا قلت لهم . . وخضعوا لسيادة القانون . . واقترحوا أن أقضى بقية ليلتى ضيفاً على البوليس فى مكاتب الفرقة (ب) بجاردن سيتى إلى أن ترسل قيادة الجيش فى طلبى فى الصباح . .

قبلت . . وفى اليوم التالى كنت فى ميس الفرسان . . وكان هناك أيضاً زميلى حسن عزت . . ولكن أنا فى طرف وهو فى الطرف الآخر . . لا تجمعنا إلا وجبة الإفطار حيث يجلسنا المرحوم أحمد رياض قائد الفرسان جنباً إلى جنب ويهمس إلينا بأن ننهى حديثنا بسرعة إذ لا بد بعد الإفطار أن يتوجه كل منا إلى مكانه . . تماماً كما حدث عندما وضع سيف اليزل مسدسى فى جيبه لانقاذى . . مصريون كلنا ومتعاونون . . ضد العدو والسلطة . . رغم وظائفنا المتباينة . . ورغم واجباتنا الرسمية . . ودائماً . . رغم كل شئ . . لأن واجب الوطن كان فوق كل شئ . .

ثلاثة أيام بلياليها لم أذق طعم الأكل . . كنت فقط أشرب الماء ولا أرتوى وكأن شيئاً يحترق بداخلى . . فقد كان عقلى يعمل ليل نهار بحثاً عن مخرج مما أنا فيه . .

لم يكن هناك سبيل إلى الإنكار . . كنت أعلم ذلك جيداً فقد قابلت أبلر مرات ومرات . . الطريق الوحيد إلى الخلاص هو التبرير . . والتبرير المقنع المتكامل . . لكل ما حدث . . - ولكن كيف . . ؟

بعد جهد وعناء مستمر وفى نهاية الأيام الثلاثة كنت قد ألفت فى رأسى قصة كاملة تتضمن كل ردودى ومخارجى وتسد على الخصم جميع الطرق . . أطلعت زميلى حسن عزت على تفاصيل القصة كلها حتى لا تتناقض أقوالنا فى التحقيق . . وبعد ذلك استرحت وعدت إلى حياتى الطبيعية آكل وأشرب وأنام . .

أخذونا بعد ذلك إلى رئاسة الجيش حيث وقفنا فى طابور . . ليتعرف علينا الجاسوسان مرة بعد مرة كالصاروخ . . كان ابلر يتوجه إلى مباشرة ودون أى

تردد . . أما ساندی فكان أقل جرأة من زميله فهو يسير أمام الطابور إلى أن يصل إلى مكاني ثم يشير إلىّ .

قدمونا للمحاكمة أمام مجلس التحقيق تمهيداً للمجلس العسكري العالي . . وكان مجلس التحقيق يتكون من اثنين من الضباط الإنجليز وضابطین من الجيش المصري وضابط بوليس هو كمال رياض من الفرقة (ب) شرطة . . تشكيل خاطيء دون شك .

وبدأت المحاكمة :

— تعرف أبلى ؟ .

— لا .

— تعرف حسين جعفر ؟ .

— لا .

— تعرف هذا الذى تعرف عليك ؟ . (وأشاروا إلى أبلى) .

قلت : طبعاً أعرفه . . إنه ماجور إبراهيم من الجيش الانجليزى .

ارتبك المجلس لحظات . . ثم استمرت المحاكمة .

— ألم تأخذ منه جهاز لاسلكى ؟ .

— جهاز لاسلكى ؟ . طبعاً لا . . هذا الرجل قدم لى نفسه وزميله على أنهما من

ضباط سلاح الإشارة الإنجليزى . . وأنا بطبيعة عملى أتعاون مع هذا السلاح ولذلك التقينا أكثر من مرة .

ولما كانت أحسن وسيلة للدفاع هى الهجوم . . التفت إلى أبلى وسألته فجأة :

— أتذكر لقاءنا فى محل الجمال يا ماجور إبراهيم ؟

— نعم أذكره . . ولكنى لم أقل لك أن إسمى ابراهام بل قلت لك إننى

ألمانى واسمى أبلى .

— لو قلت لى هذا كنت أبليت عنك .

قال : وماذا عن الذهبية ؟ .

أنكرت طبعاً مكان الذهبية . . قال يذكرني :

— هل نسيت عندما نبح الكلب وأنت خارج من الذهبية ومعك الجهاز ؟

من غيظي ضغطت على قدمه بكل قوة .

وقف على التو من الألم وقال :

— لماذا تدوس على قدمي الآن ؟ .

قلت مندهشاً : — أنا دست على قدمك ؟ لماذا تدعى على بما لم يحدث ؟

الذهبية . . والجهاز . . ونباح الكلب . . والآن قدمك ؟ ما قصدك من كل هذا ؟

قال : لا فائدة . . لقد اعترفت بالكامل . . ويجب أن تعترف مثلنا .

قلت بمنتهى الهدوء : أعترف بماذا ؟ . . أنا أعرفك فعلاً . . ولكن كضابط

إنجليزي .

قال : وماذا عن مصر الجديدة ؟

كنت قد قابلته بعزير المصرى فى مصر الجديدة ولكنى قلت : —

— نعم حدث . . لقد التقينا فى مصر الجديدة .

وعاد إلى السؤال : وفى مصر الجديدة من كان معنا ؟ .

اخترعت قصة كاملة مؤداها أنه أتى إلى فى محل (صولت) بمصر الجديدة ويومها

أخبرنى أن زميله ساندى مريض .

أتوا بحسن عزت وكانت أقواله مطابقة تماماً لأقوالى .

بعد ذلك أتوا بساندى ففعلنا به ما فعلناه بأبلر .

انهارت أركان القضية . . فأعادونى وحسن عزت إلى ميس الضباط معتقلين .

فى هذه الأثناء . . وفى شهر يوليو عام ١٩٤٢ على وجه التحديد . . جاء تشرشل

إلى مصر في زيارة سرية وغير القيادة وعين مونتجومري وذهب إلى العلمين ليرفع الروح المعنوية بين القوات البريطانية .

وكما علمت بعد ذلك . . . التقي بالجناسوسين أبلى وزميله ووعدهما بحياتهما إذا اعترفا وكان هذا سر اعتراف أبلى الكامل .

بقيت معتقلاً في ميس الضباط إلى أن أتى رمضان وفي يوم قبل المغرب بساعة تقريباً دخل على أبي شاحب الوجه يبدو عليه الإعياء والإنهيار . . . كان يقوم على حراستي ضابط المدفعية . . . فقام لتوه وتركنا وحدنا حتى نتكلم بحرية . . . سألت أبي عن سر الزيارة فأجاب وهو يجمع أنفاسه :

— اليوم أتى إلى اللواء على باشا موافى رئيس إدارة الجيش . . . وقال لي إن موقف إبنك في القضية ميثوس منه والأفضل له أن يعترف . . . ففي هذه الحالة سيصدر عليه حكم مخفف أما إذا لم يعترف فسوف يقتلونه رمياً بالرصاص في الفجر .

أدركت ساعتها أن جميع جهودهم لإقامة قضية قد فشلت تماماً . . . ولذلك فهم بلجأون إلى هذه الحيلة الرخيصة كمحاولة أخيرة .

قلت لأبي : لكي يضربوني بالرصاص لابد من مجلس عسكري عال وتهمة تثبت على . . . هذا هو النظام في الجيش . . . ولو كانت هذه التهمة في أيديهم فعلاً لما لجأوا إليك لتطلب مني الإعراف .

اقتنع الرجل . . . وكان رحمه الله يأخذ كلامي أمراً مسلماً به . . . فاسترد أنفاسه وزال اضطرابه . . . وخرج بعد أن تناول الإفطار معي وهو مطمئن كل الإطمئنان أن لا خطر على حياة ابنه على الإطلاق .

في اليوم التالي . . . كما عرفت بعد ذلك . . . زاره في مكتبه موافى باشا ليعرف نتيجة اللقاء وكان رد أبي عليه .

— اسمع يا باشا . . . إذا كان ابني مخطئاً فاضربه بالرصاص . . . وإذا كان بريئاً فواجبكم أن تعيدوه إلى عمله .

وحذره موافى باشا من نتيجة إصرارى على عدم الإعتراف . . وكان تعليق أبى الوحيد أن افعلوا ما شئتم . . ولكن ليس لدى أكثر مما قلته .

فى هذه الأثناء كان مونتيجومرى قد حشد حشوداً هائلة حتى يضمن المعركة مائة فى المائة وقطع على روميل خطوط إمداداته فى البحر الأبيض . . وبذلك بدأت أعصاب الإنجليز تهدأ فتغيرت نظرتهم إلى قضيتنا . . وكانت النتيجة أنه فى يوم ٢٦ رمضان سنة ١٩٤٢ قبل المغرب بساعة طلبنى رئيس أركان حرب قسم القاهرة وأبلغنى أنه قد صدر النطق الملكى السامى بالإستغناء عن خدماتى .

خلفت الرتب . . وتقدم منى محمد إبراهيم رئيس القسم السياسى بالبوليس وقال :
— تعال معنا إلى المحافظة لعمل بعض الإجراءات .

فهمت أنهم بصدد اعتقالى فسألته :

— إلى أين نحن ذاهبون بالضبط حتى يعرف المراسلة أين أنا فيحضر لى طعام الإفطار ؟ — فأجاب باختصار . . « سجن الأجانب » .

وفى رمضان ١٩٤٢ عندما ألقوا القبض على مقابلى جهودى للتخلص من الإستعمار الإنجليزى سرت إلى سجن الأجانب .

وطوال الطريق . . كان يرتفع أمام عيني طيف زهران وهو يسير رافع الرأس سعيداً بما فعل لا يخشى الموت الذى سيلقاه بعد قليل .

لقد فعلت أخيراً ما فعله زهران . . وإذ غامرني هذا الشعور أدركت — كما لم أدرك من قبل — أن زهران لم يهزم قط . . ورغم أنهم حكموا عليه بالإعدام إلا أن إرادته لم تمت .

ألم أكن أنا امتداداً لهذه الإرادة التى سرت فى كيانى منذ طفولتى ؟ إرادة النصر والتحدى ؟ .

بلغنا السجن وإذ كنت أصعد السلم فى طريقى إلى حجرتى كان يغامرني فرح غريب بما فى داخلى من قوة لا يدرك مداها سوى .

لقد انتصرت كما انتصر زهران من قبل .

رغم موته . . ورغم تجريدى من رتبتي واعتقالى . . رغم كل شيء .

**** معرفتي ****
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

الفصل الثاني

نحو تحرير الأرض

كانت هذه أول مرة أدخل فيها سجن الأجانب . . وكان ذلك في ٢٦ رمضان سنة ١٩٤٢ ميلادية وهى (ليلة القدر) . . موسم من المواسم الدينية التى نحتفل بها فى مصر عامة وفى الريف على وجه الخصوص . . فنذبح بطة أو أوزة أو دجاجتين . . كل حسب مقدرته المالية .

كان سجن الأجانب مخصصاً للعمليات المتعلقة بمعركة الإنجليز ولذلك كان مأموره مستر هيكرمان الملطى الأصل البريطانى الجنسية .

دخلت الزنزانة الخاصة بى وكانت فى الدور الأول وبعد قليل جاء المغرب وأحضر المراسلة الطعام فصليت وتناولت طعام الإفطار .

إلى هنا كانت حالتى عادية . . لم أكن بعد قد أحسست بالصدمة . . ولكن بعد أن أكلت ودخنت سيجارة (وقد كان التدخين مسموحاً به فى سجن الأجانب دون بقية السجون) بدأت حيرتى ورحت أتساءل . . ما هو الحل ؟ سوف أقضى مدة السجن ولكن ماذا سأفعل بنفسى بعد ذلك ؟ وقد جردت من رتبتي ولم يعد لى عمل ؟

واستمرت التساؤلات واستمرت الحيرة ساعة . . ساعتين . . ثلاث ساعات لا أدرى . . وأنا أسير فى الحجرة من ركن إلى ركن ومن حائط إلى حائط ولكن لا إجابة واحدة عن تساؤلاتى . . وأخيراً جلست على الأرض وأسندت ظهري إلى السرير كما نفعل فى القرية . . ربما لأننى عندما أجلس على الأرض أحس أنى قريب من الطبيعة والفطرة وربما لأننى تعودت الجلوس على الأرض فى القرية - لا أعرف . . ولكن فجأة خطرت قرينى على بالى . .

كان مجرد خاطر ولكنه وضع كتلا من الصخر والصلب بداخلي . . فقريتي هناك قابضة في حضن الدلتا . . وسوف أعود إليها ففيم القلق وفيم البحث عن مصير ؟

إن القرية هي الاستقرار . . أقل إنسان في القرية وأضعف وأفقر إنسان دائماً مطمئن . . لماذا ؟ لأن عنده داره . . ومهما كانت صغيرة حتى ولو كانت عبارة عن قاعة واحدة ودورة مياه ومصطبة . . فإنه عندما يغلق بابه عليه يصبح أكثر الناس اطمئناناً واستقراراً . .

هذه هي روح الفلاح في كل مكان . . الأمن والاستقرار . . لأنه مرتبط بالأرض يعطيها فتعطيها . . يكفيها فتكفيه دون الحاجة إلى أي إنسان . .

لم أكن قد عرفت نفسي بعد . . ولكن في تلك اللحظة الحاسمة من حياتي وأنا أواجه نفسي في السجن لمحت جانباً من جوانب شخصيتي . . فقد أدركت أنه يكفي أن أكون فلاحاً بسيطاً لكي أكون أسعد الناس . .

هذا الإحساس بالقناعة بالأرض - حتى ولو لم تتعدى رقعتها الفدانين وهي كل ما أملك - أصبح وأنا في سجن الأجانب مصدر قوتي . . وما زال . . ففي أي وقت وتحت أية ظروف أحس أنني غني بكوني فلاحاً عن كل شيء . .

فالأرض هناك وفي أي وقت يمكن أن أعود إليها أزرعها وأفلحها بيدي . . وفي هذا الكفاية بل أكثر من الكفاية . . فأمرى دائماً بيدي . . وإرادتي هي إرادتي وحدي . . وأنا سيد نفسي . .

وخطر لي خاطر مر برأسي كسحابة سوداء تحجب الشمس للحظة . . إن الغالبية العظمى من الناس تطلب ما لا تملك . . ومن له مطالب . . من يطمع في شيء يظل طول حياته عبداً لهذا الشيء . . رغم أنه يبدو حراً طليق الحركة لا يعيش وراء القضبان . . كما أنا في سجن الأجانب .

كان سجن الأجانب يختلف عن بقية السجون .. فى كل زنزانة سرير وبطاطين
وكرسى وطاولة صغيرة .. حتى التدخين - كما سبق أن قلت - كان مسموحاً
به ولكن بشرط أن يشعل السجناء السجارة ويقدمها لك .. فليس من حق
السجين أن يحمل معه كبريتاً أو ولاعة ..

ولما وجدت الأمور بهذا الشكل تشجعت وطلبت الجرائد فأحضروها
لى ومعها بعض الكتب (تفرقة حتى فى السجن فعندما دخلت سجن مصر
بعد ذلك بفترة مكثت به سنة كاملة معزولاً عن العالم الخارجى .. فلا جرائد
ولا كتب ولا فراش ولا مقاعد ولا شئ على الإطلاق) ..

فكرت فى أن أقوى نفسى فى اللغة الإنجليزية فطلبت بعض الكتب بهذه اللغة
وأرسل إلى هيكمان مأمور السجن مجموعات من القصص القصيرة وغيرها .. ومن
الكتب التى ما زلت أذكرها كتاب عن جمعية فى الريف الإنجليزى يجتمع أعضاؤها
كل أسبوع ويتناول كل واحد منهم موضوعاً يتكلم فيه - نظرهم للحياة - ما يحدث
فى قريتهم أو القرى المجاورة أو أحوال الحصاد والمحصول .. إلخ ..
ويسجلون ما يدور فى الاجتماع ثم فى نهاية كل ثلاث شهور يجمعون
أحاديثهم فى كتاب .

راقنتى الفكرة كثيراً فعزمت على أنه بمجرد خروجى من السجن وعودتى
إلى قريتى أفعل بالمثل فأجتمع مع الأهل والأصحاب ونعقد ندوات ودية ..
ألا ما أجمل انطلاقة الريف والراحة التى أحس بها فى مندره دارنا ..
وأحلى من هذا كله كلام أهل الريف التلقائى البسيط الصادق والذى فى الوقت

نفسه يحمل الكثير من المعاني العميقة المعبرة التي تمتد جذورها إلى حضارة آلاف السنين . .

قضيت بسجن الأجانب وقتاً لا بأس به . . أقرأ وأخرج إلى فناء السجن مرتين في اليوم كل ربع ساعة أمارس فيها رياضتي المحببة وهي المشي . . بين أضلاع السجن الأربعة .

أشياء كثيرة حدثت في السجن ولكني لا أذكرها كلها . . أذكر مثلاً أنني صحت من النوم على صوت امرأة تغني « لا والنبي يا عبده » وكانت هذه من الأغنيات الشائعة في ذلك الوقت وفجأة سمعت نفس الصوت يولول ويصرخ . . تماماً كما يحدث في أفلام السينما الميلودرامية .

سألت قالوا إنها حكمت فهمي الراقصة وإنها في الزنزانة المجاورة لي . . وإنها هي الأخرى مهمة في نفس قضيتنا . . فهمت . . فهي التي أجرت الذهبية للجواسيس الألمان . .

كل من كان في سجن الأجانب في ذلك الوقت كان مقبوضاً عليهم في قضايا خاصة بالسلطات البريطانية لاستكمال التحقيق معهم تمهيداً لترحيلهم إلى المعتقلات . .

هكذا علمت . . ولذلك لم أدهش عندما أخرجوني من الزنزانة يوماً وساروا بي إلى مأمور السجن حيث كان هناك أيضاً الجاسوس الألماني (أبلر) . . أعادوا التحقيق ولم أغير كلامي طبعاً . . اتصلوا تليفونياً بهيكلان مأمور السجن . . يسألونه عن النتيجة . .

فسمعتهم يقول : لا أمل لأنه ينكر على طول الخط (ولم يكن يعرف أنني أعرف الإنجليزية) :

كان معنا في السجن طبعاً زميلي حسن عزت ولم نكن نتقابل ولكن لما عرف الحراس أننا من الضباط بدأوا ينقلون الكلام بيننا . . وبدأوا أيضاً يعاملونني

معاملة بها الكثير من التعاطف والود والاحترام . . فمن خلالهم تعرفت على أكثر المساجين . . مثلاً كان هناك رجل ألماني اسمه (ماكس) قالوا لي إن له في السجن سنة ونصف . . وآخر إيطالي معتقل له ٨ شهور . . وهكذا . . أقل فترة لأي سجين كانت لا تقل عن ٦ شهور .

قلت في نفسي هذا يعني أنني سأقضي هنا ٦ شهور على الأقل . . وكان الشتاء قد دخل وغيرنا ملابسنا ولكن الملابس الشتوية لم تكن كافية وخاصة أن الواحد منا كان يقضي معظم الوقت في زنزانته دون حركة أو عمل . .

وذات صباح فوجئت بالسجان يفتح الباب يحمل إلى بعض الطعام من البيت عندنا ومعه روب شتوي ممتاز . . فردت الروب أمامي على السرير ووقفت أنظر إليه وأتحسسه . . كان شيئاً جميلاً للغاية كالأشياء التي نراها في السينما . . لم أصدق عيني فناديت السجان وسألته إذا كان هذا الروب حقيقة لي . . قال أنه مرسل للزنزانة رقم ٧ . . وهذه هي . . تأكدت فلبسته وأنا في منتهى السعادة . . مثل هذا الروب لم يكن في استطاعتي شراؤه وأنا يوزباشي في الجيش فكيف حصل عليه أهلي ؟ لابد أنهم صرفوا المكافأة المستحقة لي وهي ثمانون جنيهاً واشتروا بجزء منها هذا الروب الجميل . . كان بالنسبة إليّ متعة لا تساويها متعة أخرى . . فقممت وتوضأت وصليت حمداً لله . . لم أكن فقط فرحاً بالروب نفسه . . بل أيضاً باللفتة التي يحملها . . (إذن هناك من لا يزال يذكرني وما زالت لي قيمة في نظر الناس . . أو بعضهم على الأقل) .

كنت قد بدأت أتأقلم على حياة السجن . . وخاصة بعد أن سمحوا لى ولزميلى حسن عزت باللقاء . . وكان هذا معناه أن التحقيقات قد انتهت . . وفى لقاءاتنا كان حسن عزت يحكى لى عن مشروعاته بعد خسرونا من السجن . . مشروعات صيد سمك من وراء خزان أسوان . . ومشروعات زراعة . . إلخ . . أما أنا فكان مشروعى الوحيد أن أعود إلى الأرض ومن هناك أبدأ من جديد . . لم نستمتع طويلا بحالة الاستقرار والتأقلم التى هى من نعم الله على الإنسان فى يوم من الأيام جاء إلى السجن وطلب منى أن أحزم أمتعى . . قلت : خيراً . .

قال : ستقل من هنا . .

— إلى أين ؟ سألت ولكن ما من جواب .

جهزت ملابسى وتوجهت إلى حجرة المأمور حيث سلمونى رباط حذائى ورباط عنتى وماكينة الحلاقة وثلاثة جنيهاً كان أهلى قد أودعوها السجن أمانة . .

— عهدتك تمام ؟

— نعم تمام .

— اتفضل وقم . .

وقعت على أنى تسلمت حاجياتى ثم أمرونى بالسير إلى باب السجن وعسكرى إلى يمينى وآخر إلى يسارى . . نظرت فرأيت عربة (بيلك آب) تقف ملتصقة بالباب . . أما السلم المؤدى إلى الباب فقد غطوه من الجانبين بالبطاطين . .

فهم لا يريدوننى أن أرى شيئاً مما حولى . . وكأنهم مثلاً يقومون بعملية اختطافى . . فى العربة وجدت زميلى حسن عزت ويبدو أننى كنت آخر القادمين فبمجرد دخولى غطوا العربة الـ (بيك آب) ببطانية ثم ساروا بنا . . وما هى إلا دقائق معدودة حتى وجدنا أنفسنا على رصيف الصعيد فى محطة مصر . . كانوا قد أخلوا الرصيف من المسافرين تماماً ولكن كان البوليس محتشداً فوقه بصورة توحى بأننا قوة خطيرة لابد من حصارها وإلا أصبح أمن الدولة فى خطر . . كان فى انتظارنا قطار ديزل صغير أدخلونا فيه فاكتشفنا أننا لم نكن وحدنا إذ رأينا بالقطار معتقلين آخرين . . منهم على ما أذكر اثنان من كبار ضباط الجيش من ضحايا الأحزاب . . وإلى جانب كل منا . . هم ونحن يجلس ضابط لحراستنا . . وتحرك القطار بنا فى طريقه إلى معتقل جديد . . كما كان يبدو واضحاً . . ولكنه كان فى هذه المرة فى الصعيد . . على بعد ٢ كيلو من المنيا (وهى تبعد عن القاهرة بـ ١٦٠ ميلاً) .

لم يكن المعتقل الحديد الذى نقلونا إليه بنفس الطريقة (أى أن البطاطين كانت تغطى العربة بحيث لا نرى شيئاً إلى أن وصلنا) معتقلاً بمعنى الكلمة ، بل قصرأ شامخاً يقف منعزلاً على ضفاف ترعة الإبراهيمية يحيط به التراب وخلفه قرية صغيرة لا تختلف كثيراً عن ميت أبو الكوم . . ما الذى أتى بهذا القصر إلى هذا القفر ؟

عرفنا بعد ذلك أنه كان ملكاً لأحد أعيان حزب الوفد وساءت حالته المالية فأجره للحكومة التى أحالته إلى معتقل . . أو بدأت تفعل ذلك . . فعندما وصلنا وجدنا المهندسين العسكريين يعملون فى بناء أسوار من الأسلاك الشائكة تحيط بالقصر كله . . ولاحظت أنها كانت عالية جداً بحيث لا يستطيع أحد تسلقها . .

أقيمت فى معتقل (ماقوسة) هذا من ديسمبر ٤٢ إلى سبتمبر ٤٣ . . فى هذه الأثناء وحتى قبلها بقليل فى نوفمبر ٤٢ على وجه التحديد ، كان موننجومرى قد قام بهجومه على القوات الإيطالية والألمانية فى معركة العلمين المشهورة بعد حصار بحرى منع الإمدادات عن قوات روميل . . ومع ذلك استطاع

روميل أن ينسحب بقواته سليمة كاملة برغم التفوق الهائل لقوات مونتجومرى وما زال انسحاب روميل على الصورة التي تمت يعتبر في التاريخ العسكرى موازياً للنصر الذى أحرزه مونتجومرى ولعل انتصار الحلفاء فى تلك المرحلة هو الذى جعل أعصاب الإنجليز تهدأ قليلاً . . فاكثفوا بفصلنا من الجيش واعتقالنا . .

كانت إقامتى بمعتقل ماقوسة صعبة فى الأيام الأولى رغم أنه كان قصراً منيعاً به مرايا فرنسية وأخشاب فاخرة وشبابيك من الزجاج الملون وحمامات رائعة . . أشياء لم أر مثلها من قبل فى حياتى بهرتنى فى أول الأمر وكانت مصدر دهشة لى . . ولكن مع الوقت تعودت عليها وأصبح السجن سجنًا كبقية السجون . . وخاصة عندما بدأوا يغلقون الشبابيك بقضبان من الحديد . .

ما معنى هذا والمبنى تحيط به الأسلاك الشائكة من كل جانب ؟ كان لابد من التمرد . وفعلاً كانوا كلما ركبوا القضبان الحديدية أزلفناها . . وهكذا يوماً بعد يوم إلى أن اضطروا إلى الاكتفاء بالأسلاك الشائكة . .

فى معتقل ماقوسة كان معنا حسن جعفر الأخ الغير شقيق لحسين جعفر أو (آبلر) الجاسوس الألماني . . ولم يكن لحسن أى دور فيما حدث ولكن رغم ذلك اعتقله الإنجليز من باب الإحتياط . .

وجدت فى حسن شاباً دمث الخلق لطيفاً للغاية وكان يعرف الألمانية والإنجليزية فطرات لى فكرة طرحها عليه للفور وهى أن يعلمنى اللغة الألمانية وكنت قد قرأت أن الشيخ محمد عبده (وهو أحد أقطاب نهضة مصر الحديثة) لما بدأ تعلم الفرنسية وجد أن أحسن طريقة أن يقرأ رواية بالفرنسية على أن يعاونه فى قراءتها شخص يعرف الفرنسية والعربية معاً . . فالرواية هى شريحة من الحياة بكل ما فيها من أوصاف وحوار ونقاش . . إلخ . .

وكان مع حسن جعفر رواية لإدجار والاس مترجمة إلى الألمانية فاتفقنا على قراءتها معاً . . وفعلاً كنا نجلس كل يوم على سلم القصر الداخلى نقرأ الرواية . . فى أول الأمر كنت أقرأ فى اليوم ٤ سطور ثم وصلنا إلى نصف صفحة . . فصفحة وبالتدريج بعد سبعة شهور استطعت أن أقرأ فصلاً كاملاً إلى أن جاء

الشهر التاسع فانتهيت من الرواية كلها وأصبحت أقرأ الألمانية كما يقرؤها حسن جعفر تماماً حتى أتى عندما زرت النمسا في الفترة الأخيرة وألقيت خطاباً بالألمانية سمعت أن كيسنجر قال لفورد إننى أنطق الألمانية أحسن منه لأن كيسنجر من جنوب ألمانيا أصلاً وأنا أتكلم لغة الشمال التى هى أقرب إلى الألمانية السليمة . .

وفى نفس الزيارة كان مستشار النمسا حريضاً على أن أتعرف على كاردينال النمسا وهو من الشخصيات الهامة فى الفاتيكان . . وفعلاً تم التعارف ووجدته يتقن عدة لغات منها الإنجليزية والفرنسية والعربية . . وفى أثناء حديثي معه سألتى أين تعلمت الألمانية بهذا الإتقان . . ودهش طبعاً عندما عرف . . وما زلت إلى اليوم أتذكر معالم الدهشة التى بدت على وجهه . .

كان أهلى يأتون لزيارتي بالمعتقل كل شهر . . فأجرة السفر غالية وأهلى فقراء . . وحدث مراراً أنى وزملائى تمارضنا فكانوا يرسلوننا إلى المستشفى فى المنيا . . وفى إحدى هذه المرات ذهبت إلى المكتبة وهناك التقيت بوجيه خليل أحد زملائى فى الكفاح الذى رتب اللقاء عندما عرف بوجودى ليخبرنى أن إخوانه الضباط قد قرروا دفع عشر جنيهاً شهرياً لأسرتى بالقاهرة . .

لا يمكن أن تتصور مدى تأثير لمسة الوفاء هذه على وأنا فى المعتقل بعيداً عن إخوانى الضباط بل ولم أعد حتى واحداً منهم . .

فى معتقل (ماقوسة) حضرت رمضان مرة أخرى كما حدث فى سجن الأجانب من قبل . . وكعادتى قرأت القرآن ثلاث مرات مرة كل عشرة أيام . . كان ذلك خلال عام ١٩٤٣ ، وقد بدأت هزائم المحور وبدأ مسار الحرب يتغير لصالح الحلفاء . . وخاصة بعد أن حارب الروس معركة رائعة فى ستالينجراد . . وساعدهم فى حربهم الجنرال « ووتر » (أى الشتاء القارس) الذى سبق أن هزم نابليون كما كان السبب الرئيسى فى هزيمة الألمان . . وقبل أن تنتهى سنة ١٩٤٣ صدرت إلينا الأوامر بالانتقال إلى معتقل آخر - قرب القاهرة - هو معتقل الزيتون .

فى معتقل الزيتون كان هناك أيضاً نوعان من المعتقلين - النوع الأول مثلى من المصريين المكافحين ضد الإنجليز أو من أهل سوريا ولبنان المتمصرين ممن كانت تستخدمهم حكومة فيشى أو الألمان بحكم الاستعمار والوجود الفرنسى التقليدى فى الشام الذى كان يشبه الوجود الإنجليزى عندنا . أما النوع الثانى فكان من أعضاء أحزاب مناهضة لحزب الوفد الحاكم مثل حزب مصر الفتاة وحزب الكتلة الذى كونه مكرم عبيد عندما انشق على النحاس باشا زعيم الوفد وأصدر (الكتاب الأسود) وهو كتاب صغير الحجم ولكنه يكشف عن أسرار تسيء إلى حكم الوفد . . ورغم أن النحاس كان رئيس الحكومة إلا أن الكتاب صدر ووزع وتداوله الناس .

فى معتقل الزيتون تعرفت على (كونت) من بلاد البلطيق معتقل مثلنا . . كان رجلاً لطيفاً للغاية ولكن - رغم أنه كان يعيش فى غرفة صغيرة فى البدروم مغلوباً على أمره كأى معتقل إلا أنه لم ينس لحظة أنه كونت أوروبى . . فكان يأمر وينهى كأنه فى قصره ويمشى ويتكلم بأرستقراطية لم يستطع أبداً أن يتنازل عنها مما جعله طول الوقت موضع ضحكنا بل وتسليتنا الوحيدة .

كانت الحياة مملة فى معتقل الزيتون فالوقت يمضى فى بطاء شديد ولا شىء نفعله . . ففكرنا فى تربية الأرانب - اشترينا زوجين أو ثلاثة فى بادىء الأمر - وبعد ثلاثة شهور فقط تكاثرت أرانبنا حتى امتلأت بها القاعة الوحيدة الفسيحة فى المعتقل مما جعلنا ندور حولها لكى نذهب إلى حجرتنا فقد أصبح من المستحيل أن نخطو فيها خطوة واحدة . . ماذا نفعل بكل هذا الجيش من الأرانب ؟ وهنا اكتشفنا موهبة فذة فى صديقنا الكونت الأرستقراطى . . وهى أنه يجيد الطهى وخاصة طهى

الأرانب بالذات . . وهكذا عشنا فترة على تربية الأرانب وأكلها إلى أن جاء وقت أصاب أحدها المرض وانتشرت العدوى بينها فما هي إلا أيام قلائل حتى أخذ عددها يتناقص بنفس السرعة التي تكاثرت بها . . وخلت القاعة منها وعادت إلينا فسيحة خاوية كما كانت في البداية .

وهكذا توقفنا عن تربية الأرانب وعن أكلها طبعاً وتوقف صاحبنا الكونت عن طهيها وحفظ (الحلة) أو الوعاء الذي كان يملؤه كل صباح بها ويحفظه بين المرتبتين على سريره حتى تظل محتفظة بحرارتها كما كان يفعل كل مرة نتأخر فيها بعض الوقت عن ميعاد الأكل .

ومن الشخصيات التي أذكرها في معتقل الزيتون وكيل وزارة الداخلية في ذلك الوقت . . غضب عليه النحاس باشا فاعتقله رغم أنه كان محايداً لا ينتمى إلى أى حزب . . كان اسمه أبو شادى وقد رأيت مرة أخرى بعد الثورة — عندما فرضت عليه الحراسة لا أعرف تحت أية ظروف ولا لأية أسباب . . كان هذا في سنة ١٩٦١ أى بعد حركة الانفصال عن سوريا . . وكانت كل الحراسات التي فرضت أساسها حزبي فقد نشأ عند عبد الناصر خوف من الانفصال أعقبه شعور مضاد عند الشعب المصرى نحو الحكومة فزين له بعض أعوانه أن هذا الشعور إنما هو ثورة مضادة . . وبناءً عليه لجأوا إلى فرض الحراسات على جميع الحزبيين وجاء ضمنهم أبو شادى مع أنه كما قلت لم يكن ينتمى إلى أى حزب . . بل كان مثلاً أعلى للموظف المسئول في اتخاذ الإجراءات العادلة السليمة .

ولكن كان من الطبيعى بعد فشل الوحدة مع سوريا أن يتكلم الناس وأن يتناول بعضهم نظام الحكم بالنقد وهذا ما ذهب ضحيته أبو شادى . . تماماً كما حدث بعد سنة ١٩٦٥ بالنسبة للإخوان المسلمين الذين هيئ للسلطة الحاكمة في ذلك الوقت بأنهم يتآمرون ليقوموا بالثورة المضادة وقد ذهب ضحية هذا التصور الكثيرون ممن يحصون بالألوف . . وصدرت ضد الكثيرين منهم أحكام وظل الجميع في المعتقلات أو السجون إلى أن صفيت أنا العملية كلها فأغلقت المعتقلات كلها مباشرة بعد أن صفيت مراكز القوى في سنة ١٩٧١ أما المحكوم عليهم سواء من الإخوان أو في أية قضية سياسية أخرى فقد أطلقت سراحهم مباشرة بعد معركة أكتوبر ١٩٧٣ .

أعود إلى حديثي عن معتقل الزيتون .

في الحقيقة كانت له عدة مزايا عن معتقل ماقوسه . : فنحن هنا في القاهرة وأهلنا يترددون على زياتنا دون تكاليف السفر إلى المنيا . . ثم إن معتقل الزيتون كان فيلا بها حديقة كبيرة تتيح لنا فرصة الحركة أكثر من حديقة معتقل ماقوسه الصغيرة الضيقة . . ولكي نقطع الوقت فكرت وزميلي حسن عزت في زراعة الحديقة بالبرسيم ليكون غذاء للأرانب التي ربيناها . . ثم بعد فناء الأرانب لجأنا إلى زراعة البطاطا وكانت هذه أول مرة أمارس فيها هذه الزراعة .

وهكذا عشنا في هدوء لا يعكره سوى مطبعمي من سيدنا الحسين كان كلما أفرجت عنه السلطات يطبع منشوراً ضد الحكم فيعود إلينا في اليوم التالي . . فهو يفضل عيشة المعتقل على عيشة الحرية . . والسبب أنهم رتبوا رواتب شهرية قدرها سبعة جنيهات ونصف لكل منا . . تقبلها الجميع ما عداي وحسن عزت الذي أقنعه بعدم قبول منحة من سلطات الاعتقال لأن هذه مسألة مهينة للكرامة . . وكان المطبعمي ضمن من يتقاضون هذا الراتب الشهري . . وكانت الإقامة بالمعتقل بما فيها الأكل والمبيت بالمجان طبعاً ولذلك كان حريصاً على أن يبقى بالمعتقل أطول مدة ممكنة على أمل أن يخرج منه في النهاية برأس مال محترم . . في نظره على الأقل .

في يوم من الأيام عكر صفونا تعيين قومندان جديد للمعتقل . . كان عنيف السلوك ولذلك فصل أكثر من مرة من منصبه وعاد إليه أيضاً أكثر من مرة إذ كان عمه عضو مجلس شيوخ وفدى عن مديرية البحيرة . . وكانت لهم عصبية كبيرة تمتد إلى ليبيا موطنهم الأصلي .

المهم أنه حدثت بيني وبين القومندان الجديد مشادة لا أذكر سببها الآن ولكنني أذكر نتائجها جيداً . . فقد جمعت المعتقلين جميعاً وأقننا متاريس من فراش وأمتعة حجراتنا ووضعناها كلها على السلم بحيث تمنع أى إنسان من الوصول إلينا في الدور الثاني . . بعد ذلك بفترة قصيرة جاء القومندان إلى حجرتي وأخذ يهددني وهو يحمل طبنجة في يده .

قلت له : أنت جبان . . وإلا فكيف تهددني بالسلاح وأنا أعزل ؟

خرج غاضباً وتوجه إلى حجرته وأحاطها بالعساكر وظن أنه في أمان . . قلت في نفسي لابد أن أودب هذا الإنسان الشاذ . . فقفزت من حجرة إلى حجرة إلى أن دخلت حجرته من الشباك . . نظر فرآني أمامه . . اندعر . . قلت : أنت مغلق الحجرة على نفسك والحراس يحرسون الباب . . وهكذا تعتقد أنك في أمان . . ولكن في مقدوري الآن أن أخنقك . . أو أن أفعل بك أى شيء . . هل تدرك هذا ؟ . . ودار بيننا حوار ساخن تركته على أثره وتوجهت إلى حجرتي . . وأغلقتنا السلام بالمطاريس بإغلاقاً تاماً .

كان الموقف السياسى فى العالم قد انكشف تماماً فى عامى ٤٣ ، ٤٤ أصبح من الواضح أن ألمانيا فى طريقها إلى الهزيمة وكانت هذه فرصة مواتية لاستعجال الإفراج عنا . . فاستقر رأى وزميلي حسن عزت على إثارة الرأى العام فى المعتقل . عملنا حركة عصيان وأشرطنا معنا جميع المعتقلين . . ضربوا فىنا بالرصاص من حديقة المعتقل . . وكان هذا التصعيد للموقف من جانب الحكومة ما توقعناه . . بل وأكاد أقول ما طلبناه فقررنا أن نعطيهم درساً لا ينسونه مدى الحياة .

ولكن كيف ؟

قررنا أن يهرب ستة منا . . . واتفقنا على خطة ونفذناها بكل دقة . . . كان أحسن وقت للهروب هو وقت تغيير الحراس في أول المساء . . . نسبة إلى ما يسود المكان من هرج ومرج . . . أما طريقة الهروب فكانت أن نفتح فتحة في سقف حجرة الأرناب ولم يكن هذا بالأمر الصعب فالسقف من الخشب البغدادي . . . وفي اليوم الذي حددناه نصبت السلم وتسلقته وحفرنا فجوه في السقف خرجت منها إلى السطح واستلقيت على وجهي حتى لا يراني أحد . . . ومددت يدي أتسلم بقية الهاربين من بين يدي حسن عزت الذي كان يقف على أرض الحجرة يناولهم لي الواحد بعد الآخر فأدلمهم على الطريق . . . إلى أن انضم إلي حسن عزت فنزلنا إلى الشارع وكان الظلام حالكاً . . . ولكن كانت هناك عربة (أولد زموبل) في انتظارنا كما رتبنا . . . فركبنا نحن الستة ومضينا .

كان حسن فخوراً بالعربة – فالكاوتش جديد كما قالوا له . . . وهو أمر كان نادراً في ذلك الوقت خلال الحرب فلا يمكن شراء كاوتش جديد إلا بإذن من السلطات البريطانية . . . بعد كيلو أو اثنين ضرب الكاوتش فاقترح حسن أن نذهب إلى أية ورشة لإصلاحه – ولكنني رفضت وقلت : اعملوا أنتم ما يترأى لكم فأنتم الذين ستظلون هاربين كما قررنا أما أنا ومحسن فلنا خطة أخرى .

كان محسن فاضل شاباً دمث الخلق قضى شطراً كبيراً من حياته في فرنسا . . . أين نخفى إلى أن يطلع الصباح وننفذ خطتنا ؟ اقترح محسن أن نذهب إلى شقة سيدة فرنسية عاشت في مصر بعض الوقت مع صديق مصري لها ثم هجرها وبقيت هي بشقتها الصغيرة في ميدان الإسماعيلية – في وسط البلد – تنتظر انتهاء الحرب حتى

تعود إلى وطنها . . ضربنا الجرس ففتحت الباب ورحبت بمحسن وبى أحسن
ترحيب . حكى لها محسن القصة بالتفصيل فتعاطفت معنا بكل كيائها .

كانت سيدة عظيمة في الواقع - تمثل روح الشعب الفرنسى أحسن تمثيل -
ذلك الشعب الأصيل العاشق للحرية تماماً كشعب مصر . . استنكرت عودتنا إلى
المعتقل كما كانت تقضى به خطتنا في الصباح . . ومازالت كلماتها ترن في أذنى : -
كيف تعودان إلى السجن بعد الحرية . . وبمحض إرادتكما ؟ لقد اقتصدت
٢٠٠٠ جنيهها هي كل ما أملك . . خذا المبلغ بأكمله واهربا إلى أى بلد . .
هيا اذهبا . .

رفضنا شاكرين . . فعادت تقترح أن نخبئ عندها وهي تتكفل بمصاريفنا
مهما طال الوقت . .

كم كانت رائعة هذه السيدة الفرنسية في إلحاحها على أن تعطينا كل ما تملك
وتبدأ هي حياتها من جديد رغم تقدم السن بها . . وكل هذا من أجل
الحرية !

في الصباح وجدنا مائدة الإفطار في انتظارنا وفوقها الجرائد العربية
وكل شيء معد على أحسن صورة . . تناولنا الإفطار ثم شكرناها ونزلنا إلى الشارع . .
أخذنا تاكسى وتوجهنا إلى قصر عابدين . .

دخلنا القصر فوجدنا أحد الأمناء في حجرة الاستقبال ودفتر التشريرات
مفتوح - إلى هنا كل شيء عادى فالدفر مفتوح لأى مواطن يريد أن يشكر
أو يستأذن في السفر أو أى شيء من هذا القبيل . .

توجهنا مباشرة إلى الدفر وقيد كل منا اسمه وقلنا إننا معتقلون في الزيتون
وقد حضرنا خصيصاً لكي نقول للملك إن الحكومة يجب ألا تخضع للسلطة
البريطانية كما لا يجوز إطلاقاً أن تعاملنا هذه المعاملة البالغة السوء . . وإننا
على الفور سنعود إلى المعتقل بمحض إرادتنا . . وقد هربنا لكي نبليغ هذه

الرسالة للملك ولكي نقول له إن أربعة من زملائنا قد هربوا معنا ولكم
 لن يعودوا مثلنا إلى المعتقل . . بل سيظلون أحراراً يفعلون ما يريدون . .
 رهائن خارج السجن مقابل حريتنا جميعاً وتحدياً للسلطة . .

عندما قرأ التشريفاتي المسئول عن الدفتر هذا الكلام فزع وهرع إلى الأمين الأول
 يبلغه بما حدث ، جاء الأمين الأول وكان اسمه بدر وكان يعرفني من معتقل
 ماقوسة عندما كان في ذلك الوقت مدير المنياس . . قال لي إن هذا عمل جنوني
 وإنه سوف يثير أزمات وأزمات . . قلت له إننا سنعود فوراً إلى المعتقل وله أن
 يفعل ما يشاء . . وعلى مشهد منه ومن جميع مرؤوسيه الذين تجمعوا حولنا
 خرجت ومعى محسن وأخذنا تاكسي وتوجهنا إلى المعتقل . . فتحوا الباب ،
 دخلنا بالتاكسي ثم نزلنا وسلمنا أنفسنا . .

لم يكونوا قد اكتشفوا هربنا إلا صباح اليوم التالي حيث جاء وكيل النيابة
 ليحقق معنا - قلنا إننا فعلنا ما فعلناه لكي يحسنوا معاملتهم لنا . . وإن المقصود
 بالعملية إعطاء درس لوزارة الداخلية ولإدارة المعتقل وكان وكيل النيابة
 الذي أجرى التحقيق هو الأستاذ أنور أحمد الذي أصبح وكيلاً لوزارة الشؤون
 الاجتماعية بعد ذلك . .

طبعاً نقلوا قومندان المعتقل وتحسنت معاملتهم لنا بشكل ملموس ثم جاء
 أكتوبر سنة ١٩٤٤ .

في ذلك الوقت كان النحاس مازال في الحكم منذ أن فرضه الإنجليز على الملك
 في فبراير سنة ١٩٤٢ . . ومنذ ذلك الوقت والملك يتحين الفرص للتخلص من
 النحاس . . وأخيراً جاء الوقت المناسب في أكتوبر سنة ١٩٤٤ وضح انتصار
 الحلفاء وبدأت أعصاب الإنجليز تهدأ ومخاوفهم تزول فأقال الملك النحاس
 وعين بدلاً منه أحمد ماهر . . وكان من أقطاب الوفد المنشقين على النحاس
 وزعيماً لحزب جديد شكله هو الحزب السعدي . .

بمجرد تولى أحمد ماهر الحكم أفرج عن زملائنا في المعتقل الذين ينتمون
 إلى حزب الكتلة فقد كان هناك شبه ائتلاف بين الكتلة والسعديين والأحرار

الدستوريين أما الوفد فقد كان وحده . . أفرجوا أيضاً عن أعضاء حزب مصر الفتاة ممن كانوا معنا بالمعتقل وكل الحزبيين المعتقلين . . الكل أفرج عنهم إلا نحن المعتقلين بناء على أوامر السلطات البريطانية . .

إلى متى سنظل في المعتقل ونحن في نهاية سنة ٤٤ والحرب قد اتضحت نتائجها ؟ لابد من عمل شيء . . حرّضت زملائي فأضربنا عن الطعام . . ولكن بعد فترة لم يتحملوا الجوع فعادوا إلى تناول الطعام أما أنا فلم أتنازل مطلقاً فاضطروا حسب القانون إلى نقلى إلى مستشفى القصر العيني الجديد لكي أكون تحت العناية الطبية حسبما تقتضى القوانين .

هناك أوقفت لإضرابي عن الطعام . . وبعد فترة قصيرة زارنى فى المستشفى زميلى حسن عزت الذى كان قد هرب من معتقل المنيا وقال : ماذا تفعل هنا ؟ .. لابد من تدبير خطة لهروبك . . وفعلاً دبرنا الخطة . .

فى ساعة الظهيرة عندما يزدحم المستشفى بالداخلين والخارجين من آلاف الناس جاء حسن عزت بعربة (أوستن) صغيرة ووضعها تحت مظلة الأطباء . . ولم يوقف الموتور . . خرجت أنا إلى فناء المستشفى وخلقى حارسى . . وفى زحمة الناس استطعت بسهولة أن أتوارى عنه وبسرعة بلغت العربة التى اختفت بى وبحسن عزت فى لمح البصر . . وبعد دقيقتين وصلنا منطقة فم الخليج حيث الشقة التى كان قد جهزها حسن كمخبأ لى على بعد دقائق قليلة .

كان هذا فى أكتوبر سنة ٤٤ كما قلت . . وبقيت مختبئاً هارباً من وجه العدالة إلى سبتمبر سنة ٤٥ عندما سقطت الأحكام العرفية فبسقوط الأحكام العرفية انتهى اعتقالى حسب القانون - هذه ميزة سيادة القانون التى أحترمها وأدين بها وأطبقها الآن وأنا رئيس لجمهورية مصر . .

ماذا حدث لى طوال سنة كاملة منذ أكتوبر سنة ٤٤ إلى سبتمبر سنة ٤٥ وأنا هارب من وجه العدالة . . ويمكن فى أية لحظة أن يقبض على وأعود إلى المعتقل أو ربما إلى السجن ؟

هذه قصة أخرى . .

كانت فترة الهروب مليئة بالأحداث . . فقد كان لابد أن أعمل لكي أجد لقمة العيش لى ولأولادى فلم يكن والدى فى وضع يسمح له بمساعدتى بأى شىء على الإطلاق . . ولذلك كان على أن أخرج للحياة فأطلقت ذقنى لأخفى ملايحى وسميت نفسى الحاج محمد .

أول ما قمت به هو أنى عملت حمالاً على عربة لورى كان يملكها زميلى حسن عزت . . بدأنا أنا وسائق اللورى بالعمل لحساب تاجر اسمه غويبة كان متعهداً للجيش البريطانى فى الإسماعيلية . . وأذكر أنه فى مرة من المرات وصلنا الإسماعيلية فى المساء فتكرم علينا غويبة وسمح لنا أن نبيت ليلتنا فى مكتبه على الأرض . .

كان غويبة هذا مليونيراً من أغنياء الحرب فلما أصدر عبد الناصر قوانين الاشتراكية فى سنة ٦١ وضع غويبة أمواله تحت البلاطة كما نقول وارتدى ملابس رثة للغاية فصدق عبد الناصر ورجاله أنه معدم فعلاً . . ولم يكن غويبة فريداً فى هذا فقد فعل مثله الكثيرون من الأثرياء فى عهد عبد الناصر وقبله . فالشعب المصرى على مدى تاريخه الطويل قد تعلم كيف يخدع حكامه إذا تعارضت أوامر الحكام مع رغبات الشعب ومصالحه . .

نعود إلى قصتى مع غويبة . . فى المرحلة الثانية من عملى معه عهد إلى بنقل الخضر والفاكهة إلى معسكر الإنجليز فى التل الكبير . . وأذكر أننى عندما سلمت أول شحنة لاحظت أنها محملة بأسوأ أنواع البرتقال . .

فاندھشت ولكنى اكتشفت أن هناك اتفاقاً بين المتعهد ومسئول التموين بالجيش الإنجليزى Quarter - Master على الغش طبعاً . .

وبعد فترة طلبوا منا عدم إمدادهم بأى تموين . . فقد لجأوا إلى استيراد جميع متطلباتهم من اليهود فى فلسطين . . ربما لأنهم كانوا أكثر قدرة على الغش والرشوة من المصريين . . وربما لسبب آخر لا أعرفه ولكن بهذا توقف عملى مع غويبة . .

عملت بعد ذلك فى بلدة اسمها مزغونة (بالقرب من القاهرة) وكان عملى بها أن أنقل الحجر (الدبش) من المراكب الآتية بالنيل إلى أن أصل بها إلى الطريق الذى كان فى ذلك الوقت يرصف بين القاهرة وأسوان .

كنا نعمل من مطلع الفجر إلى غروب الشمس دون توقف وفى نهاية اليوم كنت أهرع إلى مطعم صغير حيث أتناول شوربة العدس الساخنة فى برد الشتاء القارس بعد جهد وجوع يوم بأكمله . . فكانت أشهى طعام أكلته فى حياتى بمجرد أن ألتمه وأحس بالشبع والدفع آوى مباشرة إلى جراج مسقف بالصفيح لأنام . .

كان ذلك فى ديسمبر سنة ٤٤ ومع مجئ سنة ٤٥ انتقلت إلى بلدة أبو كبير بالشرقية وعملت فى مشروع شق ترعة رى تسمى ترعة الصادى بالمنطقة وكان من عادة مصلحة الرى فى ذلك الوقت أن تشق ترعة جديدة كل سنة . .

سكنت فى منزل غفير فى مكان اسمه عزبة طلعت أجرتة منه . . وكان السقف من حطب القطن . . وفى ليلة من ليالى الشتاء أمطرت السماء مطراً شديداً فاخترق الماء سقف الحجرة وبدأ يتساقط فوقى . . ماذا أفعل ؟

غطيت رأسى وجسمى بقماش خيمة صغيرة كنت أحملها معى دائماً . . وتحمل قماش الخيمة المطر الذى لم ينقطع طول الليل وظل ينهمر بغزارة فوق

الخيمة وأنا تحتها أسمع ضربة القماش بعنف مما أطار النوم من عيني . . ولكن لعله التعب والإجهاد . . أو لعله صوت المطر وهو يسقط فوقى فى رتابة . . لا أعرف ولكنى نمت تلك الليلة نوماً عميقاً إلى أن طلع الصباح . . وكان الحفير يجاملنى فيقدم لى كل صباح اللبن الزبادى أو اللبن « المترد » فأتناوله . . ولم أكن أعلم أن معدتى ليست سليمة وأن اللبن بالذات من أكثر الأشياء التى تضر بها . .

تم مشروع شق التريعة فوجدت نفسى مرة أخرى بدون عمل ولكن لم يطل انتظارى . . فى بلدة سنور شرق النيل جنوب بنى سويف فى صعيد مصر وسط الصحراء القاحلة وجدت عملاً واشتغلت . . كانت هناك شركة مصر للمناجم والمحاجر وهى تملك امتياز منجم الرخام الألباستر الوحيد الموجود فى هذه المنطقة . . وكان هذا المنجم يعمل أيام الفراغنة ثم أهمل إلى أن أتى محمد على فأعادته إلى العمل وبني منه مسجد القلعة . . فى هذا المنجم عملت وكان يبعد عن شاطئ النيل ٥١ كيلو متراً ولكن محمد على أقام استراحات كل منها تبعد عن الأخرى ١٧ كيلو . . وبقايا هذه الاستراحات قائمة وموجودة إلى اليوم . .

كنت أعمل كمقاول لنقل الرخام . . وسوف تدهش إذا علمت أن الاستراحة التى بناها الملك فاروق فى الهرم لنفسه من هذا الرخام (وهى اليوم كازينو) وأن جميع رخام هذه الإستراحة قد قطعتة أنا من الحجر ونقلته بنفسى إلى منطقة الأهرامات لكى يبنى فاروق استراحته ثم لكى يستمتع بها الشعب اليوم بعد أن أصبحت كازينو مفتوحاً للشعب .



بانتهاء الحرب سقطت الأحكام العرفية وكان ذلك في سبتمبر سنة ٤٥ فخرجت إلى الحياة إذ بسقوط الأحكام العرفية أو ما يسمى قانون الطوارئ . . يسقط حق الاعتقال . . وهذه ميزة سيادة القانون .

وهكذا عدت إلى بيتي بعد ثلاث سنوات من التشرذ والحرمان . . وارتديت ملابسى وبدأت أظهر بالصورة التى يعرفنى بها أهلى وأصحابى . . صورتى التى تعودتها . .

فى تلك الفترة لم يكن عندى أى عمل . . وكانت الخمسة مليمات بالنسبة لى عملة صعبة بكل معنى الكلمة . . فكنت أسير على الأقدام يومياً من منزلى بكوبرى القبة إلى العتبة . . أى أكثر من ٢٠ كيلو . . لأنى لا أملك ٦ مليمات أجرة الترام . . ولقد نشأت على حبي للجمال فى كل شىء . . وكانت ملابسى ضمن الأشياء التى أتطلب فيها الجمال . . وكانت عندى جاكette أعز بها كثيراً ارتديتها قبل اعتقالى مرات معدودة فقررت أن أبيعها فى محل من محلات وسط البلد التى تشتري الأشياء المستعملة . . وفعلاً أخذتها وتوجهت إلى إحدى هذه المحلات ولكنى عندما أصبحت على مسيرة قدمين من المحل توقفت . . لا بد أن صاحب المحل سيتصور أنى سرقها فليس من المعقول أن شاباً رث المنظر بهذا الشكل يمكن أن يمتلك هذه الجاكette الوجيهة . . خطر لى هذا الخاطر وأنا أقف أمام التاجر فراجعت وعدت إلى البيت سيراً على الأقدام ومعى الجاكette . . كنت أعرف أن التاجر لن يسألنى من أين أتيت بالجاكette . . وكنت واثقاً من أنه سيشتريها منى بأى ثمن . وأن المبلغ الذى

سيدفعه مهما كان ضئيلاً سوف يفك ضائقتي . . ولكنى فضلت أن لا أشوه صورتى فى نظر إنسان لا أعرفه ولا يعرفنى مهما كلفنى هذا . .

ولكن ماذا عن صورتى لنفسى كما أراها بعينى ؟ هل هى حقاً ما أردت لها أن تكون ؟

لقد عادت حريتى . . هذا ما كان يعنيه انتهاء الأحكام العرفية . . ولكن هل أحسست أنا بالحرية كما يشعر بها سجين أطلق سراحه ؟ إن مصر ما زالت حبيسة والشعب ما زال لا يملك من أمر نفسه شيئاً . .

ولذلك بمجرد أن عاد إلى كيانى كمواطن حر طليق كان أول عمل قمت به هو تكوين الجمعية السرية . . فكيف تتحرر الذات بدون أن يتحرر الوطن ! ؟

كان ذلك فى سبتمبر سنة ٤٥ ولم يمض على خروجى إلى الحياة سوى أيام قليلة . . اتصلت بعمر أبو على شقيق زميلى سعودى حسين الطيار الذى سبق أن أرسلناه لروميل وضربت طائرته - وعرفنى عمر بشاب اسمه حسين توفيق اتضح أنه كان يمارس قتل الجنود الإنجليز فى المعادى قبل أن ينضم إلينا . . ولكن هل قتل حفنة من الجنود الإنجليز هو الطريق إلى تحرير مصر ؟ طبعاً لا . . ربما كان هذا العمل مجرد تدريب ولكن المهم أن نتخلص ممن كانوا يساندون الإنجليز فى ذلك الوقت . .

وكان على رأس هؤلاء فى نظرنا مصطفى النحاس باشا رئيس حزب الوفد الذى سقط فى نظرنا منذ أن فرضه الإنجليز بقوة السلاح فى ٤ فبراير ٤٢ . . فلا شيء يعادل خيبة الأمل التى يصاب بها الشباب فى زعيم كان يوماً مثلهم الأعلى . .

وما زلت أذكر كيف كنا ونحن طلبة نخرج إلى الشارع مرتين كل يوم ننتظر ذهاب النحاس إلى بيت الأمة وعودته منه لئلا نراه ونهتف ونصفق له . . كان بطلاً أسطورياً ورمزاً فريداً للوطنية والفداء والعطاء . . أما بعد ٤ فبراير فقد فقد كل شيء وأصبح فى نظرنا خائناً لمصر ولشعبها يحتم علينا واجبنا الوطنى أن نزيله من طريقنا . . ولذلك قررنا التخلص منه . .

كانت عادة النحاس أن يذهب في يوم مولد النبي إلى النادي السعدي وهو مقر حزب الوفد ليلقي خطاباً بهذه المناسبة . . وصادف ذلك يوم ٦ سبتمبر سنة ٤٥ فخرجت أنا وبعض أفراد الجمعية السرية ننتظر خروج النحاس من جاردن سيتي إلى شارع القصر العيني حيث يوجد النادي . . كان البوليس يحرس الطريق منعاً للشغب . . فلا أحد يملك أن يمنع النحاس من إلقاء خطابه . . رغم أن أحمد ماهر كان في الحكم والنحاس طبعاً خارج الحكم . . ولكن كانت هناك قيم وأصول يحترمها الجميع في ذلك الوقت . .

كنت قد دربت أعضاء الجمعية على استعمال القنابل اليدوية . . وكان الذي سيقوم بالعملية هو حسين توفيق . . وفعلاً ألقى القنبلة في الوقت المناسب ولكن سائق النحاس فوجيء وهو ينطلق من جاردن سيتي بعربة ترام في شارع للقصر العيني تكاد تصطدم به . . فأسرع لكي يتحاشاها . . كان فرق السرعة ست ثوان لا أكثر . . ولكنها كانت كافية . . فعندما انفجرت القنبلة كان النحاس وعربته خارج منطقة الانفجار . . فأصاب الشظايا عربة أتوبيس بها فتيات A. T. S. التابعات للقوات المسلحة البريطانية . .

طبعاً كنت أنا وبعض أفراد الجمعية السرية في مواقعنا نراقب العملية فانسحبنا في هدوء وركبنا الترام إلى ميدان الإسماعيلية (التحرير الآن) وهو على بعد دقائق قليلة من مكان الحادث . . حيث توجهنا إلى مقهى (أسترا) مكاننا المفضل الذي كنا نعقد فيه أغلب اجتماعاتنا . .

في نفس المقهى قررنا التخلص من أمين عثمان الذي تولى وزارة المالية طوال حكم النحاس بعد أن فرضه الإنجليز في ٤ فبراير . .

ولكن لم يكن هذا هو السبب في إدانتنا لأمين عثمان . . فلم يكن له أثر يذكر في سياسة الوفد أو على النحاس نفسه . . ولكنه كان أكثر من صديق للإنجليز . . ومسانداً لبقائهم في مصر بشكل لم يسبق له مثيل . .

كان قد كون في تلك الأيام نوعاً من الحزب السياسي أطلق عليه اسم (رابطة النهضة) وهنا أحب أن أسجل للتاريخ أنه لم يكن في مصر حزب سياسي واحد لم أدخله من باب المعرفة ربما أو من باب البحث عن منفذ نخلص به مما كنا فيه .

كان مقسر (رابطة النهضة) هذه في شارع عدلى وسط القاهرة . . . وكانت لها ستة مبادئ أساسية ينص المبدأ الثانى منها على أننا مرتبطون بإنجلترا ارتباطاً حتمياً . . . فقد أعلن أن مصر وإنجلترا قد تزوجا زواجاً كاثوليكيّاً . . . فحتى لو تركتنا هى يتحتم علينا أن لا نتركها .

هذا التصريح كان بمثابة حكم الإعدام عليه . .

كان ذلك في يوم السبت ٦ يناير سنة ٤٦ وأمين عثمان قد عاد من إنجلترا قبل ذلك بيومين وزار المندوب السامى البريطانى لورد كيلرن في ظهر نفس اليوم وفي المساء ذهب إلى مقر الرابطة . . وكان حسين توفيق في انتظاره عند باب العمارة حسب الخطة . . قبل أن يصل إلى المصعد ناداه حسين : « يا أمين باشا . . يا أمين باشا » التفت إليه أمين عثمان فأطلق عليه حسين رصاص مسدسه . .

كان الظلام مازال يسود القاهرة طبقاً لما كان يطبق أثناء الحرب العالمية الثانية وكان في الإمكان أن يهرب حسين توفيق دون أن يلتفت إليه أحد ، ولكن تصادف مرور ضابط طيران اسمه مرسى رأى حسين توفيق وشاهد العملية كلها ونبه الناس إليه . . فجروا وراءه . . وظل يجرى وهم وراءه حتى ازداد عددهم واشتد حصارهم ففجر قبلة من قبلتين يدويتين كنت أعطيتهما له وأوصيته ألا يستعملهما إلا في حالة الضرورة . . وبعيداً عن الناس . . وفعلاً عمل بالوصية فرمى القبلة داخل سور (صندوق الدين) . . وأدى الانفجار الغرض المطلوب فانصرف عنه الناس . . وعاد هو في هدوء إلى بيته بمصر الجديدة . .

كنت في هذه الأثناء أجلس في مقهى قريب فقامت على أثر سماعى الانفجار لأؤكد من عدم وجود ضحايا بين الأهالى . . فلما اطمأن بالى أخذت الترام وذهبت إلى بيتنا في كوبرى القبة .

في الصباح قرأت خبر اغتيال أمين عثمان في الجرائد وكيف أن المندوب السامى البريطانى استدعى له كبير أطباء الجيش الإنجليزى في محاولة يائسة لإنقاذه . . وذكرت الصحف أيضاً ضمن تفاصيل الحادث كيف أن أمين عثمان يوم اغتياله كان ضيف المندوب السامى البريطانى الذى استقبله في الظهر وتناول طعام الغداء على مائدته .

في تلك الأيام كانت مقابلة المندوب السامي تعتبر تشريفاً كبيراً لأي سياسي . . . إذ كانت تعني في أغلب الأحيان ترشيحاً لرئاسة الوزارة . . . ثم إن أمين عثمان كان قد عاد قبل يومين من إنجلترا . . . فهو إذن موضع حماية ورعاية من الحكومة البريطانية وممن يمثلها في مصر . . . ولكن رغم هذا تم اغتياله . . . وقد ترك كل هذا أثره في نفوس الجماهير فقد أوضح بما لا يقبل الشك أن الإنجليز قد فقدوا القدرة على حماية أنصارهم . . . بل على العكس أصبح من هو قريب منهم في موضع ضعف لا موضع قوة كما كان الحال من قبل . . .

وهكذا تحقق لنا ما نريد باغتيالنا لأمين عثمان . . . فإلى جانب أننا نخلصنا من أحد أنصار الاستعمار قضينا إلى حد كبير على الهالة التي كانت تحيط بالسلطات البريطانية وجعلنا صورة الاستعمار تهتز في نظر الناس بشكل لم يحدث من قبل . . .

طبعاً لم يمر مقتل أمين عثمان بدون تدخل البوليس الذي ذهب يتحرى في مكان الحادث فإذا بالطيار مرسى يتطوع لمعاونتهم ويعطيهم أوصاف القاتل التي انطبقت على حسين توفيق وقد كان عندهم محل شبهة منذ أن كان يمارس قتل الإنجليز في المعادي فذهبوا إلى منزل والده حيث كان يقيم فوجدوه على مائدة العشاء . . . سألوه أين كان وقت حدوث الجريمة ولما لم يستطع الإجابة قبضوا عليه على ذمة التحقيق . . .

صمت حسين توفيق في أول يوم . . . وفي ثاني يوم لازم الصمت أيضاً . . . وأغاظ هذا وكيل النيابة وكان رجلاً ماكرأ فأوعز إلى الصحف بالإشارة إلى أن الجريمة كانت أسبابها نسائية . . . وهنا انفجر حسين توفيق واعترف . . . وكان وكيل النيابة يعرف فيه طبيعته في حب البطولة ولذلك أفلح في الكمين الذي نصبه له . اعترف حسين بالكامل وبشكل لا يختلف عن الطريقة التي سبق أن أعترف بها (أبلسر) الجاسوس الألماني إن لم يكن أكثر اندفاعاً وعنفاً .

في يوم ١٠ يناير سنة ١٩١٦ اعترف حسين توفيق ودل البوليس هو وبعض أفراد الجمعية السرية على مخزن السلاح الذي كان في جبل المقطم . . . قلت في نفسي

لقد انتهى الأمر تماماً ولكن كان ما زال عندى بصيص أمل فى أن يكون حسين توفيق قد أخفى أمرى عن البوليس . .

فى ١١ يناير ١٩٤٦ وصل الملك عبد العزيز آل سعود إلى القاهرة فى زيارة رسمية للملك فاروق وكانت المدينة والدولة كلها تستعد لاستقباله منذ فترة . . فقد كان عبد العزيز رحمه الله بطلا شهماً كريماً وقد أكرم فاروق عند زيارته للسعودية فأراد فاروق أن يزيد فى إكرامه له . . هذا إلى جانب أن الملك عبد العزيز كان يحب مصر . . وهذا تقليد عند الأسرة السعودية فهم دائماً حريصون على تنسيق وتوثيق علاقاتهم بمصر . . فخرجت مع غيرى من الناس لاستقبال الملك عبد العزيز . . ووقفت فى انتظار الموكب إلى أن مر أمامى فى ميدان الأوبرا تحت حراسة مشددة جعلتنى أضحك منهم . . فنحن لا نفكر فى أن نصيب الملك عبد العزيز بأى أذى . . إن هدفنا أعداء مصر لا أصدقاءها . .

كانت الساعة الثانية بعد الظهر عندما مر الموكب فعدت إلى بيتنا فى كوبرى القبة . . فلم يكن فى مقدورى أن أفعل شيئاً سوى أن أبقى فى البيت ، أعيش على أعصابى وأنتظر . .

ولم يطل انتظارى فى الساعة الثانية صباحاً من ليلة ١١ - ١٢ يناير ٤٦ قرعوا الباب ودخلوا كما فعلوا فى سنة ١٩٤٢ . . ولكن هذه المرة لم يكن هناك الإنجليز . . بارحت فراشى وذهبت إليهم . . وكان الجوقارس البرودة . . سألت :

— هل معكم أمر من النيابة بالتفتيش ؟

وأجابوا : إن معنا وكيل النيابة نفسه .

وقال وكيل النيابة كامل قاویش : نعم أنا هنا بنفسى . . وأنا بنفسى الذى أحقق قضية اغتيال أمين عثمان . .

فهمت . . فقد كان هو الذى نصب الكمين لحسين توفيق واضطره إلى الاعتراف .

فتشوا البيت حجرة حجرة . وبعد التفتيش أخذونى معهم إلى سجن الأجانب . . تماماً كما حدث فى سنة ١٩٤٢ .

فى سجن الأجانف وضمونى فى ززانة بمفردى . . سألت على حسين توفىق
فعرفت أنهم وضعوه فى الززانة رقم ١ فى الدور الأول - وهى حجرة كبرىة
جداً . . أما بقية أعضاء الجمعية فوزعوهم على حجرات أخرى كل على
انفراد . . طبعاً أنا لى سابق معرفة بسجن الأجانف وحراسه وكل من يعمل به . .
عرفت منهم أن وكيل النيابة يلتقى بالأولاد كل ليلة حيث يجرى معهم التحقيق
وأنه يسهر معهم إلى مطلع الفجر . . يتناولون العشاء معاً على حساب وكيل
النيابة . . المسألة أصبحت مسألة صداقة . . وخاصة . . كما علمت . . بين وكيل
النيابة وحسين توفىق . .

ماذا أفعل ؟ اتصلت بالأولاد عن طريق السجانين وأوصيتهم بأن ينكروا
إنكاراً تاماً اعترافاتهم السابقة . . فهذه هى الطريقة الوحيدة لعدم إدانتهم . .
بدأ بعضهم فعلاً ينكر ما سبق أن اعترفوا به - أحس وكيل النيابة بأن شيئاً
ما يحدث ضد مصلحته ومصلحة التحقيق . . وأنى أنا السبب فأمر بنقلى إلى
الدور الأعلى حيث أكون بمعزل عن بقية المتهمين . . وفعلاً تم نقلى ولم يعد
فى إمكانى الاتصال . .

بقيت فى حجرتى الجديدة حوالى أسبوع . . لا تحقيق ولا اتصال من أى
نوع . . وفجأة فتحوا باب حجرتى فى الساعة الثانية صباحاً وطلبونى للتحقيق . .
نوع من الإرهاب . . وإلا فلم الساعة الثانية بعد منتصف الليل بالذات لبدء التحقيق
ونحن فى يناير والشتاء قارس البرودة ؟

فتحوا المحضر وسألوا :

— أقوالك ؟

— بالنسبة لماذا ؟

— حسين توفيق اعترف عليك بكذا وكذا وكذا . .

عرفت أن حسين اعترف بكل شيء . . أدق التفاصيل ذكرها . . لم ينس شيئاً على الإطلاق . . وكأن عقله آلة تسجيل . .

كنت أعرف أن بعض الأولاد قد أنكروا ما اعترفوا به من قبل وأن هذا الإنكار فيه تميع للقضية . . ولكن بقي ركن هام لإفساد القضية إفساداً تاماً . . وهو التعذيب . . فكرت بسرعة وقلت لوكيل النيابة : —

— كل ما اعترف به حسين توفيق غير صحيح على الإطلاق أما بالنسبة لغيره من الأولاد فأنا مستعد لمواجهتهم واحداً بعد الآخر . . وسترى بنفسك كيف أن اعترافاتهم السابقة كانت كلها كاذبة ولذلك أنكروا بعضهم . . ثم إن هناك شيئاً هاماً يجب أن يثبت في التحقيق . .

— ماذا ؟

— أنكم استدعيتوني للتحقيق في الساعة الثانية بعد منتصف الليل .

— هذا مثبت بالمحضر . .

— أعرف ولكن أطلب إثبات أن هذه عملية تعذيب — فقد أيقظتموني من النوم في حين كان النهار كله أمامكم وهذا الذي فعلتموه قد أصابني بهزة عصبية شديدة .

أثبتوا ما قلته . . ثم أقفلوا المحضر وهم في غاية الاطمئنان فقد كانت القضية في نظرهم منتهية وخاصة بعد اعترافات حسين توفيق وغيره . . بعد ذلك كانوا يرسلون في طلبي أثناء النهار . . ومرة سألوني :

— أليس لديك أقوال جديدة ؟

— لا . . أبداً . . على العكس أنا ما زلت أصر على مواجهة جميع المتهمين . .

وكيل النيابة وجد أنى ثابت . . بدأ يهتز . . فأخذ خطأ جديداً في التحقيق . .

— تعرف عمر أبو علي ؟ تعرف فلان ؟ أجبت أنى طبعاً أعرفهم جميعاً . .
فهذا شقيق صديق قديم لى . . وذاك عرفته بمناسبة كذا . . وكذا . . وجدت
مبرراً لمعرفتى بهم . . ولكنى أنكرت . . بل استنكرت أن تكون لمعرفتى بهم
آية صلة بما يدعونه في اعترافاتهم والدليل على صدق كلامى أنى مستعد
لمواجهتهم واحداً واحداً .

بدأ الخوف يدب إلى قلب وكيل النيابة فأنا بإصرارى هذا أفسدت ما قالوه
فأمر بإعادتى إلى زنزانتى وتركنى أسبوعاً بأكمله دون تحقيق . . فى خلال هذا
الأسبوع كان وكيل النيابة يكدح ذهنه . . كيف يديننى وكنت أنا أيضاً أفكر كيف
أفسد القضية . . وأهتديت فى تفكيرى إلى أن الشخص الوحيد بين المتهمين الذى
صمد ولم يعترف بأى شىء هو ابن خالة حسين توفيق وكان شاباً صغيراً
اسمه محمد كامل . . اتصلت به عن طريق السجان فوجدت منه استجابة
أسعدتنى كثيراً . . فهو شاب يمكن الاعتماد عليه وأنا وهو معاً يمكننا إفساد
القضية تماماً . . (هذا الشاب محمد كامل هو وزير الخارجية الحالى) .

فى هذه الأثناء عرفت أن وكيل النيابة كان على اتصال دائم بحسين توفيق وبقيّة
المتهمين . . يسهر معهم كل ليلة ويرسل فى طلب العشاء لهم من خارج السجن . .
هو إذن يواصل جهوده لاستمالتهم إليه . . قررت أن أسبقه . .

فى ليلة فجأة طلبت استدعاء مأمور السجن وقبل أن يسأل عن سبب استدعائى
له فاجأته بقولى : —

— أريد ورقة وقلماً لأكتب برقية إلى النائب العام . .

أحضروا ما طلبت فكتبت برقية أطلب فيها إرسال وكيل نيابة للتحقيق
لأنى أعيش تحت ضغط شديد . . ووكيل النيابة المحقق يريدنى أن أعترف بأمور

لم أرتكبها إطلاقاً . . ومأمور السجن وضباط البوليس السياسى يمارسون معى أقصى أنواع التعذيب . .

قرأ مأمور السجن هذا الكلام فاندھش : —

— ما هذا الذى كتبتہ ؟ من هم ضباط البوليس الذين عذبوك ؟

— توفيق السعيد والجزار .

— ولكن متى وكيف ؟

— هذا شأنى . .

كان سبب هذه الحكاية التى ألفتها أنه فى يوم من الأيام قبل نقلى من الدور الأرضى إلى الدور الأعلى فتح باب زنزانتى الضابط توفيق السعيد لكى أخرج وأتمشى فى فناء السجن مدة الربع ساعة المخصصة لكل منا قبل دخول المساء . . كنت أعرفه ويعرفنى منذ إقامتى بسجن الأجانب فى سنة ١٩٤٢ فتبادلنا التحية وإذا به يقول لى : —

— مفيش داعى يا أنور للإنكار . . كلهم اعترفوا . . وليس هذا فقط . . بل أخذونا معهم إلى مخزن الأسلحة فى جبل المقطم وأتينا بالأسلحة من هناك ، يعنى كل شىء ثابت والقضية اكتملت فقيم لإصرارك على الإنكار ؟

قلت : هل تريدنى أن أعترف ؟

قال : نعم .

قلت : وهل عندك أدنى شك فى أننا قتلنا أمين عثمان ؟ نعم قتلناه — لأنه خائن ويستحق الذبح !

قال مستنكراً : أمرك غريب والله . . هل نسيت أن فى البلد قانوناً ؟

قلت : أعرف أن هناك قانوناً ولكنه لا يسرى على الخونة ولذلك يتحتم علينا أن نتولى نحن أمرهم . .

قال : على أى حال أنا سعيد لأنك اعترفت . . فالإعتراف سيخفف الحكم عليك . .

وفجأة التفت إليه وقلت : اسمع يا توفيق . .

قال : نعم

قلت : هل صدقت أننا قتلنا أمين عثمان حقاً ؟ أنا قلت لك هذا لأتحداك وجهها لوجه ولو كان معنا اثنان من الشهود لما قلت لك شيئاً لأن العبرة في الاعتراف أن يكون أمام اثنين من الشهود . . هل نسيت ؟

قال : لا تتعب نفسك على أى حال : . فالكمل اعترفوا . . وإنكارك لن يفيدك في شيء . .

قلت : سرى . .

اخترنت هذه الواقعة مع توفيق السعيد لاستعمالها في الوقت المناسب . . وبناءً عليه أرسلت البرقية إلى النائب العام استغيث به . . وأعطيتها لمأمور السجن . . الذي نزل بها إلى وكيل النيابة القاويش ففتح المحضر وأثبت البرقية فيه . . لم يكن يملك أن يفعل غير هذا فرغم أن التحقيق كان مازال سريراً إلا أنه عندما تزول السرية وأبلغ المحامين أنني أرسلت برقية للنائب العام ولم تثبت في المحضر ستعتبر القضية لاغية من أولها إلى آخرها . .

استدعاني القاويش بعد ذلك فنزلت حيث رأيته جالساً وإلى جانبه مأمور السجن وتوفيق السعيد والجزار وابتدأ التحقيق . .

س : هل كتبت البرقية ؟

ج : نعم .

س : لماذا ؟

ج : لأن هناك تعذيباً وقع على .

س : من الذى عذبك ؟

ج : مأمور السجن وتوفيق السعيد والجزار .

س : تركوا علامات على جسمك ؟

ج : لا وليس بالضرورة أن يترك التعذيب علامات . . يكفى أنهم شتموني وصفعوني على وجهي وضربوني « بالشلايت » فهل ترك هذه أى آثار ؟ ثم إنهم يريدون إجباري على الاعتراف . . توفيق السعيد حاول هذا أكثر من مرة . . وقال لى لكى يغربنى على الاعتراف بأنهم ذهبوا إلى جبل المقطم وأتوا بالأسلحة التى يقول إنى أخفيها هناك .

بدت الدهشة على وجه القاويز لأن هذه الواقعة من أسرار التحقيق والمفروض أن يواجهني هو بها . .

أخذ أقوال مأمور السجن والجزار وتوفيق السعيد والكل أنكروا . . التفت إلى توفيق السعيد وقلت : -

- فى اليوم الفلانى ألم تفتح باب حجرتي علىّ فى الساعة الثانية صباحاً ؟ ألم توقظني من النوم فى البرد القارس وتهجم علىّ ؟

- توفيق السعيد أجاب : أبداً . . لم يحدث هذا .

قلت : حاول أن تتذكر جيداً . .

وراح توفيق السعيد يضرب كفاً بكف وينظر إلى باستغراب .

قلت : هذا حصل .

قال : أبداً كل ما حدث أنى قابلته فى فسحة العصر ودار بيننا حديث .

قلت : أبداً . . الساعة كانت الثانية بعد منتصف الليل « وانت اتهجمت على

وشتمتني وضربتني» وقلت لى إذا لم تعترف فسوف تلقى أسوأ مصير . . لأن القضية جاهزة . . وإدانتك واضحة وخاصة بعد أن اعترف الجميع .

كنت أعرف أن مثل هذه الأقوال كفياسة بهدم القضية وخاصة عندما تخرج إلى حيز العلانية ويتناولها المحامون ويستغلونها أحسن استغلال . .

أدرك وكيل النيابة القاويش ذلك . . فواجهني بالمتهمين ما عدا حسين توفيق . . بعضهم قد اعترف وتمسك باعترافه . . أما عمر أبو على فكنت واثقاً منه . . نظرت إليه ففهمني مباشرة . . أنكر كل ما سبق أن قاله . . جن جنون القاويش إذ أدرك أن القضية بدأت تنهار فأمر بعودتي إلى الزنزانة . . راجعت مع نفسي كل ما حدث . . كنت مرتاحاً إلى أن عمر أبو على أيدنى ثم أنى أثبت التعذيب . . ولكن ما زال هناك شوط على أن أقطعه . .

طلبت مأمور السجن . . حضر إلى زنزانتي . .

— ورقة وقلم . .

— مرة أخرى ؟ ما الذى جد ؟

— هذا شأنى . .

أحضروا الورقة والقلم . . وكتبت إلى النائب العام : « أرجو إنقاذى من وكيل النيابة المحقق . . لقد سبق أن استعنت بك من التعذيب الذى حدث لى وقد أخذ وكيل النيابة أقوالى وأقوال من عذبونى ولكن التعذيب ما زال مستمراً . . ولذلك فأنا أطلب بوكيل نيابة آخر يحقق معى . . علماً بأننى مضرب عن الطعام منذ هذه اللحظة احتجاجاً على ما يحدث لى . . وقد طلبت من مأمور السجن أن يفتش حجرتى ليتأكد من أنه لا طعام بها » .

أرسل القاويش وكيل النيابة فى طلبى وفتح المحضر . .

— أنت مضرب عن الطعام ؟

— نعم .

— السبب ؟

— التعذيب .

— من الذى يقوم بتعذيبك ؟

— أنت أولاً ثم الجزار وتوفيق السعيد . . ومأمور السجن الذى يأمر رجاله باقتحام حجرى فى الليل والتهجم على بالسب والضرب ثم ينسحبون ليعاودوا التهجم مرة أخرى وهكذا طول الليل . .

أخذ القاويش أقوال كل من اتهمهم . . طبعاً أنكروا . . وخصوصاً مأمور السجن الذى أكد أن شيئاً مما قلته لم يحدث على الإطلاق . . تمسكت بأقوالى .

أدرك القاويش أن هدفى من كل هذا تقويض أركان القضية . . وخاصة أن محمد كامل كما سبق أن رويت رفض الاعتراف وأن عمر أبو على غير أقواله . . لم يكن أمام القاويش إلا أن يواجهنى بأكثر المتهمين صلابة وأكثرهم انحيازاً إليه وهو حسين توفيق . .

وفعلاً تمت المواجهة فى الحال . . حسين توفيق أصر على موقفه . . واخترعت أنا قصة أفسر بها معرفتى بحسين توفيق ومقابلاتى معه . . وطبعاً كانت بعيدة كل البعد عما حدث . . حاول حسين توفيق تكذيب ما قلت . . ولكنى أصررت على أن هذه هى الحقيقة وأبدت دهشتى لقدرته على تشويه الواقع وحاولت أن أوحى إلى حسين توفيق أن الإصرار على هذا الكلام معناه الإعدام . . بدأ حسين توفيق هو الآخر يهتز وأدرك وكيل النيابة خطورة ما يحدث فأنهى التحقيق على الفور . . ولكى يتخلص منى . . لكى يبعدنى عن بقية المتهمين حتى لا أوثر عليهم وبذلك يتغير مسار القضية . . أمر بنقلى فوراً إلى سجن قره ميدان أو سجن مصر العمومى حيث أودعت الزنزانة ٥٤ .

الفصل الثالث

نحو تحرير الذات "الزنانة ٥٤"

كانت الساعة الخامسة والنصف مساءً عندما وجدت نفسي داخل الزنزانة ٥٤ في سجن قره ميدان . . وتلفت حولي . . كل شيء يختلف اختلافاً تاماً عن سجن الأجانب . . فلا سرير ولا مائدة صغيرة ولا كرسي ولا نور . . ولا أي شيء على الإطلاق . . فقط أرضية الحجر المصنوعة من الأسفلت وفوق جزء منها « برش » من الليف الحشن بالكاد يكفي لكي يتمدد عليه الإنسان لينام ملتحفاً ببطانية قدرة إلى أبعد حدود القذارة التي لا يمكن أن تتصورها مهما حاولت . .

أما حيطان الزنزانة ففي الشتاء ينشع منها الماء ليل نهار وفي الصيف تغطيها مع الماء جيوش من البق لا حصر لها . . كيف يستطيع البق أن يعيش مع هذه المياه التي لا تجف لحظة ؟ . . لم أعرف . . ولا أعرف إلى الآن . .

هكذا عشت سنة ونصف كاملة . . لا قراءة ولا كتابة ولا راديو ولا نور ولا أي شيء مطلقاً . . ففي هذه الأثناء كانوا قد نقلوا بالتدريج جميع المتهمين في القضية إلى سجن قره ميدان . . كل في زنزانة منفردة بطبيعة الحال . . فقد كان هذا من حقنا لأننا مازلنا رهن التحقيق . . بالإضافة إلى أنه كان من المستحيل بالنسبة لنا أن نسجن في الزنزانات الكبيرة التي خصصت للمحكوم عليهم ما بين لص وقاتل وتاجر مخدرات وحرامي الحزن . . ! وكان هذا الأخير - كما علمت - أكثر الناس احتراماً في نظر المجرمين . .

في أول الأمر كان يسمح لكل منا بفسحة لمدة ربع ساعة منفردة يومياً ثم بعد أن قدمونا لقاضي الإحالة جعلوا الفسحة ثلاثة أرباع الساعة صباحاً ومثلها بعد

الظهر . . وفي أثناء الفسحة سمحوا لنا باللقاء والكلام . . وتكلمنا . . كل كلامنا تقريباً كان يدور حول ما نعانيه في هذا السجن اللعين . . وخاصة دورات المياه التي كان يستحيل على أى آدمى أن يقضى بها حاجته فإلى جانب قذارتها بصورة لا يمكن أن ترى العين مثيلاً لها . . كان علينا عندما نضطر إلى اللجوء إليها أن نقضى حاجتنا جماعياً . . هكذا كما يفعلون في الأدغال أو ربما في الريف . . ولكن في الحقيقة أسوأ بكثير . . فالأرض هناك واسعة . . ولكن هنا في السجن كانت طاقة دورة المياه ألف شخص في حين كانت حمولتها دائماً ثلاثة آلاف في أى وقت . . وقد أثر هذا تأثيراً سيئاً للغاية على معنوياتنا بل لقد كان السبب في تخصيص عنبر للجرب في كل سجن من سجون مصر . . فكثير من المساجين كانوا يمرضون بهذا المرض . . لأنهم ينتقلون أصلاً من بيئة قدرة إلى بيئة أكثر قذارة وهي السجن . . فينتشر هذا المرض بينهم بسرعة . . كما سبق أن انتشر عندنا في معتقل الزيتون في الأرانب . . وهكذا «بقدره قادر» أصبح لا فرق بين الأرانب والآدمى في السجن . . (وقد عالجت كل هذا بعد أن توليت) .

عشنا سنة كاملة في هذه المعاناة التي لم يستطع أن يتحملها الكثيرون كما تحملتها أنا بفضل نشأتى بالقرية وللخشونة التي اكتسبتها من خدمتى بالقوات المسلحة فمثل هذه المسائل لها أثرها دون شك . .

من خلال وساطات بعض أهالى المتهمين معنا من الأكابر سمحوا لنا في مرحلة متأخرة - بعد سنة تقريباً - بالأكل بالمعلقة ، كما ركبوا شبابيك زجاج فوق شباك الزنزانة الذي لم يكن سوى كوة في أعلى الحائط مفتوحة على الدوام لبرد الشتاء وقيظ الصيف . .

في هذه المرحلة كان المفروض فيمن هو تحت التحقيق أن يأخذ أكل السجن أو يطلب طعامه من متعهد خارج السجن وكان هناك متعهد يملك دكاناً في مواجهة السجن . . في الإفطار كان يرسل لنا بعض العسل والخبز والخبز أيضاً . . ربما . . لا أذكر . . ولكنى أذكر أنى لم أكن آخذ وجبة الظهر من المتعهد فقد كان الإفطار وحده يتكلف سبعة جنيهات ونصف في الشهر . . وكان أهلى في كثير من الأحيان لا يستطيعون دفع ثمنه لأنهم لا يملكونه . .

في يوم ما اتصل الشيخ حسن البنا مرشد الإخوان المسلمين بشقيقى طلعت وأخبره أن الجمعية قد خصصت عشرة جنيهاً شهرياً لأسرتى . . تماماً كما سبق أن فعل إخوانى الضباط وأنا فى معتقل ماقوسة بالمنيا . . ولكن توقفت المعونة المالية بعدما انتهى الاعتقال وظلت متوقفة طوال فترة هربى ولما عدت إلى السجن كان ما زال لا أثر لها على الإطلاق . . ربما نسوا سامحهم الله . .

وأخيراً أتى الشيخ حسن البنا ليعطى لعائلتى عشرة جنيهاً شهرياً فى وقت كان شقيقى طلعت لا يجد ثمن إفطارى ولا حتى ثمن زجاجة ملح الفواكه التى كان ثمنها فى ذلك الوقت ١٢ قرشاً . . وملح الفواكه بدأت أتناوله أول شىء فى الصباح وأنا فى السجن وما زلت إلى الآن استخدمه . . فترة طويلة تقرب من ثلاثين عاماً لم يمكننى فيها الاستغناء عنه إطلاقاً . . أضف إلى هذا ثمن إيجار السرير والمنضدة والكرسى بعد أن سمحوا لنا فى السجن باستعمالها ما دمتنا تحت التحقيق ولكن بشرط أن ندفع عنها إيجاراً يومياً قدره عشرة قروش .

ورغم أن سجن الأجانب لم يكن نزلاؤه إلا من أسافل القوم ورغم أن السجون العمومية هى لأبناء مصر . . لكن التفرقة كانت واضحة . . فهنا ندفع . . وندفع مقابل ماذا ؟ مرتبة من قش الأرز صلبة خشنة والأرجح أنها مصنوعة من ألياف جامدة كالحجر . . أما هناك فالفرش وثيرة والنور الكهربائى متوفر وكذلك الطعام . . وكل هذا بدون مقابل . . تمييز عنصرى حتى فى السجون بينا نحن أبناء الوطن وبين الأجانب . .

ولكن للأسف كانت سجوننا من أسوان إلى الإسكندرية هكذا على نفس الطراز ، حتى أنى لما ذهبت فى ٦ أكتوبر ١٩٧٥ لأهدم سجن طره كرمز لإنهاء امتهان كرامة الإنسان وأمسكت المعول بيدى أضرب به أحسست أن جدران السجن هى نفس جدران سجن قره ميدان ، فالطوب تحت المعول مبلل هش من المياه التى تتخلله وحتى قبل أن أصل للطوب ، وأنا أزيل الطلاء أحسست بالرطوبة ورأيت الصراصير تخرج من بين الطوب والطلاء . . جيوش من الصراصير لاحصر لها . . كان منظرها قبيحاً ولكنى لم أترك المعول لحظة . . ظلمت أضرب فى الحائط وأعصابى مشدودة فلا بد أن أزيله . . حاولوا أن يوقفونى . . ولكنى

رفضت وقلت لهم أنا بخير . . المهم أن تزول هذه السجون وتحل محلها سجون يمكن أن يعيش فيها الإنسان . . ولذلك أمرت ببناء سجون جديدة تتوفر فيها جميع الشروط الصحية . . وفي الوقت نفسه تصلح للانتاج بحيث لا يقضى السجين طول مدة سجنه بين أربع جدران عاطلا عالة على المجتمع . . بل يجب أن يفيد ويستفيد فيخرج من السجن بحرفة جديدة تعلمها وبيعها المال الذي يستطيع ادخاره في السجن مقابل عمله وفعلا بدأنا التجربة في السجن الذي أقمناه بدلا من سجن قره ميدان ، وهو الآن موجود على طريق مصر اسكندرية الصحراوى وإلى جانبه قطعة أرض تم استصلاحها ويقضى بها المساجين نهارهم يزرعونها خضرا وفاكهة بعد أن هدم سجن قره ميدان وأصبحت في مكانه حديقة عامة يستمتع بها الشعب . .

نعود إلى قره ميدان . . في أثناء إقامتنا به كان وكيل النيابة القاویش دائم السعى بطبيعة الحال إلى إدانتنا . .

قبل أن أنقل من سجن الأجانب حدث أن جاء أخى طلعت ليأخذ ملابسى للغسيل كالعادة وكنت قد وضعت في جيب البيجامة ورقة بها رسالة باللغة الإنجليزية تقول :

FORMATION A OUT OF ACTION ALL

FORMATION B GOT IN TOUCH WITH ME

شك القاویش في الملابس ففتشها وأخرج الورقة وصورها ثم أعادها إلى مكانها بالبيجاما . . أحس أخى طلعت وهو في طريقه إلى البيت أن هناك من يتبعه . . أدرك أن هناك شيئا ما . . في البيت وجد الورقة نقل الرسالة التي تحملها وترك الرسالة الأصلية في جيب البيجاما حيث تم غسلها مع بقية الملابس . . وفي عودته إلى السجن كان مازال تحت المراقبة وكان القاویش ينتظر النتيجة - فتح جيب البيجاما فوجد الورقة - الرسالة الأصلية - في مكانها ولكنها قد أصبحت عجينة . . ذهب المستند الذى كان يتطلع إليه ! خاب أمله وازداد خيبة عندما علم من رجاله أن الرسالة لم تبلغ إلى أية جهة . . فقد بلغها أخى طلعت في الساعات الأولى للفجر في يوم كان واثقا فيه من أن أحدا لن يفكر في أن يتبعه . .

كان التنظيم « أ » كله من المدنيين وأما التنظيم « ب » فقد كان خليطاً من العسكريين والمدنيين . . ولكن لا أحد يعرف أن الآخر في التنظيم . . أراك يا عزيزي القارئ تتساءل إلى من بلغت الرسالة فأجيبك على الفور . . إلى من عهدت إليهم الأقدار بالقيام بثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ . (وكان تصرف وکیل النيابة في هذا الموضوع من الأركان الرئيسية لبراءتي) . بعد عودة الملابس مباشرة أتى إلى السجن القاویش وطلب التحقيق معي . . أعطاني ورقة وقلماً وقال . . اكتب وأملاني .

Formation A out of action all

Formation B got in touch with me

فهمت أن الرسالة التي بعثت بها قد وقعت في أيديهم . . كنت قد كتبت الرسالة بحروف مفردة . . ولكنني كتبها الآن بالخط المشبك . . فعاد وطلب أن أكتبها بالحروف المفردة . . أنا عادتني أميل الكتابة لليمين أو أقف في الوسط . فتعمسدت أن أميلها للشمال . . كتبت ثلاثة صفحات كاملة بالحروف المفردة والمشبك فقد كان هدفه أن يقارن ما كتبت بخط صورة الرسالة التي عنده . ويصبح لديه بهذا مستند يحقق الأمل الذي كان يراوده وهو أن يقع في يده تنظيم الجيش . ولكن خاب ظنه .

لم يأتى القاویش إلى بعد ذلك الإمتحان الذي فشل فيه .

كان بقية المتهمين في القضية - « الأولاد » كما كنت أسميهم - قد بدأوا يفدون إلى سجن قره ميدان كما سبق أن رويت . . وكان معنى هذا أننا ما زلنا تحت التحقيق إلى أن نذهب لقاضي الإحالة الذي له أن يحكم بتحويلها إلى محكمة الجنايات أو باعتبارها جنحة لا ترقى إلى جناية . . أو أنها لا شيء على الإطلاق فيفرج عن المتهمين . .

بمجرد أن عرضت القضية على قاضي الإحالة رفعت عنها السرية وتداولها المحامون فوجدوا أنني قد قوضت أركان القضية بانكارى وتكذيبى للآخرين واتهامى مأمور السجن ووکیل النيابة وغيرهم بتعذيبى . . ووجد المحامون في

القضية لقمة سائغة فأخذ كل محامى يوصى موكله بالإنكار قالوا لهم « لو أنكم استمتم في بداية الأمر إلى نصائح أنور السادات ؟ . إنه رجل . . أما أنتم فما زلتم صبيه صغاراً » . . كان عمري ٢٧ عاماً في ذلك الوقت أى سنة ١٩٤٦ أما أعمارهم فكانت تتفاوت بين ١٤، ١٧، ٢٠، ٢٢ سنة . . كنا سبعة وعشرين متهماً في القضية وكان رقمى السابع أى كان أمامى ٦ وخلفى عشرون . . وبالطبع تختلف تهمة كل منا عن تهم الآخرين ولكنها تدور جميعاً حول مقتل أمين عثمان . . أفرج قاضى الإحالة عن اثنين منا فقط بكفالة . . بينما ظل الباقون وكنت منهم طبعاً في السجن ننتظر المحاكمة .

ولكى نشغل الوقت راح المحامون عنا يقدمون المعارضة بعد الأخرى . . ولكن بدون فائدة . .

هكذا مرت سنة ٤٦ ثم أتت سنة ٤٧ ولم يكن فيها من جديد سوى أنهم حددوا لنا دائرة جنايات . وكان موقف المحامين في هذه المرحلة طلب التأجيل مرة بعد أخرى ودعواهم أن القضية كبيرة وملفاتها كثيرة - مجرد كسب وقت - ونجحوا طبعاً . . فمع مرور الزمن تغيرت دائرة الجنايات إلى دائرة جديدة . .

فقد كان الذين يترافعون عنا من أكبر محامى مصر . . وكان الواحد يتقاضى عن القضية الواحدة آلاف الجنيهات ولكن للأسف لم يكن هذا حالهم في العشرين سنة الأولى للثورة بعد أن عطلت سيادة القانون ، فلم يصبح هناك أى مجال للمحاماة أو القضاء . . وأفلس الكثيرون من المحامين أو كادوا .

ولكن الأمور قد عادت إلى مجراها الطبيعى اليوم بعد أن أعدت سيادة القانون . . أصبحت الحاجة ملحة إلى المحامين للعمل على رفع الظلم عن الناس . .

وبعد الانفتاح زاد الطلب على المحامين إذ لابد لكل رجل أعمال أجنبي يفيد إلى مصر من أحد المحامين لكى يرعى شئونه . . وبذلك عاد الكيان لا إلى القضاء وحده بل إلى المحاماة أيضاً .

مكانان في هذا العالم لا يمكن للإنسان فيهما أن يهرب من ذاته . . هما الحرب والسجن . . وفي الزنزانة ٥٤ عشت مع نفسي . . تلازمني وألازمها ليل نهار . . لم تكن هذه الفرصة قد أتيت لي من قبل . . فقد كنت مشغولاً بأشياء كثيرة أعمل بالحيش وأشتغل بالسياسة بينما كان تيار الحياة اليومية يجرفني معه أينما ذهب أو ذهبت . أما الآن فأنا أعيش في الزنزانة ٥٤ دون أن تكون لي صلة بالعالم الخارجي . . فلا راديو ولا صحف ولا أى شيء على الإطلاق .

وحدة رهية لم يكن هناك من سبيل إلى الخلاص منها سوى أن أعيش مع نفسي . . وفعلت عشت معها ولكن رغم هذه المعاشة لم أستطع أن أنفذ إليها كأن شيئاً ما يقف بيني وبينها . .

ظلمات كنت أعاني منها من زمن ولكني لم أدركها تمام الإدراك لأنني لم أستطع أن أنقلها إلى منطقة الضوء .

وعندما سمحوا لنا في السجن بالكتب والمجلات والصحف انكبت عليها أقرأ في نهم وأجد في كل سطر شيئاً جديداً يفتح أمامي آفاقاً لم أعرفها من قبل .

كان أكثر من نصف قراءاتي باللغة الإنجليزية والباقي باللغة العربية وعندما كانت تستهويني فكرة أو قصيدة شعر أو أى شيء فيما أقرأ كنت على التو أنقل ما يروقني في كراسة ما زلت أحتفظ وأعزبها كل الإعتزاز إلى الآن وهي كراسة السجن . . وقد أودعتها أغلب ما كان له أثر على حياتي من آراء أو مشاعر لكتاب ومفكرين من الشرق والغرب .

ولم يقتصر أثر قراءاتي المتعددة على توسيع آفاقى الفكرية والعاطفية بل لقد ساعدتني هذه القراءات على المزيد من التعرف على الذات . . فاستطعت أن أتخلص من أزمة عصبية كنت أعانى منها منذ زمن وكانت بسبب القبض علىّ فى الساعة الثانية صباحاً فى برد الشتاء القارص فى كل من عامى سنة ٤٢ ، ٤٦ . لم أكن أدرك طبيعة هذه الأزمة ولكنى كنت أشعر أنها تعكر صفو سلامى الروحى . . إلى أن دخلت السجن وعشت مع نفسى فطفت هذه المعاناة على السطح تلقائياً . . أسبوع واحد فى السجن يكفى لهذا . . أما كيف تخلصت من هذه الأزمة فالفضل يرجع إلى مقال قرأته فى « ريدرز دايجست » لأحد علماء النفس الأمريكان . . كانت خلاصة المقال أو النتيجة التى وصل إليها الطبيب النفسانى بعد تجارب ٢٤ سنة هى أن الإنسان فى أية مرحلة من مراحل حياته معرض لأن يصاب بصدمة تكون نتيجتها أن يحس أن كل شىء حوله مغلق . . وكأنه فى سجن لا باب له . .

أول باب لهذا السجن أن يعرف الإنسان ماذا يضايقه . . وثانى باب . . الإيمان . . ما معنى الإيمان ؟ أن تنظر إلى أى شىء كربه يحدث على أنه قدر لا بد من مواجهته وتحمله . . وبعد ذلك تغلب عن الآثار الناجمة عن هذا . . فيجب ألا تفكر أنه ليس هناك حل لأية مشكلة . . لأن الحل دائماً هناك . . ما الذى يجعلك تفكر هذا ؟ إيمانك بأن الله قد خلقك لأن عليك دوراً يجب أن تؤديه فى هذه الحياة . . والإله الذى خلقك ليس شريراً على الإطلاق . . بالعكس إنه خير جداً . . لا كما يصوره لنا الشيخ فى كتاب القرية - جبار . . مخيف . . وذلك فالعلاقة المثلثية بين الإنسان والله لا تبنى على الخوف أو على الثواب والعقاب . . بل على قيمة أسمى من كل قيمة . . وهى الصداقة . . فمن صفات الخالق . . الرحمة والعدل والحب ثم هو قادر على كل شىء لأنه مصدر الأشياء جميعاً فإذا اتخذت منه صديقاً منحك الاطمئنان . . فتحت أية ظروف وفى جميع الأحوال تحبه ويحبك .

إن تحليل العالم النفسانى لم يحل لى عقدة الهزة العصبية فقط بل فتح أمامى آفاقاً من الحب لا حدود لها فى علاقائى بالكون . . كانت كامنة فى خضم الحياة العادية

فكشفت عنها تجربة السجن ومعاناتها بحيث أصبح الحب المنطلق الرئيسى لكل أفعالى ومشاعرى .

من أجل هذا . . ولأنى أصبحت مليئاً باليقين والاطمئنان لم أهنز لحظة واحدة وسط الأحداث المتقلبة التى واكبت حياتى فى جميع مراحل العمر . ولم يخذلنى الحب مرة واحدة . . بل كان دائماً ينتصر فى النهاية . .

وهذه حكايتى أو طرف منها مع جمال عبد الناصر . . فى الثمانى عشرة سنة التى لازمته فيها . . كانت هناك أوقات لا أستطيع فيها أن أفهمه أو أن أقر بعض تصرفاته ومع ذلك كانت مشاعرى نحوه هى نفس المشاعر . . الحب والحب وحده . .

وقد تساءل البعض فى حيرة كيف قضيت هذه الفترة الطويلة مع عبد الناصر من غير أن يقع بيننا ما وقع بينه وبين بقية زملائه مثلاً تساءل صحفى أجنبى فى لندن قائلاً إما إننى كنت لا أساوى شيئاً على الإطلاق وإما أنى كنت خبيثاً غاية الحبث بحيث تحاشيت الصراع معه . . وبقيت أنا الرجل الوحيد من رجال الثورة الذى لم يمسه سوء بل على العكس عندما فارق عبد الناصر الحياة كنت أنا نائب رئيس الجمهورية الوحيد . .

وإن دل هذا التساؤل الساذج على شىء فإنما يدل على جهل أصحابه بطبيعتى فلا أنا كنت عديم الصفة أثناء حياة عبد الناصر ولا كنت خبيثاً أو لئيماً فى حياتى قط . . كل ما فى الأمر أنى وعبد الناصر تصادقنا ونحن فى سن التاسعة عشرة ثم جاءت الثورة وأصبح هو رئيساً لجمهورية مصر . . فقلت فى نفسى أهلاً وسهلاً . . صديقى الذى أثق فيه قد صار رئيس جمهورية ، وهذا شىء يسعدنى ونفس الإحساس شعرت به عند ما أصبح عبد الناصر زعيماً للأمة العربية وبني حوله هالة كبيرة . .

أحياناً كنا نختلف ونحدث بيننا جفوة قد تستمر شهرين أو أكثر يرجع السبب فيها ربما إلى اختلافنا فى رأى أو إلى دس بعض من لهم تأثير عليه ممن حوله . . فقد كان عبد الناصر يؤمن بالتقارير ويميل بطبعه إلى الإصغاء للقليل والقال . . ولكن أياً كان الأمر فلم يحدث مرة واحدة أن وضعت نفسى موضع الدفاع

فليس من طبعى أن أفعل هذا بالنسبة لعبد الناصر أو لغيره من الناس . . طبعاً كانت تنهى الجفوة مهما طالت عندما يتصل بي تليفونياً ويسأل أين كنت طوال هذه الأيام ولماذا لم أتصل به ؟ وكنت أجيب بأنه كان لا بد مشغولاً ولذلك فضلت أن أتركه لمشغوليته . . ثم نلتقى وكأن شيئاً لم يكن . .

حدث هذا مراراً عديدة ولكنى كنت أقابل كل ما يفعله عبد الناصر بالحب الخالص من جانبي . . لقد تسلم تنظيم الضباط الأحرار في نهاية سنة ١٩٤٢ وقطع به شوطاً طويلاً استغرق ٦ سنوات كاملة كنت أنا أثناءها في السجون والمعتقلات ثم بعد خروجي من السجن كان لا بد لي من العودة إلى الجيش لكي أشاركه وزملاءه في الجهود التي بدأتها ثم استأنفوها هم من بعدى . . وفعلاً تحقق هذا عندما عدت إلى الجيش عام ١٩٥٠ .

ثم قامت الثورة في ١٩٥٢ وساهمت فيها ولكن لم تكن مساهمتي بالأمر الذي يهمني في حد ذاته . . الأهم من كل شيء أن الثورة قد قامت وتحقق بها الحلم الذي استولى على حياتي منذ أن كنت صبيّاً لم أبلغ الثانية عشرة بعد . .

هذا ما جعلني أعيش مع عبد الناصر ١٨ سنة دون صراع . لأنى لم أكن أريد شيئاً . . لم تكن لي مطالب من أى نوع وفى أى وضع كنت . . عضواً في مجلس قيادة الثورة أو سكرتيراً للمؤتمر الإسلامى أو رئيس تحرير جريدة الجمهورية أو وكيلاً لمجلس الأمة . . أو رئيس مجلس الأمة . . لم يتغير حبي لعبد الناصر أو تختلف مشاعرى نحوه . . فأنا إلى جانبه منتصراً كان أو مهزوماً . . ولعل هذا ما جعل عبد الناصر يلتفت حوله بعد ١٧ سنة وينتبه إلى أن هناك إنساناً لم تقم بينه وبينه معركة فى يوم ما . .

وهذا ما جعلنى أقول إن الحب ينتصر فى النهاية . . فلم يكن من السهل أن تزول الغشاوة من عيني عبد الناصر . . وداخله ملئ بتناقضات لا يعلمها إلا الله . . يحتم على واجبي كصديق أن لا أكشفها أو أفصح عنها . . ولكنها كانت موجودة . . عبد الناصر مات دون أن يستمتع بحياته كما يستمتع الآخرون . . فقد قضاهما كلها بين انفعال وانفعال . . القلق يأكله أكلاً فقد كان يفترض الشك فى كل إنسان مسبقاً . . وكانت النتيجة الطبيعية لكل هذا أن خلف عبد الناصر

وراءه تركة رهيبة من الحقد سواء بين زملائه أقرب الناس إليه أو داخل البلد نفسها بجميع طبقاتها . .

ولكني كما قلت وكما زلت أكرر . . انتصر الحب في النهاية . . هذا الحب الذي كان وليد المرارة والألم في الزنزانة ٥٤ . . فلا شيء مثل المعاناة يصقل النفس ويزيل عنها الصدأ ويكشف عن معدنها الأصيل . . فقد تكشف لي أني بطبعي وتكوينى أحب الخير . . وأن الحب هو الدافع الحقيقى لكل ما أفعل . . وبدون الحب لا أستطيع فعلاً أن أعمل . .

لقد منحني الحب اليقين والثقة الكاملة في نفسي وفي كل شيء حولي . . فحيي للكون مستمد من حبي لله عز وجل . . ومادام الخالق صديقي فقيم الخوف من البشر ؟ . إنه هو الذى يملك أمرهم وأمر الوجود كله . .

بهذا الإحساس الذى أصبح جزءاً لا يتجزأ مني . . والذى كان كذلك طوال حياتي ولكن دون أن أعيه وعياً كاملاً . ارتفعت فوق المكان والزمان في الزنزانة ٥٤ فلم يعد المكان الزنزانة ذات الأربعة جدران . . بل اتسع بحيث شمل الكون كله . . أما الزمان فلم يعد له وجود بعد أن دخل قلبي حب سيد الكون فاستولى على وأصبحت أشعر أني أينما كنت فأنا منه قريب . . يقول تعالى :

«وإذا سألك عبادى عني فإني قريب أجيب دعوة الداعى إذا دعان» .

صدق الله العظيم

أصبح صديقي الذى تملأ صداقته كل كياني وتملاً فراغ الزنزانة هو الله منبع الحب والخير والوفاء وكل ما يجعل قوته شريفة . . فقد كنت معه أحبه وأعبدته في كل ما خلق . . كم أصبح كل شيء مصدراً للبهجة والسعادة فالكل أصدقائي لأن الكل من صنع الله . . الشجرة التى أراد لها أن تكون فكانت والحبة التى تنبت بإرادته التى هى حبه . . والزهرة والجبل والثمرة والجذور والفروع والبشر على مختلف ألوانهم وطباعهم . . كل ما في الوجود أصبح موضع حبي . . لأنه كان مثلي كان ويكون بحب الله له . . وبحبه لله . .

مما تعلمته في الزنزانة ٥٤ أن العاقل هو من يحرص على النجاح الداخلي لأنه سيظل دائماً متوازناً داخل ذاته صادقاً مع نفسه والصدق مع النفس يعني الصدق مع الناس . . وأنا لا يهمني النجاح الذي يراه الناس في بل النجاح الذي أراه أنا في داخل نفسي وأرتاح إليه . . هذا النجاح يعتمد أساساً على معرفة الذات ولذلك فمن يؤمن . . يحاسب نفسه قبل محاسبته للغير وهو لا يأخذ في الاعتبار ما يناله الإنسان من مكاسب مادية بل على مدى اكتشاف صورة الإنسان لذاته وتحقيق هذه الصورة فيما يصدر عنه من أفعال . . إن النجاح الداخلي قوة دائمة مطلقة لا تخضع لأي مؤثرات خارجية على عكس النجاح الخارجي الذي يهتز ويتغير من وقت إلى آخر حسب الظروف والعوامل الخارجية فقيمه دائماً نسبية .

أغلب الناس يبهروهم النجاح الخارجي — ما يصلون إليه من مراكز اجتماعية أو مال أو سلطان — باختصار صورتهم في نظر الغير ولذلك إذا تغيرت هذه الصورة لسبب أو لآخر اهتزوا وأصابهم الإنهيار . . فهم لا يعرفون الصمود لأنهم لا يعرفون الصدق مع النفس أو مع الآخرين فالغاية عندهم دائماً تبرر الوسيلة . . أما أنا فقد درجت على أن تكون صورة الذات في نظري أهم عندي من صورتى في نظر الناس . . رئاسة الجمهورية ليست أكبر عندي من أنور السادات ، فأنور السادات هو نفس أنور السادات في أى موقع وتحت أية ظروف . . إنسان ليست له مطالب خاصة لنفسه ومن ليس بحاجة إلى شيء فهو سيد نفسه .

فالاعتماد على النجاح الخارجي يبعد الإنسان عن ذاته . . والجهل بالذات

هو أسوأ ما يمكن أن يصيب المرء إذ تنتشر الظلمة داخل النفس . . وبانتشارها يفقد الإنسان الرؤية وتضيع عنه معالم الطريق فيصبح سجيناً داخل نفسه . . .
منعزلاً عن كل ما عداه . . وبهذا يفقد كيانه كإنسان . .

فهذا الكيان لا يتحقق إلا بالاتصال والاتصال دائماً بين الإنسان والكون . .
إذ بدون الاتصال يعيش الإنسان على ما تأتى به الأيام من نجاح أو فشل عبداً
للزمان والمكان فهو يكون ولا يكون . .

فقط عندما يتصل . . عندما يتسع وعيه حتى يشمل الكون بأجمعه . .
عندما تذوب ذاته في ذات الآخرين . . عن طريق الحب والمعاناة من أجلهم . .
باختصار فقط عندما لا يكون الإنسان فهو يكون . . فيقهر الزمن ويعلو
على المكان . .

هكذا تعلمت من تجاربي في الحياة ، ولكن كم من الناس يدركون هذا ؟ وكيف
يدركون وهم لا يملكون إلا رؤية أنفسهم وقياس الغير بمقاييسهم التي أعمت
بصائرهم عن كل شيء فيما عدا ما ينالون من نجاح خارجي يشوه الذات فيعذبها بدلاً
من أن يحققها فيسعددها ؟

في أواخر الخمسينات كنت ألقى حديثاً أسبوعياً بإذاعة صوت العرب . .
وكنت أحس أن المجتمع المصري لا بد له من العودة إلى قيمه الأصيلة التي
حفظت عليه وحدته وشخصيته عبر آلاف السنين ومواجهة العديد من المغيرين
وأن بناء الإنسان يجب أن يكون هو الهدف بعد أن كان واضحاً أن البعض يريد
أن يستغل الثورة لهدم القيم والإنسان فأخذت أنبه إلى ذلك في هذه الأحاديث
ولا أعرف من الذي أخبر عبد الناصر . . وأنا لا أريد بهذه القصة اغتيال
عبد الناصر ، فالوفاء له يقتضي أني ألا أسمح لأحد باغتيابه بقدر ما لدى من
معلومات وبقدر ما أخذت نفسي به من إعطاء الشعب حريته . .

المهم سألتني عبد الناصر عن أحاديثي في صوت العرب . . وقال إن الإذاعة
دفعت لي حوالي ٤٠٠ جنيهاً مقابل تلك الأحاديث . . قلت نعم . . فعلا حدث

ولم أقل له ما لم يكن يعلمه وهو أنى كنت قد كونت جمعية باسم مسجد ميت أبو الكوم ، وأن شيك الإذاعة تسلمه صندوق الجمعية كما هو . . فكما سبق أن قلت . . أنا لم أضع نفسى يوماً موضع الدفاع أمام أى إنسان . .

واستمر عبد الناصر فى كلامه بما يشير إلى الناس سوف تتكلم وأن كلام الناس كثير . . . إلخ . .

بعد هذا سجلت الحديث الاسبوعى وجعلته ختام أحاديثى وكان موضوعه النجاح الداخلى . . والنجاح الخارجى . . وكيف أن الأول أبقى وأدوم أما الثانى فأنا لا آخذ به لأن الصدق مع النفس ينقصه وبالتالى فمن يؤمن به لن يكون صادقاً مع الناس . . بل وسيظل عبداً لمطالبه ورغباته وشهواته . . وهو ما أرفضه .

اخترت موضوع الحديث هذا عمداً كختام لهذه الأحاديث . . فقد كنت أعرف أن أحد مستشارى جمال يهرهم النجاح الخارجى . . وأنه سوف ينقل الحديث إلى عبد الناصر وخاصة عندما أوضحت أنه لا يعينى أن يرى الناس النجاح الخارجى فى وإنما يعينى أن أرى أنا النجاح الداخلى فى نفسى . .

وفعلا حدث ما توقعت . . فكانت جفوة بينى وبين عبد الناصر استمرت شهراً أو أكثر لم يتصل خلالها أحدنا بالآخر . .

لقد سيطر مفهوم النجاح الخارجى على أذهان ومشاعر القائمين على أمور مصر فترة طويلة ، وكان من نتائج ذلك أن أقبل الناس على المادة وأغرقوا أنفسهم فيها بشكل لم يسبق له مثيل - فأصبح الإنسان يقاس لا بقدر ما يحققه من خير أو يحمل قلبه من حب للآخرين بل بقدر ما ينال من مال أو قوة . . وهكذا فى خضم التصارع على المادة نسينا أو غابت عنا الحقيقة الأزلية التى لا يمكن لأى مجتمع إنسانى أن يقوم بدون أن تكون فى بوثة شعوره باستمرار . . وهى أن الإنسان قيمته تستمد من ذاته فهى مطلقة على الدوام ولا يمكن أبداً أن تكون نسبية .

يقول تعالى : « إنا عرضنا الأمانة على الأرض والسماوات والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان » .
صدق الله العظيم

لقد أفرد الله للإنسان دوراً تميز به عن جميع الكائنات . . فى التوراة يقول تعالى : « إن الله قد خلق الإنسان على صورته » ، وفى القرآن : « نفخ فيه من روحه » . . وكل هذا يحتم على الإنسان أن تكون له رسالة وإلا انتفى المعنى لوجوده . . فالأصل فى هذا الوجود هو حمل الأمانة التى كلفه الله بحملها . .

قد تختلف الرسالة من شخص لآخر . . ولكنها فى جميع الأحوال تهدف إلى تحقيق ما أراد له الله أن يحققه من حمله الأمانة . . فإذا خلت حياة الإنسان من رسالة يؤديها كان هذا معناه أنه قد خان الأمانة .

ولكن لكي يؤدي الإنسان الرسالة التي خلق من أجلها ، يجب عليه أن يستمد كيانه من ذاته لا من عوامل خارجية . . بهذا وحده يستطيع الإنسان أن يدين بالولاء لما هو أكبر وأبقى من هذه الذات فتكون له رسالة يؤديها في هذه الحياة . .

هذا يقين توصلت إليه في الزنزانة ٥٤ وأصبح جزءاً لا يتجزأ من كياني فإذا انقضى يوم بدون أن أفعل شيئاً نحو هذه الذات التي هي أكبر مني وأشمل بت غير راضٍ عن نفسي وتساءلت ماذا فعلت بالأمانة التي أحملها يوماً بأكملها ؟

إن قيمة الإنسان مطلقة دون شك . . لأنها لو كانت نسبية فسوف تتغير من شخص إلى آخر ومن مجتمع إلى مجتمع . . ومن زمن إلى زمن . . حسبما يفيد منه الناس كل من وجهة نظره . . فيراه البعض عظيم الفائدة ويراه الآخرون عديم النفع . . أو ربما كثير الضرر . . وهكذا إلى أن يفقد الإنسان قيمته كإنسان وبالتالي يفقد كيانه .

وهذا ما يحدث في المجتمعات الفاشية مثل المجتمع النازي أو الشيوعي حيث تكون قيمة الإنسان مرهونة دائماً بمتطلبات هذه المجتمعات مما يمسح البشر أو يحيلهم إلى أنصاف آلهة في الأحزاب الحاكمة أو يجعلهم عبيداً عليهم فقط أن يطيعوا الأوامر أو آلات تعمل دون أن تعي . .

وفي كل هذه الحالات يفقد الإنسان كيانه كإنسان له قيمة في ذاته ويسلب حق حمل الأمانة التي كلفه الله بحملها ويجرد من الرسالة تلك الشعلة المقدسة التي خلق ليضيء بها الطريق لمن حوله ولمن يأتي بعده من أجيال . .

فعندما تصبح قيمة الإنسان نسبية تزول القوانين الإلهية بل والوضعية أيضاً . . إذ يصبح لا مكان لها ما دامت سيادة القانون قد زالت كقيمة مطلقة وحلت محلها سيادة بعض الأفراد ممن هم أسرى النجاح الخارجي والذي يصبح المقياس الوحيد الذي يقيسون به الناس مما يؤدي بالضرورة والحتمية إلى ضياع القيم الإنسانية العليا التي من أجلها وجد الإنسان . .

وهكذا يضيع مجتمع الخير والجمال ويحل محله مجتمع القوة . . وأغلب البشر الآن يعيشون مجتمع الحقد والقوة مما أفقد العالم القيم العليا التي بناها الإنسان على مر العصور . . وفي اعتقادي أن المخرج الوحيد للبشرية من الأزمة التي تعانيها هو العودة إلى هذه القيم والإصرار على وضعها موضع الصدارة في جميع مجالات الحياة . . ولذلك تجدني لا أكف عن الدعوة إلى تبني قيم القرية المصرية ربما بشيء من التطرف أحياناً . . ولكنني أرى فيها الخلاص الوحيد من آثار مجتمع القوة التي جربناه في مصر فأضاع القيم بأكملها . .

في الثمانية عشر عاماً السابقة على رئاستي للجمهورية حاولوا أن يجعلوا من مصر مجتمع حقد وقوة فقط ولكن التجربة فشلت ١٠٠٪ لأنها لا تتلائم مع تكويننا أو طبعنا . . نادينا بالديكتاتور العادل أو المستبد العادل فلما جاءنا . . قام البناء على الرمال . . وليت الأمر اقتصر على هذا . . فأقبح ما واجهته لم يكن الوضع الاقتصادي المهار ولا الوضع العسكري المهيمن . . بل جبل الحقد الذي نشأ عن محاولة بناء مجتمع القوة . . ففي هذه المجتمعات كما قلت تنعدم القيم الإنسانية ومع انعدامها يصبح الشاغل الوحيد لكل فرد في المجتمع أن ينال أكبر قسط من النجاح الخارجي (الكسب أو الجاه والقوة المادية) بحق أو بدون حق ومهما كلفه هذا من ثمن ولو كان القضاء على الآخرين .

من نتائج مجتمع الحقد والقوة حالة الضياع والحيرة التي يعيشها الشباب في مصر اليوم فقد وضعوا أمامهم قيماً للمجتمع لا وجود له في ذاتهم ولا في تكوينهم وقالوا لهم هذا هو مجتمعكم الجديد وهو أحسن المجتمعات . . ومن هنا نشأ صراع داخلي مرير عند الشباب . . بين قيم جمالية ترسبت في وعيهم الجماعي على مرور آلاف السنين هي عمرهم الحضاري . . ومجتمع القوة الجديد الحالي من أي قيم والذي فرض عليهم فرضاً . . وازدادت حدة الصراع وأصبح الضياع أمراً محتوماً عندما رأى الشباب مجتمع القوة ينهار أمام أعينهم ومع ذلك فما زالوا يلقنونهم أنه أفضل المجتمعات وأقواها .

في الزنزانة ٥٤ بدأت الروابط التي تربطني بمطالب الحياة تنقطع الواحدة بعد الأخرى . . ولما تخففت الروح من أثقالها تحررت الذات وانطلقت كما ينطلق الطير من قفصه إلى الفضاء الواسع . . إلى الكون بأجمعه . . إلى اللانهاية . . فما دام الإنسان يريد أن يكون هذا أو ذاك أو أن يمتلك هذا أو ذاك فهو لا يمتلك شيئاً على الإطلاق لأنه سيظل عبداً لما يريد ولما يملك . . وبذلك فهو لا يكون . . فقط عندما يتخلص من كل ما يمت إلى ذاته يصبح سيد نفسه . . فيكون . .

فعندما يخرج الإنسان من الذات الضيقة بمعاناتها وانفعالاتها الدنيوية يجد أمامه عالماً جديداً لم يعرفه من قبل . . هذا العالم الجديد أرحب وأغنى من الحياة التي ألفها وهو أيضاً من نوع مختلف . . ففيه تتحرر الذات بحيث تصبح كل ما في الوجود فلا زمان ولا مكان يمكن أن يحتويها . . وفي هذا التحرر تتحول الإرادة إلى حب . . وكل ما كان يمكن أن يعكر الصفو . . إلى سلام لا حدود له ويجد الإنسان سعادة تفوق كل ما يمكن أن يسعد به على هذه الأرض . .

من أجل هذا كانت الستة شهور الأخيرة لي في الزنزانة ٥٤ وما زالت أسعد أيام حياتي . . ففيها تعرفت لأول مرة على هذا العالم الجديد . . عالم إنكار الذات إنكاراً تاماً بحيث ذابت في غيرها من الكائنات فاستعت واتصلت بسيد الكون . . طبعاً لم يكن هذا ليحدث قبل أن أدخل إلى نفسي وأعيش معها وأعرفها . . ومما لا شك فيه أيضاً أن قراءاتي قد ساعدتني على اكتشاف هذا العالم الجديد . . أنا لم أدرس التصوف ولكن ما وقع في يدي من أقوال وكتابات المتصوفين

وجد صدى في نفسي مثل الكثير من قراءاتي في السجن فقد عبرت لي عما كنت أشعر به دون أن تصل درجة إدراكي إلى مرحلة الوعي الكامل والتعبير . ولكن لعل المعاناة من أهم العوامل التي قربت بيني وبين العالم الحديد الذي عرفت فيه السلام الروحي كما لم أعرفه من قبل فالآلام العظيمة هي التي تبني الإنسان وتجعله يرى نفسه على حقيقتها . . وهذه الآلام تندرج تحت الكثير من القيم الإنسانية العليا . . مثلاً غدر الصديق بي يفوق كل ألم آخر في الحياة . . لأن الصداقة عندي شيء مقدس ولذلك عندما يغدر بي صديق أحس أن الأرض قد اهتزت تحت قدمي . . وعندما أقرر الاستغناء عن الصديق لغدره بي أشعر أن جزءاً من كياني قد انسلخ عني . . وأعاني من الآلام ما لا طاقة لبشر بتحملة . . إلى من ألقأ ؟ وما هو السبيل إلى دفن أحزاني ؟

لم يعد هذا حالي بعد أن تعرفت على عالمي الحديد وعشت فيه . . لا وجود لذاتي . . فالوجود الوحيد لذات الكون وللذات العليا . كان هذا العالم الحديد فتحاً حقيقياً بالنسبة لي . ففيه عرفت صداقة الله . . هو وحده عز وجل الصديق الذي لا يمكن أن يخونك أو يتخلى عنك . . فهو الذي خلقك وكونك وحملك الأمانة وأعطاك من روحه وهو لا يعرف إلا الحب الذي لا حدود له والخير الذي ليس بعده خير . .

وهو يريد للحياة التي خلقها أن تسير شريفة . . قوية . . جميلة . . بعدما عرفت صداقة الله ، تغيرت كثيراً فلم أعد أغضب أبداً إلا في الحق وأصبحت الحياة بالنسبة لي أرحب وأجمل وأوسع وزادت قدرتي على التحمل مهما كانت الأمور والمشاكل التي علي أن أتحمّلها . . وصار أهم هدف لي في الحياة إسعاد الآخرين وأصبحت البسمة على أية شفاه وخفقة الفرح في قلب أي إنسان تسعدني كما لو كان قلبي هو الذي يخفق فرحاً . . ولم يعد للانتقام أو الحق أي مكان في نفسي . . وأصبح إيماني بأن الخير دائماً ينتصر جزءاً لا يتجزأ من وجداني . . وزاد إحساسي بجمال الحب وهو الاحساس الذي صورته لي نشأتى بالقرية كرباط يجمع بين الناس في العمل والحياة . . ثم غدته في أمي خلال مراحل حياتي . . إذ كانت رحمها الله معيناً لا ينضب للحب . . كان هذا تكوينها الطبيعي . . مجموعة انفعالات حب لا يعرف الحدود .

ولذلك فلعل أكثر ما عانيت منه في الزنزانة ٥٤ هو شعورى بالفراغ العاطفى فلكى يكون الرجل مكتملاً لابد أن تكون له رفيقة . . تحبه ويحبها . . هذه فعلاً أعظم نعمة في الوجود . . فعندما تمتلئ نفس الإنسان بالحب يستطيع أن يتم رسالته . . وبدون هذه العاطفة يعيش إلى أن يبلغ منتهى العمر وهو يشعر أنه يفتقد شيئاً هاماً وأنه مهما حقق فهو لم يكتمل بعد .

كان هذا شعورى في جميع مراحل حياتى . . لم أشعر أبداً أن الحب كقيمة إنسانية عليا قد تغيرت في نظرى يوماً ما . . بل على العكس إذ اكتشفت أن الحب هو المفتاح لكل شيء . .

حدث هذا في الزنزانة ٥٤ عندما تجردت من ذاتى فنعمت بصداقة الله . . وعمر قلبى بحبه . . وأصبح ظله سبحانه وتعالى يحتوينى . . وعندها أدركت أن الحب قانون تستقيم به الحياة وتزدهر وتثمر وأن بدونيه كل شيء عدم .

لقد اكتشفت ذاتى عن طريق الحب . . وعندما أنكرت هذه الذات وأذبتها في ذات الكون . . أصبح الحب الشمولى لمصر - للكون - للخالق عز وجل - هو المنطلق الذى مارست منه وما زلت أمارس واجبى في الحياة . . في الشهور الأخيرة لى في السجن . . بعد خروجى منه . . عندما كنت عضواً في مجلس قيادة الثورة . . والآن وأنا رئيس جمهورية مصر . .

هذا ما يجعلنى أدعو دائماً إلى الحب . . فهو المظلة التى تحمى الإنسان من كل الأزمات . . كل من عرفه لن يعرف الجذب بل النماء والإزدهار لأن الحب عطاء والعطاء دائماً يبنى . . على عكس الحقد الذى ساد حياتنا في الثمانية عشر عاماً الأولى قبل أن أتولى الرئاسة فهدم كل ما في طريقه هدماً ما زلنا نعانى من آثاره إلى اليوم .

« ربى قد طويت من عمري صفحات ونشرت اليوم صفحة فاجعل صفحتى هذه أدعى للخير وأخلى من الشر . . وزينها بالحق وبرئها من الباطل . واجعل فاتحتها وخاتمها الإخلاص لك والعمل لوجهك واجعل يقينى أفضل اليقين وصحح بما عندك يقينى » . هكذا كنت أناجى ربى كصديق . . في الأسبوع الأول بعد وفاة عبد الناصر قبل ولايتى . .

كان من الطبيعي بعدما عشت عالمي الحديد حيث تخلصت الروح من أثقالها واقتربت المسافة بينها وبين الكون وخالقه عز وجل أن تتضح في نظري بعض مفاهيمي للحياة وأن يصيب التغيير نظرتي إلى كثير من الأشياء . .

لم يعد الحب بالنسبة لي عملية احتواء للحبيب بل عطاء وفناء في ذات من تحب . . . وليس هذا الفناء معناه العدم . . فالحب هو الطاقة الوحيدة القادرة على إزالة الحواجز بين الروح والمادة . . بين ما ترى وما لا ترى . . بين الذات وخالق الكون . . وبدون الحب يعمى بصرنا عن أن نرى « غيرانية » الغير . . فيتعذر الاتصال ونفقد أنفسنا في أنفسنا . . ولا يقتصر الأمر على هذا بل يضع السلام الروحي . . وهو دعامة كبرى من دعائم الحياة فبدونه يفقد الإنسان توازنه الداخلي ويدخل في صراع مع نفسه لا يعلم متى ينتهي . .

عندما أنظر اليوم إلى الثمانية عشر عاماً الأولى من الثورة قبل أن أتولى الرئاسة أجد أن هذه المرحلة من حياتي كانت فترة معاناة لم أدرك سببها في ذلك الوقت ، فقد ظلت كامنة في العقل الباطن . . ولكنها أحدثت خللاً في توازني . . عبد الناصر كان صديقي دون شك . . وعندما خرجت من السجن كنت حريصاً على أن أبقى على السلام الروحي الذي اكتسبته في الزنزانة ٥٤ . . ولكن حينما دخلت مجلس قيادة الثورة شعرت أن هناك خللاً في توازني الداخلي وأني في طريق إلى أن أفقد سلامي الروحي . .

كان لابد من المحافظة عليه . . ولكن كيف ؟

إن الإنسان عقل وجسد وروح . . ولا بد من الغذاء لكل من هذه العناصر حتى يتحقق السلام الروحي . . بلحأت إلى المعرفة أنهل منها ولا أتوقف عن القراءة يوماً . . فهذا غذاء العقل وبالإيمان الذي لا يعرف الحدود روضت روحي أما الجسد فكانت وما زالت رياضته الوحيدة المشي على الأقدام أربعة كيلو مترات كل صباح .

بهذا حاولت طوال فترة المعاناة أن أحافظ على السلام الروحي الذي أعتقد أنه ضرورة لا بد منها لكي يؤدي الإنسان رسالته على هذه الأرض كما يجب أن يؤديها .

وقد يظن البعض أن التصالح مع النفس الذي هو ثمرة السلام الروحي يعني الاستسلام للأمر الواقع أو على الأقل تقبله . . ولكن هذا غير صحيح فأنا لا أقبل الأمر الواقع كما هو بل أحاول دائماً تطويعه والسمو به إلى ما هو أفضل . ففي اعتقادي أن الإنسان يجب أن يعمل دائماً ونصب عينيه مثل أعلى يريد أن يبلغه . . فبدون المثل الأعلى كيف تكون للإنسان رسالة . . وإذا خلت الحياة من الرسالة فلماذا نحياها وأى معنى لها ؟

وفي الزنرانة ٥٤ كانت المعرفة قريبة مني كما لم يحدث من قبل . . ويبدو أن هناك علاقات متبادلة بين المعرفة والحياة الروحية . . فكلما نهلت من الواحدة ازدادت الأخرى نضجاً - منوال دائم لا نهاية له . . ولكنه يؤدي إلى المزيد من معرفة الذات ، وكلما ازدادت رؤية الإنسان لذاته وضوحاً ازدادت قدرته على قهر ذاتيته فأصبحت أفعاله وأفكاره ومشاعره أكثر تحرراً وانطلاقاً بحيث لا تهدف إلى منفعة ذاتية بل إلى طلب الكمال المطلق في كل شيء .

وهكذا أصبح الجمال يلح عليّ في كل ما أرى وما أفعل . . أتطلبه في جميع نواحي الحياة وكلما اغترفت منه ازدادت حاجتي إلى المزيد منه .

ومن هنا كانت المثالية التي هي في الواقع ليست إلا سعيّاً دائماً نحو الجمال .

هذه المثالية التي أنحو إليها بكل كيائي جعلت الكثيرين من الناس لا يستطيعون فهمي . . بل وغمضت بعض تصرفاتي في عيونهم .

يسألني البعض ما هي السياسة ؟ والإجابة دائماً تحيرني . . فأنا لا أدعي أنني درست السياسة وتخصصت فيها . . كل ما أعرفه أنني نشأت بميول وآمال وأحلام معينة هي التي كونت شخصيتي منذ الطفولة إلى أن أصبحت رئيساً للجمهورية . . هذه الآمال والميول كانت وما زالت تهدف إلى هدف واحد هو تخليص مصر من المعاناة والسير بها دائماً نحو الجمال والكمال . .

يصف البعض السياسة بأنها فن الممكن ولكني لا آخذ بهذا التعريف فإذا قسناه على حرب أكتوبر لقلنا إن السياسة هي فن المستحيل . . فأيهما أصح ؟

أنا لم آخذ دكتوراه في السياسة ولم أبحر في علومها . . أنا مجرد إنسان اكتشف ذاته ولذلك فأنا صادق مع نفسي في كل ما أقول وما أعمل والمعاملة بيني وبين الناس تقوم دائماً على الصدق . .

ولعل هذا ما يدهش البعض إذ يجدونني رجلاً سياسياً يقول في حجرة مغلقة نفس الكلمة التي يقولها أمام الميكروفون . . ولا يستغل موقفاً معيناً لشعبية رخيصة . . أو لهتاف الجماهير . .

فإدراك الذات إنما يجعل كل تصرفات الإنسان تصدر عن موضوعية لا ذاتية مطلقة . .

ولذلك فالسياسة - في رأيي - هي فن بناء مجتمع يحقق إرادة الله من خلق هذا الكون وهي العمران . . ففي هذا المجتمع يجب أن تكون حرية الفرد مطلقة لا يحدها سوى ما تعارف عليه المجتمع من قيم إنسانية أصيلة نبتت من المجتمع نفسه فهي ثمار حضارته . . والحرية نفسها أجمل هذه الثمار وأغلاها وأقدسها فلا يجب أن يشعر الفرد في هذا المجتمع أنه تحت رحمة أبة قوة من قوى القهر . . أو أن إرادته مرهونة بما يريد الغير . .

وبالتأكيد فإن الحرية ليست لازمة لبناء مجتمع القوة . . ولكنها الدعامة الكبرى لبناء مجتمع الحق والخير والجمال حيث تعمر النفوس بالحب والنور والإيمان وبالتالي تعمر الكون صروح الإيمان والانتصار بالإنسان وما يشيد من صروح الأمان والعزة والرفعة والسلام فتتحقق إرادة الله . .

ولكن لكي يقوم هذا المجتمع لابد لمن يتصدون لقيادته من أن يحملوا مسئولية تنبع أساساً من وجدانهم الإنساني وأن لا تكون أفعالهم مجرد ردود أفعال لانفعالات ذاتية أو لأوهام أمجاد ديكتاتورية تسيطر عليهم وتلعب بروؤوسهم . . كما كان الحال مع هتلر وغيره . . ففي مثل هذه الحالات لا مكان لمجتمع الحق والخير والجمال . . لأن كرامة الإنسان لا تصبح موضع أى اعتبار . . بل على العكس تهدر حين يهدرون قيمته المطلقة كإنسان ويحيلونه إلى شىء من الأشياء . .

أنا أتكلم من واقع التجربة والممارسة . . فتورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، قد أتت بأفكار جديدة وحاولت جاهدة إلى أن تنقل المجتمع المصرى إلى المرحلة الحضارية التى يعيشها اليوم . ولكن يجب أن أعترف بأن النجاح لم يحالفنا بالكامل فيما أردنا تحقيقه لأسباب كثيرة منها الصراعات الشخصية . . ومنها أيضاً عدم وضوح الرؤيا بالقدر الكافى لا فى وقت مجلس قيادة الثورة ولا بعد أن أصبح جمال عبد الناصر رئيساً للجمهورية . . فقد كان بطبعه كثير الشك . . ولذلك انشغل بأمنه عن الرؤية البعيدة وعن أهم وأثمن ما فى الوجود وهو الإنسان . . وليت الأمر توقف عند هذا الحد . . فى غمرة شكوكه وانشغاله بأمنه تحددت آفاق الإنسان المصرى وأبعاده . . وهكذا حدثت فى مصر للأسف أخطاء جسيمة ضد أخطر وأهم ما كان يجب أن نحرص عليه . . وهو آدمية الإنسان وإنسانيته . .

في الزنزانة ٥٤ لازمني الاحساس بأنني منذ أن تخرجت من الجيش وأنا أواجه الخطر . . كان إحساساً صادقاً ، فقد حدث أن واجهت المخاطر في جميع مراحل حياتي منذ أن أصبحت ضابطاً بالجيش إلى آخر لحظة قضيتها بالزنزانة ٥٤ . . عندما بدأت بالتمهيد لوجود رأى عام بالجيش . . ثم جهودي لحماية مصر من غزو قوات هتلر والتي أدت إلى فصلى من الجيش واعتقالى . . وبعد ذلك محاولاتي للقضاء على أعوان الإستعمار الإنجليزي وقضية أمين عثمان . . والزنزانة ٥٤ حيث أصبح الخطر قائماً وخطيراً بل ومحققاً كما كان يبدو لى . .

كيف ستنتهى القضية ؟ لم أكن أعلم . . كل ما كنت أعرفه أن ترتبني في الاتهام كان السابع . . وأن تهمنى يمكن أن تؤدي إلى الإعدام أو الأشغال الشاقة المؤبدة . . ولا وسط في العقوبة . . فيما أن تكون هكذا أو لا تكون على الإطلاق . . أى البراءة . . ولكن كيف ؟

أثناء وجودي في السجن قامت حرب فلسطين . . كان ذلك في منتصف عام ٤٨ ويعلم الله كم عانيت وتألمت من الغارات الإسرائيلية على القاهرة ، وكان مصدر ألمي أنى في السجن لا أملك أن أفعل شيئاً . . وأن الإسرائيليين بهذه الغارات ينتهكون حرمة الشهر المقدس . . شهر رمضان . .

كنت أعرف أنها مجرد حرب نفسه . . لا أكثر . . وزاد في اطمئناني أن جيوشنا كانت تشق طريقها إلى نصر أكيد . . ولكن فجأة عقد الملك عبد الله الهدنة التي أنقذ بها رقبة إسرائيل . .

ثم هذا طبعاً بالإتفاق مع الإنجليز . . وكم أثار ما فعله الملك عبد الله غضبي ولكن ماذا كان يمكن أن أفعل وأنا بين أربعة جدران سجين في الزنزانة ٥٤ ؟

لماذا عهدوا إلى الملك عبد الله بقيادة الجيوش العربية ؟ ما الذي دعاهم إلى هذا ؟ ما السبب ؟ ما السر ؟

رحت أتساءل مع نفسي وقلبي ينفطر مرارة . .

من أجل ذلك . . وحتى لا يتكرر ما حدث . . لا أكف اليوم عن الدعوة إلى أنه لا مجال للمجاملات . . وأنا يجب أن نضع النقطة فوق الحروف . . فلا نسمح للعناصر غير الصالحة أن تشكل مصيرنا وأنه لزام علينا أن نردع كل من تسول له نفسه العبث بمصيرنا .

استغرقت محاکمتنا ثمانية شهور من يناير إلى أغسطس سنة ١٩٤٨ وأذكر أنه عندما أتى البوليس ليأخذنا إلى المحكمة ، حاولوا وضع (الكلبشات) في أيدينا فرفضت وقلت « إذا حكم على فافعلوا ما تشاؤون . . ولكن الحكم لم يصدر بعد . . وهذا الذي تحاولونه لا أقبله إطلاقاً » . . طبعاً هذا الأولاد حذوى . . فاكتمنى البوليس بأن يضعنا كلنا في (لورى) كبير ليأخذنا إلى المحكمة ثم يعود بنا إلى السجن .

في هذه الأثناء هدأت أعصاب الحكومة — قليلاً — فسمحوا لنا بالخروج بعض الوقت . . وانتهزت أنا الفرصة وطلبت أن أعالج أسناني عند طبيب أسنان أعرفه في الجيش أسمه أحمد على — فسمحوا لي . . كانت الرحلة من القلعة إلى مستشفى الجيش في كوبرى القبة طريقة للغاية . . إذ كنت أقطعها في التاكسي وأملأ عيني بملامح القاهرة وشوارعها وأملأ رثتي بهواء الحرية ساعة كاملة على الأقل في كل مرة . . نعم كان إلى جوارى دائماً أحد ضباط البوليس ولكن ماذا يهم ؟ أوصيت الطبيب أن لا يعالج الضرس المريض . . حتى تمتد الرحلة وتتكرر . وفي كل مرة كان يقف ضابط البوليس يراقب الطبيب . .

ولكنه لم يفتن طبعاً إلى أن الطبيب كان يتناول أسناني كلها بما يشبه العلاج ما عدا
الضرس موضع الداء . . ما زالت متعتى بهذه الرحلة عالقة بذاكرتي . . فقد
كانت نسمة الحرية لطيفة رغم قصرها . . وأحياناً كنت أنتهز الفرصة وأزور
والدي الذي كان يعمل بمستشفى الجيش . . ونشرب الشاي معاً .

لم تدم متعتى طويلاً ففجأة هرب حسين توفيق - وهو المتهم الأول - من
السجن وكان رد الفعل المباشر أن أوقفوا خروجنا مهما كان السبب .

واستمرت المحاكمة يوماً بعد يوم وشهراً بعد شهر . . كان الرأي العام
كله معنا . . وكنت قد شككت في سلامة القضية بما يكفي كما سبق أن رويت . .
هذا إلى جانب أن القضية كانت في أيدي كبار رجال المحاماة في مصر . .

انتهت المحاكمة في أوائل يوليو ١٩٤٨ ثم جاء النطق بالحكم وكان ذلك في
أغسطس سنة ١٩٤٨ ، فذهبت إلى المحكمة وأنا لا أرتدى سوى بنطلون رمادي رث
وجاكت بيضاء . . فقد كان هذا كل ما عندي . . بدأوا طبعاً بالمتهم حسين
توفيق . . وبمجرد أن سمعت الحكم وهو ١٠ سنوات سجن (غيائياً طبعاً)
جاءني إحساس بأنهم سيحكمون علي بالبراءة . وفعلًا عندما أتى دوري أعلنت
المحكمة المتهم رقم ٧ براءة .

صدر الحكم في الظهر . . ولكن كانت التعليمات تقضي بالبقاء في
السجن حتى الساعة الخامسة مساء فعدت إلى السجن وبقيت به إلى الساعة
الخامسة مساء ، حيث سمحوا لي بالخروج . .

قررت الذهاب إلى حلوان وهناك بحثت عن بنسيون رخيص يتناسب
مع ما معي من نقود قليلة . . وعشت أعالج معدتي بمياه حلوان المعدنية
وأنظر الأيام . .

الفصل الرابع

العمل من أجل قيام الثورة

كان من الطبيعى بعد أن قضيت ٣١ شهراً متواصلاً فى السجن . . أن أشعر
كأنى قد ولدت لتوى فى عالم جديد لا أعرفه . . ولذلك كنت أقضى وقتى
متنقلاً بين البنسيون الرخيص الذى سمحت لى نقودى القليلة أن أقيم به ، وبين
الحديقة اليابانية حيث كنت أسترخى على أحد مقاعدها الخشبية أقرأ فى صحيفة
أو كتاب بعيداً عن الناس . . قانعاً بخلوتى . . أتأمل ما أنا فيه . . وما حدث . .
وما قد تأتى به الأيام . .

كنت أتحاشى الجلوس مع الناس أو الكلام معهم . . فلو أننى حاولت
هذا لتطلب منى جهداً لم يكن فى مقدورى أن أبذله ، فقد أصبح ما كان
مألوفاً من أمور الحياة العادية عالماً غريباً بالنسبة لى لا بد أن أتأقلم معه . .
حتى أشعر أننى واحد من سكانه . .

أذكر أننى بعد شهر تقريباً من خروجى من السجن ، ركبت سيارة أقودها بنفسى
ورغم اتقانى القيادة فقد هالنى أن أجدر أننى لم أكن أعرف كيف أسير
فى شوارع القاهرة . . وانتهى بى الأمر إلى حادثة تحت نفق الجزيرة . .
هكذا قضيت أيامى فى حلوان أحاول التخلص من آثار السجن وأحاول شفاء
معدتى بمياهها المعدنية إلى أن جاء يوم فوجئت فيه بزيارة زميلى وصديقى
القديم حسن عزت الذى بحث عنى فى كل مكان إلى أن أهتدى إلى مقامى . .

كنت أصلى الفجر عندما هبط على . . وكانت نقودى قد نفذت تقريباً
ولم أكن أعرف ماذا أفعل بنفسى .

— ما الذى يقعدك هنا ؟ قم معى — تعال . .

قالها لى حسن عزت وهو يتأمل أثاث وجدران الحجرة البالية التى كنت أقطن بها . .

قلت : إلى أين ؟

وأجاب : إلى بيتى فى السويس — هيا بنا . .

وارتديت ملابسى . . الجاكتة البيضاء والبنطلون الرمادى — نفس الملابس التى خرجت بها من السجن وكانت كل ما أملك ولاحظ حسن عزت أن البنطلون قد بلى من الخلف ، فقلت له ليس عندى غيره وحتى لو ذهبنا إلى بيت والدى ما وجدت بديلاً عنه .

قبل أن نتوجه إلى السويس ذهبت مع حسن عزت إلى القاهرة حيث اشترينا قمصان وفصلت بدلتين وكانت هذه أول مرة أرى فيها الحوارب السوكيت التى يبدو أنها ظهرت وانتشرت فى الأسواق وأنا فى السجن — فأعجبتنى واشترى لى حسن عزت ثلاثة أزواج أو أربعة منها . وبعدها ركبنا معه سيارة وذهبنا إلى السويس . .

فى بيته هناك التقيت لأول مرة بجهان — زوجتى — حيث كانت فى زيارة لابنة عمتها زوجة حسن عزت — قضيت معهم بعض الأيام ، تبينت خلالها أن حسن عزت لم يبحث عنى ويأتى بى إلى السويس لوجه الله . . فقد كان على خلاف مع شركائه فى عمليات تجارية بين مصر والسعودية عن طريق السويس — فأراد أن يخيفهم ببطل قضية أمين عثمان حديث كل المجلات والصحف . . الذى هو أنا طبعاً . . واشتركت معهم فعلاً فى بعض الصفقات وكان نصيبى منها كما علمت بعد ذلك ١٨٠ جنياً من الذهب أعطانى منها حسن عزت ٦٠ جنياً وأخذ الباقى لنفسه وكان الجنيه الذهب فى ذلك الوقت يساوى ستة جنيهات مصرية . . ولذلك عندما عدت إلى حلاوان لأستأنف علاج معدتى . . وضعت المبلغ

في خزانة اللوكاندة حتى لا يسرق - وطبعاً لم يحدث هذا . . الذي حدث أن المبلغ صرف عن آخره على إقامتي بـ **بحلوان** . .

انتقلت بعد ذلك إلى بنسيون في وسط البلد بالقاهرة عاطلاً بدون عمل بينما تتراكم الديون على يوماً بعد يوم . . فذهبت إلى إحسان عبد القدوس وهو صديق قديم لي . . لبحث لي عن عمل . . قصدنا جريدة الأهرام ولكن لم تكن بها مجالات للعمل - فاقترحت روز اليوسف ولكن إحسان قال إن روزا لا تتحملنا نحن الاثنين - وكان إحسان وقتها يعمل بروز اليوسف وبتدار الهلال كمعيد للصياغة **Rewriter** وفي جريدة الزمان . . في ثلاثة أماكن في وقت واحد . .

ولكن حدث أن استغنى إحسان عن عمله بتدار الهلال ، فأخذني وقدمني لأصحاب الدار . . الذين اشتروا مني مذكراتي التي كتبتها في السجن وبدأوا نشرها . . ويبدو أنهم أرادوا اختباري للتأكد من أن المذكرات بقلمي - فأتاني شكرى زيدان أحد أصحاب دار الهلال - وأشار إلى جزء من المذكرات وقال إنه بحاجة إلى تطويل بما يساوى عموداً ونصف ، فقلت بكل سرور . . قال إليك المكتب ولكن عليك أن تنتهي من الكتابة في خلال ساعة ونصف وهو الزمن الباقي على إغلاق المطبعة .

فعلت ما طلبه وسلمته إليه قبل الزمن المحدد . . فقرأه وشكرني وانصرف .

لم يخامرني أى شك في أن هذا كان نوعاً من الاختبار . . إلى أن أرسل في طلبي صباح اليوم التالي ، وطلب مني أن أعمل معهم في دار الهلال بصفة مستديمة وأن أحدد المرتب الذي أريده . . كان هذا أمراً مذهلاً . . فقد كنت أعرف أن كبار المحررين عندهم يعملون جميعاً بالقطعة .

قبلت العمل على الفور وأخذت مكان إحسان كمعيد للصياغة . . واستمر عملي هذا إلى نهاية ديسمبر ١٩٤٨ . كنت أثناءها - وعلى وجه التحديد في ٢٩ سبتمبر ١٩٤٨ - قد تقدمت لخطبة جيهان من أبيها وتمت الخطبة .

كنت راضياً عن عملي بدار الهلال بل وسعيداً به ولكن حدث أن اختلف حسن عزت مع شركائه في السويس فانتقل إلى مصر ، وطلب مني أن أشاركه في الأعمال الحرة . . لم يكن من السهل أن أرفض طلبه فهو زميل كفاح - ثم إنه هو الذي خلصني من الأزمة المالية التي كنت أعاني منها عندما نفذت نقودي في حلوان وقبل هذا وذاك كانت عندي نقطة ضعف نحو حسن عزت كصديق يحبني ولا يخفى عني شيئاً ويعتبرني ضميره .

طبعاً لم يكن خروجي من دار الهلال أمراً سهلاً فقد تصوروا أنني أريد أجراً أكبر وعلى هذا الأساس بدأوا يساومونني ولكن فشلت كل محاولاتهم وبدأت العمل مع حسن عزت بعمليات مياه صغرى في ٥٢ قرية من قرى محافظة الشرقية باسم حسن عزت طبعاً وأنا شريكه ولكن بدون تسجيل . .

انتقلت إلى الزقازيق عاصمة الشرقية . . وكنت قد تزوجت جيهان في ٢٩ مايو ١٩٤٩ م . فأخذتها معي حيث قضينا شهر العسل وما بعده في لوكانده متوسطة الحال من لوكاندات الأقاليم هناك . . التزمت بجدول زمني انتهينا بمقتضاه من العمليات في نصف المدة المقررة وفعلاً تم هذا . . فقد كنت أخرج من الصباح الباكر لأعمل ١٥ أو ١٧ ساعة في اليوم . . ثم أعود في المساء إلى زوجتي في اللوكانده .

أتممت العمل في ٦ شهور فخرجنا بربح يساوي ٦ آلاف جنيه وأعطينا الحكومة شهادة تقدير طبعاً باسم حسن عزت . . فرست علينا ٨ عمليات مياه كبرى في المنيا بمبلغ ٦٠ ألف جنيه وكان هذا يعني بالمعدل الذي سرنا عليه . . ربما ما لا يقل عن ٣٠ ألف جنيه . .

كان من المقرر أن يبدأ عملنا بالمنيا في نوفمبر ١٩٤٩ . ولكن قبل أن نبدأ العمل قلت لحسن عزت إنني أريد أن أستقر مالياً . . ففي المنيا لا بد أن تكون لي شقة أعيش فيها مع زوجتي . . ثم إن على التزامات مالية أخرى نحو أولادي من

زوجتي الأولى التي انفصلت عنها رسمياً في مارس ١٩٤٩ . راوغ . . ثم وافق . ثم قال إنني أنفقت في الزقازيق ٢٠٠٠ جنيه طبعاً لم يكن هذا صحيحاً أو قريباً من الصحة . . ففي الزقازيق لم تكن عندي أى تكاليف إلى جوار اللوكاندة المتواضعة سوى ثمن السجائر - ولكن حسن عزت أصر . . عرفته على حقيقته وأشمازت نفسي منه ومن السوق والعمل به فتركته وفي جيبي ١٢٠ قرشاً وكان لي عنده ٣٠٠٠ جنيه هي نصيبي من عملية الزقازيق ولكنني لم أطلبها منه .

كان كل همي أن أبتعد . . أن أنجو مما وقعت فيه . . فما قيمة المال إذا أصبح دنساً يهدد كيان الإنسان ويقوضه من داخله ؟ ثم أين أحلام الصبا وآمال الشباب والمعارك التي خضتها من أجل تحرير الأرض ؟ هل فعلت كل ما فعلت لكي أصبح في النهاية رجل أعمال كل همه أن يكسب من العمليات التي يقوم بها ٣٠٠٠ جنيه أو أكثر أو أقل ؟

طوال الفترة التي عشتها بعد أن بارحت السجن كنت أحس أني بعيد عن نفسي . . غريب عن ذلك الإنسان في داخلي الذي عشت معه - وعرفته - وارتحت إليه وكنت شديد الاعتزاز به في الزنزانة ٥٤ . .

كنت على ثقة من أنه لم يذهب بعيداً . . ربما لعبت الظروف دوراً في ابتعادي عنه . . ولكنني كنت شديد السعادة عندما وجدتني أقول لحسن عزت عند فراقنا . . « كم أتمنى أن يكون عندك ١٠٠ ألف جنيه وأنا لا أملك شيئاً . . لسوف أكون دائماً أكبر منك بما لا أملك . . وأنت أقل مني بكل ما تملك »

لقد عادت ذاتي إلى . . وفي نفس اللحظة . . قررت أن أعود إلى الجيش . . الوسيلة الوحيدة لتحقيق الرسالة التي كانت بالنسبة إلى كل شيء .

هناك على شاطئ البحر الأبيض بلّاج في غاية الجمال كانت تشغله في سنة ١٩٤١ وحدات من الجيش المصري وكنت أنا ضمنها مبعداً بأمر المخابرات وهناك في الجراولة كما كانوا يسمونها . . تعرفت إلى ضابط طبيب اسمه يوسف رشاد كانت خيمته إلى جوار خيمتي وتصادقنا . . كان لابد من ذلك فهو دمث الأخلاق مثقف يقرأ كثيراً ولا يكاد غليونه يفارق شفتيه ولا يكاد الكتاب يفارق يده . . وبلغت بنا الصداقة حد التلازم فكنا لا نكاد نفرق إلا ساعة النوم – نطهو طعامنا معاً – ونأكل معاً . . ونتحدث ونفكر ونقرأ معاً . . وما زلت أذكر اليوم الذي أعطاني فيه كتاباً ترك في نفسي أثراً عميقاً وهو كتاب من تأليف « جون ستيوارت ميل » عنوانه : النظام الشمولي والحرية والحكم النيابي وكان بالانجليزية .

ومرت الأيام وابتعد كل منا عن الآخر – ولكن صداقتنا ظلت كما هي – لم يחדشها شيء . .

يوسف رشاد هو أُملي الوحيد فقد أصبح طبيباً في الحرس الملكي ولا أعتقد أنه سيرد لي طلباً . . فاتصلت به تليفونياً وطلب مني زيارته في بيته . .

هناك شرحت له حالي – وكيف أن النيابة أستاذت ، وأن الاستئناف قد نظر في أواخر عام ١٩٤٩ وأيدت المحكمة الحكم بالبراءة فلم يكن هناك إذن ما يمنع عودتي إلى الجيش .

واستمع إلى يوسف رشاد وهو يدخن غليونه في هدوء وبدماثته المعهودة وعد بأنه سيتصل بي في أقرب وقت . . وما هي إلا أيام قليلة حتى اتصل بي يوسف

رشاد . . وكان ذلك على وجه التحديد يوم ١٠ يناير ١٩٥٠ وطلب منى أن أقابل حيدر باشا قائد عام القوات المسلحة .

كان حيدر باشا فى انتظارى وما أن رآنى حتى انهال على بالسباب . .

– أنت ولد مجرم . . تاريخك أسود . . و . . و . .

حاولت أن أتكلم . .

– لا داعى للكلام . . لا تفتح فمك على الإطلاق – وفجأة دق الجرس فدخل كاتم أسرارہ .

– أفندم يا باشا . .

– الولد ده ترجعه الجيش النهارده . .

وصدرت النشرة العسكرية بعودتى إلى القوات المسلحة اعتباراً من ١٥ يناير ١٩٥٠ برتبة يوزباشى – وهى الرتبة التى خرجت بها – وكان زملائى فى الجيش قد سبقونى فى ذلك الوقت برتبتين . . رتبة صاغ ورتبة بكباشى .

كان أول من زارنى مهنتاً جمال عبد الناصر ومعه عبد الحكيم عامر . . علمت من عبد الناصر أن تنظيم الضباط الأحرار قد أصبح أوسع انتشاراً وأن قوته تشتد يوماً بعد يوم . . وكأنما أراد أن يثبت لى مدى قوة التنظيم أو أن يختبر هذه القوة – طلب منى أن أتقدم لامتحانات الترقية بحيث أستعيد ما فقدت من رتب وأنا خارج الجيش ، وأن لا أهتم بالصعاب التى سوف تواجهنى . . فمهما كان شأنها سيدللها التنظيم ويتخطاها . . وفعلاً تم هذا . . وحصلت على رتبة بكباشى فى وقت قصير . .

طلب منى عبد الناصر أن لا أقوم بأى نشاط سياسى واضح . . لأنى بسبب تاريخى النضالى لا بد أن أكون بطبيعة الحال مراقباً ولو أن هذا لم يمنع جمال من أن يكشف لى عن خريطة الضباط الأحرار فى وحدات الجيش المختلفة ، فكنت أزورهم وأتبادل الحديث معهم ولكنها كانت جميعاً أحاديث ودية لاعلاقة لها بالسياسة . . فلم يكن من المفروض فى التنظيم أن أكشف لهم عن نفسى أو أن أشعرهم أنى أعرف أنهم ينتمون إلى الضباط الأحرار .

كانت هذه قاعدة أساسية أرساها عبد الناصر يوم تسلمه التنظيم من بعدى عندما قبضوا على في صيف ١٩٤٢ - وهي أن يظل تشكيل كل خلية سرّاً لا يعرفه إلا أعضاؤها .

كان الرجل الثاني بعدى في ذلك الوقت هو عبد المنعم عبد الرؤوف الذى ظل على اتصال بالشيخ حسن البنا رائد الإخوان المسلمين - والذى كان على اتفاق تام معى في أن تنظيم الضباط الأحرار يجب أن لا يخضع لأية هيئة أو لآى تنظيم حزبي لأن الهدف منه هو خدمة مصر بأجمعها لا فئة معينة . .

عندما دخلت المعتقل كان عبد الناصر ما زال في السودان ولكن بمجرد نزوله بكتيبته ووصوله مصر أواخر ١٩٤٢ ، اتصل به عبد المنعم عبد الرؤوف لضمه إلى التنظيم - فقد كان عبد الناصر من الضباط الممتازين - وكانت هذه هي القاعدة التى أرسيتها . . أى أن لا ينضم إلى التنظيم إلا من كان متميزاً في عمله بالقوات المسلحة . . فالضابط الممتاز موضع ثقة الجميع . . ومن السهل أن ينقاد إليه الآخرون . .

استجاب عبد الناصر على الفور . . ولم يكن من الصعب عليه بعد ذلك أن يزيع عبد المنعم عبد الرؤوف من طريقه وأن يتولى هو قيادة التنظيم بدلا منه .

كانت قيادة عبد الناصر لتنظيم الضباط الأحرار تختلف عن قيادتي ، فقد لجأ إلى تكوين خلايا سرية في الجيش ، كل خلية منها لا تعرف الأخرى . . وتكاثرّت الخلايا يوماً بعد يوم ، حتى شملت القوات المسلحة بأجمعها وخاصة المناطق الحساسة فيها مثل إدارة الجيش . .

في سنة ١٩٥١ ، شعر عبد الناصر أن التنظيم قد وصل مرحلة النضج وأنه لا بد له من قيادة خاصة وأن الكثيرين من أعضائه قد بدأوا يتساءلون عن قائد التنظيم أو قاداته . . بينما كان بمصر في هذا الوقت خمس أجهزة سرية هي البوليس السياسى . . والمباحث الجنائية . . والمخابرات الحربية للجيش . . والمخابرات الخاصة بالإنجليز وال C.I.A. الأمريكية التى دخلت مصر بعد الحرب العالمية الثانية . . هذا بخلاف جهاز آخر خاص بالملك ويتبع السراى مباشرة .

لذلك كان الحرص مطلوباً في تكوين الهيئة التأسيسية فبدأ عبد الناصر في اختيار أعضائها ممن احتك بهم هو شخصياً في حرب فلسطين مثل كمال الدين حسين وصلاح سالم وممن له صداقة عمر معه - عبد الحكيم عامر - ثم ممن كانوا أصلاً قادة التنظيم قبل أن يتسلمه وهم عبد المنعم عبد الرؤوف وعبد اللطيف بغدادى وحسن إبراهيم وخالد محي الدين وأنا . .

قد يبدو اختيار عبد الناصر لى دليلاً على الوفاء - صحيح أننى كنت قد بدأت تنظيم الضباط الأحرار - ولكننى بقيت بعيداً عن التنظيم ثمانى سنوات وهى الفترة ما بين فصلى من الجيش سنة ٤٢ إلى أن عدت إليه سنة ٥٠ ، ولكن لم يكن عبد الناصر ينتمى إلى ذلك الصنف من الرجال الذين تحركهم مشاعرهم نحو الآخرين إلا إذا كانت هذه المشاعر وليدة صداقة وطيدة الأركان كصداقته مع عبد الحكيم عامر . . ورغم أننا تعارفنا إلى بعض وعمرنا لم يتجاوز الـ ١٩ سنة . . إلا أننى لا أستطيع أن أقول سوى أن علاقتنا كانت علاقة احترام وثقة من جانب كل منا . . وليست صداقة على الإطلاق . .

فلم يكن من السهل على عبد الناصر أن ينشئ علاقة صداقة بمعنى الكلمة مع أى إنسان وهو المتشكك دائماً - الحذر - الملىء بالمرارة . . العصبى المزاج . لا أقصد بهذا تجريد عبد الناصر فى اختياره لى من عامل الوفاء ولكننى أضيف إلى هذا عاملاً آخر وهو الذكاء . . فمن خط سيرى فى القوات المسلحة ومن علمه منذ أن تقابلنا فى مقتبل العمر أنى رجل ذو مبادئ وقيم . . لم يكن من الصعب على عبد الناصر أن يدرك أنه يمكنه الاعتماد على وأن إضافته لى إلى الهيئة التأسيسية سوف تجعلى مدى العمر وفياً لهذا الوفاء من جانبه . .

ومما لا شك فيه أن عبد الناصر وهو الحذر دائماً بتكوينه كان واثقاً كل الثقة أننى سأقف إلى جانبه باعتبارى قوة لها تجربتها وتاريخها . . قوة ستسانده فى الصراعات التى بدأت داخل الهيئة التأسيسية حتى قبل قيام الثورة . . ولذلك كان يهرع إلى عندما أعود إلى القاهرة فى أجازة ليشرح لى المصاعب التى يلاقها من بعض الأعضاء . . وعندما تعود بى الذاكرة إلى تلك الأيام البعيدة لأبالغ إذا قلت إن عبد الناصر كان يقضى معى خمسة أيام كاملة فى كل إجازة من إجازاتى التى لم تكن تتعدى الأسبوع . . وكنا كل مرة نتدارس أحوال التنظيم والصعاب والمشاكل التى تواجهنا . . هذا إلى جانب أن عبد الناصر كان يضع تجربتى محل

تقدير . . أذكر مثلاً أنه في سنة ١٩٥١ طرأت له فكرة أن تبدأ الثورة بحركة اغتيالات واسعة ، وسألني في هذا فقلت له : « غلط يا جمال . . ما هي النتيجة . . إلى أين ستصل ؟ إن الجهد الذي يبذل في حركة الإغتيالات يساوى تماماً الجهد الذي يبذل في قيام الثورة ولذلك دعنا نأخذ الطريق المباشر المستقيم . . وليكن هدفنا المباشر هو الثورة » .

وقد اقتنع بهذا الرأي فوراً وأخذ به . . ولم يكن هذا حال عبد الناصر بعد أن قامت الثورة وأصبح هو قائدها . . مثلاً في سنة ١٩٥٣ عندما بدأت الصراعات تشتد وتمتد داخل مجلس قيادة الثورة بحيث أصبحت تشكل خطراً على الثورة وعلى مصر . . أذكر أنني ذهبت إلى منزله في ذلك الوقت وقلت له : — يا جمال الثورات تأكل نفسها وتأكل أبناءها . . ونحن لا نريد أن نصل إلى هذا المدى . . فلماذا لا تضع حداً لكل هذا . . لماذا لا تواجه الزملاء وتقول لهم . . فليبق معنا كل من هو من رأى وفكر واحد أما من يريد أن ينفرد برأى فليتركنا . . لقد أنجزنا المرحلة الأولى وهي قيام الثورة وهذا عمل تاريخي رائع يكفي كل من ينسلخ عنا الآن فخراً أنه ساهم في قيام الثورة . . كان ينصت إلى بكل إمعان وتابعت كلامي :

— بعد ما نصل إلى السلطة تتغير أمور كثيرة — ولكن يجب ألا يكون هذا على حساب مصر — لقد انتخبناك رئيس مجلس قيادة الثورة بالإجماع فلا خلاف عليك إذن . . ولذلك يجب أن يكون واضحاً لدى الجميع أن من يستطيع أن يسير معك يمكن أن يستمر أما من لا يستطيع فعله أن يعتزل »

ولم أستطع أن أكمل حديثي فقد فوجئت بعبد الناصر وهو يقاطعني محتدماً — محتجاً — غاضباً — ساخراً . . وكأنني أقف ضده لا معه . . كانت ردوده كلها تشير إلى ذلك . . مليئة بالمرارة التي انفجرت فجأة في صدره وكأنها حمم بركان يقذفها في ثورته . . طائشة المرمى . . تلهب وتؤدي بلا سبب ودون أي اعتبار . . فإله وحده يعلم أن هدفي من الحديث معه كان تجنب البلاد انعكاسات الصراع الذي كان يشتد كل يوم بين من بيدهم الأمر مما جعل ثورة ٢٣ يوليو رغم إنجازاتها الرائعة تصل بمصر إلى مرحلة رهيبة انتهت بهزيمة ٦٧ التي كادت أن تمحو كل ما حققته الثورة .

لم يكن دورى فى التمهيد لقيام ثورة يوليو قاصراً على إسداء النصيح لعبد الناصر كلما أمكن ذلك أو على مساندته فى مواقفه المختلفة من الصراعات القائمة فى الهيئة التأسيسية أو على توزيع منشورات الضباط الأحرار فى المناطق المخصصة لى - فقد كانت الأحداث تسير بسرعة مذهلة . . وكان على أن ألحق بركب الأحداث وأن أكيف نفسى وفقاً لطبيعتها . .

فى أكتوبر عام ١٩٥١ ألقى النحاس باشا المعاهدة المبرمة بين مصر وإنجلترا عام ١٩٣٦ . وبدأت حركات الفدائيين والإخوان المسلمين فى القنال واشتركت فيها بالتدريب وبالإمداد بالسلاح والذخيرة وأصبح الجو العام يبشر بأن الهدف الذى كنا نعمل من أجله لم يعد بعيداً فاجتمعت الهيئة التأسيسية للضباط الأحرار فى أوائل يناير ١٩٥٢ وقررنا قيام الثورة فى نوفمبر عام ١٩٥٥ . . ولكن ما هى إلا أيام قليلة حتى فوجئنا بحريق القاهرة فى ٢٦ يناير ١٩٥٢ . لم يعرف حتى الآن من الذى دبر حريق القاهرة ، ولكن الهدف كان واضحاً لدى الجميع . فما لاشك فيه أن حريق القاهرة كان موجهاً ضد الملك كما كان تعبيراً عنيفاً عما يلاقىه أكثر من ٩٥٪ من الشعب - وهى القاعدة العريضة التى حرمت فى ظل نظام طبقى رأسمالى صارخ من كل شىء وأصبحت الأحزاب السياسية هى الأخرى أداة فى يد الملك والإنجليز وأصبح كل همها أن تتحالف مرة مع الإنجليز ومرة مع الملك لكى تحقق لنفسها المكاسب على حساب الشعب .

وكان حريق القاهرة هو جرس الإنذار قبل ثورة دموية لو أنها قامت

لهدمت وأحرقت كل شيء ، ورغم أن الفاعل كان مجهولاً إلا أن الهدف قد أصاب فأضعف من مركز الملك .

في ضوء هذا الحدث الأخير كان علينا أن نراجع حساباتنا وأن نعرف أين نقف بالضبط - وهنا تذكرت يوسف رشاد الذي أصبح طبيب الملك الخاص . وصلة الصداقة التي تربطني به . . لقد آن الأوان لكي أستخدم هذه الصلة لمصلحة القضية التي نعمل من أجلها . . واتصلت بيوسف رشاد وكان في ذلك الوقت صديقاً شخصياً للملك كما كان على رأس جهاز المعلومات الخاص بالسراى .

وجدت يوسف رشاد يأخذ كل ما أقوله له أمراً مسلماً به . . فلا جدال ولا مناقشة ولا شك من أى نوع . . الطريق مفتوح إذن لتضليل الملك وتخديره حتى يقوم تنظيمنا بالثورة .

والحقيقة أن هذا هو ما فعلت . . فكنت أقدم له معلومات خاطئة . . وعندما كان يعرض على منشورات الضباط الأحرار ، كنت أوهمه أنها من صنع خيال ضابط معروف بحب التظاهر والعظمة ولكنه في الحقيقة لا حول له ولا طول . . وعندما كانت تصل إليه بعض الحقائق كنت أعمل جاهداً على تصويرها في عينيه على أنها أكاذيب ومبالغات لا نصيب لها من الصحة .

ولم يكن هذا كل دأبى . . فقد كنت دائم السعى للتحايل للتعرف على أخبار الملك وخططه ونواياه . . ونجحت إلى حد كبير في تحقيق هدفى ، فبعد حريق القاهرة بأيام عرفت من يوسف رشاد أن الملك بات يشعر بأنه لم يعد له مكان في مصر . . بل وأعد قائمة باسماء من سيصاحبونه في المنفى ومن بينهم يوسف رشاد طبعاً . . كما أنه بدأ يرسل الذهب في طائرته الخاصة إلى بنوك جنيف الأمر الذى جعلنى أنا وعبد الناصر نقنع بأن حركة الضباط الأحرار لن تجد مقاومة تذكر من جانب الملك . . فقد كان واضحاً أنه قد بدأ ينهار فعلاً وبناء عليه جمعنا الهيئة التأسيسية في فبراير ١٩٥٢ وقررنا قيام الثورة في نوفمبر ١٩٥٢ بدلاً من نوفمبر ١٩٥٥ . . لماذا نوفمبر ؟

لأنه في نوفمبر يكون الملك والحكومة قد عادا من الإسكندرية وبذلك نستطيع تركيز ضربتنا في القاهرة . .

باستثناء عبد الناصر لم يكن أحد يعلم باتصالاتي بيوسف رشاد الذي ظل سلاحاً من أهم أسلحة معركتنا . . ولم نتوقف عن استخدامه إلى أن بلغنا هدفنا بالكامل . . أذكر أنه في أول يوليو ١٩٥٢ ، كنت أقضي إجازتي الشهرية بالقاهرة وفي حديث لي مع عبد الناصر طرأت له فكرة استطلاع أخبار الملك فركبت عربتي الفوكسهول وتوجهت إلى الإسكندرية حيث التقيت بيوسف رشاد في نادي السيارات بسيدي بشر وعلمت منه أن الملك قلق لزيادة منشورات الضباط الأحرار . . طمأنت باله ونسبت المنشورات كما اعتدت أن أفعل إلى أحد الضباط الذي كان مولعاً بالتظاهر وإيهام الناس بأنه مهم . . وكنت قد ابتكرت بعض المعلومات الخاطئة المضللة . . فحكيتها ليوسف رشاد وبعد أن أطمأن بالي إلى أنه نقلها إلى الملك . . ركبت عربتي وتوجهت إلى القاهرة حيث أطلعت عبد الناصر على نتائج رحلتي وكانت إجازتي قد انتهت فعدت إلى مقر عملي في رفح .

فوجدنا بعد ذلك في ١٨ يوليو بالملك يصدر أمراً بالغاء انتخابات مجلس إدارة نادي الضباط وهي التي كان التنظيم قد كسبها من الضباط الموالين للسراي . . الملك قد بدأ يسترد أنفاسه إذن . . بل ويتحدى . . وفي نفس الوقت أبلغ أحمد أبو الفتوح (الصحفي الوفدي) جمال عبد الناصر - وكان صديقاً شخصياً له - بأن الملك يعتزم تغيير الوزارة وأن وزير الحربية في الوزارة الجديدة هو اللواء حسين سري عامر الذي يعرف الكثير عن الضباط الأحرار والذي سوف يكون أول ما يفعله بالتأكيد هو أن يقضي عليهم ويجهض كل مشروعاتهم بمجرد توليه الوزارة لكي يثبت للملك قوته وولائه .

وبتحليل بسيط وصل عبد الناصر إلى حقيقة تفرض نفسها علينا وعلى مستقبل الثورة والبلاد . . إما نحن وإما حسين سري عامر الوزير القادم والذي يعرف

الكثير عنا بل ونحن أغلب أعضاء الهيئة التأسيسية الذين تحولوا فيما بعد إلى مجلس قيادة الثورة .

ولم يتردد عبد الناصر .

فقد اتخذ قرار قيام الثورة قبل تولى هذا الوزير لمهام منصبه وقبل أن يفلت زمام المبادأة .

وكان معنى هذا أن تقوم الثورة في يوليو بدلا من نوفمبر ٥٢ .

وفي يوم ٢١ يوليو ١٩٥٢ أرسل عبد الناصر رسالة لى مع حسن إبراهيم تسلمتها فى مطار العريش يطلب منى فيها أن أنزل إلى القاهرة يوم ٢٢ يوليو لأن الثورة قد تحدد لقيامها ما بين ٢٢ يوليو و ٥ أغسطس . . وفعلا وصلت القاهرة يوم ٢٢ يوليو . . ولكنى لم أجد عبد الناصر فى انتظارى على محطة السكة الحديد كعادته ، فقلت فى نفسى لابد أن الوقت لم يحن بعد . . ولذلك توجهت إلى بيتى واصطحبت زوجتى إلى السينما ولكنى عندما عدت إلى البيت فى منتصف الليل وجدت بطاقة من عبد الناصر يطلب منى فيها أن أقبله فى منزل عبد الحكيم عامر الساعة ١١ مساء . . وعلمت من البواب الذى سلمنى هذه البطاقة أن عبد الناصر قبل أن يترك البطاقة أتى إلى بيتى مرتين . . مرة فى الساعة الثالثة مساء ومرة أخرى فى العاشرة .

غيرت ملابسى وأخذت مسدسى معى وتوجهت إلى منزل عامر وطبعاً لم أجدّه فذهبت إلى ثكنات الجيش فى العباسية . . لم أكن أعرف كلمة السر بطبيعة الحال فنعنونى من الدخول وعندما تبينوا رتبتي طلبوا منى أن ألزم بيتى . . فهذه هى الأوامر بالنسبة للضباط العظام . . ناورت وحاولت كثيراً ولكن دون فائدة — كدت أجن فكيف تقوم الثورة أمام عينى وأنا لا أشارك فيها ؟ لقد كرسى كل حياتى لهذه اللحظة بالذات . . من أجلها كافحت وعانيت بل وكنت . . فى كل مرحلة من مراحل العمر . . فقيم كان كفاحى وقيم كان كيانى . . وأنا أقف موقف المتفرج مما أعطى لهذا الكيان مبرراً لوجوده ؟ ناورت وحاولت مرة أخرى وعدة

مرات إلى أن التقيت بعبد الحكيم عامر وهو ينظم مرور القوات . . ناديت عليه . . لم يكن في موقف يستطيع فيه أن يرانى ولكنه تعرف على صوتى . . عرفت منه أن القيادة قد سقطت إذ اقتحمتها قواتنا القادمة من معسكر (هاكستب) (ومعسكر هاكستب كان معسكراً أمريكياً أثناء الحرب العالمية الثانية وسمى على اسم أحد الأمريكيين) وعلى رأسها عامر ويوسف صديق وأن رئيس الأركان حسين فريد قد حددت إقامته أما بقية القادة فكان عامر يقودهم إلى المعتقل فى مقر الكلية الحربية حينذاك .

أخذت عربتى وتوجهت إلى رئاسة الجيش حيث كان عبد الناصر الذى طلب منى أن أتصل تليفونياً بجميع وحداتنا لأرى إذا كان كل شىء يسير حسب الخطة الموضوعة . . نزلت إلى حجرة التليفونات بالطابق الأرضى . . ولكنى وجدتھا خالية . . ناديت على العساكر عدة مرات ولكن لم يظهر منهم أحد - ألححت فى النداء ورحت أطمئنتهم فظهروا الواحد بعد الآخر وبعد أن تعرفوا على وهدأت نفوسهم عادوا إلى عملهم تحت إشرافى وبدأنا التتيم على جميع وحدات الجيش فى سيناء والصحراء الغربية والإسكندرية والقنطرة شرق والعريش ورفح .

وحدث أن اتصل بنا حيدر باشا وزير الحربية فى ذلك الوقت يطلب توصيله بالضابط النوبتجى فأوصلته بعبد الناصر - لم أسمع المكالمة ولكنى عرفت أنه لعب دور الضابط النوبتجى وقال لحيدر باشا رداً على تساؤلاته أنه لا توجد أية تحركات فى الجيش وأن كل شىء على ما يرام . . بعد قليل اتصل حيدر باشا بنا مرة أخرى وطلب توصيله بسلاح المدرعات (السوارى) فأصدرت أمرى إلى العساكر بإهماله .

فى الساعة الثالثة صباحاً أتت جميع التمامات من جميع الوحدات فأبلغنا عبد الناصر والزملاء أعضاء مجلس قيادة الثورة . . وفى الحال اتصل عبد الناصر تليفونياً باللواء محمد نجيب فى بيته بحلمية الزيتون وأرسل عربة مدرعة أتت به إلينا فى الفجر . .

في شرفة القيادة ونسيم الصيف الرقيق يلفح وجهي . . وقفت أتأمل
الشارع الفسيح الطويل الممتد بامتداد ثكنات الجيش وقواتنا تندفق إليه
من مصر الجديدة ومنشية البكري وتتجه إلى قلب القاهرة . . المدفعية –
والمشاة – والدبابات . .

كل شيء هادئ في ساعات الصباح المبكر ولكن الثورة قد بدأت . .

أخيراً تحقق الحلم الذي عشت به وله سنوات عمرى . . تحول إلى حقيقة . .
يزخر بها صدري . . تستولي على كياني . . فيتضاءل إلى جانبها هذا الكيان . .

كل شيء في الواقع يتضاءل . . يصبح وهما . . إلا هي . . الحقيقة
الوحيدة . . شاحنة مهيبة تحجب الرؤية عن كل ما عداها . .

هكذا كانت فرحتي بها . . أكبر وأجمل من أن أتحملها وحدي . .
ولذلك ما أن طلع صباح ٢٣ يوليو ١٩٥٢ حتى هرعت إلى الإذاعة أعلن ميلاد
الثورة ليشاركني الناس ما أنا فيه من سعادة . .

العجلة تدور . . لا تتوقف لحظة . . هذا أمر لا مفر منه ، ولكن المهم أن نديرها نحن . . نتحكم فيها . . نوجهها الوجهة السليمة . . وهذا ما فعلناه ، أو على الأقل فعلنا كل ما بوسعنا لكي نحققه .

قبل أن أعلن قيام الثورة ، وفي فجر ليلة ٢٣ يوليو ، فكرنا في الاتصال بالأمريكان لنعطيم فكرة عن أهداف الثورة وطبيعتها . . فقد كانت صورة أمريكا في أذهاننا مقترنة بحماية الحرية ومناصرة حركات التحرر . . وكنا نهدف من هذا الاتصال أيضاً إلى تحييد الإنجليز . . ولكن كيف نتصل ونحن لا نعرف أحداً بالسفارة الأمريكية ؟ هذان البحث إلى ضابط مسئول عن مخبرات الطيران اسمه علي صبرى ، وكان في ذلك الوقت صديقاً للملحق العسكرى الأمريكى . . فأرسلنا في طلبه وحملناه رسالة إلى صديقه . . الذى نقلها بدوره إلى مستر كافرى السفير الأمريكى فى ساعة مبكرة من صباح ٢٣ يوليو . .

اعتبر السفير الأمريكى كافرى هذا لفتة طيبة منا وخاصة أنه كان صديقاً شخصياً لفاروق أو هكذا كان يعتبره الملك ، وبالفعل كان اتصالنا به بداية علاقة طيبة بيننا وبينه . . حتى أنه فى الوقت الذى كان فيه الإنجليز يبذلون كل جهدهم لمعرفة من هم رجال الثورة ، كان السفير الأمريكى قد دعانا إلى العشاء فى بيته بالسفارة ، فلبينا جميعاً دعوته . . أعضاء مجلس الثورة جميعاً . .

كان من الواضح أن البلاد كانت مهيئة للثورة ، فقد فقدت الناس ثقتها فى الأحزاب ، أما بالنسبة لشعور الشعب نحو الملك والإنجليز فقد بلغ قمة

الرفض والكراهية . . . ولذلك التفت الجماهير حول دبابتنا في كل مكان ،
ترقص وتغنى وهي في قمة السعادة .

كان علينا أن نواجه مسئولياتنا وأولها تكليف وزارة بإدارة شؤون البلاد —
ولكن من يكون رئيسها ؟

بعد مناقشة لم تدم طويلا ، اتفقنا جميعاً على أن أصلح الموجودين هو على
ماهر باشا ، فهو بعيد عن الأحزاب ثم إنه معروف بالحسم .

« يا أنور » خاطبني جمال عبد الناصر قائلاً : « دانت طول عمرك بتشتغل
بالسياسة ، روح شوف لنا على ماهر وكلفه علشان يشكل الوزارة » .

لم أكن أعرف بيت على ماهر ، ولكن حدث أن إحسان عبد القدوس وهو
صحفي مهد بمحلاته الصحفية لقيام الثورة وصديق عملت معه في الصحافة كان
قد أتى لزيارتي في القيادة ، ولما كان يعرف بيت على ماهر توجهنا معاً إليه .

استقبلنا على ماهر بترحاب ، وجلسنا في شرفة الدور الثاني حيث
كانت حرارة الجو محتملة بعض الشيء . . . أبلغته بتكليف مجلس قيادة الثورة له
برئاسة الوزارة . . . اضطرب ولم يقل شيئاً . . . فهمت أنه محرج فالتكليف يأتي
من الملك . . . ثم إنه ليس واثقاً من أن حركتنا سيكتب لها النجاح ، قلت له إننا
قد سيطرنا على الموقف تماماً . . . وأثناء حديثنا مرت في الجو أربع قاذفات قنابل
على ارتفاع منخفض . . . فسألني إذا كانت الطائرات تابعة لنا . . . قلت « نعم ،
ألم أقل لك إننا سيطرنا على كل شيء ؟ منذ الفجر والقوات المسلحة في أيدينا . . .
وكذلك جميع المرافق الحيوية . . . كل شيء أصبح في أيدينا . . . نحن نطلب
منك أن ترأس الوزارة . . . هذا أمر مجلس قيادة الثورة الذي هو صاحب الكلمة
الوحيدة في مصر الآن » .

سألني ماذا سنصنع بالملك . . . قلت له إنه حر يتصرف كما يشاء ، وعلى ضوء

تصرفاته سنعامله . . في هذه اللحظة دق جرس التليفون في الحجرة المجاورة وتغيب على ماهر بضع دقائق ثم عاد ليقول إن الملك قد اتصل به وإنه موافق على تعيينه رئيس وزراء وسيستقبله مساء نفس اليوم بالإسكندرية . . « مبروك » قلت له وعدت إلى إخواني بالقيادة أبلغهم ما تم .

لقد كلفنا هذا السياسى بتشكيل الوزارة بدلا من أن نشكل وزارة من العسكريين لأننا لم نعد أنفسنا لتولى الحكم وكان هدفنا هو تطهير الحياة السياسية وإقصاء الملك والأحزاب والإنجليز .

إلى هنا كنا قد كسبنا الجولة الأولى ، لكن ما زالت هناك جولات أخرى أولها انتقال قوات عسكرية من القاهرة إلى الإسكندرية فقد كان الملك يقضى الصيف بها كعادته رسمياً ، ولكن لكى يتم هذا لابد لنا من بعض الوقت ، ولم يكن أمامنا من سبيل إلى هذا سوى أن نصطنع بعض المطالب من الملك . . كسباً للوقت أولاً ولكى لا يشك فى حقيقة نوايانا نحوه ثانياً . . فاتصلنا بعلى ماهر نطلب منه انتظارنا قبل سفره بعد ظهر ٢٣ يوليو لمقابلة الملك حتى يحمل مطالبنا إلى الملك .

كان مطلبنا الحقيقى الوحيد هو رحيل الملك عن البلاد . ولكن كان علينا أن نخفى هذا إلى أن يتم انتقال قواتنا إلى الإسكندرية فى هدوء . . وبناء عليه اصطنعنا بعض المطالب التافهة - ست مطالب على ما أذكر . . وذهبنا بها أنا وعبد الناصر ، إلى على ماهر وسلمناها له ، وسافر الرجل إلى الإسكندرية بعد ظهر ذلك اليوم ليقابل الملك .

وفى الليل اتصل بى على ماهر من الإسكندرية وقال إن الملك قد قبل طلباتكم كلها !.. وأسقط فى يدنا فقد كنا نعتقد أن الحوار سيبدأ . . وبناء عليه فهو يرى - أى على ماهر رئيس الوزارة الذى فرضناه على الملك - أن يحضر إلى الإسكندرية اثنان من مجلس قيادة الثورة ليسجلا اسميهما فى دفتر التشريرات . .

« شكراً للملك على الاستجابة إلى مطالب الجيش » قلت له : « سأدرس الموضوع مع زملائي »

جهزنا القوات يوم ٢٤ وفي صباح ٢٥ يوليو بدأت تتحرك . . علم الملك فأبلغ على ماهر الذى اتصل بى ليستفسر . . فقلت له إن هذه القوات قادمة إلى الإسكندرية لتأمين المرافق كما فعلنا فى القاهرة . . ولا داعى للقلق ثم إننى شخصياً سأحضر إلى الاسكندرية فى المساء لتنفيذ ما اتفقنا عليه .

عبد الناصر قال لى فى ردهة القيادة العامة للقوات المسلحة : « اسمع يا أنور خلصنا بقى من الجدد دا بسرعة . . اديله إنذار ومشيه . . عاوزين نخلص منه بسرعة علشان تستقر الأوضاع فى البلد » . قلت له « طيب » . أثناء حديثنا مر بنا محمد نجيب فلما علم بموضوع الحديث طلب منا أن يذهب معى . . ووافقنا .

أخذت مع محمد نجيب طائرة عسكرية من طراز دوف (Dove) صغيرة أوصلتنا إلى مطار النزهة بالإسكندرية ومن هناك توجهنا إلى بولكى ، وهو مقر رئيس الوزراء الصيفى فى الاسكندرية ، حيث دخلنا على رئيس الوزراء على ماهر . . وجدته مضطرباً بسبب القوات المتجهة إلى الاسكندرية . . طمأنت باله ، كما فعلت من قبل ، وأكدت له أن الغرض من القوات هو تأمين المرافق والأهالى والممتلكات . . خاصة وفى الاسكندرية كثير من الأجانب ، فقد يفتعل بعضهم أشياء تعرض البلاد للخطر وبالذات كنا نحسب حساب أى عمل من جانب المخابرات البريطانية . .

عند خروجى وجدت مقر رئيس الوزراء مليئاً بالصحفيين من جميع الجنسيات ، الكل يهرع إلى متسائلا عن آخر الأخبار . فقلت لهم ، لا جديد ، وسوف ألتقى برئيس الوزراء مرة ثانية فى السادسة مساء .

لا أعلم إذا كان من حسن حظى أو العكس ، أننى كنت الوحيد من بين أعضاء مجلس قيادة الثورة الذى كتبت عليه مواجهة جميع الأحداث ، منذ إعلانى

قيام الثورة إلى خروج الملك من مصر . فقد تسبب هذا في خلق حساسيات كثيرة بيني وبين زملائي في مجلس قيادة الثورة خاصة وأنني كنت الاسم الوحيد المعروف بينهم لدى الجماهير نتيجة لنضالي السياسي الطويل وبعد أن خلقت مني الصحف والمجلات بطلا أسطورياً في قضية مقتل أمين عثمان .

لم أُنَبِّه إلى هذه الحساسيات في بادئ الأمر ، فقد كنت أقوم بكل ما أفعله في عفوية وبفرحة من بدأ عملاً كبيراً . . لا يهمه إلا أن يكتمل ، بصرف النظر عن شخصه أو أي شخص آخر . . هكذا كنت أرى الأمور ، واتصرف وفقاً لما أراه . . ولكني بعد ذلك عانيت الكثير من هذه الحساسيات التي لم يكن لي يد في إيجادها ، بل ولم أكن حتى على وعي بها ولكن هكذا شاءت الظروف .

لا أعرف ما الذي عاد بذاكرتي إلى تلك الحساسيات ، فمن المؤكد أنها لم تترك أي أثر في نفسي حتى عندما تبينتها وأصبحت واضحة لي كل الوضوح ، ولكن من المؤكد أيضاً أنها أثرت على الآخرين بما كان يمكن أن يجعل الموقف يتفجر أكثر من مرة فيفسد العمل الجميل الذي قمنا به . . ولذلك أعتقد أننا ينبغي أن ننشئ أبناءنا على استبعاد الذاتية في كل ما يفعلون لتحل محلها الموضوعية الخالصة .

فليس المهم أن أكون أنا أو غيري الذي بنى البيت ، الأهم من هذا كله . . بل الشيء الوحيد المهم أن يوضع حجر أساس البيت وأن يكتمل بناؤه .

بعد أن تركت على ماهر ، توجهت إلى قشلاق مصطفى باشا مقر قيادة القوات العسكرية بالاسكندرية ، حيث كان زكريا محيي الدين . . كان جزء من قواتنا قد وصل والباقي في الطريق . . ولكن زكريا أخبرني أنه لن يكون مستعداً لمحاصرة قصر رأس التين وقصور الملك الأخرى قبل أن نوجه له الإنذار إلا في الساعة السابعة من صباح اليوم التالي ٢٦ يوليو ، إذ أن الجنود بعد هذه الرحلة الشاقة من القاهرة إلى الاسكندرية ، لابد لهم من تناول وجبة ساخنة ، ثم إنه لن يكتمل وصولهم قبل الساعة السادسة مساء ٢٥ يوليو ، وهو الميعاد الذي حددته لمقابلة على ماهر ، وإبلاغه بإنذار مجلس القيادة .

لم يكن هناك مفر من التأجيل ، فاتصلت بعلي ماهر ، وطلبت منه تأجيل ميعادنا إلى الساعة التاسعة صباح ٢٦ يوليو . . ولكن قبل أن يتم اللقاء كان زكريا قد حاصر بالجزء الأكبر من قواته مقر الملك حينذاك وهو قصر رأس التين حيث قامت معركة بين القوات وبين الحرس الملكي . . أصيب فيها عدد من الحرس . . انزعج الملك . . فسحب قوات الحرس ، واتصل بعلي ماهر ، كما اتصل بالسفير الأمريكي يستنجد به خوفاً من القبض عليه وقتله ، ولكن كافرى كان حريصاً فأرسل له سكرتيه الخاص خوفاً من خلق حساسية معنا ولمعرفته أن الملك مكروه وأنه قد خسر المعركة . .

في التاسعة من صباح ٢٦ يوليو ، اتجهت ومعى اللواء محمد نجيب إلى بولكلى ، كان في البهو المؤدى إلى حجرة رئيس الوزراء عدد ضخم من الصحفيين والكل

يتطلع إلى ويسأل ما الأخبار ؟ وفجأة تقدم منى رجل عرفت منه أنه مستشار السفارة الأمريكية . وسألنى وهو فى حالة انفعال لماذا حاصرت قواتنا الملك فى قصر رأس التين وكيف حدث إطلاق النار . . . إلخ . . نظرت إليه بلامبالاة ، وقلت له إن هذا ليس من شأنه فانسحب ، وتقدم منى رجل آخر . . مصرى هذه المرة . . وهمس فى أذنى « حاجة مهمة يا فندم . . الدكتور يوسف رشاد على التليفون ويلح أنه يكلمك قبل ما تدخل عند على ماهر » .

كان واضحاً أن الملك يريد أن يطمئن ، وأنه كان ما زال يعتقد أنى كصديق ليوسف رشاد يمكنى مساعدته ، فالتفت إلى الرجل وقلت :

« قل ليوسف رشاد ينتظر . . العجلة دارت ولن تعود مرة أخرى إلى الورا » .

لقد كان الدكتور يوسف رشاد صديقاً عزيزاً استخدمته فى تضليل الملك ولذلك ولأن الأمر أكبر من الصداقة وهو مصلحة الوطن فقد رفضت أن أكلمه إلا بعد أن تنهى معركة التخلص من الملك .

أما بعد خروج الملك وبعد أن أصبح كل شىء فى أيدينا فيوسف رشاد بالنسبة إلى هو الصديق الذى أحبه وأحفظ له وقوفه إلى جانبي فى ساعة الشدة ، ولذلك فإنه بعد التخلص من الملك وحين طلب منى مجلس قيادة الثورة اعتقال يوسف رشاد ، فوجئ مجلس قيادة الثورة بى وأنا أدخل الاجتماع ، أحمل فى يدي حقيبة ملابسى . . وأقول لهم « يوسف رشاد هذا الذى تتكلمون عنه أنا فعلت معه كذا وكذا وكذا . . عبد الناصر يعلم كل التفاصيل ولذلك إذا اعتقلتم يوسف رشاد فيجب أن تعتقلونى معه . . وأنا على أتم استعداد لذلك كما ترون . . فمعى حقيبة ملابسى . . فهذا أمر خلقي ومبدئى بالنسبة لى » . . ولم يعتقل يوسف رشاد وتركوه وشأنه إلى أن مات .

بعد أن دخلنا حجرة على ماهر . . لم أضيع وقتاً ففتحت الحقيبة التى فى يدي ، وأخرجت منها الإنذار الموجه من مجلس قيادة الثورة - وهو بخط يدي - إلى الملك وبدأت أقروءه ، طلبنا فيه مغادرة الملك للأراضى المصرية فى الساعة السادسة مساء يوم ٢٦ يوليو ١٩٥٢ ، فإن لم يفعل فإن عليه أن يتحمل المسئولية كاملة .

كانت الصدمة واضحة على وجه رئيس الوزراء ، ولكنه أفاق منها بعد لحظات ، وأخذ الإنذار ليبلغه إلى الملك .

وفي العاشرة والنصف أى بعد ساعة ونصف من تسليم الإنذار اتصل بنى على ماهر رئيس الوزراء من مقره فى بولكى بعد عودته من مقابلة الملك ، وأبلغنى أن الملك قد قبل الإنذار ورجانى أن ألحق به فى مكتبه للاتفاق على صيغة التنازل . فقد كان مطلبنا فى الإنذار أن يتنازل الملك عن عرشه لابنه الأمير أحمد فؤاد .

ذهبت إلى مكتب على ماهر مع أحد الزملاء ، المرحوم جمال سالم ، حيث اطلعنا على صيغة التنازل ، وفيها أن يوضع الأمير أحمد فؤاد تحت الوصاية ، فقد كان فى ذلك الوقت طفلاً صغيراً . ووافقنا على الصيغة ، ثم أرسلناها إلى الملك . فوقعها وعلى الفور اتصلت بقائد المحرسة يخت الملك الخاص وطلبت إعداده للابحار بالملك وأسرتة فى السادسة مساء على أن يعود اليخت إلى مصر بمجرد أن ينتهى من مهمته .

فى قشلاق مصطفى باشا جلست مع إخوانى فى القيادة ممن كانوا معى فى الاسكندرية ، نتلقى التهانى من مواكب رجال الأحزاب وكبار البشوات والباكوات والإقطاعيين فإذا بنا نفاجأ بطلب المقابلة من القائم بالأعمال البريطانى وفى صحبته الملحق العسكرى فى السفارة البريطانية وطبعاً كان الملحق العسكرى يرتدى زياً رسمياً على طريقة مواكب الإمبراطورية القديمة التى كانوا يرهبون بها المستعمرات ، وكان السفير البريطانى فى إجازة . . استقبلناهما . . قدم القائم بالأعمال لنا مذكرة ، فحواها أنهم باعتبارهم أصدقاء لنا ، فهم يطلبون معرفة موقف الثورة من أسرة محمد على وحقوقها التاريخية ، ويطلبون كذلك فرض حظر التجول لحماية لأرواح الأجانب .

كان هذا أول اصطدام لنا مع الإنجليز بعد الثورة ، فقلت هذه فرصة لكى نلقنهم درساً كنا نتوق إليه طوال عمرنا . . التفت إلى الرجلين وقلت : —

« البند الأول ، أسرة محمد على وحقوقها التاريخية . . ما دخلكم أنتم فى هذا ؟ هل هى أسرة إنجليزية ، أمركم غريب والله ! أما عن حماية الأجانب ، فيجب

أن تعلموا أن هذه بلدنا . . وأنه منذ اليوم لا أحد مسئول عنها إلا نحن . .
ونحن فقط . . أفهمتهم ؟

ثم إننا نريد أن نعرف . . بأيه صفة تقولون هذا الكلام ؟ هل هي صفة رسمية ؟
إذا كان الأمر كذلك فنحن نريد كلامكم مكتوباً وموجهاً من الحكومة
البريطانية حتى نستطيع أن نتخذ موقفاً من حكومتكم .

تراجع القائم بالأعمال البريطاني على الفور وقال إن الورقة التي قرأ منها
الكلام ، ورقة عادية وإن حكومته لا تعرف شيئاً عنها أو عن زيارته لنا ، وإنه
قد أتى إلينا كصديق فقط ، وليس بأية صفة أخرى ، ورجاني أن أعتبر الزيارة
كأن لم تكن . . باختصار انسحب بكل الأساليب الناعمة التي يمكن تصورها .
بمجرد خروجه ، أبلغت إخواني في القيادة بالقاهرة بأن أول احتكاك لنا مع
بريطانيا قد وقع في الساعة الثانية عشرة ظهر يوم ٢٦ يوليو ، وأنه انتهى بانسحاب
بريطانيا وتراجعها تراجعاً كاملاً .

اتصلت بعد ذلك بالميناء ، فعرفت أن كل شيء على ما يرام بالنسبة لليخت
المحروسة ، واجراءات خروج الملك على ظهرها - أصدرت أوامري للمدفعية
السواحل بعدم التعرض للمحروسة ، كما أعطيت تعليماتي لسلاح الطيران
بتجهيز بعض الطائرات لتحية الملك أثناء مباحثته المياه المصرية .

وهكذا في السادسة من مساء ٢٦ يوليو ١٩٥٢ ، غادر الملك فاروق الأراضي
المصرية . . وكان في وداعه من رجال الثورة على اليخت محمد نجيب وجمال
سالم وحسين الشافعي . أما أنا فقد وقفت على ظهر البارجة إبراهيم في الميناء ،
أكبر قطعة بحرية عندنا في ذلك الوقت . . أراقب الطائرات وهي تحوم فوق
المحروسة تحي الملك مودعة . . لفئة بسيطة - هكذا قلت لنفسى - ولكنها تحمل
من معانى الثقة بالنفس والكبرياء والسماحة ما يعبر عن روح مصر عبر الزمان .

الفصل الخامس

الشوار يحكمون

**** معرفتي ****
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

فى مساء ٢٧ يوليو ١٩٥٢ أى بعد خروج الملك بيوم واحد دعانا عبد الناصر - مجلس قيادة الثورة - إلى الاجتماع فى القيادة . . وافتتح الاجتماع قائلاً إن المرحلة الأولى من مراحل الثورة قد نجحت بخروج الملك أمس ، واليوم نحن المسئولون عن البلاد وبناء عليه يجب أن نتخذ قراراً فى أمر مهم جداً ، ولكن قبل أن نتخذ هذا القرار . . يرى من واجبه أن يتنحى عن رئاسة الهيئة التأسيسية ، فقد انتهت هذه الهيئة بنجاح الثورة ونحن من اليوم اسمنا مجلس قيادة الثورة .

لم أرى أى معنى فى كلام عبد الناصر ، فلماذا يستقيل ؟ وما الفرق بين رئيس الهيئة التأسيسية ومجلس قيادة الثورة ؟ لقد نجحت الثورة فماذا يهم بعد ذلك ، وما الداعى إلى تغيير الأوضاع والمسميات ؟

كان من الصعب على فى تلك المرحلة البعيدة إدراك ما يهدف إليه عبد الناصر.. فبالنسبة إلى - بنجاح الثورة ودخولى مجلس قيادة الثورة - انتهى كل ما كنت أطمح فيه منذ أن كنت أستمع إلى موال زهران فوق سطح الفرن فى ميت أبو الكوم وأثناء الاعتقال وبعد الفصل من القوات المسلحة وخلال سنوات السجن والجوع والتشريد . . عمر جيل بأكمله من الكفاح والحرمان فى سبيل تحقيق رسالة ، لا أغالى إذا قلت إنه بدونها لم يكن فى الإمكان أن يكون للحياة أى معنى . .

والآن وقد تحققت الرسالة وشاركت أنا بالفعل فى تحقيقها فأعلنت ميلاد الثورة وأخرجت الملك من البلاد ، وواجهت بريطانيا التى كانت تمثل عدو الشعب

رقم ١ ، وعلمته درساً كنت أتوق إليه من زمن ، عندما أتى إلينا القائم بالأعمال البريطاني ومعه الملحق العسكري في قشلاق مصطفى باشا بالاسكندرية فأعلنت بكل وضوح وعزم وتصميم أن لا إرادة بعد اليوم إلا لمصر ، ومصر وحدها . . فماذا أريد بعد ذلك اليوم ؟ وأى شيء يهم ؟ حتى ولو لم أدخل مجلس القيادة وحتى لو لم يكن لي دور ملموس في قيام الثورة . . يكفيني أن الثورة قد قامت ونجحت فتحقق بذلك حلم حياتي . .

كانت هذه حقيقة مشاعري منذ البداية ، فالثورة قد قامت ولا يمكن أن يكون قيامها إلا لمصلحة مصر ولتحقيق قيم الخير والحق التي كنت أتوق إليها منذ الصبا . . فلتسركم تشاء وليتخذ قادتها من القرارات ما يرون اتخاذه ، فالحصيلة في النهاية هي خير مصر والمصريين .

ولذلك دهشت عندما تقدم عبد الناصر باقتراحه بالتنحي واعترضت عليه ، ولكنه ألح وصمم على أن يوضع اقتراحه موضع التنفيذ . . وفعلاً أعدنا انتخابه بالاجماع رئيساً لمجلس قيادة الثورة . . لم يكن عهدى بعبد الناصر أن يقول أو يفعل أى شيء اعتباطاً ، فلماذا فعل ما فعل ؟ لم يكن عبد الناصر بالرجل الذي يمكن وصفه بالمثالية . . بل كان في الحقيقة عملياً إلى أقصى حد . . كثير الشك . . به مرارة تجعله يلتزم الحذر في كل خطواته . . فلا بد من سبب لاصراره على تنحيه عن الرئاسة ، وإعادة انتخابه رئيساً لمجلس قيادة الثورة ، وهنا تذكرت بعض الصراعات التي قامت بينه وبين بعض أعضاء الهيئة التأسيسية . . صراعات على السلطة بطبيعة الحال . . ولكن بعد أن قامت الثورة لماذا الصراع ؟ سألت نفسي هذا السؤال أكثر من مرة إلى أن اهتديت لا إلى الحل - بل إلى طريق لإدراك ما يدور حولي . . لقد جاءت الثورة بالنسبة إلى بصورة تختلف اختلافاً كلياً عما حدث لهم جميعاً . . فالثورة بالنسبة إلى "ومعذرة للتكرار ، كانت ثمرة كفاح عمر بأكمله ، ولذلك فبحكم ما أدين به من قيم ومثل ، ما أن نجحت الثورة حتى أصبحت لا أريد أى شيء ، وأصبح أى شيء في نظري يساوي أى شيء آخر . . ولذلك كنت دائماً أقف بعيداً عن أية

معركة تدور بينهم ، وكان تفسيرهم لسلوكي هذا أني عديم الاهتمام والمبالاة بكل شيء ، غير قادر على البت في الأمور . . ولم يخطر على بالهم أنني أبتعد ترفعاً لا عجزاً . . وامتلاءً بذاتي لا خواء ولا خوفاً . . بل حرصاً على الثورة . . وحرصاً على أن تظل المجموعة مترابطة لأن هذا لا بد أن ينعكس على البلاد . . وتعالياً على صغائر الأمور وفي مقدمتها السلطة . . واقتناعاً مني بأننا ما دمنا قد صنعنا الثورة فلا شيء يهم بعد ذلك . . أما هم أي زملائي من أعضاء مجلس قيادة الثورة فمجموعة من الضباط الشباب كانوا منذ ثلاثة أيام فقط يجلسون إلى مكاتبهم في القاهرة كما يجلس الكثيرون غيرهم من أفراد القوات المسلحة ، لم يعرفوا الجوع أو التشرد ، لم يتعرضوا للسجن والاعتقال . . لم يعانون مرارة الأمل واللهفة والإحباط . . ثم بعد ثلاثة أيام من إعلان الثورة وجدوا أنفسهم يتنقلون فجأة من مكاتبهم ومراكزهم في الجيش إلى مركز السيادة ، فهم وحدهم يحكمون مصر بلا منازع ولا منافس ، ومن ثم كان الصراع على السلطة ، وهو الشيء الذي لم يخطر ببال أي وقت من الأوقات . . ولذلك تجد كل أفعالي طوال مدة قيام مجلس قيادة الثورة ، وبعد ذلك ، بمنأى عن هذا النزاع ، أي الصراع أو الرغبة في السلطة أو المزاحمة على المناصب .

لو لم أر هذا بنفسى لما صدقته . . ولكن لم يكن الأمر كذلك مع عبد الناصر ، فقد كان على وعي كامل بالصراع على السلطة ، وكان يعد لكل أمر عدته ، فبعد أن اطمأن إلى انتخابنا له رئيساً لمجلس قيادة الثورة ، طرح علينا أمراً وصفه بأنه في غاية الأهمية ، وهو الاختيار بين حكم البلاد عن طريق الديمقراطية أو طريق الديكتاتورية .

ما هذا الذي يفعله عبد الناصر ؟ هل فقد عقله أم ماذا ؟ قلت في نفسي . . فقد كنت على ثقة من أننا جميعاً بل والشعب الذي أيد الثورة بهدير رهيب وأولنا عبد الناصر قد كفرنا بالديمقراطية نتيجة لما صنعتنا بنا وبالبلاد ديمقراطية الأحزاب وصراعاتها من أجل السلطة وخضوعها للملك وللإنجليز . . ثم إننا جميعاً

ضباط ، وقد تعودنا في العسكرية سرعة الإنجاز . . هذا إلى جانب الهدف الرئيسي الذى قامت الثورة من أجله وهو إصلاح أحوال البلاد في أسرع وقت .

طرح الموضوع للمناقشة ، وللحقيقة والتاريخ أصر جمال عبد الناصر على رفض طريق الديكتاتورية لأنه كما وصفه هو طريق الدم ، والعمل الذى يبدأ بدم لا بد أن ينتهى بدم . . وقال إنه يفضل ألف مرة إعادة البرلمان الحزبى القديم وتسليم مقاليد الأمور للأحزاب برغم الرفض المطلق لها من جانب الشعب ، على أن نلجأ إلى أسلوب الديكتاتورية . . فكيف نخرج البلاد من ديكتاتورية الأحزاب لندخلها في ديكتاتوريتنا ؟

هذا إلى أن الأحزاب كانت تخاف من الملك ومن الإنجليز . . أما نحن فلنا الآن مطلق السيادة ، ولن نخاف من أحد . .

تكلم الجميع وربما كنت أنا أكثرهم حماساً ، فقد كان دفاعى من منطلق الحرص على مصلحة مصر ، فالشئ الذى ننجزه بالطريق الديمقراطية في سنة يمكن انجازه عن طريق الديكتاتورية في يوم . . ولم يخطر ببالي مطلقاً في تلك اللحظات أن المسألة كلها ليست إلا اختباراً للقوة من جانب عبد الناصر فهو يهدف في بداية رئاسته للمجلس إلى أن يثبت للجميع أنه يستطيع أن يتخذ القرار .

احتمد الصراع وشعرت أننا سوف نواجه انقساماً يضرب وحدتنا فتدخلت ، وبدأت ألخص الكلام الذى قيل بهدف تجميع الموقف ، وإذا بعبد الناصر يقاطعنى بحدة وعنف قائلاً : -

- أنت قاعد تلخص كلام الأعضاء وتكلم كلاماً لا معنى له . . وتتصرف كأنك رئيس مجلس قيادة الثورة . . ما هذا الذى تفعله ؟

قلت له مندهشاً : « يا جمال أنا آسف . . أنا بأحاول أجد حل وسط . . أنا لا رئيس مجلس قيادة ثورة ولا شيء من هذا القبيل . . »

وأخذت الأصوات فكانت النتيجة ٧ ضد واحد هو عبد الناصر . . سبعة أصوات مناهة للديكتاتورية وواحد للديمقراطية هو عبد الناصر .

عندها وقف محتجاً وقال في حدة : —

« أنا لا أستطيع أن أقبل هذا القرار الذي هو قرار الديكتاتورية . . هذا طريق خطر على الثورة وعلى البلاد ، وأنا مستقيل من جميع مناصبي » .

وبرغم إعادة فتح باب المناقشة للمرة الثانية وأخذ الأصوات في نهايتها فإن النتيجة لم تتغير سبعة للديكتاتورية وواحد للديمقراطية هو عبد الناصر وجمع جمال أوراقه وأعلن استقالته من جميع مناصبه متمنياً لنا التوفيق ولكنه كما قال طريق خطر على البلاد سيثبت لنا خطؤه وغادر القاعة إلى منزله في الساعة الثانية من صباح ٢٨ يوليو ١٩٥٢ وأسقط في يدنا جميعاً بعد انصراف جمال ونحن حول منضدة الاجتماع ورائت فترة من الصمت . .

ثم بدأت المناقشة هذه المرة بدون جمال وتغلبت روح الوحدة على روح الصراع والإنقسام خاصة وأن جمال كان الدينامو الذي لم نتصور أبداً أن يبدأ العمل في إعادة البناء بدونه واتخذنا في نهاية المناقشة قراراً بأن يعود جمال ولنا فيه كل الثقة وذهب إليه في منزله اثنان منا ليبلغوه . . وفي الفجر عاد جمال منتصراً . . بتفويض منا . . وكان قراراً تاريخياً مهماً اختلفت الآراء عليه .

كان أول قرار اتخذناه لتطبيق الديمقراطية هو مطالبة الأحزاب بتطهير نفسها ، وأصدر مجلس الثورة قانون تنظيم الأحزاب ثم طلبنا من الأحزاب القديمة أن توافق على قانون الإصلاح الزراعي الذي هو مبدأ أساسي من مبادئ الثورة . . فبه وحده سوف يتغير هيكل المجتمع . . وهذا ما كنا نبغيه . .

وأصدر مجلس الثورة أيضاً في نفس الوقت قراراً بإجراء الانتخابات العامة في فبراير ١٩٥٣ أي بعد ستة أشهر فقط من قيام الثورة وحينما هاجم على ماهر- رئيس وزراء الثورة الذي فرضناه على الملك - عندما هاجم الأحزاب في بيان لم يذكر فيه تاريخ الانتخابات الذي حددناه في مجلس الثورة أي فبراير سنة ١٩٥٣ أوقفنا مطابع الصحف وأصدرنا بياناً من مجلس الثورة يؤكد التزامنا بإجراء الانتخابات الديمقراطية في فبراير سنة ١٩٥٣ .

وكانت صفقة لرئيس الوزراء .

بالنسبة لتطهير الأحزاب فقد استغلت الأحزاب الفرصة فقام الأقوياء في كل حزب بطرد الضعفاء ، واعتبروا أن هذا هو التطهير المطلوب . .

كانت طبعاً مسألة شكلية بحته . . أما بالنسبة لقانون الإصلاح الزراعي . . فقد رفضته الأحزاب جميعاً كما رفضه على ماهر رئيس الوزراء في أول حكومة للثورة

لم يكن هناك مفر من اتخاذ إجراءات جديدة وخاصة بعد أن صدر قانون تنظيم الأحزاب . . ماذا كانت النتيجة ؟ تقدمت الأحزاب القديمة طبعاً وتقدم معها ٢١ طلب بتكوين أحزاب جديدة . . في نفس الوقت وبعد ثلاثة أسابيع من قيام الثورة كانت الصراعات داخل مجلس القيادة قد بلغت حدّاً يحتم ضم عناصر جديدة ومحايده إلى المجلس عسى أن يخفف ذلك من حدة الصراع . . وفعلاً ضمّنا إلى المجلس خمسة أعضاء كان على رأسهم محمد نجيب الذي عهدنا إليه برئاسة مجلس قيادة الثورة كطلب جمال نظراً لأنه كان أكبرنا سناً فأصبح أعضاء المجلس ١٤ وهو أكبر رقم وصل إليه .

كان من الواضح أننا لم نعد أنفسنا عند القيام بالثورة لتولى الحكم - كانت أقصى أمانينا أن تنجح ثورتنا وأن تظهر الأحزاب نفسها وأن تقوم في مصر حياة ديمقراطية نظيفة وشريفة وأن يتولى زمام البلد طاقم جديد يختلف عن الطاقم القديم في أسلوب العمل وفي نظراته إلى الأشياء ، أما نحن كجيش فنجلس في الخلفية ، نراقب سير الأمور إلى أن تصل البلاد إلى بر الأمان وتوصل الحرية والاستقلال . . فلا ملك ولا مستعمر بعد الآن . .

لم تكن الوزارات مطمئنة فنحن لم نعد أنفسنا لها بل ولم نعد برنامج حكم معين ، ولكن رغم هذا كله حدث أننا في أحد اجتماعاتنا قلنا لقد آن الأوان لكي نوزع أنفسنا لمتابعة أعمال الوزارات بمعنى أن يصبح كل واحد منا مسئولاً عن وزارة أو مجموعة وزارات لكي نعطي للعمل دفعة جديدة . . كل واحد بدأ يتكلم ويستعرض قدراته بالنسبة لهذه الوزارة أو تلك . . إلى أن أتى دوري فقلت : - « لا أعتقد أنني بحاجة إلى وزارة - فأنا لا أفهم إلا في السياسة . . »

وسألني صلاح سالم متهمكاً : -

وما هي السياسة التي تفهم فيها ؟

قلت : - « أنا أقصد بالسياسة . . كيف نوصل مصر من أقصر وأسرع

طريق إلى أمانينا . . وأن نكتب لمصر تاريخاً جديداً . . هذه هي السياسة في عرفي .

ما أن قلت هذا ، حتى خيل إلى أنني ارتكبت جريمة ، فقد هاجمني صلاح سالم على الفور واشترك معه بعض الحاضرين وعلى رأسهم عبد الناصر . . لم يهمني هجوم صلاح سالم فقد كان معروفاً بحب الظهور والتهجم ، ولكن هالتي أن ينضم إليه عبد الناصر وهو من كان يربطني به رباط من الاحترام المتبادل منذ أن كان عمرنا تسعة عشر عاماً . . لم أجد مبرراً لهذا الهجوم المفاجئ ، فقد فعلت ما في وسعي منذ قيام الثورة وقبل ذلك للحفاظ على عبد الناصر ، مهما كلفني الأمر . . فيم إذن هذا الهجوم والتهكم والسخرية وكأنني دخيل يريد أن يسلبهم حقوقهم أو غريب يتكلم لغة غير لغتهم . . ؟

حزنت لا لنفسي . . ولكن لعبد الناصر ولهم . . ومنذ تلك اللحظة انسحبت إلى نافذة عالية أطل منها عليهم وأضحك على صراعاتهم . . فقيم يتصارعون ؟ سألت نفسي أكثر من مرة إلى أن تكشف لي أننا لسنا إلا بشر ، وبشر من المرتبة العادية . . ولكن هذا الاكتشاف لم يمنعني من أن أفضل أي واحد فيهم على نفسي لاشيء إلا انطلاقاً من مفهوم الصداقة ومفهوم العمل الذي قمنا به مجتمعين من أجل الملايين . . ولكن مهما حاولت أن أذيب ذاتي في ذاتهم مهتدياً بالقيم والمثل العليا التي نشأت عليها . . ظل السؤال حائراً في رأسي . . فيم الهجوم على ومن عبد الناصر بالذات ؟ وفيم ارتياح الآخرين لهذا الهجوم ؟ لم أستطع أن أجد الإجابة في ذلك الوقت ولو أنني أدركتها فيما بعد . . فعندما قامت الثورة وفي أيامها الأولى لم يكن الشعب يعرف أحد من رجالها سوى أنور السادات بطل قضية أمين عثمان كما صورته الصحف ووسائل الإعلام وحكت قصة نضاله الوطني الطويل . .

ولكن هل كانت مراحل الكفاح التي مررت بها جريمة استحق عليها أن يعاقبني عبد الناصر وبعض الآخرين عليها ؟

لم أكن قد عرفت بعد كل جوانب شخصية عبد الناصر . . فقد كان حبي له يحجب الحقيقة عن عيني ، ثم إنه من المعتاد أن نحكم على غيرنا بما جبلنا عليه من طبائع وخصال . .

أنا مثلاً أثق في كل إنسان إلى أن يثبت العكس ، أما عبد الناصر فقد اكتشفت فيما بعد أنه يشك في كل إنسان وفي كل شيء إلى أن يثبت العكس وفي ظروف حياتنا المعقدة هذه قليلاً ما يثبت العكس . .

أنا أكتب هذا الكلام الآن بعد تجارب سنوات وسنوات ، أما في تلك المرحلة المبكرة فلم يكن من السهل على أن أتقبل أو أتصور أن يشك جمال في وأنا الوحيد الذي لم يدخل معه معركة . . أو يطلب شيئاً لنفسه . . ولذلك فبعد أن حدث ما حدث وفي الأيام الأولى للثورة دخلت برجاً بعيداً وعشت فيه . . أراقبهم عن بعد فإذا قام خلاف بينهم أحاول الإصلاح ، وإذا لم يكن هناك خلاف فكل شيء يتساوى عندي مع أي شيء - حاولوا مراراً أن يعرفوا سر سلوكي هذا . . قالوا إنه ضعف وعدم معرفة بالأمور أو عدم اهتمام ، ولكنهم لم يتوصلوا أبداً إلى الحقيقة .

لقد اكتشفت ذاتي داخل الزنزانة رقم ٥٤ في سجن مصر العمومي ومن يومها عرفت أن نفسي أكبر من كل المراكز والمناصب والألقاب . . ففيم الدهشة إذن لابتعادى عن هذه الصراعات البشرية ؟ .

إن ليلة ٢٢ - ٢٣ يوليو قد حققت كل آمالي . . فوجدت فيها نفسي . . وإذا ما وجد الإنسان نفسه فماذا يريد من الحياة بعد ذلك ؟

فى ٩ سبتمبر سنة ١٩٥٢ ، كانت الصورة قد اتضحت أمامنا . . ففانون الإصلاح الزراعى مرفوض من رئيس وزراء الثورة على ماهر ومن الأحزاب جميعاً . . وتطهير الأحزاب لم يكن تطهيراً إلا بالاسم فقط . . يجب إذن أن نتولى السلطة . . وهذا فعلاً ما كان . . فذهبت مع عبد الناصر وجمال سالم إلى على ماهر فى مكتبه فى رئاسة مجلس الوزراء وقلنا له شكراً . . لقد أدت مهمتك على أحسن وجه . . فقدم استقالته ، وعينا اللواء محمد نجيب رئيساً للوزارة على أن يكون الوزراء كلهم من المدنيين . .

هكذا كان بدء اتجاهنا نحو السلطة . .

كان الأصل فى تعيين محمد نجيب رئيساً لمجلس قيادة الثورة أن وجوده سوف يضع حداً للصراعات داخل المجلس نظراً لأننا جميعاً من أعمار متقاربة . . أما هو فيكبرنا بكثير . . ولكن للأسف فإن الذى حدث هو العكس . . فقد بدأت صراعات جديدة دخلها نجيب . . وفوجئت أنا بحملة اشاعات ضدى يقودها محمد نجيب وصالح سالم كما أخبرنى عبد الناصر فى ذلك الوقت . .

لم يكن هذا بالأمر الذى يهمنى أو يشغل بالى ، ولكن المسائل تطورت بعد ستة شهور فقط من قيام الثورة أى ديسمبر سنة ١٩٥٢ ، فإذا بنا نفاجأ باتصال بعض رجال الأحزاب ببعض ضباط القوات المسلحة وكان تفسير هذا الأمر بسيطاً . . وهو أن الأحزاب التى كانت تتصارع على الحكم بالتقرب إلى الملك تارة وإلى الإنجليز تارة أخرى أو إلى الاثنين تارة ثالثة وجدت فجأة أن الثورة فى الأيام

الثلاثة الأولى لها قد عزلت الملك وعزلت أيضاً في نفس الوقت نفوذ بريطانيا الإمبراطورية العتيدة وأصبحت سلطة السيادة في مجلس قيادة الثورة الذي يتكون من ضباط مصريين في القوات المسلحة المصرية ، أو بمعنى آخر أصبحت القوات المسلحة هي مصدر السلطات فلماذا لا تحاول الاتصال بها كما كان الحال مع الملك ومع الإنجليز . ؟

وعندما عرفنا ذلك في مجلس قيادة الثورة كان لابد من مواجهة الوضع بالحديد لكي نفهم السياسيين والأحزاب أن القوات المسلحة ليست لحزب ولا لفئة معينة ولا لطائفة وإنما هي للوطن . . وكان لابد من اتخاذ إجراء فوري لتأكيد هذا المعنى . .

وضعنا السياسيين في المعتقل ، أما الضباط الذين حاولوا التآمر مع هؤلاء السياسيين من الأحزاب فحوكموا محاكمة عسكرية ، . وفي ١٦ يناير ١٩٥٣ ، ألغينا الأحزاب ، وصدر قرار مجلس الثورة بإلغاء الأحزاب ووضع السلطة التنفيذية والتشريعية في مجلس الثورة لمدة ثلاث سنوات تنتهي في ١٦ يناير سنة ١٩٥٦ .

هنا بدأ الإخوان المسلمين الصراع المفتوح . . فصدر قرار من مجلس الثورة بحل الجماعة ، ولكنهم ظلوا على نشاطهم إلى مارس ٥٤ ثم إلى أكتوبر ٥٤ عندما حاولوا قتل جمال عبد الناصر في ميدان المنشية بالاسكندرية . . المهم أن الأحزاب كلها ألغيت وأخذنا سلطة السيادة ولكننا وعدنا بالدستور في نهاية الثلاث سنوات . . وقد كان . . في ١٦ يناير سنة ٥٦ أعلننا الدستور المؤقت . . ولا أعرف لماذا اخترنا أن يكون مؤقتاً .

وعندما تعود بي ذاكرتي إلى تلك الأيام البعيدة ، أرى نفسي وأنا أكتب استقالي من مجلس قيادة الثورة . . وأطلب جوازات سفر لي ولزوجتي لكي نعيش في لبنان . . لماذا لبنان ؟ لأنني كنت أسمع أنها بلاد جميلة . .

غنية بمناظرها الطبيعية ، وأنا أحب الجمال . . ويسعدني أن أعيش مع الطبيعة . . أما سبب استقالتي فقد كان محمد نجيب . . والحرب المستمرة التي أخذ يشنها على سراً وعلناً . . وبدون مبرر من جانبي على الأقل . .

وقد عرفت فيما بعد من ضباط المخبرات الذين اشتركوا في الحملة ضدى أن السبب كان ما سبق أن حكيت عن معرفة الشعب لى بسبب كفاحى القديم وتصوير ذلك لنجيب على أنه محاولة منى للتسلق عليه وقد أركى ذلك عنده عضو أو أكثر كما اعترف هؤلاء الضباط لى أمام جمال عبد الناصر بعد ذلك .

أنا أكره الصراعات ولا أرى فى الحياة شيئاً يستحق أن أتصارع عليه مع زملائى . . ولكن أن يجمعنا مجلس الثورة معاً أصبح بالنسبة لى أمراً لا يطاق . . فى العمل ؟

لقد عينا محمد نجيب رئيساً لمجلس الوزراء كما سبق أن قلت وتنازل له جمال بعد انتخابه كما أسلفت وقدمناه للناس كرئيس لمجلس قيادة الثورة ، فلا سبيل إلى التراجع وخاصة فى تلك المرحلة المتقدمة . . ولذلك فضلت أن انسحب أنا وأعيش فى هدوء . . اتصل بى عبد الحكيم عامر ثم عبد الناصر الذى أقنعنى بسحب الاستقالة . ولكن الأمور لم تقف عند هذا الحد .

نفس الشئ للأسف حدث لرشاد مهنى الذى كان من ضباط المدفعية وعين أحد الأوصياء على الأمير أحمد فؤاد ، فقد تخيل هو الآخر أنه مادام وصياً على العرش فهو صاحب السيادة . . ولقد انضم هو الآخر إلى عملية الصراع على السلطة وأبلغنى جمال أنه عندما قابله للتفاهم معه اشترط خروجى من مجلس الثورة كشرط أساسى قبل أى تفاهم ومرة أخرى تعجبت أنا الذى لم أراحم أحداً أو أطلب منصباً ولا دخلت صراعاً كيف تغطى بصائر الناس غشاوة إلى الحد الذى يصبح الوهم فيه حقيقة والحقيقة وهماً ؟ ثم ما هو السبيل إلى إعادة الأمور إلى نصابها السليم ؟ كان لابد من أن نفعل شيئاً وشيئاً حاسماً لا رجعة فيه . . وهذا ما فعله عبد الناصر حين دعا مجلس الثورة للانعقاد ، وفى يوم

واحد من شهر مارس سنة ١٩٥٣ رقى عبد الحكيم عامر من رتبة صاغ إلى رتبة لواء وعين قائداً عاماً للقوات المسلحة وفي نفس اليوم أعلننا الجمهورية فتلصنا من مجلس الوصاية وصاغرنا أموال العائلة المالكة وقررنا تعيين محمد نجيب رئيساً للجمهورية بعد أن أرغم على ترك القيادة العامة للقوات المسلحة في ذلك اليوم كطلب مجلس قيادة الثورة . .

ودخل عبد الناصر الوزارة كنائب رئيس وزراء ووزير داخلية ، ولإنهاء كل الصراعات وخاصة بعد تعيين عامر قائداً عاماً للقوات المسلحة دخل بعضنا الوزارات .

هذا كله مجتمعاً كان الحدث الأول المهم في عام ١٩٥٣ وفيه نرى أنه في أقل من سنة من بداية الثورة ، اتضح الصراع بين محمد نجيب وبقية الأعضاء ، كما اتضحت حقيقة لم أكن أنا على الأقل أدركها من قبل . . وهي أن للحكم بريقاً يمكن أن يخلب لب الثوار ويلعب برووسهم . . هذا أمر بشري على ما أعتقد ولكن أحمد الله أن هذا لم يكن شأنى فالإنسان عندما يكون في دخيلة نفسه أكبر من أى شيء يصبح في غنى عن كل شيء .

أحداث سنة ١٩٥٣ كثيرة ومتنوعة فهي وليدة الدفعة الثورية التي هي بطبيعتها شابة فتية . . أذكر من هذه الأحداث أننا طلبنا السلاح من أمريكا ، وكان السفير الأمريكي مستر كافري صديقاً لنا – فرحب واتصل ببلاده على الفور . . وجاءنا الرد بأن أمريكا ترحب بأن تعقد معنا اتفاقية الأمن المتبادل

Mutual Security Pact

وهي صيغة ابتكرها الأمريكان بعد الحرب العالمية الثانية ، تمكنهم من ملء الفراغ كما كانوا يسمونه (Vacuum) أى أن يحلوا محل إنجلترا وفرنسا في البلاد التي كانت تحت نفوذ هذين البلدين . .

قرأنا الصيغة فإذا بها تنص على أن أمريكا على استعداد لإمدادنا بالسلاح بدون مقابل ولكن بشرط أن يصاحب السلاح عدد من الخبراء الأمريكان وألا يستعمل السلاح ضد أى حليف لأمريكا . .

رددنا الورقة للسفير الأمريكي وقلت له : شكراً . . نحن نريد أن نشترى السلاح بخر مالنا ولا نريده مجاناً ونرفض أيضاً اتفاق الأمن المتبادل لأنه ضد استقلالنا الذى نحرص عليه كالحياة تماماً .

وسايرتنا أمريكا أول الأمر ولكن من غير حماس ووافقت على استقبال بعثة عسكرية فى واشنطن للتفاوض على شراء ما نريد من سلاح .

وكان جارحاً لنا جداً أن نرى الأمريكان وقد تجاهلوا البعثة تماماً بعد وصولها إلى واشنطن بما لا يدع مجالاً للشك في أنهم لا يريدون بيع السلاح لنا وأن الأمر لم يكن إلا مناورة فقط .

حاول الأمريكان بعد ذلك أن يقنعونا بالانضمام إلى بعض الأحلاف التي بدأها جون فوستر دالاس فيما كان يسمى بسياسة احتواء الإتحاد السوفيتي بتطويقه بأحلاف وقواعد وهي السياسة التي أطلق عليها Containment والتي بدأت بحلف الأطلسي وامتدت إلى جنوب شرق آسيا ثم ربط حلف بغداد فيما بعد بين الإثنين . ولكننا أفهمناهم بصراحة ووضوح أن إرادتنا قد تحررت منذ قيام الثورة وأصبحت مصرية وحررة ١٠٠٪ ولذلك فلا مجال للكلام عن قاعدة أو الانضمام إلى أحلاف .

كانت ميزانية مصر في ذلك الوقت ٢٠٠ مليون جنيه وهي اليوم ٥٠٠٠ مليون ، ومع ذلك فقد كان وضعنا الإقتصادي لا بأس به . . فبعد رفض الأمريكان لنا ، اتصلنا بالسوفييت في أوائل عام ١٩٥٣ وكان ستالين في مرض الموت وقتذاك ولكنهم رفضوا هم أيضاً بدورهم ، لأن مبادئ ستالين كانت تمنعه من إعطاء السلاح إلا للدول الشيوعية ، ولكن حدث أن التقى شواين لاي بعد الناصر في مؤتمر باندونج في ربيع ١٩٥٥ فتوسط لدى السوفييت ، وبناء على توصيته عقدت أول صفقة سلاح بيننا وبين السوفييت ، وتشيكوسلوفاكيا في سبتمبر ١٩٥٥ .

أذكر بهذه المناسبة أنه لما مات عبد الناصر أرسلت أنا مبعوثين إلى جميع الدول . . كان مبعوثنا إلى الصين رئيس مجلس الشعب الذي بادره شواين لاي بالسؤال : —

« تعرف مين الي قتل عبد الناصر وهو عنده ٥٢ سنة ؟ »

واختار رئيس مجلس الشعب . . ولكن شواين لاى قال رداً على سؤاله :

— السوفيت .

وهذا صحيح على ما أعتقد . . فبعد الناصر كان يحب رقعة واسعة للمناورة . . وعندما يجدها فهو مناور ممتاز ، ولكن الذى حدث أنه قطع علاقاته بأمريكا والغرب ، والعرب وإيران — ولم يبق له إلا السوفيت . . وهذا لم يعطه حرية المناورة ، خاصة وأن السوفيت عاملوه معاملة أبعد ما تكون عن الكرم أو الكرامة . . وقد كان لهذه المعاملة أثرها على صحته . . فقد كانت دون شك من أهم العوامل التى جعلت حالته النفسية سيئة مما ساعد على إصابته بمرض القلب ومرض السكر وهما اللذان أجهزا عليه . . طبعاً الأعمار بيد الله .. ولكن شواين لاى كان على حق .

ولقد كان تعليق عبد الناصر لى شخصياً يوم أن عاد من رحلة استغرقت ٢١ يوماً فى الإتحاد السوفيتى قبل موته بشهرين وكنت أسأله عما تم فقال لى بالحرف الواحد وبالإجليزية Hopeless case وأخذ يشرح لى كيف أنه من شدة ضيقه أعلن القادة السوفيت فى نهاية مفاوضات فاشلة أنه سيعلم قبوله فى الحال لمبادرة روجرز التى كانت قد أعلنت من جانب أمريكا قبل ذلك بشهر ولم يعلن عبد الناصر موقفه منها إلا على مائدة الاجتماع فى الكرملين فى يولييه سنة ١٩٧٠ وقال لى عبد الناصر أن بريجنيف انفعّل لهذا الإعلان وقال لعبد الناصر بغضب هل معنى هذا أنك تقبل حلاً أمريكياً فرد عليه عبد الناصر « بعدما فعلتموه معى فإنى أقبل حلاً حتى من الشيطان » .

منعاً للتعارض والازدواج بين مجلس قيادة الثورة وبين مجلس الوزراء ، شكلنا ما أسميناه بالمؤتمر المشترك من الاثنين للبت في الأمور . . وقد تبدو هذه صورة مثالية ، ولكنها في الواقع لم تكن كذلك فقد كان العدد كبيراً وأخذت المناقشات تطول وتتشعب . . كل واحد من المجتمعين كان يستعرض عضلاته وفي أغلب الأحيان كان الخلاف يتسع فلا يصل إلى قرارات . وهكذا كانت تتعطل الأمور في وقت كنا فيه بحاجة إلى كل يوم وكل ساعة لانجاز ما لدينا من مشروعات تهدف إلى اصلاح حال البلاد والانتقال بها إلى مرحلة أكثر تقدماً . وقد دعاني هذا الوضع الغريب أن أطلب الكلمة في إحدى الاجتماعات وأشير صراحة إلى المناورات المستديمة التي أصبحت جزءاً لا يتجزأ من المؤتمر المشترك ، والتي تعطل العمل مما يستلزم سرعة تغيير هذا الاسلوب المعوق والبحث عن أسلوب آخر .

كانت حصيلة أراضى العائلة المالكة المصادرة ٧٠ مليون جنيه . . أنفقناها على بناء الوحدات المجمعـة والمستشفيات والمدارس في ريف مصر بحيث كنا نبني ٣ مدارس كل يومين – وأذكر أننا بنينا في سنة واحدة قدر ما بنى في مصر من مدارس خلال ٢٠ سنة .

أنشأنا عند ذاك مجلسين ، أحدهما للإنتاج والآخر للخدمات . . أما مجلس الإنتاج فقد بدأ عمله بمشروع (كيما) للسماذ . . وعندما تعود بنى الذاكرة إلى تلك الأيام . . أرى أمام عيني المهندس اليوناني الأشعث الشعر ، الزائغ العينين الذي كان يتردد علينا في القيادة بالعباسية في أى وقت وبدون سابق

ميعاد . . كان اسمه على ما أذكر (دانيوس) ، وكان في كل مرة يقتحم مقرنا يتفوه بعبارات محمومة . . فحواها دائماً فكرة واحدة . . وهي أن النيل عند منطقة أسوان يجب أن يغلق بسد عال .

كان تمسكه بالفكره وإلحاحه عليها - والبريق الذي يشع من عينيه يوحى إلينا بأنه مجنون دون شك ، ولكن التعبير الذي كان يعلو وجهه دائماً لم يدع مجالاً للشك بأنه مؤمن بفكرته إيمان العابد بالله عز وجل . . مما دعانا إلى أن نكلف مستشار المجلس المرحوم المهندس محمود يونس بدراستها . . وقد عاد إلينا بعد فترة ليقول إنه بعد الدراسة والمعاينة يرى ابتداء أنها فكرة رائعة ، إذ أثبتت الأبحاث على قاع النيل في تلك المنطقة صحتها وطلب لذلك الموافقة على بدء الأبحاث مع بيوت الخبرة العالمية .

وهكذا نشأت فكرة السد العالى . . وليدة للإيمان والحماس والبصيرة . . كما تنشأ عادة كل الأفكار العظيمة .

في سنة ١٩٥٣ بدأنا أيضاً إنجاز مشروع قديم ظل يتلكأ بين حكومات الأحزاب المختلفة ، وهو مشروع كهربية خزان أسوان ، الذى انتهينا منه في سنة ١٩٦٠ مما أعطانا فرصة بدء السد العالى اعتماداً على الكهربية التى زودنا بها .

ولكن لعل المشروع الذى غير وجه المجتمع المصرى ، والذى جعل ثورتنا ثورة حقيقية لا مجرد انقلاب عسكرى . . هو مشروع الإصلاح الزراعى . . فبعد أن ترك على ماهر الحبكم فى سبتمبر سنة ١٩٥٢ وتولى رئاسة الوزارة محمد نجيب مباشرة كان أول عمل للوزارة الجديدة تحديد الملكية الزراعية بـ ٢٠٠ فدان . وللتاريخ فإن الذى صنع هذا القانون بجميع تفصيلاته هو المهندس سيد مرعى رئيس مجلس الشعب الآن . . وكان سيد مرعى فى ذلك الوقت من نجوم الحزب السعدى اللامعين ، ولكنه على أساس هذا المشروع دخل الوزارة وظل متابعاً له كوزير زراعة ورى ، وكنائب رئيس وزراء ، وهو أيضاً الذى صنع لنا القانونين ، الثانى والثالث للإصلاح الزراعى ، وفى كل

مرة كان القانون يهدف إلى المزيد من تحديد الملكية الزراعية . وبطبيعة الحال إلى المزيد من المساواة والعدالة الاجتماعية .

من الناحية السياسية ، كان لابد نتيجة حل الأحزاب ما بين ٥٢ ، ١٩٥٣ ، أن ينشأ فراغ ، وكان علينا طبعاً أن نملأ هذا الفراغ ، فانشأنا ما يسمى بهيئة التحرير ، وكان شعارنا الاتحاد والنظام والعمل . . ثم تلاها اتحاد قومي أول وبعد ذلك اتحاد قومي ثان . ثم اتحاد اشتراكي أول وبعده اتحاد اشتراكي ثان ، ولابد أن أقرر هنا أن هذه الصيغ كلها كانت مستعارة من يوغوسلافيا بعد أن توطدت علاقة عبد الناصر الشخصية بتيتو ، وكان عبد الناصر يمضي وقتاً طويلاً معه في المناقشة ويعجب بآرائه .

كانت صيغة الاتحاد القومي بمرحلته تشبه تماماً صيغة اتحاد الاشتراكيين الذي أقامه تيتو بعد أن أنتصر في حرب التحرير بحركة البارتيزان Partisan التي جمعت كل يوغوسلافيا وليس الشيوعيين وحدهم أي كل الأحزاب التي كانت قائمة في الصرب ومختلف جمهوريات يوغوسلافيا الخمسة مع بقاء عصابة الشيوعيين كنواة لهذا الاتحاد .

ثم عدل عبد الناصر بواسطة مؤتمر قومي عقد بعد انفصال سوريا والنكسة التي سببها في مصر والتي حفزت الشعب على النقد العلني العنيف إلى صيغة الاتحاد الاشتراكي الذي يقوم على تحالف قوى الشعب العامل وهي خمسة كما أقرها المؤتمر عندما تقدم بها عبد الناصر فيما سمي بالميثاق .

وهذه القوى هي الفلاحون والعمال والجنود والمثقفون والرأسمالية الوطنية .

ولم يكتب لهذا الاتحاد الاشتراكي النجاح كما حدث من قبل للاتحاد القومي فهو ببساطة صيغة الحزب الواحد في الحاليتين .

وازدادت الحالة سوءاً عندما أصبح الاتحاد الاشتراكي (الحزب الواحد)

أداة سيطرة كاملة حتى على أرزاق الناس . . حين استعار الملتفون حول جمال والذين يفلسفون له الماركسية كأسلوب فبدأ فرض الحراسات والمصادرة والاعتقال ومنع النشاط الخاص بحجة ضرب الرأسمالية مع أن الميثاق الذي قامت عليه النظرية يقرر غير ذلك بل ويضع الرأسمالية الوطنية كإحدى قوى التحالف الخمس .

وبدأت مرحلة التخطيط الاقتصادي .

وجاءت هزيمة ٥ يونيو بإبعادها المهينة .

وبعد أن أفاق الشعب من هول الصدمة بدأ النقد العنيف مرة أخرى ، وفي هذه المرة جاء الانفجار في فبراير سنة ١٩٦٨ بعد صدور أحكام مخففة على قادة الطيران الذين يعتبرهم الشعب من أقوى أسباب الهزيمة المهينة . . ثم اكتشف الشعب أيضاً أن ما سمي بالميثاق لم يطبق وأنه لم يكن إلا لامتناس نكسة الانفصال بين مصر وسوريا وعندئذ أصدر عبد الناصر ما سمي بعد ذلك ببيان ٣٠ مارس سنة ١٩٦٨ بواسطة نفس الملتفين حوله والذين لم يكن لهم من هم إلا السلطة الديكتاتورية المطلقة لكي يبقوا في مناصبهم واكتشف الشعب مرة أخرى أن بيان ٣٠ مارس سنة ١٩٦٨ لم يغير من القبضة الديكتاتورية شيئاً وأنه قد أرجأ الدستور الدائم إلى ما بعد إزالة آثار العدوان وكرس حق الاعتقال وكانوا يظنون أنه سيقودهم إلى الديمقراطية . .

لقد اكتشفوا أن هذا البيان لم يكن إلا لامتناس آثار هزيمة يونيه وانفجار الجماهير وكم عانيت أنا من سياسة الامتناس هذه بعد ذلك . .

فأنا أحب أن أغير . . لا أمتص . . وأن أعالج . . لا أحذر . . وفي نظر الناس أريد أن يكون كل شيء واضحاً كما هو في نظري تماماً . . وعندما أبلأ إلى حل بعض المشكلات ، أفعل كل ما بوسعي لكي يكون الحل جذرياً . . لا مؤقتاً . . ولكن الناس طبائع وخصال . .

مثلاً كان من الواضح أن هناك صراعاً داخل مجلس قيادة الثورة منذ

أوائل ١٩٥٣ . . وبطريقة الحلول المؤقتة لجأ عبد الناصر إلى تعيين أعضاء مجلس قيادة الثورة في الوزارة واحداً بعد الآخر ، حتى أنه قبل أن تنتهى سنة ٥٣ كان جميع الثوار يحكمون . . ما عدا واحداً هو أنا .

ولكن هل استطاع عبد الناصر بهذا أن يغلق دائرة الصراع حقاً ؟

في سنة ١٩٥٤ وصل الصراع إلى مرحلة عنيفة ، خاصة بينى وبين محمد نجيب ، وبيننا وبين الإخوان المسلمين وبعض فلول السياسيين الذين ألتفوا حول نجيب وظنوا أنهم يستطيعون أن يحققوا شيئاً .

في مارس من تلك السنة كان الصراع قد طفا على السطح بحيث أصبح لا يمكن تجاهله فاجتمعنا في مجلس الثورة ، وأعلنا التنحي ، وتوالت الأحداث خلال بضعة أيام عدل بعدها مجلس الثورة عن التنحي . .

ثم تطور الصراع فشمل إلى جانب محمد نجيب خالد محي الدين - وهو شيوعى ماركسى - حاول أن يستخدم سلاح الفرسان تحت ستار عودة الديمقراطية والأحزاب معتقداً بذلك أنه يستطيع فرض ديكتاتورية اليسار تلك التى تحيل البشر إلى عجلات فى آلة ، لا هم لها إلا طحن الإنسان ، والقضاء عليه وسلبه أخص مقوماته التى خلقها له الله سبحانه وتعالى . .

قضينا على فتنة الفرسان وتكفل الضباط الأحرار بالكشف عن مزايدات المزايدين من الضباط والسياسيين ، وأقلنا محمد نجيب ثم أعدناه بعد ذلك . وكنا فى ذلك الوقت قد بدأنا المفاوضات مع بريطانيا من أجل الجلاء عن القناة . وصاحبت المفاوضات حركة مقاومة ضد الإنجليز فى القناة . ورغم هذا كله حاولت كل العناصر المضادة استغلال الانشقاق مع محمد نجيب ليس حباً فى نجيب وتأييداً له بل فى محاولة لإنهاء الثورة وتسلم السلطة . فكانت مظاهرات الإخوان وهى تجوب شوارع القاهرة وتتوجه إلى قصر عابدين ، يحمل أفرادها مناديل ملطخة بالدماء وينادون بسقوط الثورة .

لم يكن هناك بد ازاء كل هذا من حسم الوضع مع نجيب فعزلناه نهائياً

فى أكتوبر ١٩٥٤ بعد توقيع اتفاقية الجلاء مع بريطانيا فى نفس الشهر تلك الاتفاقية التى أنهت الاحتلال البريطانى لمصر لأكثر من خمسة وسبعين عاماً .

كان عبد الناصر رئيس وفد المفاوضات ، وكان قد وصل مع الإنجليز إلى أنهم على استعداد للجلاء عن القاعدة خلال ٢٤ شهراً ، على شرط أن يحتفظوا بمخازن و ١٢٠٠ خبير من المدنيين ، يتم انسحابهم بعد ٧ سنوات ، وتصبح المخازن وكل ما بالقاعدة ملكاً لمصر ، وجزء لا يتجزأ منها . . .
جمعنا عبد الناصر فى استراحة الهرم . وعرض علينا المشروع بأكمله وطلب من كل منا رأيه مسجلاً .

طبعاً كانت هناك معارضة من بعضنا . مجرد مزايدات وصراعات كالعادة ، أما أنا فكنت مذهولاً لما يحدث ولذلك عندما جاء دورى لإبداء الرأى انفجرت قائلاً : -

« أنا موافق على المشروع بدون مناقشة - فما الذى يمكن مناقشته ؟ ١٢٠٠ خبير ليسوا عسكريين وتحت حراستنا نحن المصريين ؟ هل هذا يخيفنا ؟ فليكونوا عشرة آلاف خبير - وليبقوا بدلاً من السبع سنوات عشرأ - ما قيمتهم وقد حصلنا على استقلالنا وأصبحت إرادتنا حرة ؟ أى سياسى أبله يرفض هذا الحل لمشكلة عمرها فوق الخمسة وسبعين سنة ؟ » .

وقعنا اتفاقية الجلاء فى أكتوبر ٥٤ وهكذا وضعنا أقدامنا على أول طريق الاستقلال . . وكنا قبل ذلك قد وافقنا على حق تقرير المصير للسودان فيما الاستقلال أو الاتحاد مع مصر ، وقبل الموعد المحدد انسحبنا وتركنا السودان يقرر مصيره بنفسه مما اضطر إنجلترا أن تحذو حذونا فنال السودان استقلاله قبل أن يتم جلاء الإنجليز عن مصر .

كانت فترة الانتقال ما بين ١٩٥٣ و ١٩٥٦ ، فترة مليئة بالأحداث الهامة التي يمكن اعتبار أغلبها بمثابة نقط تحول في تاريخ مصر والثورة . . فكما رأينا وقعنا اتفاقية جلاء الإنجليز عن مصر في أكتوبر ١٩٥٤ وفي ١٨ يونيو ١٩٥٦ تم جلاء آخر جندي بريطاني ورفع علم مصر على القاعدة البريطانية بالقناة بعد كفاح ونضال يزيد على الخمسة وسبعين عاماً .

في هذه الفترة أيضاً عزلنا محمد نجيب ، وبذلك تخلصنا من الصراعات التي حاول السياسيون المحترفون استغلالها لعودتهم ، وجنبنا البلاد آثارها ، وتولى عبد الناصر رئاسة الوزارة ورئاسة مجلس قيادة الثورة في نفس الوقت ، وبهذا تركزت السلطة كاملة في أيدي من قاموا بالثورة .

ورغم عزوفي فترة طويلة عن أي منصب تنفيذي إلا أنني دخلت الوزارة التي شكلها جمال في سبتمبر سنة ١٩٥٤ كوزير دولة بعد أن بقيت أكثر من سنة العضو الوحيد الذي لم يتقلد منصباً وزارياً وكان جمال يصف هذا الموقف بيني وبينه بأني رجل الداورية الذي يبقى في الخارج لكي يضمن سلامته وهو تعبير عسكري عندنا Get Away Man

ومن أهم ملامح تلك الفترة أيضاً ، حلف بغداد الذي نادى به مستر إيدن بعد وقت قصير من اتفاقية الجلاء بدعوى أن منطقة الشرق الأوسط قد نشأ بها فراغ لابد من أن يملأ . . وقد انضمت إلى الحلف كل من تركيا والباكستان والعراق . . كان موقف الثورة من الحلف معادياً بطبيعة الحال فكيف نقبل

أن ننضم إلى حلف كهذا في حين أن من سبقونا قد رفضوا إقامة اتفاقيات ثنائية ، ثم نحن قد تخلصنا من الاحتلال البريطاني بمعاهدة الجلاء فكيف نرضى أن ترتبط مصر بعجلة بريطانيا أو بأية قوة أجنبية مرة أخرى ؟ .

ولم تقتصر مقاومتنا لحلف بغداد على رفض الانضمام إليه بل شملت جهودا مكثفة من جانبنا لمنع بعض بلاد المنطقة العربية من دخوله كالأردن ولبنان وفعلا نجحنا في ذلك . . مما أوغر صدر بريطانيا وأمريكا فأوعزتا إلى إسرائيل بالانتقام منا - وكانت النتيجة غارة مفاجئة على غزة في ٢٨ فبراير ١٩٥٥ وهو تاريخ يمكن اعتباره نقطة تحول في تاريخ مصر والثورة والمنطقة ودول العالم الثالث لأنه جعلنا نشعر بحاجتنا الملحة للسلاح - مما أدى في النهاية إلى عقد أول صفقة أسلحة مع السوفييت بعد تدخل نهرو وشواين لاي كما أسلفت لاقتناع روسيا بذلك . . وقد كان لهذا أثره في كسر الحاجز وإذابة الثلوج بيننا وبين السوفييت ، كما كان من العوامل الفعالة في رفع الروح المعنوية لدول العالم الثالث التي شعرت بأن هناك من يمكن أن تلجأ إليه لاسترداد إرادتها من قبضة الاستعمار الذي ظل جاثماً فوق صدرها قروناً طويلة حتى ولو كان طريقها إلى ذلك هو طريق البيع والشراء . .

من أهم انجازات تلك الفترة على المستوى العالمي والمحلي مؤتمر باندونج الذي كان أول مؤتمر دعم دول عدم الإنحياز وجعلها قوة ثالثة يحسب لها حساب وفي نفس الوقت الملاذ الوحيد الذي تلجأ إليه الدول الصغرى ومثلها الأعلى الذي تحذو حذوه . . أما بالنسبة للأثر المحلي لمؤتمر باندونج فقد أضاف الكثير إلى شعبية عبد الناصر الذي استطاع أن يقف جنباً إلى جنب مع بعض الشخصيات العالمية أمثال نهرو وشواين لاي وأن يستحوذ على اعجابهما رغم أنه كان في ذلك الوقت دونهما بكثير سناً وتجربة .



أين كنت أقف من أحداث تلك الفترة ؟ إلى أى مدى شاركت فيها وكيف كنت أنظر إليها ؟ .

فى ديسمبر ١٩٥٣ ، انشأت جريدة الجمهورية وتوليت رئاسة تحريرها وكانت تعتبر لسان حال الثورة ، وقد قامت بدور ملحوظ فى إحباط حلف بغداد . . ورغم عزوفى عن السلطة فترة طويلة ، إلا أننى قبلت العمل كوزير دولة فى الوزارة التى شكلها عبد الناصر فى سبتمبر ١٩٥٤ تضامناً معه فى دفع عجلة الأمور . . وفى يناير ١٩٥٥ تم إعلان قيام المؤتمر الإسلامى وتوليت منصب السكرتير العام له ، وقد أتاح هذا لى زيارة بلاد المنطقة لجمع شمل الدول العربية والإسلامية ، وكذلك العمل من أجل تحقيق أهداف سياسية وقومية تخدم قضاياها . . فلست أبالغ إذا قلت إننى قمت بدور فعال فى إحباط حلف بغداد . . فى الأردن مثلاً . . تسنى لى إقناع الملك بعدم الانضمام إلى الحلف . . وكان من الآثار الجانبية لهذا طرد جلوب باشا قائد عام الجيش الأردنى البريطانى الجنسية . .

وفى لبنان ألتقيت بالرئيس شمعون ونجحت فى إبعاد لبنان عن الحلف معتمداً فى ذلك على العداء القديم المستحكم فيما بين شمعون وعائلته من ناحية وبين الأتراك من ناحية أخرى . . ، وفى بغداد اجتمعت مع نورى السعيد لمحاولة اقناعه بالعدول عن الإشتراك فى الحلف . . ودام اجتماعنا طويلاً فما كان من الداهية إلا أن أبلغ الصحفيين أن أنور السادات مجتمع به للتفاوض بشأن

دخول مصر حلف بغداد . . فعندما انتهى الاجتماع وخرجت فاجأني الصحفيون بهذا الخبر — فقلت إن شيئاً من هذا لم يحدث على الإطلاق وإن هذه حيلة من حيل نوري السعيد المعروفة عنه .

هكذا كان موقفي من أحداث سنوات الانتقال .. ولكن هل تكتمل بهذا صورة تلك الفترة من حياتي ؟ لا أعتقد . . فهناك جانب من الصورة لا تكتمل بدونها رغم أنه قائم اللون . . ألا وهو الصراع الداخلي بين أعضاء مجلس قيادة الثورة الذي تكشف واحتدم بعد عزل محمد نجيب والشعبية التي نالها عبد الناصر في مؤتمر باندونج .

أذكر مثلاً أنه في غياب عبد الناصر أناب عنه جمال سالم وكان رحمه الله حاد المزاج . . عصبياً إلى حد غير طبيعي . . غير متزن في جميع نواحي شخصيته . . فلما وجد الناس منصرفاً عنه لسوء معاملته ، بدأ يثير المعارك هنا وهناك . . وفي كل مجال . . إلى أن عاد عبد الناصر فازدادت المعارك حدة خاصة وأن جمال سالم في غياب عبد الناصر كان قد اتخذ إجراء ما ضد عبد الناصر .. وكانت لدى عبد الناصر حساسية شديدة من ناحية أهله . . فكان يكفي أن يبلغه أن أحداً من الناس قال شيئاً ما عن أحد أقاربه حتى يضعه على الفور في المعتقل ويتخذ ضده من الإجراءات ما يحلو له . . وهذه إحدى نقاط الضعف التي كان يستغلها فيه أصحاب مراكز القوى وأتباعهم لينالوا حظوة عنده ، وفي نفس الوقت ينالون من أعدائهم . . وفي رأيي أن عبد الناصر كحاكم كان يجب أن يدرك أن هذه هي طبيعة الحكم وطبيعة البشر أيضاً . . والحكمة العربية تقول إن نصف الرعية ضد الحاكم — هذا إن عدل ! ، وهذا في رأيي أمر طبيعي . . فالحاكم هو الوحيد الذي على المسرح . . كل الأنظار تتجه إليه ولا ترى سواه ولذلك فكل من لديه مشكلة أو أمر ينغص عليه حياته أو حتى يعكر مزاجه ولو قليلاً لابد وأن ينسبه إلى الحاكم حتى ولو كان الحاكم أعدل الناس وأبعدهم عن مسئولية ما تشكو منه الرعية فما بالك إذا كان الحاكم كعبد الناصر — قد جمع زمام الأمور كلها بين يديه فأصبح في نظر الناس — ولعلهم على حق — المسئول الوحيد عن كل ما يصيبهم ؟

أنا شخصياً على نقيض تام من عبد الناصر في هذه الناحية . بل إنني في وقت من الأوقات راودتني رغبة شديدة في أن أقول للناس : بما أنني قد ألغيت بالنسبة لكم المعتقلات إلى الأبد وأعدت سيادة القانون فأرجو أن تمنحوا رئيس الجمهورية الحق في أن يعتقل أهله .. وأهله فقط .. صحيح أن نشوة الحكم والمظهر لا تدير رأسي إطلاقاً ولكن من يضمن لي أنها لا تدير رؤوس أهلي وأقاربي فيظلمون الناس من حيث لا أدري ؟ .. ومن هنا كان أمر الاعتقال الوحيد الذي أصدرته طوال مدة ولايتي خاصاً باعتقال شقيقي الأكبر وهو من ساعدني ووقف من خلفي في السجن والمعتقل وجميع الأزمات التي مرت بي ..

ليس معنى هذا أنني أتنكر لأهلي أو لا أدين لهم بالوفاء فهذا يتنافى مع قيم الأسرة التي نشأت عليها والتي ما زالت تسرى في عروقي وتشكل وجداني كما لا يشككه أي شيء آخر .. على العكس فإن إيماني بهذه القيم يزداد يوماً بعد يوم .. حتى أصبحت أرى في التمسك بهذه القيم الخلاص الوحيد للمجتمع لا كأسر متفرقة بل كأسرة واحدة كبيرة .

أذكر أنني في إحدى جولاتي في المنطقة كسكرتير عام للمؤتمر الإسلامي زرت الهند وكان ذلك قبل انعقاد مؤتمر باندونج بفترة قصيرة .. واستقبلني نهرو استقبالا ودياً خالصاً وأقام حفل استقبال تكريماً لي .. وقدم لي ضمن من قدم من ضيوفه نائباً في البرلمان الهندي وزوجته وهي أيضاً نائبة مثله وكلاهما شيوعى ومن أشد المعارضين لـ نهرو — هذا ما كنت أعلمه علم اليقين فقد سبق أن تعرفت بهما في القاهرة ونشأت بيننا صداقة ولذلك ذهلت عندما رأيت الرجل يقبل نهرو من خديه ونفس الشيء تفعله زوجته من بعده .. لم يكن نهرو يعلم أنني أعرفهما فقال لي مداعباً وهو يشير إليهما « كن على حذر يا مستر سادات فهما شيوعيان وأرجو أن لا يتمكننا من بلشفتك »

قالها بروح أبوية خالصة وهو يتسم في سماحة وحب فضحكا وقالوا بنفس روح المحبة واحترام الأبن لأبيه : —

— « لا بأس ولكننا سنرد عليك في البرلمان » .

أخذت بما رأيت وسمعت ، فلا شيء يستطيع أن يستولى على أو يأسرني بالفعل مثل الجمال . . وقد كانت الصورة جميلة بكل ما تحمل من حب ولمسات انسانية وقيم نشأت عليها في قرىتي الصغيرة . . حيث الكل عائلة واحدة يحترم فيها الصغير الكبير مهما اختلف معه في الرأي لأنه كبير العائلة . . وبالمثل يقود الكبير الصغير ولا يغضب منه إذا اختلف معه لأنه أولا وقيل كل شيء أب ولا يمكن للأب أن يتخاصم مع ابنه .

خرجت من الاستقبال ذلك اليوم وأنا في قمة السعادة بالصورة الجميلة التي رأيتها والتي ظلت عالقة بوجداني تسعدني كلما استدعيتها . . إلى أن وصلت مصر . . فإذا بكل شيء على نقیض تام مع صورتي الجميلة . . صراع وتشاحن لا على شيء معين بل على كل شيء مهما بلغت تفاهته . .

لم أشترك طبعاً في هذه المشاحنات – فقط كنت أراقبها من برجى العالى وأسخر حيناً وأدهش حيناً آخر ولكنى في جميع الأحيان كنت أتألم لها . .

آه للنفس البشرية ما أضعفها وأتفها عندما تظنى المصلحة الشخصية فتحجب عنها رؤية الأشياء على حقيقتها . إنهم يحقدون على عبد الناصر لأنه قد حقق نجاحاً كبيراً في باندونج وارتفعت مكانته في عيون العالم . . أليست مكانته هي مكانة مصر ؟ ونجاحه أليس نجاحاً لنا جميعاً ؟ ولكنهم لا يبصرون . .

بعنوان « الحبيب العائد » كتبت مقالا صغيراً بجريدة الجمهورية بمناسبة عودة عبد الناصر من باندونج . . ولو أعاد التاريخ نفسه وتكررت نفس الظروف لفعلت ما فعلت مرة ثانية – فتكوينى الأساسى قوامه الحب ولذلك عندما أُلجأ إليه أرتاح وأجد الحل لأية مشكلة وعندما يبتعد عني يختل توازنى ويستولى على إحساس بالعجز مرير . . ومن هنا كانت قوتى لا تتجلى بأكملها إلا من خلال الحب .

بهذا التكوين الذى فطرت عليه – وبالصورة الجميلة التى عدت بها من عند نهر و من الهند . . وفى جو الحقد والصراع على السلطة الذى سيطر بشكل

واضح على مجلس قيادة الثورة في سنة ١٩٥٥ أصبح من الصعب على أن أحتفظ بمركز المتفرج من البرج البعيد كما اعتدت . . فقد ضاقت نفسي بما ترى من صراعات لا تكف لحظة ولا تنهى ، فكتبت استقالي وقدمتها لإخواني بمجلس القيادة ونقلت فيها إليهم اللوحة الجميلة التي شاهدها بالهند عسى أن يتعضوا . .

كانت هذه هي الاستقالة الثانية بعد استقالة سنة ١٩٥٣ .

والآن وأنا أعيش تلك الأيام البعيدة في ذاكرتي مرة أخرى ، أستطيع أن أرى بكل وضوح أن الاستقالة الثانية كانت مثل الأولى تنبع من نفس المنبع فكلاهما احتجاج صريح على جو الصراعات الذي كان يسود المجلس وهما في نفس الوقت دعوة لا تقل صراحة إلى تصحيح مسار الثورة بعد أن بدأت الأحقاد تعصف بها وتحرفها عن أهدافها التي قامت من أجل تحقيقها . .

كان التصارع على السلطة قد صرف الاهتمام ولو جزئياً عن مصالح الشعب ، مما أدى إلى إشاعة جو يصعب فيه التمييز بين من يصلح ومن لا يصلح . فأصبح الإنسان يؤخذ بجرم غيره أو بدون جرم على الإطلاق . . وكانت الإشاعات وحدها كافية للقضاء على أى إنسان . . وكان يساند هذا الجو الرهيب اعتقاد القادة بأن لهم الحق في أن يفرضوا على البلد ما يشاؤون بحجة المستبد العادل . . ولم لا . . أليسوهم الذين صنعوا الثورة ؟

كان من الواضح أن نشوة الحكم قد بدأت تلعب بروؤوسهم فقسموا البلاد إلى مناطق نفوذ لهم ولمن يلتف حولهم من أقارب وأصدقاء . . ومن الأمثلة الحية على ذلك . . مثال وزارة الخارجية التي جنت الثورة عليها . . فقد اتخذها عبد الحكيم عامر مقراً يرسل إليه الضباط المتقاعدين حتى يتسنى لهم أن يتموا بها سن المعاش الخاص بالمدينين وهو سن الستين .

على هذا المنوال سارت الأمور في كل اتجاه ، فليست العبرة بما يفيد البلاد بل العبرة بمن سوف يستفيد من أقارب وأصدقاء وأتباع الحكام . . وهكذا

فقدت القيم واستولت الحيرة على الناس فأصبحوا لا يعرفون ماذا سيأتى به الغد أو كيف سينتهى اليوم . .

انتهى مجلس الثورة فى ٢٢ يونيو ١٩٥٦ ، عندما انتخب جمال عبد الناصر رئيساً للجمهورية بالاستفتاء . . ولكن قبل أن ينتهى المجلس كان الشعور بالخوف قد عم البلاد . . وهذا فى رأى أبشع ما يمكن أن يصيب الإنسان . . فالخوف يقتل الشخصية ويشل الإرادة ويمسح تصرفات البشر .

هل كان أعضاء مجلس الثورة يدركون ما فعلوا بشعب مصر ؟ لا أعرف . . ولكن الذى أعرفه أن الشعب كان يدرك تمام الإدراك ما يفعله حكامه به وبأنفسهم . . وليس أدل على ذلك من النكتة التى انتشرت فى تلك الأيام عبر البلاد معبرة أحسن تعبير عن رأى الشعب فى قاداته . .

« كان فيه مرة تغلب عدى الحدود ودخل لبيبا - مسكوه هناك وقالوا له : أنت جاي هنا ليه : قال لهم : أصلهم فى مصر يمسكوا الجمال . . قالوا له : لكن أنت تغلب . . قال لهم : حلنى على ما يعرفوا انى تغلب . . »

نقلت إلينا النكتة ونحن فى مجلس الثورة فضحكنا طويلا . . وكان الأجدر أن نعى ما تتضمنه من إدانة الشعب لنا . . فتدبر أمورنا قبل فوات الأوان . .

ولكن هل كان هذا فى الإمكان بعد أن تغلبت العوامل البشرية على المثالية التى بدأت بها الثورة فحجبت الرؤيا حتى عن ذاتنا ؟ لا أعرف . . ولكن الذى أعرفه جيداً هو أننى كنت سعيداً بانتهاء مجلس قيادة الثورة - ولذلك هرعت إلى عبد الناصر صبيحة اليوم التالى لانتخابه رئيساً لأطلب منه عدم اشتراكى فى الحكومة التى كان بصدد تشكيلها . . ومع ذلك فأنا تحت أمره فى أية مشورة أو رأى . . فنحن أصدقاء وسنظل دائماً كذلك . .

لقد ضقت بما شهدته من صراعات على مدى أربع سنوات كانت حملاً ثقيلاً ناءت تحته نفسى حتى كادت تنحطم . . هكذا اكتشفت فيما بعد . فحيث لا يوجد الحب لا مكان على الإطلاق لى .

الفصل السادس

عجز القوة

(مصر في حكم عبدالناصر من يوليو ٥٦ الى يونيو ٦٧)

بانتخاب عبد الناصر رئيساً للجمهورية في ٢٢ يونيه سنة ٥٦ حل مجلس قيادة الثورة وأصبح عبد الناصر المسئول الأول والأخير عن مصر سواء من ناحية السياسة الداخلية أو السياسة الخارجية . .

في ١٩ يوليو من نفس السنة أشهر دالاس وزير خارجية أمريكا إفلاس الاقتصاد المصري وتراجع أمريكا والبنك الدولي عن تمويل السد العالي ، وفي ٢٣ يوليو شارك في الإحتفالات بذكرى قيام الثورة شيبولوف وزير خارجية الاتحاد السوفيتي . . وكان وقتها نجماً صاعداً في سماء الاتحاد السوفيتي واتصل بعبد الناصر ليعلن استعداد السوفيت لتنفيذ السد العالي . .

رفع هذا روح عبد الناصر المعنوية بينما كان يستعد للسفر إلى الإسكندرية للإحتفال بذكرى ٢٦ يوليو كعادته فاتصل بي في صبيحة ذلك اليوم يدعوني للسفر معه . . حيث كان ينوي إلقاء خطابه في ميدان المنشية . . كنت مريضاً بنزلة معوية حادة فاعتذرت له . . فقال - « ما دام الأمر كذلك أرجو أن تستمع إلى خطابي في الراديو » .

قلت له طبعاً سأفعل ، واندعشت لطلبه ، فقد كان أمراً طبيعياً أن أستمع إلى خطابه دون أن يطلب مني ذلك . فما الذي جعله يطلب هذا الطلب الغريب ؟

لم أعر الأمر كثيراً من الاهتمام إلى أن جاء وقت الخطاب . . ففتحت الراديو وجلست إلى جواره . . كان خطاباً طويلاً كالعادة ولم يكن به شيء يلفت النظر إلى أن جاء نصف الخطاب تقريراً . . فسمعتة يتحدث عن

(فرديناندى دى ليسبس) . . ساعتها أدركت ماذا ينوى فعله . . ولم تمض دقائق بعد ذلك حتى تحقق ما أدركت . . فقد سمعت عبد الناصر يعلن تأميم قناة السويس رداً على جون فوستر دالاس . .

الحقيقة أنى شعرت بالفخر . . فهذا هو مصر الدولة الصغيرة ترفع صوتها أخيراً لتتحدى أكبر قوة فى العالم . . كانت هذه نقطة تحول فى تاريخ ثورتنا بل وفى تاريخ مصر بأجمعه . . فقد أحدث القرار دويماً هائلاً فى خارج مصر وداخلها وأصبح عبد الناصر منذ تلك اللحظة بطلاً أسطورياً من أبطال الشعب المصرى الذى كان تواقاً إلى أن يرفع رأسه ويشعر بذاته بعد ما ذاقه من هوان وقهر على أيدي الاستعمار البريطانى طوال قرن تقريباً .

فى اليوم التالى استقل عبد الناصر القطار عائداً إلى القاهرة فوجد الشعب المصرى كله فى استقباله - ذهب إلى مجلس الوزراء ومن الشرفه هناك ألقى خطاباً زاد نار الحماس اشتعالا . . ودخل بعد الخطاب مكتبه فقلت له : اسمع يا جمال . .

قال : نعم

قلت : أنت ما قتلش على هذا القرار وأنت خلاص أخذته . . لكن أنا عاوز أقول لك حاجة .

قال : إيه ؟

قلت : لو سألتنى كنت حاقول لك حاسب . . لأن هذه الخطوة معناها الحرب واحنا مش جاهزين . . دا احنا لسه واخلدين السلاح من روسيا - فى سبتمبر من السنة الماضيه (١٩٥٥) انعقدت الصفقة ولم يبدأ التوريد إلا فى أكتوبر ونوفمبر ولسه ما اتدربناش عليه بالقدر الكافى ، لأن كل تدريبنا كان إنجليزى غربى . . فلم يأت الوقت بعد الذى يسمح لنا بتغيير العقيدة العسكرية بتاعتنا من غربية إلى شرقية . . لو كنت سألتنى عن رأيى كنت حاقول لك حاسب يا جمال . . ولكن بما أنك أتخذت القرار خلاص فيجب أن نقف جميعاً إلى جانبك وأنا أولهم . .

وفعلا من يوم ٢٧ يوليو أخذت أهاجم في مقالاتي بجريدة الجمهورية دالاس وأمريكا بضراوة وعنف . . الإتحاد السوفيتي سعد بكل هذا أعظم سعادة لأنه وجد من يحارب له معركته - من يوقظ له دول العالم الثالث والمستعمرات - بينما لم يدفع السوفيت مقابل هذا كله إلا أسلحة يتقاضون ثمنها بالكامل . . ويبدو أن الإتحاد السوفيتي استمرراً هذا فقد دأب على أن نحارب نحن معركته في كل مكان ، وهو يعطينا السلاح ويأخذ ثمنه - دون أن يخسر شيئاً . . بل كما تبين فيما بعد كان هو الرابع أولاً وأخيراً . . فالسلاح الروسي أغلى من السلاح الغربي لأن عمره أقل من عمر السلاح الغربي وإذا أضفنا إلى هذا فائدة $\frac{1}{4}$ ٢ ٪ التي يتقاضاها السوفيت لاتضح لنا أن السلاح الغربي أرخص على المدى الطويل . .

سمع إيدن بنجر تأميم القناة أثناء مأدبة عشاء أقامها الملك فيصل ملك العراق ونوري السعيد رئيس وزرائها ففض المأدبة وبدأ يتصل بجي موليه في فرنسا وبن جوربون في إسرائيل - في ذلك الوقت كان الإنجليز قد جلسوا عن القناة ، ولكن نصف أسهم القناة كانت ملك الإنجليز والنصف الآخر لفرنسا . .

لم يكن هذا وحده الذي أغاظ إيدن فالموقف الذي اتخذته عبد الناصر بعد أن أفسد عليهم حلف بغداد ثم قام بتأميم القناة لم يكن من السهل على (إيدن) بعقليته الاستعمارية التقليدية أن يتقبله . . فاتفق مع جي موليه وبن جوربون على استخدام القوة ، ولكنهم لم يعلنوا ذلك . . بل قاموا بمحاولات متعددة مثل المؤتمر الذي عقده إيدن في لندن وجمعية المنتفعين وغير ذلك . . إلى أن أحيل الموضوع في النهاية إلى الأمم المتحدة . . واتفق على أن يجتمع الدكتور محمود فوزي وكان في ذلك الوقت وزير خارجيتنا مع وزير خارجية إنجلترا سلوين لويسد وبينو وزير خارجية فرنسا يوم ٢٩ أكتوبر ليضعوا سوياً الحل السلمي والتعويضات المالية . .

لم يحدث طبعاً شيء من هذا ، إذ أن يوم ٢٩ أكتوبر كان هو اليوم الذي اختاره إيدن وجي موليه وبن جوربون لتنفيذ خطتهم . . وفعلا هاجمت إسرائيل

سيناء وأطلقت صفارات الإنذار في القاهرة في آخر ضوء يوم ٢٩ أكتوبر (الذي كان محدداً للتسوية السلمية في الأمم المتحدة !) وكان عبد الناصر في بيته فطلع إلى سطح المنزل وشاهد بنفسه الطائرات وهي تقصف مطار ألماتة القريب من منزله وهي تحمل علامات إنجليزية وفرنسية - فأدرك عبد الناصر أن المؤامرة قد تمت . . . وذهب إلى القيادة في مساء نفس اليوم وأصدر أمره بانسحاب قواتنا فوراً من سيناء تفادياً للفتح الذي كانت ستقع فيه . . إسرائيل في المواجهة في سيناء والإنجليز والفرنسيين من الحلف . . ونفذ الأمر بمنتهى الدقة وعلى مدى ثلاثة أيام . . بحيث حفظ لنا أكثر من ثلثي قواتنا المسلحة . . ولذلك يجب أن نذكر هذا القرار لعبد الناصر كقرار عبقرى - صحيح أن جميع طائراتنا قد دمرتها فرنسا وإنجلترا بضربة واحدة وهي ما تزال على الأرض - وكنا قد اشتريناها من الاتحاد السوفيتي منذ أقل من ستة ونعز بها غاية الاعتزاز . . ولكن لم يكن عبد الناصر أو غيره يستطيع أن يفعل شيئاً وقد باغتنا إنجلترا وفرنسا بالعدوان وبالإنذار الذي وصفته بأنه قذر في مقالاتي في جريدة الجمهورية إذ أرسلوه إلينا في نفس اليوم الذي اعتدوا فيه على مطاراتنا .

كانت مدة الإنذار ١٢ ساعة وقد أحدث بلبلة عند بعض السياسيين القدامى في مصر ، فقررُوا أن يتجمعوا فيرسلوا رسالة إلى عبد الناصر لإقناعه بقبول الإنذار تحت شعار إنقاذ ما يمكن إنقاذه . . سمع عبد الناصر بهذا فأرسل في طلب كتية ضرب نار من الحرس الجمهوري ووقفت في ساحة مجلس الوزراء وأقسم أن يعدم رمياً بالرصاص أى إنسان يأتى ليقترح عليه قبول الإنذار . .

طبعاً كانت الخطوة التالية أن أعلن عبد الناصر على العالم رفض مصر للإنذار البريطاني الفرنسي وتصميمها على القتال وليكن ما يكون . . وكان ذلك في خطاب ألقاه في الأزهر يوم ٢ نوفمبر . . والشعب كله ملتف حوله بعد أن خرج إليه في عربة مكشوفة . . وفي نفس اليوم كان الشعب الإنجليزي يضرب مقر رئيس وزراء بريطانيا (١٠ داوننج ستريت) بالطوب والحجارة احتجاجاً على العمل اللاأخلاقي الذي قام به . .

بعد رفض الإنذار أرسل عبد الناصر في طلب سفير أمريكا رايموند هير وبعث رسالة لأيزنهاور يقول له فيها . . « أرجو أن تتكفل أنت بحلفائك بريطانيا وفرنسا واترك لي أنا إسرائيل أتكفل بها » . . رد إيزنهاور وقال إنه سيفعل كل ما يمكن فعله . .

ونحن في أوج المعركة بين يومى ٢٩ أكتوبر و ٢ نوفمبر ١٩٥٦ كان شكرى القوتلى رئيس سوريا في ذلك الوقت في زيارة رسمية للإتحاد السوفيتى فتحدث إلى الزعماء السوفيت بشأن معركة القناة وطلب منهم مد يد المساعدة لمصر ، ولكن السوفيت تخاذلوا تخاذلاً تاماً . . فأرسل القوتلى إلينا بذلك ونصحنا بالاعتماد على أنفسنا فلا أمل إطلاقاً في السوفيت - وهذا ما جعلنى منذ تلك اللحظة أومن بأن من يتغذى بالسوفيت فهو دائماً مكشوف - وفي ٥ نوفمبر تدخل أيزنهاور وطلب من إنجلترا وفرنسا وإسرائيل الانسحاب فوراً . .

عندما علم السوفيت باستجابة هذه الدول لطلب الرئيس الأمريكى أرسلوا الإنذار المعروف باسم خروشوف وبولجانين إلى إنجلترا وفرنسا . . والذي لم يكن في الواقع إلا مجرد استعراض عضلات ومحاولة للظهور بمظهر المنقذ . . مع أن الذى أنقذ الموقف حقيقة كان أيزنهاور فقد استجابت لأوامره كل من إنجلترا وفرنسا فانسحبتا في ٢٣ ديسمبر سنة ٥٦ وتلتهما إسرائيل في مارس سنة ٥٧ بعد أن كانت جولدا مائير وزيرة خارجية إسرائيل في ذلك الوقت قد أعلنت رسمياً في الكنيست ضم سيناء وإعطاء اسم جديد لشرم الشيخ مما جعل بن جوريون يقول مقولته المشهورة « لا بد من الخوف مما لا بد من الخوف منه » . . يعنى أمريكا بطبيعة الحال . . فلم يكن في استطاعة إسرائيل أن تفقد تأييد أمريكا وهى القوة العظمى في العالم . .

وهنا يجب أن نتوقف للعودة إلى الوراء قليلاً حتى نتبين خط إسرائيل منذ أن نشأت. فقد كانت دائماً الاستناد إلى القوة العظمى في العالم في أى وقت من الأوقات . . كانت بريطانيا ما بين الحربين العالميتين الأولى والثانية هى القوة العظمى في العالم ولذلك استندت إسرائيل إليها ولكن بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية

تقهقرت بريطانيا وفرنسا وتقدمت أمريكا فأصبحت القوة الأولى . . . ولذلك نجد بن جوريون يلجأ إلى نقل نشاط الحركة الصهيونية كاملاً إلى أمريكا - بل ويسعى جاهداً إلى أن ينفرد بتأييد أمريكا فلا يسمح للعرب بأن تكون لهم صداقة قوية مع أمريكا . . . كما حاول أن يبني سياسته بعد قيام ثورتنا على ضرورة الإيقاع بين مصر وأمريكا . . . ولذلك انزعج بن جوريون عندما وطدنا علاقتنا بأمريكا في بداية الثورة كما رويت . . . فاتفق مع لافون وزير الدفاع في حكومته على عملية سرية وهي أن يرسلوا إلى مصر بعض العملاء ليضربوا المصالح أو المراكز الأمريكية في مصر . . . وفعلاً حدث في سنة ٥٣ اعتداء على سينما مترو الأمريكية بالقاهرة والقنصلية الأمريكية في الاسكندرية . . . ولكن البوليس المصرى تمكن من الإمساك بالجنّة وكانا شاين من شباب إسرائيل اعترفا بالمؤامرة فحوكما ولكنهما انتحرا في السجن وهما في انتظار حكم الإعدام . . . وكانت فضيحة أبلغنا بها الأمريكان . وقد اختلف لافون مع بن جوريون بعد ذلك واستقال بفضيحة تعرف في التاريخ الإسرائيلي بفضيحة لافون .

كان على عبد الناصر أن يتعلم درساً مما حدث فيدرك أن استراتيجية إسرائيل هي أن نكون على خلاف مع أمريكا . . . ولكنه بدلاً من أن يفعل ذلك فعل العكس تماماً فنجدّه بعد عدوان سنة ٥٦ يشيد بالإنذار الروسى وينسب إلى السوفييت كل شيء ويهمل الإشارة إلى قرار أيزنهاور بالانسحاب رغم ما في هذا من مجافاة للحقيقة ، فالذى جعل هزيمتنا تنقلب إلى نصر كان القرار الأمريكى وليس الإنذار الروسى . . . هذا إلى جانب أن عبد الناصر وهو الرجل السياسى المحترف ، كان عليه أن ينتهز هذه الفرصة لتوطيد العلاقات بين مصر وأمريكا - ولو من باب ضرب استراتيجية إسرائيل التى كانت تسعى إلى العكس .

ولكن هكذا كان عبد الناصر . . . تختلط عليه الأمور ويفقد البصيرة وخاصة لأنه كان يتأثر جداً بتحليلات المحيطين به والذين لم يكونوا شرفاء في تقديم النصيح له فقد كان كل همهم أن يضحكوا ذات عبد الناصر حتى تبقى لهم مناصبهم ونفوذهم .

إلى يوم ٣١ ديسمبر سنة ٥٦ كانت المعاهدة المصرية البريطانية ما زالت قائمة . . كنا قد قمنا أثناء المعركة بوضع الخبراء الإنجليز البالغ عددهم ١٢٠٠ تحت الحراسة وأصبحوا معتقلين . . وكانت المعاهدة تنص على بقاء الخبراء بالقناة لمدة سبع سنوات ونصف ابتداء من عام ٥٤ وهو تاريخ عقد المعاهدة .

انسحبت القوات البريطانية المعتدية في ٢٣ ديسمبر ١٩٥٦ بناء على أوامر أيزنهاور وفي أول يناير سنة ٥٧ أعلن عبد الناصر سقوط المعاهدة المصرية البريطانية وانتهى بذلك ما علينا من التزامات وأصبح الخبراء أسرى فتبادلناهم بعد ذلك في عملية تبادل الأسرى بيننا وبين بريطانيا - وفي نفس اليوم أعلن عبد الناصر قراراً آخر أهم من القرار الأول وهو تمصير الاقتصاد المصري كرد فعل للتخريب الذي أحدثته الغارات الجوية البريطانية والفرنسية . . كانت هذه ضربة كبرى فإلى ذلك الوقت كانت جميع شركات التأمين والبنوك والبيوت التجارية الكبرى إما فرنسية أو إنجليزية أو بلجيكية أي أوروبية بصورة أو أخرى .

تلت ذلك عملية تصفية ديون القناة لمستحقيها من حملة الأسهم فدفعتها بالتقسيط وكانت في مجموعها لا تزيد على دخل القناة في سنة واحدة . . وفي مقابل هذا أفرجت إنجلترا عن ٤٠٠ مليون جنيه استرليني كانت قد جمعتها نتيجة لتأمين القناة . .

وهكذا بدأنا سنة ٥٧ ونحن نملك اقتصادنا بالكامل . . بالإضافة إلى أرصدتنا من الاسترليني أي الـ ٤٠٠ مليون جنيه التي أفرجت عنها بنوك إنجلترا .

كان يجب أن تكون هذه مرحلة انطلاق فالأرصدة متوفرة . . وكذلك الاحتياطي . . كان كل شيء في الواقع معدا لكي نخطط ونبدأ بناء أنفسنا من الداخل بناء ضخماً يعوض على مصر ما فاتها في سنوات التخلف والاحتلال . . ولكن للأسف لم يتم شيء من هذا فقد كان عبد الناصر مشغولاً بالخرافة التي أصبح اسمه مقترناً بها . . خرافة كبيرة جداً في مصر والعالم العربي فهو البطل الذي حقق النصر على إمبراطوريتين كبيرتين « بريطانيا وفرنسا » فبعد أن أغفل عبد الناصر الدور الحقيقي الذي لعبه أيزنهاور في هذا المجال مما حول الهزيمة العسكرية إلى نصر سياسي أصبح كما يبدو أول المصدقين لأنه انتصر . . لا للحقيقة وهي الهزيمة العسكرية .

تلت بعد ذلك محاولات من جانب دالاس لإضفاء البطولة على الملك سعود ملك المملكة العربية السعودية وجعله الرجل الأول في المنطقة حتى يقضى بذلك على عبد الناصر ويعزل مصر تمهيداً للأجهاز عليها . . ولكن هذه المحاولات باءت بالفشل رغم ما بذله دالاس من جهود لتخويف سعود من عبد الناصر وكل من يلوذ به ، فمثلاً أطلعني سعود على تقرير للمخابرات المركزية الأمريكية عنى يقول إننى العميل الأول للسوفييت في مصر ، لا شيء سوى أننى كنت أكتب مقالا يوميا بالجمهورية أهاجم فيه أمريكا لمحاولاتها تعويق سير ثورتنا ، وكان هجومى مركزاً على دالاس وزير خارجية أمريكا وكان مدير المخابرات هو شقيقه ألان دالاس . . وإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على أن المخابرات المركزية كانت تستقى معلوماتها من مصادر تافهة تشبه المصادر التي يستقى السوفييت اليوم معلوماتهم منها .

لم ييأس دالاس بعد أن فشلت مساعيه في عزل مصر والقضاء على عبد الناصر . . فأوعز إلى تركيا بحشد جيوشها على حدود سوريا وبدأوا في تصعيد الوضع هناك تصعيداً سريعاً - في هذا الوقت كانت بيننا وبين سوريا اتفاقية دفاع مشترك ، وهكذا صبحا العالم ذات صباح على خبر وصول سفن حربية مصرية إلى ميناء اللاذقية وإنزال حوالي خمسة آلاف جندي بعتادهم وعدتهم مما فاجأ الأمريكان والأتراك معاً إذ أن القوة قامت من الاسكندرية بجرأ إلى اللاذقية دون أن يشعر بها أحد مع وجود الأسطول السادس والقوات الإسرائيلية في شرق البحر الأبيض .

طبعاً كان لهذه الحركة أثرها في إشعال العالم العربي ، فقد أصبح عبد الناصر بطلا قومياً لا يمكن لأحد أن يقف في طريقه ومن هنا نشأت فكرة الوحدة بين مصر وسوريا . .

بعد ذلك أخذنا في الاستعداد لانتخابات مجلس الأمة - وراعينا في هذا شيئين . . أولهما حق الاعتراض لمجلس قيادة الثورة . . وفعلنا بعد أن تمت الترشيحات اعترضنا على أعداد كبيرة ، وكان المقياس في الاعتراض الانتماء إلى الأحزاب القديمة أو عداء المرشحين للثورة - أما الإجراء الثاني فقد كان إغلاق بعض الدوائر على الضباط الأحرار الذين تركوا الجيش وخرجوا إلى الحياة السياسية والمدنية . . وفعلنا أغلقنا ٦٠ دائرة من الـ ٣٥٠ ، ثم أجريت الانتخابات . . واجتمع فعلاً أول برلمان في ظل الثورة في سنة ٥٧ . . أي بعد خمس سنوات من قيامها .

قبل الاجتماع بثلاثة أيام كنت مع عبد الناصر في استراحة برج العرب . . فإذا بي أفاجأ بطلب منه بأن أستعد لرئاسة المجلس وقبلت . . ولكن قبل افتتاح المجلس بليلة واحدة دعانا عبد الناصر للاجتماع به في القاهرة . . وقال إنه يفكر في إسناد رئاسة المجلس إلى عبد اللطيف بغدادى بصفته أقدمنا . . كيف غير عبد الناصر رأيه في خلال يومين فقط . . وما الذى دعاه إلى ذلك؟ . . لا أعرف إلى الآن . . ولكن الذى يعرف جمال عبد الناصر يعرف أنه كان يمكن أن يغير رأيه في آخر لحظة ، ولذلك كان بعضنا يحرص على ألا يذيع رأياً أو قراراً لعبد الناصر إلا بعد أن يعلنه عبد الناصر بنفسه على الناس أجمعين .

طبعاً لم أهتم أنا برجوع عبد الناصر عن قراره في مسألة تعييني رئيساً لمجلس الأمة ، فأنا عضو به على أى حال - ولم أكن في حياتي أسعى إلى منصب أو مركز ما . . ويكفى أنني عندما انتخب عبد الناصر رئيساً للجمهورية كنت أول من اعتذر له عن الاشتراك معه في الوزارة . . بل وطلبت منه صادقاً أن لا يعهد إليّ بمنصب من مناصب الدولة . .

كان لابد على أى حال أن يتولى منصب وكيل المجلس أحد الضباط الأحرار فعرض عبد الناصر هذا على أكثر من واحد ولكن الجميع رفضوا . . فلم يجد مفرّاً من أن يتقدم بهذا الطلب إلى . . وقبلت . . وقد تعجب إخواني كيف أقبل العمل تحت رئاسة البغدادى وقد كنا - على الأقل - زملاء في مجلس الثورة لا يتميز أحدنا عن الآخر في شيء . . طبعاً لم يكن هذا تفكيرى . . فلم يحدث في حياتي أن ميزت عملاً عن آخر - مادام العمل من أجل مصلحة مصر - وسواء كنت عضواً بالمجلس أو رئيساً أو وكيلاً له . . فالعمل عندي يتساوى والعبرة بالعمل لا بالمنصب . .

في أواخر سنة ٥٧ جاءتنا دعوة من البرلمان السورى الذى كان يرأسه أكرم حوراني لزيارة دمشق . . قبلنا الدعوة واتفق جمال مع البغدادى

على أن رأس الوفد المسافر إلى سوريا - وفعلاً سافرنا في نوفمبر سنة ٥٧ ووجدنا المسائل تتصاعد بسرعة مذهلة - كان شكرى القوتلى في ذلك الوقت رئيساً للجمهورية ولكن كان الجيش مختلفاً عليه - والجيش ممزق إلى فرق وكل فريق عليه أن ينام في المعسكر الخاص به خشية حدوث أى انقلاب فالجميع يتربصون بعضهم البعض .. المهم .. فوجئنا في أوائل فبراير سنة ١٩٥٨ بخمسة من قادة القوات السورية يصلون إلى القاهرة ويلتقون بعبد الناصر في نفس الليلة التي وصلوا فيها ويطلبون الوحدة مع مصر .. حاول عبد الناصر جاهداً أن يثنىهم عن عزيمتهم إذ لا يمكن أن تتم الوحدة هكذا فجأة وبدون تمهيد .. خاصة وأن البلدين مختلفين في أوجه كثيرة .. ولكن عبثاً حاول ليلة بعد أخرى إلى أن كانت الليلة الثالثة فلم يجد أمام اصرارهم مناصاً من الموافقة على الوحدة - فعقدت في ٢٢ فبراير سنة ١٩٥٨ .

معظم البلاد العربية لم تستقبل الوحدة بارتياح .. فالسعودية على وجه الخصوص كان يهمها أن تظل سوريا محايدة لا تنضم إلى أحد ، فبين البلدين حدود مشتركة .. ولذلك كانت السعودية تصرف رواتب منتظمة لبعض رؤساء الأحزاب والحكومات والوزراء في سوريا حتى يظل الوضع القائم كما هو .. وبانضمام سوريا إلى مصر بدأ الخوف يتزايد في البلاد العربية الأخرى خشية أن يفعل بها عبد الناصر ما فعل بسوريا .. وهكذا كان أيضاً وضع الملك حسين في الأردن والملك فيصل في العراق وشمعون في بيروت .. الكل يخشى القوة الجديدة التي ظهرت بالوحدة بين مصر وسوريا فقلبت الموازين في المنطقة - ليس فقط بالنسبة للبلاد العربية بل بالنسبة لإسرائيل أيضاً والإمبريالية الغربية ..

بالصدفة ، وقبل أن تتم الوحدة بأيام ، كان الملك فيصل رحمه الله (وكان ولياً للعهد) في زيارة مصر .. كان في ذلك الوقت ما زال أميراً وكنا أصدقاء

اعتدنا في زيارته المتكررة لمصر أن نتناول طعام عشائنا البسيط في بيتي بالهرم . .
وفي هذه المرة قال لي فيصل على مائدة العشاء :

« أنتم رايحين فين ؟ » . . مشيراً بذلك إلى الوحدة مع سوريا . . فقلت له :
« العملية انتهت خلاص » . . قال : — « أنا في عرضك قل للأخ جمال ان
البلاد دي عشائر واحنا أدري بيها منكم . . هذه الوحدة لن تستمر ولن
تتمشى مع التيارات السياسية هنا وستضركم . . أنا واثق من هذا وأنا باكلمك
كصديق وأخ . . الوحدة دي حتأخذوا فيها ضربة » . .

أنصت طبعاً إلى كلام فيصل فقد كان مخلصاً في نصيحته . . وكان دائماً
شخصية متزنة عاقلة . . ثم هو قبل هذا وذاك صديق حقيقي فعلاً . . ولكن ماذا
كنت أستطيع أن أفعل ؟

قلت له : يا فيصل دي انتهت خلاص . . بعد غد سيأتى القوتلى وستعلن
الوحدة ولا رجوع فيها الآن . .

قال : أنا باكلمك علشان أريح ضميري . . ولكن ثق — وسوف أذكرك —
هذه الوحدة ستنتهى بكارثة . .

وقد حدث فعلاً . .

المهم . . جاء يوم ٢٢ فبراير ووقف جمال والقوتلى في شرفة مجلس الوزراء
حيث ألقى كل منهما خطاباً يعلن فيه قيام الوحدة . . وقبل ذلك بدقائق
كان جمال والقوتلى قد وقعا على وثيقة الوحدة وكنت أنا ضمن الموقعين أيضاً
نزولاً إلى رغبة عبد الناصر برغم أنني لم أكن في ذلك الوقت أشغل أى منصب
رسمي في الحكومة . .

بعد ذلك حل مجلس الأمة في مصر ونظيره في سوريا . . تمهيداً لتشكيل
لجان مشتركة بين البلدين . . ثم أعددتنا طائرة كوميت عادية من طائراتنا

استقلها عبد الناصر وأنا بصحبته وسافرنا بها في منتهى السرية إلى دمشق خشية أن يتسرب خبر السفر إلى إسرائيل ، فقد كان وقع الوحدة عليها كالكارثة تماماً . حتى أن بن جوريون لم يستطع أن يخفى هذا فكان من تصريحاته المشهورة أن مصر وسوريا قد وضعتا إسرائيل في كسارة البندق . .

وصلنا دمشق وقضينا أسبوعاً بقصر الضيافة هناك : من الصعب على أن أصفه - فقد كان عبارة عن هذيان لا ينقطع ليل نهار ولا يتوقف لحظة واحدة - كان عبد الناصر يخطب إلى أن يصيبه التعب . . ثم يخطب القوتلى - ثم أخطب أنا . . وهكذا واحداً بعد الآخر نواصل الخطابة ومعنا بعض الزملاء من قادة الشعب السورى لا نتوقف . . والشعب السورى ينصت إلينا ويطلب المزيد . . لا يمل ولا يشبع وكل ما كان يقال مقبول وعظيم يلهب الحماس وترتفع له الحناجر بالهتافات ولا تكل الأيدي عن التصفيق إعجاباً واستحساناً تطلب المزيد . . أسبوعاً بأكمله لم تترشح فيه جماهير الشعب المختلفة حول قصر الضيافة شبراً واحداً . . فكانوا يأكلون ويشربون وينامون وهم وقوف أو جلوس في أماكنهم بالميدان الذى يطل عليه القصر . . ومن نفس هذا الميدان في نهاية الأسبوع أعلننا الدستور المؤقت . . أعلنته أنا بصوتى فقرأت مواد الدستور مادة مادة . . والناس تحت شرفة القصر سكارى بالحماس يهللون ويكبرون لكل فقرة وكلمة ومقطع من كلمة .

فى يوم ١٤ يوليو سنة ٥٨ كان عبد الناصر فى طريق عودته من جزيرة بربونى حيث كان فى زيارة للمارشال تيتو ، عندما تلقى رسالة من عبد الحكيم عامر نائبه فى مصر يخبره فيها أن الثورة قد قامت فى العراق ، وفى نفس الوقت تلقى رسالة أخرى من تيتو ينصحه فيها بأن يقطع رحلته ويعود إلى بربونى ، فالأسطول السادس فى البحر الأبيض وقد يعتدى عليه الأمريكان نتيجة لثورة العراق . . اتصل عبد الناصر بتيتو فوراً ليجهز له طائرة فى مطار (بولا) ثم استقل الطراد الذى كان يحرس يخته وانطلق عائداً إلى بربونى فى حين واصل اليخت وعليه عائلة عبد الناصر رحلته إلى الإسكندرية .

من مطار (بولا) فى يوغوسلافيا أخذ عبد الناصر الطائرة واتجه إلى موسكو حيث التقى بخروشوف وطلب منه مساندة ثورة العراق ضد ضغوط الغرب وتآمره وشرسته التى بدأها بعدوان سنة ٥٦ .

وكما قال لى عبد الناصر شخصياً — استمر الحديث بينه وبين خروشوف ١٦ ساعة كاملة حاول فيها عبد الناصر إقناع خروشوف بنجدة الثورة العراقية ولكن عبثاً ذهبت كل محاولاته . . فقد رفض خروشوف تقديم أى نوع من المساعدة .. نفس ما حدث فى سنة ٥٦ عندما حاول شكرى القوتلى حث السوفييت على مساعدتنا ضد العدوان الثلاثى . .

خرج عبد الناصر من هذا اللقاء وهو حزين حزناً عميقاً لم يطلع عليه أحداً إلا أنا وعامر ثم توجه إلى دمشق حيث أعلن على الشعب السورى والعربى فى كل مكان أن الاتحاد السوفيتى يقف إلى جانب ثورة العراق وذلك تغطية

لموقف السوفيت ومحاولة منه لإيهام الغرب بأن ثورة العراق لها من يساندها . .

بقى عبد الناصر في دمشق فترة إلى أن استتبت ثورة العراق ثم عاد إلى القاهرة ولكنه أثناء زيارة أخرى لدمشق عام ٥٩ هجىء بهجوم عنيف من جانب خروشوف على الوحدة بين مصر وسوريا . . فكلنا نعرف أن النظرية الشيوعية لا تعترف بالوطنية ولا بالقومية . . تصدى جمال لهجوم خروشوف وهو في دمشق واتصل بى من هناك لشن حملة مماثلة وكنت وقتها سكرتير الاتحاد القومى (التنظيم السياسى الوحيد) فألقيت خطاباً في ميدان عابدين - ثم ذهبت إلى الإسكندرية حيث ألقيت خطاباً كان مشهوراً في ذلك الوقت بعنفه عبأت فيه الشعور ضد السوفيت كما لم يعبأ من قبل - وقد روى لى جمال بعد عودته من دمشق أنه لما بدأ المعركة ضد السوفيت ، اتصلت به وكالة المخابرات المركزية الأمريكية وقالت إن الأمريكان يضعون كل إمكانياتهم تحت أمره وإنهم على استعداد لتقديم أية معونة يطلبها فقال لهم إنه سيحارب معركته وحده وإن كل ما يطلبه من أمريكا هو أن تعينه بالنسبة للقمح والزيوت وما شابه ذلك . :
وفعلا كانت المعونة الأمريكية تقوم بدور هام فقد كانت توفر لنا الكثير من الميزانية بحيث أنها لما توقفت في سنة ٦٥ كان لذلك أثر على الاقتصاد المصرى . .

بعد قيام ثورة العراق بفترة استولى على الثورة عبد الكريم قاسم . . وهو عميل شيوعى مسجل بالحزب الشيوعى فألقى السوفيت بكل ثقلهم وراءه . . وكان هذا أحد العوامل التى دعتهم إلى تصعيد حملتهم ضدنا وضد الوحدة مع سوريا . . وهى الحملة التى قابلناها بالمثل - فكلما صعدوا صعدنا ، مما جعل خروشوف يقول مقولته المشهورة وهى مثل روسى شعبى قديم مؤداه « لا تبصق فى بئرِكَ لأن مصيرك أن تشرب منه مرة ثانية » . يقصد بهذا نصيح عبد الناصر بأن لا يعكّر علاقاته مع السوفيت لأنه سيضطر إن عاجلاً أو آجلاً إلى أن يعود إليهم .

بانتهاء الخمسينات ودخول الستينات بدأت الثورة فترة المعاناة والآلام والهزائم والنكسات والأخطاء البشعة من جانبنا . . وكما أقول دائماً - كما كانت ثورة ٢٣ يوليو عملاقة في إنجازاتها في الخمسينات فإنها كانت عملاقة في أخطائها في الستينات . .

الشيء المضيء الوحيد في سنة ٦٠ كان إتمام كهربية خزان أسوان القديم ثم التفجير الأول لبدء السد العالي بحضور الملك محمد الخامس ملك المغرب الله يرحمه . . فيما عدا ذلك بدأت الصراعات تطفو على السطح فيما بين أعضاء ما كان يسمى بمجلس الثورة ويجب أن أقرر هنا أنني إلى هذه اللحظة لا أستطيع أن أدرك لماذا كان عبد الناصر يترك خلفه كمية رهيبة من الأحقاد . . أما بالنسبة لي فلم يكن هذا حالي في يوم ما فلا أذكر أنني حققت يوماً على عبد الناصر رغم أن بعض تصرفاته معي كان يمكن لغيري أن يفسرها تفسيراً سيئاً . . ولكني لم أكن أريد شيئاً لنفسى ولذلك لم أعرف الحق . . أما بالنسبة للآخرين فأنا أعرف أن كلامهم كان بل وما يزال يحمل في نفسه كمية هائلة من الحقد على عبد الناصر . . حتى عبد الحكيم عامر صديق العمر الوحيد لعبد الناصر انتهت علاقته بعبد الناصر في أواخر أيام حياته إلى عملية حقد رهيبة .

المهم . . بدأنا الستينات بأحقاد تطفو على السطح وفي نفس الوقت فوجئنا بالوحدة مع سوريا وقد بدأت تتفكك . . كان قد انقضى على قيام الوحدة عامان

وضح بعدهما أن الأمور غير مستقيمة . . كنا قد ألغينا الأحزاب في سوريا وكان من ضمنها حزب البعث الذى قبل مع الأحزاب الأخرى عملية الإلغاء آملاً أنه (أو أى حزب سوري آخر) سوف يستطيع أن يحقق ما يريد من خلال الوحدة . . فلما اتضح أن هذا غير ممكن بدأوا يتندرون بالاتحاد القومى ويتآمرون على الوحدة . . أحس عبد الناصر بهذا في سنة ٦٠ ولكنه لم يكن يستطيع أن يمنعه . . كان يشعر أنه أمام طريق مسدود وأن أمراً ما سوف يحدث ليدمر هذه الوحدة بل ربما دمر الأوضاع في مصر نفسها . .

في نفس هذه السنة أصيب عبد الناصر بمرض السكر نتيجة لحالة اليأس والعجز التي وجد نفسه يواجهها ويشاء الله أن أصاب أنا أيضاً بنوبة قلبية في ١٥ مايو من نفس السنة . . نتيجة للإرهاق سنوات عديدة متتالية وللإرهاق الذى أصابني في تلك السنة بالذات عندما ذهبت إلى كوناكرى كرئيس لمؤتمر التضامن الآسيوى الإفريقى حيث طفا على السطح لأول مرة الخلاف بين الاتحاد السوفيتى والصين الشيوعية .

قبل أن أذهب إلى كوناكرى كنت قد تركت الاتحاد القومى لأننى شعرت أن عبد الناصر قد بدأ يأخذ موقفاً منى ربما نتيجة لوشايات مغرضة وصلته - فقد كانت لديه عادة الاستماع إلى الوشايات وعندما تمس شخصه أو بيته أو أمنه يصبح من السهل التأثير عليه . . المهم أنى كالعادة في مثل هذه الأحوال كنت أنا أيضاً آخذ موقفاً منه فأعتكف أو أبتعد عنه إلى أن يعود الصفاء إلى نفسه فيتصل بى . . وتزول الحفوة . .

وكان هذا ما حدث هذه المرة فبعد عودتى من كوناكرى ومرضى جاء لزيارتى . . وكان صلاح سالم قد أشاع في تلك الأيام أن سبب إصابتي بالقلب كان عبد الناصر فسألنى إذا كان ما يشيعه صلاح سالم صحيحاً . . فقلت له : لا . . غير صحيح فالسبب على ما أرجح هو تراكم سنوات عديدة بأكلها من الإرهاق والتعب الشديد قبل الثورة وبعدها ثم مناخ كوناكرى الحار الشديد الرطوبة الذى عانيت منه كما لم أعانى من شىء في حياتى . .

في صيف سنة ٦٠ طلب مني عبد الناصر أن أرشح نفسي لرئاسة مجلس الأمة الإتحادي الذي كان أعضاؤه مصريين وسوريين أي كان بمثابة برلمان للوحدة ففعلت وانتخبت رئيساً للمجلس وكان هذا أول عمل أباشره بعد فترة نقاهتي من النوبة القلبية التي أصابتنى . . وفي نفس الوقت تقريباً عين عبد الحكيم عامر قائداً عاماً للجيشين الأول والثاني - أي الجيش السوري والجيش المصري - برتبة مشير وخلع عليه عبد الناصر لقب نائب رئيس جمهورية . .

دخلنا سنة ٦١ والطريق المسدود الذي سلكته الوحدة يزداد انسداداً ، فالأحزاب كلها قد بدأت تنشط والتدمير السياسي أخذت رقعته تتسع . . فقد كان عبد الناصر يعتمد في سوريا على شخص واحد هو عبد الحميد السراج - وكان الشعب السوري قبل الوحدة يعاني مما كنا نعاني منه في مصر إلى وقت غير بعيد من كبت للحريات وسجن وتعذيب وإهانات وتصفيه جسدية تبلغ حد القتل - فبعد أن تمت الوحدة كان أملهم كبيراً في أن تتغير الأحوال ولكن هذا لم يحدث للأسف ، فلما استمر الحال على هذا المنوال بدأت الناس في سوريا تضج وتضيق وتزداد شقاء وسخطاً ، وفكر عبد الناصر وتشاور معنا في أن يرسل إلى سوريا عبد الحكيم عامر بصفته الرجل الثاني في الدولة الجديدة وقائد عام قواتها المسلحة عسى أن تستقيم الأمور هناك وتجتاز الوحدة الطريق المسدود الذي وصلت إليه . . ووافقناه على رأيه . . وفعلاً سافر عامر إلى سوريا رغم أن عبد الناصر كان قد ترك بها عبد الحميد السراج كما هو . . وكان هذا خطأ فاحشاً لأن السراج كان يعتبر نفسه أحق من عامر بحكم سوريا . .

كانت لعبد الحكيم عامر أخطاؤه بطبيعة الحال ولكن الأهم من ذلك أنه كان يسيء اختيار معاونيه بشكل فاضح . . وكان من أبرز ملامح شخصيته روح القبيلة فهو يساند من يعاونه على حق كان أم باطل .

ونتيجة لكل هذا نشب صراع خفي بين عامر والسراج . . ثم أخذ يتصاعد إلى أن نزل إلى رجل الشارع في دمشق . . بينما كان عبد الناصر كعادته يناصر عامر ظالماً أو مظلوماً . . فإذا أضفنا إلى هذا أن الملك سعود دفع سبعة ملايين جنيه أوصلها الملك حسين ملك الأردن للمتذمرين والمتآمرين في سوريا ثم القوانين الاشتراكية التي أصدرها عبد الناصر في ٢٣ يوليو سنة ٦١ وأثرها على المجتمع السوري الذي هو بطبعه تجار لأدركنا مدى سخط الشعب السوري على عبد الناصر والوحدة وهو السخط الذي بلغ أقصاه عندما صحا الناس في دمشق في يوم ٢٦ سبتمبر سنة ٦١ على وحدات من الجيش السوري وهي تحاصر القيادة العسكرية هناك . . كان عبد الحكيم يعيش في فيلا ملاصقة فهرع إلى القيادة . . ولكن الجيش السوري ضيق الحصار عليه وبدأوا يكلمونه عن طريق الميكرفون مهددين متوعدين ثم بدأوا في إصدار بلاغات حربية - بلاغ رقم ١ ، بلاغ رقم ٢ . . . إلخ . . وكان البلاد في حالة حرب - علم عبد الناصر بهذا فحاول إنقاذ الموقف . . ولكن عبثاً ذهبت كل محاولاته بعد أن ألقوا القبض على عامر وشحنوه في طائرة إلى مصر . . وبهذا تم الانفصال وذهبت الوحدة بين مصر وسوريا كأنها لم تكن . . وتحققت نبوءة فيصل لي .

على مستوى رجال الثورة كان الانفصال شماتة كبيرة في جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر - أما على المستوى الشعبي فقد بدأت الناس تتلملم وتسال : لماذا حدث هذا ؟ ومن المسئول ؟ صحيح أن الانفصال قد سبقته بفترة وجيزة القوانين الاشتراكية (صدرت في ٢٣ يوليو ١٩٦١ ووقع الانفصال في ٢٦ سبتمبر ١٩٦١) تلك التي صدرت من أجل مصلحة الجماهير .. ولكن مجموع الشعب كان ما زال يفتقد شيئاً هاماً في حياته .. وهو الحرية .. فعندما لا يكون الإنسان آمناً على نفسه لا يمكن أن يعوضه شيء عن هذا ..

هذه حقيقة لم يدركها عبد الناصر إلى يوم أن مات .. كان يتصور أن الشعب مرتاح وسعيد وراض عن أسلوب الحكم لأن الناس عندما تراه كانت تهتف له وتهلل وتصفق .. ولكنه نسى أن في ضمير كل مواطن - حتى في الطبقات التي كان يعتقد أنه يخدمها - حقيقة أساسية تطغى على كل حقيقة أخرى .. وهي الإحساس بالحاجة إلى الحرية والأمن .

بعد عودة عامر من سوريا بعد أن عومل معاملة مهينة التقى بعبد الناصر وقال إنه لا يستطيع أن يستمر كقائد عام للقوات المسلحة بعد الإهانات التي وجهت إليه من جيش سوريا فكرامته كقائد عام لا تسمح له بالاستمرار في عمله .. رحب عبد الناصر بهذا أشد الترحيب فقد كان ينتظره أو يتمناه منذ معركة سنة ٥٦ وبعد الموقف المتخاذل الذي وقفه عامر آنذاك والحالة التي كانت فيها القوات المسلحة في ذلك الوقت وعند الانفصال ، ولكنه لم يشأ أن يظهر لعامر ترحيبه باستقالته حتى لا يتراجع فيها فقد كان كل منهما يعرف الآخر حق المعرفة ويتربص بالآخر في غيابه وحضوره ..

الاستجابة له . . ثم اختفى حيث لا يعلم أحد ولو أنه عرف بعد ذلك أنه كان في مرسى مطروح . . كان ردنا على عبد الناصر أنه لو تراجع في القرار الذى اتخذناه بالإجماع فهو بصراحة يتنكر لمصلحة مصر . . ثم لماذا يسألنا الرأى . . إنها مسئوليته وحده كرئيس للجمهورية .

في هذه الأثناء - وإغاظه في عبد الناصر - قدم عامر له الاستقالة المشهورة التى طبعها بعد ذلك في سنة ٦٧ وقال فيها إنه استقال من أجل الديمقراطية في سنة ٦٢ وغير ذلك من أمور كان يعلم جيداً أنها تثير حنق عبد الناصر . فمثلاً قال إنه لا يقبل أن تحكم البلد هكذا بدون أحزاب وبدكتاتورية مطلقة . .

كان عامر يعرف جيداً أن عبد الناصر لن يقبل أن تخرج هذه المسائل إلى البلد لأن الشعب كله كان يريد الديمقراطية . . فإذا قبلت هذه الاستقالة . . ستجعل من عامر بطلا قومياً . . فاستدعانا عبد الناصر مرة أخرى وعرض علينا الاستقالة - وكان ردنا عليه أنه هو الرئيس المسئول وما كان بحاجة إلى أن يستدعينا قبل ذلك أو في هذه المرة . .

أرسل عبد الناصر في طلب عامر والتقى . . وهنا تظهر علامة استفهام كبيرة في علاقات عبد الناصر وعامر . . فقد حدث عكس ما كنا نتوقعه تماماً . . إذ اتفقا على أن يترك عامر منصب قائد عام القوات المسلحة ويتسلم منصباً آخر اسمه نائب القائد الأعلى للقوات المسلحة . . فالقائد الأعلى هو دائماً رئيس الجمهورية - وهذه وظيفة شرفية حسب الدستور ولكنها ليست كذلك في وقت الحرب . . فالقائد الأعلى عليه أن يوقع أمر القتال كما عليه أن يوقع الأمر الاستراتيجى لقائد القوات المسلحة الذى يحدد فيه استراتيجيته للمعركة ، ومع ذلك أصر عامر على أن يتولى القيادة الفعلية - فلا يعين قائد عام بدلاً منه . . وقد سلم له جمال بذلك بينما كان ينوى أن يعين محمد فوزى قائداً عاماً في ٢٣ يوليو سنة ٦٢ (وكنا في ذلك الوقت في ديسمبر سنة ٦١) فلما أتى ٢٣ يوليو ، وجدنا أن الوضع ما زال كما كان . . فما زال فوزى رئيس أركان حرب وجميع الضباط الكبار الذين كانوا مع المشير عامر كما هم لم يتغيروا - فبدأنا نتساءل فيما بيننا . . فيم كان إذن استدعاء عبد الناصر لنا

وأخذه مشورتنا المرة بعد الأخرى ؟ لقد عادت المياه إلى مجاريها بين عبد الناصر وعامر وكأن شيئاً لم يكن . . كل ما حدث هو أن رقى عامر من منصب قائد عام القوات المسلحة إلى نائب القائد الأعلى بسلطات القائد العام . . واستمر الحال على ما هو عليه حتى وقعت كارثة ٦٧ . .

ولما كان عبد الناصر قد أبلغ عبد الحكيم بأن الذى اتخذ قرار تنحيته عن القوات المسلحة هم إخوانه أعضاء مجلس الثورة - بدأت المياه بيننا وبينه تتعكر . . ولكنه بعد أن فكر فى الأمر ملياً اهتدى إلى أننا لم نتخذ هذا القرار وحدنا فلا بد أن عبد الناصر هو الذى دعانا إلى اتخاذه - أضف إلى هذا أنه عرف بالاجتماع الذى تم بيننا وبين عبد الناصر فى بيته ، ولذلك نجد أن عبد الحكيم عامر بدأ منذ ذلك الوقت - أى أول سنة ٦٢ - يأخذ احتياطه من عبد الناصر كما بدأ عبد الناصر يأخذ احتياطه من عبد الحكيم بدلاً من أن يحسم الأمور كرئيس للجمهورية وهكذا نشأ أول مركز قوة فى مصر يباشر عمله بصراحة . . فقد أصبح هم عامر الأول أن يؤمن نفسه ضد عبد الناصر بعد ما تأكد لديه المعنى الذى كان دائماً الاحساس به وهو أن هناك صراعاً وعدم ثقة وفجوة بينه وبين عبد الناصر وبينه وبين الباقين من مجلس قيادة الثورة . .

وهكذا نجد أن الصراع الذى بدأ فى أول الستينات قد ازداد اتساعاً وازداد معه التمزق لأن الحق قد أصبح دفيناً بين عبد الناصر وعامر ، وعامر وحده والباقيين ، وعبد الناصر وحده والباقيين وأنا واقف أتأمل موكب الصراع هذا وقلبي يتمزق ألماً . .

كان هذا الموقف هو المقدمة الأولى لهزيمة ٦٧ . . فقد انصرف عبد الحكيم عامر إلى تثبيت مركزه ليس فقط داخل القوات المسلحة بل فى البلد كلها . . وهكذا دخلت مصر أسوأ دوامة يمكن أن تدخلها . .

فالقوات المسلحة التى فاجأها الانفصال وهى فى حالة عدم استعداد زاد فيها الإهمال ثم جاءت حرب اليمن فبدلاً من أن تكون مجال تدريب وتجهيز لقواتنا المسلحة أصبحت عملية انتفاع واستغلال . . ولم يكتفى عامر بهذا

فلكى يثبت أقدامه في جميع المجالات سعى إلى أن يعهد بالمؤسسات المدنية إلى الضباط وكذلك كان لابد أن يكون رؤساء المؤسسات من الضباط السابقين - ونفس الشيء بالنسبة لرؤساء المدن وجميع المراكز الحساسة في البلد حتى الشقق عندما تكون خالية يتدخل الجيش في توزيعها . .

كان عبد الحكيم عامر يتصور أنه بهذه الإجراءات يثبت نفسه عند الشعب ولكنه لم يكن يعلم أن العكس هو الذي حدث . . فقد زادت هذه التصرفات من سخط الناس عليه وتبرمهم بالنظام بأجمعه . . وفي أعقاب الانفصال كانت البلد ممزقة نتيجة لكبت الحريات وعدم وجود الديمقراطية بأي شكل من الأشكال . . مما شجع العناصر الغير راضية على أن تتحرك وهكذا ازداد تملل الشعب وقلقه . . وقد صور كل هذا إلى عبد الناصر على أنه ثورة مضادة وبناء عليه فرضت الحراسات على السياسيين القدامى . . ولكن لم يكن هذا الإجراء كافياً لامتصاص غضب الناس وتذمرهم بل على العكس ربما زاده وعمقه . . ولذلك لجأ عبد الناصر إلى إجراء آخر وهو إنشاء لجنة تأسيسية أو كما أسموها لجنة حوار مكونة من أكثر من مائتي شخص أغلبهم من المثقفين . . عهد بأمانتها إلى وكنا نجتمع في قاعة مجلس الأمة وكان عبد الناصر يحضر أغلب جلسات هذه اللجنة ويشترك في مناقشاتها التي نشرت على الناس في الصحف فقد كان الهدف من العملية كلها أن يظهر عبد الناصر بمظهر من يشارك الناس همومهم ويسعى إلى حل مشاكلهم ولذلك نجده يرحب بما استقر عليه رأى اللجنة في النهاية وهو إصدار ما يسمى بالميثاق يحدد فيه خط الثورة وأهدافها وسياساتها فقد كان هجوم أعضاء اللجنة من المثقفين منصفاً على عدم وجود أي منهج وفعلاً وضع الميثاق وتقدم به عبد الناصر إلى المؤتمر القومي الكبير الذي عقدناه . . وقرأه مادة مادة وصدق عليه الحاضرون وحقق بعض الغرض من صدوره فقد شغل الناس بمحاولة استيعابه وتفهم النواحي الأيديولوجية التي كان يحتويها .

في هذه الأثناء كان التنظيم السياسي موجوداً ولكنه كان بالتعيين لا بالانتخاب فهو أعرج لا يملك من أمر نفسه الكثير . . لذلك نجده لا يقوى على أن يضع الميثاق موضع التنفيذ . . لقد صدر الميثاق فعلاً وأصبح يدرس في منظمات الشباب والجامعات ولكن شيئاً مما نص عليه لم ينفذ . .

في صيف سنة ٦٢ عقد في لبنان مؤتمر شتورة الذي ضم السعودية وسوريا والأردن والعراق ولبنان بقصد مهاجمة مصر وعزلها ثم ضرب النظام .

موقف مؤسف للغاية - ولكن يشاء الله أن تقوم ثورة اليمن بعد ذلك بفترة وجيزة في ٢٦ سبتمبر سنة ٦٢ (وهو تاريخ الانفصال قبل ذلك بسنة) فكانت هذه فرصة مناسبة لردع الملك سعود الذي مول الانفصال والذي كان في ذلك الوقت يزعم الحملة ضدنا ، فاليمن على حدوده مباشرة . . ولذلك عندما اجتمع مجلس الرئاسة هنا للنظر في طلب ثوار اليمن للنجدة كنت أول المتحمسين وأقنعت المجلس بضرورة مساندة الثورة - وفعلنا تم هذا .

كنت أنا المسئول عن الجانب السياسي في الثورة اليمنية وكان عامر هو طبعاً المسئول عن الناحية العسكرية - ولكنه كعادته أساء التصرف فبدلاً من أن يجعل من حرب اليمن ميداناً لتدريب قواتنا على حرب العصابات وعلى تكتيكات جديدة ، انقلبت الحرب إلى تجارة ومنفعة وأصبحت مسرحاً جديداً يثبت عليه عامر أقدامه وينشر نفوذه بحيث لا يستطيع أحد أن يزحزحه عن مكانه كمركز القوة الأول في مصر . . هذا إلى جانب أنه تورط في المعونة العسكرية من لواء إلى لوائين إلى أن أصبح لنا في يوم من الأيام ٧٠ ألف جندي هناك لم يتم سحبهم إلا بعد هزيمة ٦٧ عندما اتفق الملك فيصل مع عبد الناصر في مؤتمر الخرطوم على ذلك . .

فشلت حرب اليمن عسكرياً فقد كنا نحارب بجيش نظامي عدواً متمرساً

في حرب العصابات ، ولكن رغم كل شيء لا أستطيع القول بأن توضحياتنا ذهبت هباء ، فاليمن قد تخلصت من حكم الإمام الذي كان أسوأ من أى حكم في العصور الوسطى . . ثم إن عدن نالت استقلالها كنتيجة طبيعية لمعركتنا في اليمن . . صحيح أن الحرب قد استنفدت جزءاً كبيراً من رصيدنا من العملات الصعبة ، وأنها عاقت فرقتين من أكفأ الفرق العسكرية عندنا عن الاشتراك في حرب ٦٧ . . ولكن هذا كله لا ينفي أن التدخل في ثورة اليمن كان ضربة سياسية لا بد منها . . فقد كانت من العوامل الهامة التي كبحت جماح سعود وهزت مكانته بين أهله وعائلته مما أدى في النهاية إلى أن يحل الملك فيصل مكانه . . وكان هذا مكسباً رائعاً لا للسعودية فحسب بل للقومية العربية كلها .

فى سنة ١٩٦٥ كانت حالة البلاد الداخلية قد وصلت إلى مرحلة يرثى لها فعلى صبرى كرئيس للوزراء لا يتخذ قراراً فى أى شىء . . لأنه بطبعه يخشى المسئولية وربما لهذا السبب وقع اختيار عبد الناصر عليه . . فعبد الناصر بطبيعته الديكتاتورية كان يتطلب من رئيس وزرائه أن يكون مجرد مدير مكتب ينفذ أوامره وحسب . . وهكذا كان على صبرى . . فإذا أضفنا إلى هذا ميله الطبيعى إلى التجسس على الناس وتدير المؤامرات والعمل فى الخفاء لأدركنا سر تهرم الناس به . . فماذا يمكن للبلد أن تستفيد من حكومة هذا شأن رئيسها . . ومما جعل الحالة تزداد سوء أن مشاكل الخدمات عندنا من تليفونات ومواصلات وإسكان وخلافه أخذت تؤجل ابتداءً من سنة ٦٢ على أساس حلها بخطط طموحه لم تكن قابلة للتنفيذ . . مما جعل هذه المشاكل تزداد وتتراكم سنة بعد أخرى . . بحيث أصبح من العسير حلها . . وكان العذر الذى يتذرع به المسئولون فى هذا أن الخدمات والمرافق يمكن التضحية بها فى سبيل إقامة مصانع للانتاج بالاشتراك مع السوفيت .

فى نفس السنة قطع جونسون المعونة الأمريكية عن مصر . . فوضعنا فى موقف حرج . إذ كشف بهذا خططنا فقد كنا معتمدين على أمريكا فى القمح الذى كنا نستورده منها بالجنه المصرى فيوفر لنا حوالى ٨٠ مليون استرليني نستفيد منها فى مشاريعنا .

لم نجد إزاء قطع المعونة الأمريكية سوى أن نلجأ إلى الاتحاد السوفيتى فذهبنا إلى موسكو فى سبتمبر ١٩٦٥ . . عبد الناصر وأنا وزكريا محي الدين . .

كان قد حدث تغيير في القيادة السياسية للاتحاد السوفيتي سنة ٦٤ عندما عزل خروشوف . . الرجل الذي كان يدرك قوة مصر بعد معركتين لنا معه في سنة ٥٩ ثم سنة ٦١ وبدأ يستجيب لمطالبنا واتخذنا منه صديقاً — إن لم يكن لأي سبب — فلأنه كان حاسماً صادقاً معنا لا يراوغ مثل من سبقوه . . لذلك حملنا حملة شديدة على السوفيت فأرسلوا لنا شليبين الذي قام بالإنقلاب ضد خروشوف . . ليمهد الجو للمصالحة بيننا وبين السوفيت فلما ذهبنا إلى موسكو في سبتمبر ١٩٦٥ وجدناهم — أي القيادة الجديدة — حريصين كل الحرص على إرضائنا لكي يصلحوا ما تركته عملية عزل خروشوف في نفوسنا من ناحية ومن ناحية أخرى لكي يعادلوا أو يمحوا أثر زيارة (شواين لاي) لمصر التي استغرقت أسبوعين كان ينتظر فيها ما سوف يحدث بالنسبة للمؤتمر التضامن الآسيوي الأفريقي الذي كان من المفروض أن يعقد بالجزائر ثم قام بومدين بالإنقلاب على بن بيللا قبيل انعقاد المؤتمر مباشرة .

كان هدفنا من زيارة موسكو أن نقنع السوفيت بتأجيل الأقساط التي علينا حتى يمكننا بما عندنا من مال تعويض قطع المعونة الأمريكية عنا وكذلك استكمال خططنا الطموحة ، وقد استجاب السوفيت لمطالبنا بصورة لم نكن نتوقعها . . وكانت الديون التي علينا تعادل ٤٠٠ مليون جنيه استرليني — فقررنا حذف نصفها بحيث يكون ما يتبقى لهم من ديون ٢٠٠ مليون جنيه فقط . . ونتيجة لهذا تخفض الأقساط بطبيعة الحال . .

استجاب عبد الناصر لمشاعر الجماهير في نهاية سنة ١٩٦٥ فعزل على صبرى من رئاسة الوزارة وعين بدلا منه زكريا محيي الدين . . ولكن زكريا لم يملك في منصبه إلا شهوراً قليلة ، إذ سرعان ما اختلف مع عبد الناصر . . ولو أن وراء هذا الخلاف كان عبد الحكيم عامر الذى كان يكره زكريا ويفضل أن يرأس الوزارة رجل من أتباعه . . وقد تحقق له ما أراد فعين صدقي سليمان رئيساً للوزارة بدلا من زكريا . . ولكن هذا لم يمنع عامراً من استمرار زحفه على السلطة حتى أصبح كل شيء في البلد يعهد به إلى القوات المسلحة أو البوليس الحربى . . النقل العام مثلاً في حالة سيئة فيتبع للقوات المسلحة لاصلاحه - الثروة السمكية تشرف عليها القوات المسلحة وفي سنة ٦٥ عندما قيل إن هناك مؤامرة يدبرها الإخوان المسلمون تولى أمرهم البوليس الحربى وشمس بدران أهم معاونى عامر . . وكما اتضح بعد ذلك كان هناك تعذيب وإهانة وامتهان لكرامة الإنسان .

لا أستطيع أن أجزم بأن عبد الناصر كان على علم بما حدث . . ولكنى في الوقت نفسه لا أستطيع تبرئته من المسئولية فالرئيس دائماً هو المسئول مهما كانت أخطاء معاونيه ومساعديه ومهما كانت نواياه هو .

وكالعادة فقد كان عبد الناصر يعتبر أن أى احتجاج أو اعتراض أو نقد أو حتى محاولة لتقصي الحقائق ومناقشتها أو مجرد التنفيس عما بالصدر ثورة مضادة . . ولا بد من إجراءات لمواجهة . . ولذلك فإنه بعد عملية الإخوان كان لابد في نظره من إجراء مضاد ، وكان الإجراء هذه المرة أقسى وأعنف ما شهدته

مصر في تاريخها ، فقد شكلوا لجنة أطلقوا عليها اسم لجنة تصفية الإقطاع وطبعاً تولى رئاستها عبد الحكيم عامر .

كانت لجنة تصفية الإقطاع تمثل قمة الإرهاب والكبت والإذلال .. فقد اعتدوا على كرامة الإنسان وهو ما لا يقبله شعبنا تحت أية ظروف ولأى سبب . . فالشعب المصرى يقبل الجوع والفقر والحرمان . . ولكنه لا يقبل امتهان الكرامة . . ولقد وضعوا تحت نظرى فى ذلك الوقت عدة حالات تدل على ما كانوا يفعلون ولكنى لهولها لم أصدق إلى أن مارست التجربة بنفسى . .

ففى يوم وأنا فى زيارة لقريتى ميت أبو الكوم وكان ذلك فى سنة ٦٦ التقيت بأحد أبناء القرية وهو مهندس زراعى فسألنى إذا كنت قد اطلعت على قرار لجنة الإقطاع بالنسبة لمركز تلا وهى بلدة قريبة من قريتى . . فقلت لا لم أقرأ شيئاً بهذا الصدد فأطلعنى على إحدى الصحف اليومية فإذا بى أفاجأ بأن عددا من العمدة وأهل المنطقة قد وضعوا جميعا تحت الحراسة وعزلوا من مراكزهم . . كنت أعرفهم واحداً واحداً . . وكنت أعلم علم اليقين أنهم من خيرة الناس وأنهم جميعا يؤيدون الثورة بما لا يقبل الشك . .

لم أكن أتصور أن الأمور قد وصلت إلى هذا الحد .. فأخذت سيارتى وعدت فى الحال إلى القاهرة وأنا غاضب كل الغضب . . وبحث عن عبد الحكيم عامر إلى أن وجدته ، فاتصلت به تليفونياً وقلت له كيف يحدث هذا ؟ إنه عبث بمقادير الناس و . . و . . فرد على بهدوء : وفيم الغضب ؟ نلغى القرار . . وفعلا ألغى القرار فى نفس اليوم الذى صدر فيه . . وكان هذا هو القرار الوحيد الذى تراجعت عنه لجنة تصفية الإقطاع فى نفس يوم صدوره . .

كانت هذه تجربتى مع لجنة تصفية الإقطاع — ولكنى سمعت بعد ذلك قصصاً رهيبه تدل كلها على مدى امتهان السلطة للإنسان المصرى والقيم التى نشأ عليها . . فمثلا كانوا يقتحمون البيوت بالليل ويطردون النساء فيخرجن مع أطفالهن فى الطرقات والأزقة يبحثن عن مأوى يسترهن .

هكذا كان حال مصر داخلياً في سنة ٦٦ . . أما من الناحية الخارجية فقد كنا في حالة مواجهة كاملة مع أمريكا وكان عبد الناصر عنيفاً في خصوماته لا يعرف لها حداً فاندفع في هذه الخصومة إلى نقطة اللاعودة معتمداً على مساندة السوفييت له - ولكن حدث في هذه الأثناء أن وجهت الحكومة الأمريكية الدعوة إلى " لزيارة أمريكا بصفتي رئيساً لمجلس الأمة - رغبة منهم في أن يحققوا شيئاً من الهدنة أو التقارب . .

رحب عبد الناصر بالفكرة فقد بدأ يشعر أنه أخطأ في حق الأمريكان أكثر من اللازم عندما وجه الكلام إلى أمريكا في إحدى خطبه قائلا : « فلتشرب من البحر الأبيض وإذا كان هذا لا يكفيها فهناك البحر الأحمر . . » فقبلت الدعوة وسافرت مع زوجتي إلى أمريكا حيث استقبلونا أحسن استقبال . . وعندما زرت الكونغرس أجلسوني على مقعد الرئيس وهو نفس الكرسي الذي جلست عليه عند زيارتي لأمريكا عام ١٩٧٥ . .

ولكن في عشاء رسمي أقامه هاريمان أكبر مستشاري الرئيس الأمريكي فاجأني صحفية أمريكية بسؤال لم يكن يخطر على بالي . . قالت وفي يدها إحدى الصحف : ما رأيك في هذا التصريح ؟ قلت : أي تصريح ؟ فقرأت من الصحيفة التي معها تصريحاً لعبد الناصر يهاجم فيه أمريكا بأعنف الألفاظ . . قلت لها وقد وجمت :

« ليس عندي أي تعليق . . » وتساءلت في نفسي لماذا يفعل عبد الناصر

ما فعله ؟ بعد أن اتفقنا على أن نبذل مجهوداً لتحسين العلاقات وبعد تشجيعه لى على اتمام الزيارة ؟

وإذا كان هذا قصده فلماذا وافق على الزيارة أصلاً . . ؟

أمور غريبة لا يمكن فهمها أو تبريرها . . ولكنها لم تؤثر على زيارتي لأمريكا . . فقد بذل الأمريكان أقصى جهدهم لانجاح الرحلة . . وأذكر أننا فى زيارتنا لسان فرانسيسكو كانت مديرة المراسم يهودية فحاولت أن تعتذر لمرضها عن استقبال ومصاحبة زوجتى . . ولكن وزارة الخارجية الأمريكية لم تمكنها من ذلك . . فقد أمروها بأن تؤدي واجبها أولاً ثم تدخل المستشفى بعد ذلك . .

انتهت سنة ٦٦ والصراع بين عبد الناصر وعامر على أشده فكل منهما متربص بالآخر وخاصة أن عامر كان كل يوم يوسع رقعة سلطانه . فعن طريق لجنة الإقطاع والتعلل بالثورة المضادة استطاع أن يضرب من يشاء وأن يعزل أو يبقى من يشاء في مؤسسات الدولة وجميع مناصبها بما في ذلك النوادي الرياضية بل إن شكاوى الهيئات العامة أو الأفراد كانت تحال إلى القوات المسلحة للنظر فيها وحلها حسب ما يترأى لها . . وهكذا تراكت السلطات في يد عامر حتى أصبح الأمر الناهى والمتحكم في مصير الناس وفي كل ما يتعلق بالبلد من أحداث .

هذه هي الصورة التي كانت عليها مصر في مستهل سنة ١٩٦٧ فكيف كانت في عيون من تبقى من رجال الثورة في الحكم ؟

خرج زكريا محيي الدين من رئاسة الوزارة وفي حلقه غصة . . ولكنه من النوع الكنوم لا يتكلم كثيراً . . أما عبد الناصر فكان يراقب ما يفعله عامر وهو أيضاً ملئ بالمرارة ، عاجز لا يستطيع أن يفعل شيئاً - بينما كان عامر يزيد كل يوم من رقعة سلطته بل كان يسعى إلى رئاسة الوزارة ليضع السلطة في يده كاملة . .

هكذا دخلنا سنة ٦٧ والكآبة تخيم على مصر فالبلاد مفلسة لأن الخطة طموحة ولا يوجد المال الكافي لتمويلها ومشاكل الخدمات التي أجل على صبرى حلها منذ سنة ٦٢ تراكم يوماً بعد يوم وذلك حتى يتظاهر أمام عبد الناصر

بأنه يبني صناعات لم تكن تقوم في الحقيقة على أى أساس وأخطر من هذا كله الصراعات التى بلغت أشدها بين من يحكمون من رجال الثورة وأذناهم .

ففى يوم جمعة فى فبراير سنة ٦٧ ذهبت لزيارة عبد الناصر على غير موعد كعادته معى . . فسألت الضابط المختص إذا كان عبد الناصر قد استيقظ من النوم فأجبنى بأنه استيقظ منذ مدة وهو الآن فى حجرة مكتبه فدخلت الحجرة ورأيت عبد الناصر يجلس وقد وضع رأسه بين يديه حزيناََ مهموماََ . . وقفت أراقبه حوالى دقيقتين ثم فاجأته بسؤالى : « جرى إليه يا جمال ؟ مالك ؟ »

التفت إلى فى دهشة فقد كان واضحاً أنه لم يحس بدخولى الحجرة وقال :
— إليه اللى جابك النهارده يا أنور ؟

قلت : النهارده الجمعة — وأنا لى مدة لم أرك — قلت أفوت عليك أدردش معاك شوية وأنا عارف إنك يوم الجمعة بتبقى لوحدهك . .

قال لى : والله عملت طيب . . اقعد .

جلست وسألته مرة أخرى : مالك شايل الدنيا على دماغك ليه يا جمال ؟
واضح أنك شايل الدنيا على دماغك . .

قال : أيوه . . فعلا أنا شايل الدنيا على دماغى . . يا أنور البلد بتحكمها عصابة وأنا مستحيل أكمل بهذا الشكل . . أنى أبقي الرئيس المسئول واللى بيحكم هو عبد الحكيم وينفذ اللى عاوزه . . طيب أخرج أنا أحسن وأروح أقعد فى الاتحاد الاشتراكى . . ويتولى هو رئاسة الجمهورية وأنا مستعد لأن أسأل عن الفترة اللى قعدتها لغاية ما حأخرج . . أجاب عن أى شىء . .

كان واضحاً أن عبد الناصر كان على معرفة بما يجرى فى البلد ، المشاكل المتراكمة منذ سنة ٦٢ وما تفعله لجنة الإقطاع بالناس — وضراوة مراكز القوى سواء من ناحية عامر أو شعراوى جمعة وسامى شرف أو على صبرى أو مستشاره الصحفي . . وحجرهم على الحريات واحتكارهم لجميع الإمتيازات . .

قلت له : مش معقول يا جمال تسبب رياسة الجمهورية وتقعّد في الاتحاد الإشتراكي عشان عبد الحكيم وأعوانه يحكموا مصر . . أنت عارف أن عبد الحكيم أسوأ من يختار معاونه - هم اللي تسببوا في فشل الوحدة مع سوريا - ومع ذلك فعبد الحكيم متعصب لمعاونه تعصب قبلي تقول له نشيل صدقي قائد الطيران يقول قبل ما تشيلوه شيلوني أنا . . خلقتة كده . . ولذلك أعتقد أنه أفضل شيء إنك تجيبه وتكلمه بينه وبينك وبالشكل ده ممكن توصلوا لحل مع بعض .

قال جمال : والله الصورة سيئة يا أنور وأنا حاسس أن احنا داخلين على كارثة .

بعد ذلك ببضعة أيام ذهبت لزيارة عبد الناصر فقالوا لي إن عنده ضيفا وانتظرت في حجرة مكتبه إلى أن يخرج الضيف . . وبعد فترة جاء عبد الناصر وبادرني بالسؤال :

تعرف يا أنور مين اللي كان عندي دلوقتي ؟ قلت : مين ؟ قال : شمس بدران - فاكّر حديثنا اللي قلت لك فيه على حكاية العصاة ؟ قلت له : آه .

قال لي : يا سيدى الحكاية كملت .. شمس بدران جاى لي دلوقتي بيطلب رسمى إن المشير يأخذ رئاسة الوزارة . . وحجته إيه ؟ إن البلد بتشتكى . . مش عارف أن معظم الحاجات اللي بتشتكى منها الناس هي من تصرفاته وتصرفات أتباعه ؟

قلت له : طيب أنت قلت إيه ؟

قال : والله أنا خدت الموضوع ببساطة . . قلت له أنا ما عنديش مانع . . قل له أنا موافق بس يترك القوات المسلحة ويأخذ رياسة الوزارة - أنا حلاقى مين يمسك الوزارة أحسن من عبد الحكيم ؟

قلت له : أنا ما زلت عند رأيي إنك تقابله وتكلموا مع بعض وأنت عارف أنه بيقبل منك ما لا يقبله من أى شخص آخر - بالشكل ده ممكن الموضوع يتلم والمسائل تتحل .

عبد الناصر قال : لا يا أنور . . العملية ماشية في اتجاه غلط . .

طبعاً كان رد عامر على رسالة عبد الناصر بالنسبة لرئاسة الوزارة هو الصمت فهو يعتبر القوات المسلحة مكانه الطبيعي ولا يمكن أن يتخلى عنها لأي سبب من الأسباب فهي مركز القوة الأول . . بعد ذلك تطورت الأمور في لجنة الأقطاع فبلغت أقصى الضراوة في مارس وإبريل ومايو حيث عقدت آخر اجتماعاتها وكانت متجهة في تلك الفترة بالذات إلى تصفيه العائلات . . وهي في رأي مسألة خطيرة . . في تقديري - والله أعلم - أن مستشارو جمال كانوا يغذون هذا الاتجاه في نفس عبد الناصر . . وكان أهمهم وهو مستشاره الصحفي فهو يمتك العائلات ويتحين الفرصة للشماتة فيها . . ولذلك كان يطيب له ضرب العائلات كلها وإذلال وامتهان كرامة الإنسان . . حتى أن أهل الصعيد عندما كانت تفرض عليهم الحراسة كان الرجل يصرخ محتجاً « آخذ نفقه زى الست » ؟

فقد كانوا يطلقون على المبالغ الضئيلة التي يدفعونها لمن تفرض عليه الحراسة مقابل ما أصابهم كلمة (نفقة) وهي نفس الكلمة التي تطلق على المبلغ الذي يدفعه الزوج ليعول مطلقته . .

استمر الحال على هذا النمط إلى منتصف مايو حيث كان من المقرر أن يتم القضاء على العائلات جميعها ابتداء بعائلات محافظة البحيرة . . ولكن دخلت علينا السحابة الرهيبة القائمة في أواخر مايو وأوائل يونيو فأوقفت تلك الإجراءات فكل كارثة لها جانب آخر . . يقول المثل الإنجليزي « كل سحابة داكنة لها شريط فضي يبرق وسط العتمة » . .

سافرت في ذلك الشهر وهو مايو سنة ١٩٦٧ إلى كوريا الشمالية ثم إلى موسكو ، حيث استمعت هناك إلى عبد الناصر وهو يلقي خطابه في أول مايو . . كان يتكلم عن الثورة المضادة والإقطاع . ويستشهد بحادث وقع في قرية مجاورة لقرينتي وسمعتة يذكر اسمي فكنت أعجب كيف تنقل الحقائق إلى عبد الناصر ثم تصدر الأحكام بدون فحص لهذه الحقائق .

القرية كانت هي كمشيش وقد كانت مسرحاً فعلاً لإقطاع لم تشهد له البلاد مثيلاً ، ولكن أولئك الذين كان يستشهد بهم عبد الناصر كانوا في الواقع أسوأ من الإقطاع الذي نشهد به جميعاً في المنطقة . إذ كانوا شيوعيين ماركسيين يريدون أن يتوصلوا عن طريق مكافحة الإقطاع إلى تطبيق الماركسية وفي هذا السبيل لم يتورعوا عن امتهان كرامة المواطنين بأسوأ مما كانت تفعله لجنة تصفية الإقطاع ولم يكن هناك ما يدعو لذلك لأننا صفيينا الإقطاع في هذه القرية ووزعت الأرض على الفلاحين قبل هذا التاريخ بسنوات طويلة . .

لقد كانت هذه القرية في ذلك الوقت مركزاً من مراكز النشاط الشيوعي في الدلتا حتى أن الشيوعيين أخذوا بجان بول سارتر إلى كمشيش تفاخراً بما صنعوا منها . .

تضايقت وأنا أستمع للخطاب فعبد الناصر كان معي منذ سنتين ونحن نمر بهذه البلدة ضمن بلاد المنوفية الأخرى وذلك أثناء انتخابات الرئاسة ، وقد أفهمته حينذاك حقيقة الضجة التي أثارتها العناصر الشيوعية وعنّف مساعديه على ذلك في ذلك الوقت .

على أي الأحوال فإنه بعد ١٥ مايو ٦٧ لم تنعقد لجنة الإقطاع إذ ابتداء من ٢٠ و ٢١ و ٢٢ مايو دخلنا معركة التمهيد لكارثة ٥ يونيو ١٩٦٧ .

في عودتي من موسكو كان يرافقني إلى المطار سيمينوف نائب وزير الخارجية ومعه رئيس البرلمان السوفيتي . . وتحدثنا طويلا إذ تأخرت الطائرة ساعة أو أكثر وكان حديثهما معي يدور حول موقف سوريا وكيف حشدت إسرائيل عشر لواءات على حدودها . . وعندما عدت إلى مصر وجدت أنهم قد أبلغوا عبد الناصر نفس الخبر وبعدها صرح أشكول رئيس وزراء إسرائيل أنه إذا اقتضى الأمر فسوف تحتل القوات الإسرائيلية دمشق .

في ذلك الوقت كانت بيننا وبين سوريا إتفاقية دفاع مشترك . . وإلى جانب هذا كان الروس على طريقتهم يمارسون لعبة ضرب الزعماء العرب بعضهم البعض . . كما حدث أثناء حكم عميلهم قاسم في العراق . . وفي هذه المرة استثاروا عبد الناصر وضربه بالقيادة السورية على أنها أكثر تقدمية ولذلك أعطى الأوامر لعبد الحكيم عامر بمحشد قواتنا في سيناء وكان الهدف الحقيقي من هذا تخويف إسرائيل . .

ولكن ما لبث زمام الأمور أن أفلت من يديه ففي ذلك الوقت كان الكثيرون من إخواننا العرب يعايرون مصر بأنها تركت مضائق تيران مفتوحة حتى أن عامر وهو في زيارة لباكستان تضايق من المزايدات العربية بالنسبة لمضائق تيران فأرسل برقية يطلب فيها إغلاق المضائق . . على أي الأحوال جمعنا عبد الناصر على هيئة لجنة تنفيذية عليا في أواخر مايو سنة ١٩٦٧ كان فيها عامر وزكريا محيي الدين وحسين الشافعي وأنا وعلى صبرى وصدق سليمان رئيس الوزارة في

ذلك الوقت . . وقال لنا : - « إن حشودنا في سيناء تجعل الحرب محتملة ٥٠٪ أما إذا أوقفنا المضايق فالحرب مؤكدة مائة في المائة » . . ثم التفت إلى عامر وقال له : - « هل القوات المسلحة جاهزة يا عبد الحكيم ؟ فوضع عامر يده على رقبته وقال : - « برقبتي يا ريس . . كل شيء على أتم استعداد » .

كنا نعلم أن تسليحنا كامل دون شك . . وقد كان سلاحنا بالفعل حينذاك أقوى عشرات المرات من سلاحنا في حرب أكتوبر ٧٣ ولذلك عندما سألنا عبد الناصر عن رأينا وافقنا بالإجماع على إغلاق المضايق ما عدا صدقي سليمان رئيس الوزراء في ذلك الوقت الذي طلب التروى وأن نأخذ في الاعتبار حالتنا الاقتصادية والخطط الطموحة التي لم تستكمل وأكثرها لم ينفذ وخاصة بعد قطع المعونة الأمريكية . لم يعر عبد الناصر اعتراض صدقي سليمان أى اهتمام فقد كان ميالا إلى إغلاق المضايق حتى يوقف مزايدات العرب عليه وحتى يحتفظ بمكانته الكبيرة في الأمة العربية - وبهذا أصدرت الأوامر بإغلاق مضايق تيران وسحب قوات الطوارئ الدولية .

وقد صنع عبد الناصر من كل هذا دراما عنيفة الوقع في حين كان السوفييت لا يكفون عن التنبيه بأن توقيت الأحداث أسرع مما يجب ولكن عبد الناصر كان مصراً على اندفاعه وأنزل الستار على هذه الدراما الصاخبة بالمؤتمر الصحفي الذي عقده على مستوى عالمي وكان قمة في التحدى والعنف . .

ارتبك الموقف الدولي نتيجة لهذا . . وساعد السوفييت على بلبله الرأى العالمى كما هي عاداتهم في مثل هذه المواقف خوفاً من أن نورطهم في شيء أو آخسر وبدأت إسرائيل في نفس الوقت تستخدم سياسة الاستكانة والصراخ والاستنجاد .

بعد إغلاق مضايق تيران أصبحت الحرب مؤكدة ولذلك كنا نتوجه للاجتماع في القيادة العامة يومياً . . كانت هذه الاجتماعات تضم جميع قادة القوات المسلحة

بينما كانت قواتنا كلها محتشدة في سيناء .. وأرسل السوفييت في طلب أحدنا فسافر إليهم شمس بدران بصفته وزيراً للحربية .. وفي الكرملين سأله كيف سيكون تصرف مصر لو تدخل الاسطول السادس الأمريكي فأجاب بلا تردد : « عندنا ما يدمره » مشيراً بذلك إلى الطائرة تي يو ١٦ حاملة الصواريخ وسرعتها وهي تحمل الصاروخ ٥٠٠ كيلو أى نصف سرعة البوينج التجارية .. وكانت نكتة تندرنا بها في الكرملين كما تندرنا بها نحن هنا كثيراً .. المهم عاد وزير الحربية من روسيا بعد أن عقد مع السوفييت صفقة أسلحة غير مقيدة بزمان محدد كما هي عادتهم ، فهدف السوفييت دائماً وفي كل الظروف أن أن يزيّدوا الموقف ارتباكاً ولكن الأهم من هذا أن يكون التوقيت في أيديهم هم حتى تكون لهم السيطرة وهذا ما جعلنى أتخذ ما أخذت من قرارات بالنسبة للخبراء السوفييت أو غير هذا فأنا أدرى بمصلحة بلادى منهم .. ثم إننى أرفض أن يكون لنا ولى أمر يتولى عنا شئوننا .

في يوم الجمعة ٢ يونيو صدق جمال عبد الناصر على الخطة بصفته رئيساً للجمهورية والقائد الأعلى للقوات المسلحة .. هذا إلى جانب أنه كان عسكرياً ممتازاً وخدم وحارب في سيناء ويعرفها شبراً شبراً .. وأذكر في ذلك اليوم أن عبد الناصر قال لقائد الطيران صدقي محمود إن أول ضربة ستقع على الطيران .. فالتفت هذا إليه وقال في عصبية واضحة : يا فندم احنا عاملين حسابنا ولن تزيد الخسارة على عشرة في المائة .. »

في نفس اليوم قال عبد الناصر إن الهجوم سيقع يوم السبت أو يوم الأحد أو على أكثر تقدير يوم الإثنين ٥ يونيو فقد تغيرت الحكومة الإسرائيلية وشكلت وزارة ائتلافية دخلها موسى ديان وزيراً للدفاع واشترك مع أشكول وجونسون في عملية تسمية متعمدة حتى يوهموا العرب أنه ليس في نيتهم دخول الحرب ولكن المسألة كانت أوضح من أية تسمية .

عندما وقعت الكارثة يوم ٥ يونيو علمت أن الخطة التي صدق عليها عبد الناصر غيرها بعد ذلك عبد الحكيم عامر بالكامل .. وكان هذا واضحاً

كل الوضوح فقد احتلت إسرائيل العريش مساء ٥ يونيو مع أنها لم تستطع ذلك في سنة ١٩٥٦ بينما كانت قواتنا في ذلك الوقت أضعف عشرات المرات مما كانت عليه في سنة ٦٧ .

وفي يوم الإثنين ٥ يونيو وبناء على تغييره للخطّة أخذ عامر جميع القادة معه في طائرة وراح يفتش على سيناء - ومن الطبيعي أنه عندما يكون القائد العام في الجو تصدر الأوامر للصواريخ بالتوقف عن العمل وفي هذه الأثناء ضربت إسرائيل جميع مطاراتنا وطائراتنا وهي على الأرض . . وهكذا يمكن أن نقول إن الحرب بدأت وانتهت وعامر في الجو .

كيف علمت أنا بالكارثة وكيف استقبلتها ؟ في صباح الإثنين ٥ يونيو عرفت من الراديو أن إسرائيل قد بدأت الهجوم فقلت في نفسي . . حسناً . . سوف يتعلمون درساً لن ينسوه مدى الحياة - كنت مطمئناً كل الاطمئنان . . فحلقت ذقني وارتديت ملابس على مهل وتوجهت بسيارتي إلى القيادة - كنت قد حضرت إعداد الخطّة بالكامل وكانت ثقتي بالنصر أكيدة . . فعدتنا أكثر من كافية والخطّة محكمة للغاية . . وصلت القيادة حوالى الساعة الحادية عشرة صباحاً وشاهدت سيارة السفير الروسى تتقدم سيارتي فقلت لابد أن السفير قد أتى ليقدّم تهانيه . . سألت ما الأخبار . . فقال بعض الضباط إننا أسقطنا ٤٠ طائرة إلى تلك اللحظة . . قلت : عظيم ! . . دخلت مكتب عبد الحكيم عامر فوجدته واقفاً يتطلع حواليه بعينين زائغتين . . قلت له : صباح الخير فلم يرد - أعدت التحية فردها بعد دقيقة - على التو أدركت أن فى الأمر شيئاً . . سألت بعض الموجودين فقالوا إن سلاح الطيران قد ضرب بأكملة وهو على الأرض . . وبعد قليل رأيت جمال عبد الناصر يخرج من الصالون - ثم بدأ عامر يلقي باللوم كله على الأمريكان قائلاً إن سلاح الطيران الأمريكى هو الذى ضربنا وليست إسرائيل . . ورد عبد الناصر :

« أنا لست مستعداً لتصديق هذا الكلام ولا لإصدار بيان رسمى بأن أمريكا هي التى اعتدت علينا إلا إذا أتيت إلى بجناح طائرة واحدة عليها العلامة الأمريكية . »

كان إصرار عبد الناصر على موقفه هذا قوياً لا يقبل الشك أو التردد - ولكنه بعد ذلك عندما أدرك مدى الكارثة تراجع وأصدر بياناً يتهم فيه أمريكا بالعدوان علينا وكان هدفه من هذا تغطية الموقف سياسياً أمام الشعب . .

من الأمور العجيبة أيضاً التي حدثت يوم ٥ يونيو المشؤم أنه بمجرد هبوط طائرة عامر وإدراكه ما حدث أرسل في طلب السفير السوفيتي لكي يطلب منه وقف إطلاق النار بعد بدء الحرب بساعة واحدة . . وكان هذا سر وجود السفير السوفيتي في غرفة العمليات صباح ذلك اليوم . . ماذا كان يبدى أن أفعل؟ عدت إلى بيتي وبقيت به إلى يوم ٩ يونيو وهو اليوم الذي حددته عبد الناصر لإعلان بيان منه في الراديو والتلفزيون الساعة السابعة مساء - كنت وأنا في البيت دائم الاتصال بعامر وعبد الناصر - فاتصلت بعامر في الساعة الخامسة مساء فقال لي في خشونة وضيق إن إسرائيل قد وصلت إلى العريش واستولت عليها . . لم أكن أعرف ماذا أفعل بنفسى . . كنت معتاداً على أن أخرج للمشي أربعة كيلومترات يومياً . . ولكن بعد ٥ يونيو كنت أسير وحسب . . لم أكن أدري كم من الزمن أسير - عشرة كيلو مترات أو أكثر أو أقل لا أعرف . . فقد استولى على ذهول غريب لم أعد أستطيع معه أن أتبين الزمن أو المسافات أو حتى المكان نفسه في بعض الأحيان .

ومما كان يزيد في ذهولي وتمزق نفسى ما كنت أشاهده يومياً من جماهير الشعب وقد امتلأت بها اللوريات قادمة من مديرية التحرير أو وهى تسد شارع الهرم الواسع العريض . . كانت تسير متراصة والجميع يهتفون ويهللون ويرقصون فرحاً بالنصر المزعوم الذى تذيعه عليهم أجهزة الإعلام ساعة بعد ساعة . .

كانت فرحتهم بالنصر تثير في نفسى إحساساً قوياً بالإشفاق عليهم والأسى لهم والحق على من كانوا السبب في خداعهم وخديعة مصر بأكملها . . لقد تمنيت على الله وأنا أراقب مواكب النصر هذه ، الصادقة الزائفة معاً ، أن يصيبني بأزمة قلبية كالتى أصابتنى سنة ٦٠ حتى لا أعيش لأرى حال هذا الشعب

الطيب الكريم عندما يفيق على الحقيقة ويعرف أن هذا النصر الذى زينوه لهم ليس إلا كارثة رهيبة نزلت بهم .

فى يوم ٧ يونيو اتصلت تليفونيا بعبد الناصر فوجدته فى بيته يتابع سير المعركة عن طريق القيادة . . الحقيقة أنى ذهلت . . لماذا لم يتول عبد الناصر القيادة بنفسه يوم ٥ يونيو ؟ صحيح أننا كنا قد فقدنا الطيران ولكن كان فى إمكاننا أن نقف فى خط المضائق . . ثم لماذا وقف مكتوف الأيدى أمام القرار الذى الذى أصدره عامر للقوات بالانسحاب غرب القناة ؟ فليس هكذا يكون الانسحاب - أى عسكري يعرف أن الذى يبلغ بقرار الانسحاب هو مدير العمليات الذى عليه بدوره أن يضع الخطة اللازمة والجدول الزمنى المناسب لتنفيذ الانسحاب ويعطيه للوحدات لتنسق كل وحدة انسحابها حسب الجدول والخطة . . ولكن هذا لم يحدث ولذلك كان أمر الانسحاب الذى أصدره عامر هو فى الحقيقة أمراً بالانتحار . .

هذه الصورة كانت واضحة عسكرياً أمام عبد الناصر فلماذا لم يتصرف ولماذا لم يتدخل وأقول مرة أخرى لماذا لم يعزل عامر يوم ٥ يونيو ويتولى هو القيادة أو يعهد بها إلى قائد آخر ؟ لا إجابة . . فقط علامة الاستفهام التى تظهر فى الأفق كبيرة واضحة كلما كان الأمر عند عبد الناصر يختص بعبد الحكيم عامر !

لم أكنم تساؤلانى هذه عن عبد الناصر فقلت له على التليفون : -

« يا جمال ما تحاول تنقذ ما يمكن انقاذه . . المسألة فى وشك على أى حال فلماذا لا تطلب من عامر أن يبقى فى بيته وتقعّد أنت فى القيادة وتشتغل ؟ »

قال : « والله يا أنور أنا عرفت أنه أعطى أمر بالانسحاب وقلت له إزاي تعمل كده يا عبد الحكيم - ليه ما تقفش فى خط المضائق قال لى الخط مش جاهز » .

وكان اليهود قبل هجومهم قد أنشأوا ثلاث خطوط دفاعية للرجوع إليها إذا تطورت المعارك ضدهم وكانت الصور الفوتوغرافية تعرض علينا ونحن نزور القيادة قبل ٥ يونيو . .

أما نحن فلم يكن حتى خط المضائق - خطوط سيناء - وهو المفروض أن يكون مستعداً في حالة السلم وفي حالة الحرب - لم يكن في الحسبان أن يعمل . .

عاودت الاتصال بعبد الناصر يوم ٨ يونيو فقال لي : « إن الوضع قد انتهى فقوات إسرائيل في طريقها إلى القنطرة شرق بعد أن احتلت العريش والطريق ممهد ولا مقاومة على الإطلاق . . المسألة كلها مسألة ساعات قليلة وتحتل القنطرة هي الأخرى وقواتنا في شرم الشيخ صدر لها الأمر بالانسحاب حتى لا تدمر - وبذلك بدأت إسرائيل تزحف على سيناء من الجنوب أيضاً » . .

وفي نفس اليوم علمت من عبد الناصر أيضاً أن الفرقة الرابعة المدرعة وهي أفضل الفرق عندنا قد عبرت من الغرب للشرق حسب أوامر عامر فدمرت . . وبذلك انتهت قواتنا المسلحة وحلت الفوضى . . ترك الجنود الدبابات والعربات وفروا إلى غرب القناة بل وصل بعضهم أسوان تطاردتهم طائرات العدو فتزيدهم رعباً على رعب . .

وفي يوم الجمعة ٩ يونيو بينما أنا جالس إلى جانب الراديو في حالة الشرود التي كنت فيها سمعت بياناً من القيادة العامة يقول إن اليهود قد عبروا الضفة الشرقية إلى الضفة الغربية ويشهد العالم على ذلك - كان بياناً كله استخذاء واستسلام ومهانة مما جعل الدم يغلي في عروقي فقممت للتو وارتديت زى المقاومة الشعبية وأخذت بندقيتي ذات التلسكوب وركبت عربة فيات صغيرة كنت قد استعرتها من المخبرات ومضيت لأحارب معركتي - فقد كان من الأشرف لي أن أموت وأنا أقاتل العدو من أن أقبع في داري بلا عمل . . توجهت إلى مجلس الأمة وكنت في ذلك الوقت رئيس المجلس فأصدرت تعليماتى إلى أمين عام المجلس بأن

يخطر جميع النواب وخاصة الذين لهم ثقافة عسكرية بأن يجمع كل واحد منهم من مائة إلى مائتي رجل . . كل في دائرته وأن يقوم بتجهيزهم لمقاومة الإسرائيليين في المكان الذي أحدهم لهم . . ذهبت بعد ذلك للقاء عبد الناصر فوجدته جالسا في حجرة مكتبه في بيته بمنشية البكري فقلت له : —

— « أنت قاعد هنا مستنى ايه ؟ لازم يا جمال تقوم علشان نوديك الصعيد لأن احنا حنكمل المقاومة من هناك . . وحتى لو سقطت القاهرة ضرورى نقاوم لغاية آخر نفس فينا » .

رويت له ما فعلته في مجلس الأمة وكيف أعددت النواب للمقاومة الشعبية ثم سألته : —

— أنت سمعت البيان الأخير بتاع القيادة ؟

كل ذلك وعبد الناصر ينظر إلى دون أن يرد . . وأخيراً أشار إلى كرسي بجانبه وقال لى :

« أقعد يا أنور . . أقعد »

قلت له : — أقعد إزاي يا جمال ؟ دانت قعادك هنا غلط — أنت ضرورى تكون فى الصعيد دلوقت عشان أنت حتكون رمز للمقاومة وزى ما قلت لك ضرورى نحاربهم لغاية ما نفنى كلنا أو نفنيهم كلهم وما تنساش أن الكثافة السكانية سلاح فى أيدينا وسلاح قوى جداً . .

قال لى : « والله أنت مسكين يا أنور . . زيك زى الشعب تمام . . أنت صدقت البيان ؟ أنا عارف البيانات بتصدر إزاي . . دى كلها كلام فارغ . . اليهود ماعدوش إلى غرب القناة ، أنا سمعت البيان زيك وقلت لزكريا يا زكريا روح القيادة وشوف لى إيه الحكاية لأنى أنا عارف القيادة انفلت عيارها وانهارت وانتهت خلاص — زكريا راح القيادة ورجع قال لى ضباط من ضباطنا

هم الى عبروا القناة من الضفة الشرقية إلى الغربية لما شافوا اليهود قدامهم على الضفة الشرقية . . ما تمالكوش أعصابهم وراحوا ضارين فيهم بالمورتر فردوا اليهود بغارة جوية على مصنع بويات في الإسماعيلية - أقعد يا أنور أقعد - أنت مش محتاج تحارب - العملية خلصت خلاص - الدور مرسوم بين إسرائيل وأمريكا وأهو اتنفذ تمام . . يقعدوا على الضفة الشرقية لكن ما يدخلوش الغربية لاعتبارات كثيرة أهمها خطورة الكثافة السكانية - وعلى العموم هم عاوزين إذلال لنا أكثر من كده أيه ؟ أقعد - أقعد معايا لما أخلص البيان الى هأذيعه الليلة دى .

جلست وقرأت البيان قبل أن يقرأه أى إنسان آخر - وفي هذه الأثناء اتصل عامر بعبد الناصر وقال له على التليفون : -

- حطنى فى الخطاب معاك .

رد جمال قائلا : - « سيني يا عبد الحكيم أعمل آخر عملية لوحدى . . أنا بأخلص مسئوليتى وبعد ذلك إذا كنت عاوز تقدم استقالتك ابقى قدمها . . »

لم أفهم الدافع وراء طلب عامر الغريب هذا . . ولكن بعد فترة أدركت أنه كان يخشى أن يرى ناصر نفسه فى البيان فيصبح عامر المسئول الوحيد . . لكن لم يكن ما توقعه عامر صحيحاً فالبيان واضح وفيه يقول عبد الناصر إن هناك قوة واحدة تريد أن تحكم مصر والعالم وهى أمريكا وأنه لا يستطيع أن يجيبها إلى ما تطلب ولذلك فليس أمامه سوى أن يتنحى ويعهد برئاسة الدولة إلى زميله زكريا محيى الدين . .

بمجرد أن انتهى عبد الناصر من إلقاء خطابه القصير كانت شوارع القاهرة قد امتلأت بجماهير الشعب بحيث لم يعد هناك موضع لقدم - نساء ورجال وأطفال من جميع الطبقات ومختلف نواحي الحياة . . وحدث بينهم المحنة

فأصبحوا كتلة واحدة تتحرك بإيقاع واحد وتتكلم بلسان واحد . . الكل يطالبون ببقاء عبد الناصر - فالكارثة عظيمة . . إذ فجأة عاد الزمن إلى الوراء في غمضة عين . . فبدلاً من الاستعمار الإنجليزي سوف يكون هناك استعمار أمريكي . . هكذا أوحى خطاب عبد الناصر إلى الشعب فحرك لواعجه وألهب شعوره وأعاد إليه إرادة الرفض التي هي من أمضى أسلحته عبر آلاف السنين . . فخرج يتحدى الهزيمة ويعلن رفضه للانصياع لأية إرادة أجنبية مهما بلغت قوتها - لقد ضربت قواته المسلحة ولكن إرادة الشعب لم ولن تضرب ..

سبع عشرة ساعة كاملة وجموع الشعب ترفض أن تترك أماكنها في شوارع القاهرة . . وقد نسيت كل شيء .. الطعام والشراب والمبيت والمأوى . . نسيت كل شيء إلا شيئاً واحداً فقط وهو التمسك بوحدتها وتحدي إرادة الدولة العظمى التي تريد أن تتحكم فيها . .

اتصلت بعبد الناصر أكثر من مرة وفي كل مرة كنت أجده أسوأ حالاً عن ذي قبل . . كنت أشعر أن صوته صوت رجل يتكلم من غياهب الماضي . .

لابد أنه في الفراش وأنه يعاني كثيراً ، فأهم ما لدى عبد الناصر هي كبرياؤه ولقد طعن فيها كما لم يحدث له من قبل . . فبعد أن كان العالم يلهث وراءه عندما عقد مؤتمره الصحفي المشهور أصبح الناس الآن في كل مكان في العالم يتهمون عليه ويسخرون منه ، ولذلك كان ٥ يونيو طعنة أصابته في الصميم فانهى . . ومن يعرف عبد الناصر لابد أن يدرك أنه لم يمض يوم ٢٨ سبتمبر سنة ٧٠ بل مات يوم ٥ يونيو سنة ٦٧ ، بعد المعركة بساعة واحدة . .

هكذا كان يبدو بل وظل يبدو لفترة طويلة . . الميت الحي . . صفرة الموت تغطي وجهه ويديه رغم أنه كان يسير ويتحرك وينصت ويتكلم . .

الفصل السابع

فترة انتقالية الكفاح من أجل البقاء

لم تكن الفترة ما بين يونيو ٦٧ وسبتمبر ٧٠ غنية بالأحداث ولكنها كانت فترة معاناة رهيبة لا أعتقد أن مصر شهدت مثلهما - فقد كانت المعاناة وليدة الإحباط على المستوى القومى والسياسى والعسكرى مما جعل الكفاح من أجل البقاء السمة المميزة لهذه الفترة . . فليس مثل الإحساس بالإحباط شىء يحفز الإنسان إلى أن يكافح من أجل البقاء .

صحيح أن هذا الكفاح أخذ أشكالا متعددة ولكنها كانت تهدف جميعاً إلى شىء واحد وهو تخطى العقبات التى تعترضها حتى تسترد كيائها وتستعيد وجودها فتبقى . .

وكثيراً ما نجد هذه المحاولات تتشابك وتتصارع بحيث يصعب تمييز خطوطها بعضها عن البعض . . فمثلاً نجد أن كفاح عبد الناصر من أجل البقاء بطلاً عظيماً - كما كان قبل هزيمة يونيو يتصارع مع إصرار عبد الحكيم عامر على البقاء قائداً عاماً للقوات المسلحة - يتشابك مع الرغبة فى إعادة بناء القوات المسلحة ويتشابك بشكل أو بآخر مع تعمد السوفييت أن يظلوا هم سادة الموقف يمنحون ويمنعون كما يشاؤون . .

فخروج الشعب فى ٩ و ١٠ يونيو وإصراره على عودة عبد الناصر إلى الحكم لم يكن فى الواقع إلا صورة من صور الكفاح من أجل البقاء . . بقاء مصر الأرض والشعب والإرادة . . رغم كل شىء . . فإلى أى مدى حققت مصر عزيمتها على البقاء وإلى أى مدى تصارعت هذه العزيمة مع عزائم أخرى كانت هى أيضاً تكافح من أجل البقاء ؟

يوم ١٠ يونيو وأنا بمكتبي بمجلس الأمة سمعت صوت قنابل تفجر قريبة منا - كانت الساعة الثانية عشرة ظهراً ، فلما سألت قالوا لي إن البوليس يفجر قنابل دخان على السفارة الأمريكية ليفرق جموع الشعب التي التفت حولها لتحرقها . . فاتصلت فوراً بعبد الناصر وجعلته يستمع إلى الانفجارات وحكى له القصة . . ثم قلت : -

- الجموع دى بقى لها دلوقتى - أكثر من ١٧ ساعة فى الشوارع . . هل تحب يا جمال أن تحرق القاهرة تانى زى يوم ٢٦ يناير سنة ١٩٥٢ ؟ إحنا على وشك كده دلوقت - لازم ترجع يا جمال لأن إرادة الشعب هى الصمود ومفیش هروب من هذه المسئولية النهارده . . .

اقتنع جمال فرد علىّ بالموافقة . . ولكن صوته كان بعيداً كأنه يأتى من أعماق القبر . . ولم يمض وقت طويل بعد ذلك حتى اتصل بي مستشاره الصحفى ليبلغنى بيان عبد الناصر الذى يقرر فيه العودة فكتبته وأمرتهم فى المجلس بدق الأجراس للإجتماع . .

كنا قبل ذلك قد قررنا عدم قبول استقالة عبد الناصر فلما اكتمل الاجتماع أعلنت للأعضاء أن عبد الناصر قد قرر العودة بناء على رغبة الشعب وأنه كان بوده لو يستطيع أن يقرأ عليهم القرار بنفسه . . وكان لهذا أثر رائع على النواب فتملكهم فرحة مفاجئة صفقوا معها وهللوا وصرخوا وبكوا . .

بعد ذلك بفترة وجيزة اتصلت بزملائي في القيادة جميعاً وطلبت منهم أن يجهزوا استقالتهم ومن ضمنها استقالتى حتى نعطي الفرصة لعبد الناصر لاختيار معاونيه في هذه المرحلة الحرجة وكفانا الصراعات وما أدت إليها من هزيمة وإحباط . . فوافقوا جميعاً . .

اتصلت بعبد الناصر وأخبرته بما حدث وأن الاستقالات كلها جاهزة ما عدا استقالة عامر (التي وعد بإرسالها إلى عبد الناصر مباشرة) فطلب إلى عبد الناصر تأجيل إعلان الاستقالات لأنها لو أعلنت فسوف يحس هو بأن الدنيا كلها انهارت وسوف يكون هذا إحساس الشعب نفسه أيضاً . . لم أقتنع بكلامه فناقشته فيه ولكنه عاود الرجاء بتأجيل إعلان الاستقالات حتى يهتدى إلى نقطة البداية . .

فكما قال لى لم يكن يعرف - بعد كل ما حدث - من أين يبدأ . .

في يوم ١١ يونيو اتصل بى عبد الناصر وقال إنه قد اهتدى أخيراً إلى نقطة البداية وهي إعادة بناء القوات المسلحة ، ولكنه فوجيء بعدد كبير من الضباط في بيته يطلبون منه عودة المشير عامر .

حاول عبد الناصر الاتصال بعامر ولكنه كان قد اختفى فأمر بصرف الضباط . . جاءت إليه بعد ذلك أخبار بأن البوليس الحربي يتحرك من قشلاق الحليمية في طريقه إلى بيت عبد الناصر ليطالب بعودة عامر - في ذلك الوقت لم يكن لدى عبد الناصر أى حرس ، فالحرس الجمهورى كان قد اشترك في المعركة وعاد إلى الإسماعيلية ولكنه لم يصل إلى القاهرة بعد . .

كان عبد الناصر كما هو معروف كثير الشك بطبعه وخاصة إذا كان الموضوع يتصل بأمنه الشخصى . . وربما كانت هذه النظرة إلى الأمن الشخصى وراء

كل الإجراءات الاستثنائية التي حدثت وتطورت من مرحلة إلى مرحلة حتى ناء كاهل الناس بثقلها . . فلما سمع بأن البوليس الحربى قادم إلى بيته - وهذه روايته لى - أخذ طبنجة ووضعها جوار فراشه وجلس ينتظر . . وفى هذه الأثناء حاول الاتصال بعامر مرة أخرى ولكن دون جدوى فاتصل بمحمد فوزى رئيس أركان حرب القوات المسلحة فى القيادة الذى أخبره بأن هناك ٦٠٠ ضابط وأربعة فرقاء متجمعين فى القيادة ويطالبون بعودة عامر - على الفور أصدر عبد الناصر أمره إلى فوزى بأنه قد عينه قائداً عاماً للقوات المسلحة وعليه أن يبلغ الفرقاء الأربعة بأن عبد الناصر قد استغنى عن خدماتهم ثم يتصرف مع الستمائة ضابط فيصرفهم أو يلقى القبض عليهم . . نفذ فوزى الأوامر وأبلغ عبد الناصر بذلك فطلب منه الحضور لمقابلته ومعه عبد المنعم رياض مساء نفس اليوم . . حيث وضعوا الجدول الزمنى الذى بمقتضاه يعاد بناء القوات المسلحة . . وكان ذلك أول عمل يباشره عبد الناصر بعد عودته . . ويعبر به عن الكفاح من أجل البقاء .

دهم إحساسى بالهزيمة نفسى بحيث استغرق شعورى فكنت أعيش الهزيمة فى يقظتى ومنامى . . . وكنت فى كل يوم يمر أتكشف أبعادها فيتمزق صدرى ولكنى لا أعرف ماذا أفعل .

حبست نفسى فى بيتى بالهرم ثلاثة أسابيع كاملة عشتها فى عزلة تامة عن الناس أتأمل ما حدث وأتحمل على مضض حملة التشكيك فى قواتنا المسلحة وهى الحملة التى كانت تشن علينا بضراوة من العدو والصديق على حد سواء . . .

كانوا يقولون إن الجندى المصرى لا يصلح للقتال وأنه لن تكون هناك معركة أخرى نسترد بها أرضنا وكرامتنا وهذا معناه الموت والدمار لشعبنا إلى آلاف السنين بحيث ننتهى كما انتهى الهنود الحمر فى أمريكا . . . أى هوان هذا ؟ وأية مذلة ؟ لقد نشأت على حب مصر والإيمان المطلق بالإنسان المصرى فهل يذهب كل هذا فى لحظات ؟ وإذا ذهب فسوف أذهب أنا الآخر . . . لن أعرف بعد ذلك من أنا ولن أتعرف أبداً على ذاتى بل سأعيش فاقد الكيان أهم على وجهى غريباً بين غرباء . . . فقيم الحياة إذن ؟ !

كان لابد من الخروج من السجن الذى وجدت نفسى فيه فجأة . . . وهنا تغلب حبي لبقاء مصر على كل شيء آخر فقررت أن أرى بنفسى بعض من اشتركوا فى الحرب وأسألهم هل استطعنا أن نحارب أم لم نستطع ؟

اتصلت فوراً بمستشفى المعادى العسكرى . . . رد على القائد فسألته إذا كان عنده أحد ممن حاربوا فى سيناء فأجاب إن عنده لواء اسمه كمال حسن على . . . كان قائداً للواء دبابات حارب فى سيناء ومعه بعض ضباطه وهم فى المستشفى على وشك إجراء عمليات جراحية له ولهم . . . قلت للقائد : انتظر سأكون معكم

حالا وأخذت سيارتي وتوجهت إلى مستشفى المعادي . . سألت كمال حسن على . . قل لي يا كمال بصراحة : أنت حاربت في سيناء ؟ قال لي : أيوه يا افندم وعملت هجوم مضاد يوم ٧ يونيو قلت له : « طيب طمني . . سلاحنا كان ناقص ؟ » قال لي : « أبداً ! الطلقة بتاعتنا مش بس كانت بتصيب الدبابة . . دي كانت من عنفها بتقلبها » . . قلت له : « طب احكي لي على الهجوم » فقال - مشيراً إلى ضابطين صغيرين كانا في انتظاري معه قبل إجراء العملية لهم - : « دعهم يقصون عليك ما رأوا وما حققوا . . فهم الذين فعلوا كل شيء أما أنا فكان عملي يقتصر على إصدار الأوامر . . »

كنت قد سمعت عن الهجوم المضاد الذي قام به لواء مصري يوم ٧ يونيو . . صحف العالم كلها أشادت به ، وحتى موسى ديان كتب عنه ولكن الجميع كانوا يعتبرونه مجهوداً فردياً - أمراً شاذاً لا يصح أن يقاس عليه استعداد قواتنا المسلحة أو قدرتها على القتال . .

ولكنني بعد أن أدت حواراً طويلاً مع ضباط اللواء وقائدهم أدركت الحقيقة وهي أن كل ما قام به اللواء من بطولات كان يجب أن يكون القاعدة وكل ما عداه الاستثناء لولا تخطيط القيادة وضعفها . . فقد اتضح أنه بناء على أوامر القيادة المرتبكة قطع اللواء في الثلاث أيام الأولى ١٠٠٠ كيلو في عملية ذهاب وإياب فقط من شأنها أن تضعف قدرة الدبابة على السير . ولكن هذا لم يمنعهم من إسقاط ٧ طائرات للعدو . . ورغم السيادة الجوية المطلقة لإسرائيل لم يفقد هذا اللواء إلا ٢٠ دبابة على مدى ثلاثة أيام - أي خمس قوته فقط . .

« إذن في حرب ٦٧ لم يكن ينقصنا التدريب أو التكتيك أو السلاح أو القدرة على القتال . . الحمد لله . . فالمسألة كلها كانت مسألة إهمال من القيادة » . . هكذا وجهت كلامي إلى الضباط وقائدهم وتركهم لأطباء المستشفى وانصرفت لأقضي يوماً من أسعد أيام حياتي وهي قليلة جداً بعد حرب ٥ يونيو سنة ٦٧ وقبل ٦ أكتوبر سنة ٧٣ . . وكان مصدر سعادتي أنني عرفت الحقيقة .

بعد ذلك وفي يوم ٢١ نوفمبر سنة ١٩٦٧ على وجه التحديد عرفت أن جنودنا قد استوعبوا الأسلحة التي أرسلها لنا السوفييت بعد الهزيمة في ٥ شهور وكان مقدراً لها أن تستوعب في ثلاث سنوات تكون فيها الأحوال قد هدأت ، فلم يكن

في نية السوفييت أن تكون هناك معركة ثانية وإنما كانوا يجاملون عبد الناصر لوقفته ضد أمريكا والإمبريالية وبحرصون على بقاء الوجود السوفيتي في المنطقة - هذا كل ما في الأمر . . . ولكن خاب ظنهم كما خاب ظن الكثيرين غيرهم فبعد أن عين عبد الناصر محمد فوزي قائداً عاماً للقوات المسلحة وعبد المنعم رياض رئيس أركان حرب وأحمد إسماعيل قائداً للجبهة فتحت مراكز التدريب على الفور وعملت على أحسن صورة - وهذا مجد يكتب لأولادنا في التاريخ فليس من السهل أن تجد جيشاً يهزم هذه الهزيمة ثم ينهض ليستوعب كمية ضخمة من الأسلحة فيما لا يزيد عن خمسة شهور ويقف بها على خط دفاعي كامل طوله ١٨٠ كيلو متر من بورسعيد شمالاً إلى السويس جنوباً على استعداد لرد أي عدوان .

كم فرحت بما رأيت فقد أكد إيماني بأن قواتنا المسلحة ذهبت ضحية لهزيمة يونيو سنة ٦٧ ولم تكن أبداً أحد أسبابها . . . وما يدل على ذلك عملياً أن قواتنا العسكرية لم يستمر أكثر من شهر وبضعة أيام . . . ففي أغسطس سنة ٦٧ وقعت معركة رأس العش التي تصدت فيها قوات الكوماندوز المصرية لقوات إسرائيلية من القوات الخاصة وأبادتها ومنعتها من التقدم نحو بور فؤاد وهي شاطئ بورسعيد الشرقي ، وشهد هذه المعركة جمع من محطات تلفزيون أمريكية استقدمهم اليهود معهم لتصوير دخولهم بور فؤاد ثم لم يلبثوا بعد الضرب العنيف من قواتنا والخسائر الشديدة التي لحقت بهم أن احتسموا برجال التلفزيون الأمريكي لوقف الضرب .

طبعاً لم نكن بعد قد استعدنا قواتنا بالكامل ولكن كانت الجذوة ما زالت متقدة . . . ففي ٢١ أكتوبر من نفس السنة (١٩٦٧) قامت زوارقنا الخفيفة بضرب المدمرة الإسرائيلية إيلات فشطرتها نصفين وأغرقتها في مياه بورسعيد حيث ما زالت ترقد في الأعماق . . .

ولكن حتى قبل معركة رأس العش وقبل إغراق إيلات كنت قد تيقنت أنني ما زلت بين أهلي في مصر الأرض الطيبة التي لا وجود لي بدونها . . . وأن واجبي في الحياة هو الكفاح من أجل بقائها . . . ليس فقط لأنها بلدي . . . بل لأنها فعلاً تستحق البقاء . . .

من صور الكفاح من أجل البقاء في تلك الفترة صورتان كل منهما تختلف
عن الأخرى ولكنها تحمل طابعاً مميزاً له مغزاه . .

الصورة الأولى وهي خاصة بالسوفييت تروى قصة مساعداتهم الحربية لنا بعد
الهزيمة فقد أرسلوا لنا من الأسلحة ما استوعبه الجندى المصرى فى خمسة شهور
كما سبق أن رويت . . ولكن لم يكن فى هذا الكفاية فقد كنا مقدرين ثلاث سنوات
على الأقل لكى نوّمن بلدنا ونرد العدوان . . فأرسل عبد الناصر إلى السوفييت
يطلب المزيد من العون . . أرسل مرة ومرات ولكن لا استجابة بأى شكل من
الأشكال . . فقد كانت خطتهم أن يسدوا رمقنا بالقدر الذى يكفل لهم الوصاية
علينا ويحقق لهم البقاء فى المنطقة وهذا هو الأهم .

كنا فى أغسطس وكان تيتو قد أتى لزيارتنا زيارة ودية ليواسينا ويشد أزرنا
وقد كان صديقاً شخصياً لعبد الناصر ولذلك ذهلت عندما رأيت عبد الناصر
يفقد أعصابه مع تيتو ويقول له بعد أن كفر بالسوفييت : روح للسوفييت
أرجوك وقل لهم أنا مستعد أقبل الهزيمة وأقبل أى شىء ولكنى لا أقبل هذه
المعاملة منهم أبدا . .

لا أعرف ماذا فعل تيتو بعد ذلك ولكن الذى أعرفه أن القادة السوفييت
لم يغيروا موقفهم فكل ما كان يهمهم هو الحفاظ على البقاء فى المنطقة وقد
تحقق لهم ما أرادوا . .

الصورة الأخرى وهي أكثر إشراقاً هي صورة مؤتمر القمة العربى الذى

عقد بالخرطوم في نفس السنة . . لم يكن عندى أمل كبير في المؤتمر ولكنني فوجئت كما فوجيء العالم بنتائجه . . فقد خرج الشعب السوداني لتحية عبد الناصر بصورة لا تقل عما حدث في مصر يومى ٩ و ١٠ يونيو . .

طبعاً خرج الشعب لتحية باقى الملوك والرؤساء العرب ولكن استقبال الشعب لعبد الناصر كان يفوق كل وصف حتى أن مجلة التايم أو النيوزويك لا أذكر وضعت صورة عبد الناصر على الغلاف وكتبت تحت الصورة (تحية المهزوم) غير مدركين سر ارتباط الشعوب العربية بعبد الناصر فقد كان فى نظرهم رمزاً للحفاظ على الأمة العربية ضد أى تدخل أو عدوان خارجى . .

كانت علاقتنا مع أكثر الدول العربية حينذاك علاقة خصومة وخاصة مع الملك فيصل عاهل السعودية الذى هاجمه عبد الناصر وندد به فى أكثر من خطاب له ولذلك كان الموقف حرجاً بالنسبة لعبد الناصر . . فها هو فى النهاية يلجأ إلى إخوانه العرب وهو فى حالة هزيمة وانكسار . .

لم تفت فيصل هذه الحقيقة فعندما بدأوا الحديث عن الدعم المالى لمصر مقابل إغلاق قناة السويس . . أخذ فيصل المبادرة فقرر أن تدفع السعودية ٥٠ مليون جنيها سنويا كما تقرر أن تدفع الكويت ٥٥ مليون سنويا وليبيا ٣٠ مليون سنويا . .

أما قرارات المؤتمر فيما عدا ذلك فكانت لا صلح ولا اعتراف بإسرائيل ولا مفاوضات معها بإرادة الأمة العربية كلها هى الصمود . .

وكانت هذه هى المرة الأولى فى التاريخ الحديث التى تجتمع فيه الأمة العربية على الكفاح من أجل البقاء . .

كان تعيين محمد فوزى قائداً عاماً للقوات المسلحة القرار الوحيد الذى استطاع عبد الناصر أن يتخذه بعد سنوات عديدة من الصراع مع عامر . . . طبعاً لم يستقبل عامر هذا القرار بأى ترحيب ، ففى أول لقاء له مع عبد الناصر بعد ذلك رفض منصب نائب رئيس الجمهورية الذى عرضه عليه عبد الناصر وتمسك بأن يشغل منصب القائد العام للقوات المسلحة الأمر الذى لم يقبله عبد الناصر على الإطلاق . . .

تدخل بعض وسطاء الخير فى الموضوع وأقنعوا عامر بأن يذهب إلى (أسطال) بلدته فى الصعيد ويقيم بها إلى أن تستريح أعصابه وفعلاً أخذ عامر بالوصية وذهب إلى بلدته ولكنه عاد بعد أسبوع إلى منزله بالجيزة وبدأ الاتصال بالضباط وتكوين ما يمكن أن نسميه جبهة معارضة لعبد الناصر ، وليته اكتفى بهذا ولكنه جمع الكثير من الأسلحة فى بيته وراح يعقد الندوات مع الضباط يتحدث فيها عن الهزيمة وكيف أنه ليس مسئولاً عنها كما أنه ليس مسئولاً عن الأوضاع الداخلية والإجراءات الإستثنائية التى أدت إلى إذلال الناس وضيقهم بالنظام كله . . .

لم يكن من السهل تصديق ذلك فالجميع يعرفون أنه كان وراء لجنة تصفية الإقطاع والبوليس الحربى وهى أجهزة أهدرت كرامة الإنسان واستفحل شرها إلى أن جاءت الهزيمة فخلصت الناس منها ولو إلى حين ، ولكن هذا لم يمنع الناس من الاستماع إليه أو إلى مجاملته فازداد إمعاناً فى الإتصالات

بالضباط وبأعضاء مجلس الأمة الذين كانوا ينقلون ما يدور بينه وبينهم إلى شاكين متبرمين فلم أجد بداً من الاتصال به ونصحه بأن يكف عما يفعل حفاظاً على مصر ووحدۃ الصف وإشفاقاً بعبد الناصر وما هو فيه من محنة . . فدعوته إلى العشاء عندى فى البيت ورحبت به واستقبلته أسرتى أحسن استقبال كما كنا نستقبله دائماً عندما يأتى لزيارتنا . . ولكنى لاحظت أنه قد تغير تغيراً كاملاً . . كان قد فقد الثقة فى نفسه وفقد معها استقباله للحياة وأصبح شخصية مهتزة تكاد تكون مفقودة الكيان ، وقد آلمنى هذا كثيراً وخاصة عندما التفت إلى وأبنائى يداعبونه كعادتهم وقال : « أنتم بتكرمونى قوى يا جماعة . . لسه لغاية دلوقتى بتكرمونى ؟ فقلت له : دلوقتى يعنى ايه يا عبد الحكيم ؟ علشان أنت ما بقتش قائد عام ؟ هو أنا كنت صاحبك علشان أنت كنت قائد عام ؟ ده برضه كلام حد يقوله . . ؟ »

فى نهاية لقائنا رجوته أن يقبل منصب نائب رئيس جمهورية الذى عرضه عليه عبد الناصر ولكنه قال بجفوه : لا . . طول ما جمال عبد الناصر يشتغل رئيس جمهورية أنا لازم أشغل قائد عام القوات المسلحة . . لا كده لا بلاش . .

بعد ذلك فى أغسطس أثناء زيارة تيتو لنا استدعانى عبد الناصر ونحن فى قصر رأس التين بالإسكندرية فذهبت إليه . . ووجدت علامات الحيرة على وجهه قال : « والله أنا عايز أقول لك على موضوع يا أنور . . أنا مشغول قوى بحكاية عبد الحكيم وأنا اتكلمت مع تيتو وحكى له الحكاية كلها . . تيتو قال لى ضرورى تأخذ إجراء فى العملية دى وإلا البلد مجروحة وبعدين أى صراع داخلى وخصوصاً إذا كانت فيه القوات المسلحة . . حيتوسع وينقلب إلى صراع كبير » قلت له : يا جمال أنت سمعت مننا كلنا رأينا فى الموضوع ده وفعلا ضرورى أنت بالذات تواجه عبد الحكيم باللى بيعمله وتحسم الموضوع نهائياً » قال : « فعلا أنا لازم آخذ إجراء . . »

كان ذلك في ١٣ أغسطس ولم يفصح عبد الناصر عن نوع الإجراء الذي سيتخذه - كل ما حدث أن الإجراء تأجل إلى يوم ٢٥ أغسطس . . لماذا تردد رغم خطورة الموقف ؟ هنا مرة أخرى تظهر علامة الاستفهام الكبيرة في كل ما يختص بالعلاقة بين عبد الناصر وعامر . .

كان عامر يعرف جيداً أن لا شيء يغيظ عبد الناصر مثل الحديث عن الديمقراطية وأنه ديكتاتور . . فلجأ إلى طبع الاستقالة التي كان قد قدمها لعبد الناصر سنة ٦١ في شكل كتيب ووزعها على أوسع نطاق ليعلن فيها أنه لا يؤمن بحكم الفرد وأن لابد من إعادة الأحزاب . . كلام لا يؤمن به عامر بل ولا يطرأ على فكره . . ولكن كانت آثاره على الناس غير حميدة فانتشرت الإشاعات بأن الأحوال الداخلية غير مستقرة وأنه من المتوقع حدوث انقلاب في أي وقت . . لدرجة أن (جاكوب مالك) مندوب روسيا في مجلس الأمن كان في زيارة لمصر فطلب مقابلة عبد الناصر ليحذره من أن غداً سيحدث انقلاب عسكري في مصر . .

في هذه الأثناء كان عامر قد جعل من بيته المطل على النيل في الجزيرة قلعة بكل معنى الكلمة مما جعل عبد الناصر يقرر أخيراً تحديد إقامة عامر في بيته بعد أن تسحب منه جميع الأسلحة وبناء عليه أرسل إليه يطلب حضوره للقاء في منزله مساء الجمعة ٢٥ أغسطس . . وقال لنا : « اسمعوا يا جماعة أنا عاوزها جلسة مواجهة وأنتم تكونوا موجودين » وفعلاً أنا وزكريا محي الدين وحسين الشافعي كنا موجودين في هذه الجلسة . .

وكانت ترتيبات عبد الناصر أنه بمجرد وصول سيارة عامر ونزوله منها ودخوله إلى الصالون تنزع منها الأسلحة في هدوء ويلقى القبض على من فيها من حراس ثم تستبدل بسيارة أخرى تنقله إلى بيته حيث يبقى فيه تحت الحراسة .

وفي نفس الوقت كان عبد الناصر قد كلف محمد فوزي القائد العام

وعبد المنعم رياض رئيس الأركان بإخلاء بيت عامر من الأسلحة والضباط والجنود المرابطين فيه بحيث يجد البيت عند عودته خالياً إلا من أسرته والضباط المكلفين بحراسته . . . وفعلاً تم ذلك . . . أتى عامر في الساعة التاسعة إلا ثلث ففوجيء بوجودنا . . . وبدأ الحوار الذي لم يشترك فيه طول المدة لا زكريا ولا حسين الشافعي - طبعاً أنكر عامر كل شيء ، ورغم أن عبد الناصر واجهه بالمنشورات التي كان يصدرها وبعدد الضباط المقيمين عنده في البيت وأنواع الأسلحة وغير ذلك من الحقائق التي لا تقبل الجدل إلا أن المناقشة استمرت من التاسعة تقريباً إلى الثانية صباحاً . . .

قبل ذلك بدقائق أحس عامر أن في الأمر شيئاً فقرر العودة إلى منزله ولكنه فوجيء عند البوابة بالحرس يمنعونه من الخروج ووجد عند باب البيت سيارة أخرى غير سيارته التي حضر بها . . . وبها بعض الحرس . . . فأدرك أنه مقبوض عليه وعاد إلى حيث كنا . . .

أحس عبد الناصر بالإعياء أو خشي أن يتراجع في قراره فانسحب إلى حجرة نومه ولحق به زكريا والشافعي على ما اعتقد فوجدت نفسي وحدي وجها لوجه مع عامر الذي قال لي إنه ذاهب إلى دورة المياه فصاحبته ثم عدنا إلى الحجرة فإذا به يفاجئني بقوله إنه تناول سيانور لينتحر . . . ودهشت فأنا أعرف من قراءاتي أن السيانور إذا لمس الفم يموت من يتناوله في أقل من الثانية . . . ومع ذلك أرسلت في طلب الأطباء لإسعافه وفعلاً حضروا وأسعفوه . . .

كان الموقف عصيباً للغاية فقد آلمني أن أرى عامر على هذه الحال وآلمني أكثر إحساسى بأنه يحاول أن يفلت من المأزق الذي شعر أنه سعى إليه بنفسه على أمل أن يعود إلى بيته ويتحصن فيه فهو لم يكن على علم بالإجراءات التي تمت أثناء تغييبه عنه في جلستنا هذه . . .

كانت ليلة مؤلمة للشعور تعذبت فيها كما لم أتعذب في حياتي فقد طلع علينا الصباح وأنا وحدي مع عامر أشاهده يعاني ولا أستطيع أن أمد إليه يد المساعدة .

في الساعة السادسة والنصف صباحاً نزل زكريا والشافعي من منزل عبد الناصر وأخذنا عامر إلى بيته حيث تحدثت إقامته .

لماذا استجاب عامر لدعوة عبد الناصر وذهب للقاءه في منزله ؟ سؤال كان ينبغي أن يطرح نفسه على أي إنسان ولكن لم تكن الإجابة عليه صعبة أو مستحيلة . . على العكس فقد تصور عامر أن عبد الناصر يريد أن يلقاه ليصالحه كعادتهما عقب أي سوء تفاهم يحدث بينهما . . كان عامر واثقاً من هذا وأن عبد الناصر سوف يستجيب لطلبه ويأخذه معه إلى مؤتمر القمة في الخرطوم الذي انعقد بعد ذلك اللقاء بيومين . . وكان عبد الناصر يعرف هذا كله مقدماً من مكالمات تليفونية بين عامر وبعض أصدقائه كان عبد الناصر قد أمر بتسجيلها . .

في سبتمبر كانت التحقيقات التي أجريت مع أعوان عامر قد بدأت تأخذ شكل القضية ثم وصلت عبد الناصر بعض التقارير التي تقول إن عامر كان ما زال يجري بعض الاتصالات مع أعوانه وأتباعه عن طريق أبنائه فكلف عبد الناصر محمد فوزي وعبد المنعم رياض بنقل عامر إلى مكان بعيد عن بيته . . وفعلاً أُلقي القبض على عامر في منزله ولكنه كان يشكو بعض الألم فأخذه إلى مستشفى المعادي حيث وجد الأطباء بفمه مخدراً - كما يقول التقرير الطبي - فأخرجوه وذهبوا به إلى فيلا على ترعة المريوطية كانت قد جهزت كمعتقل فأحيطت بالأسلاك الشائكة ووسائل الحراسة المختلفة . .

بعد أن اطمأن عبد الناصر إلى أن عامر قد استقر في المعتقل انتقل إلى

الإسكندرية حيث أقام في المعمورة وانتقلت أنا كذلك إلى شقتي بشاطيء ستانلى . .

فى يوم الثلاثاء ١٢ سبتمبر اتصل بى عبد الناصر تليفونياً ليقول لى إن عامر يريد أن يرانى اليوم أو فى الغد الأربعاء على أكثر تقدير - قلت له لازم أشوفه . . لازم أروح له قال لى : طيب ما تفكر . . قلت له : لأ أنا فى هذا قاطع . . بس أنا رأيى ندى أمر للناس اللى بيعملوا التحقيق يبعثوا لى صورة من التحقيق بكرة الصبح أقرأها وأعرف إيه الأقوال علشان أواجه عبد الحكيم بيها وبعدين أروح له المعتقل يوم الجمعة .

وافق عبد الناصر وأرسل إلى ملفات القضية صباح الأربعاء وكانت فى ذلك الوقت قد وصلت إلى آلاف الصفحات فتوفرت على دراستها واستغرقت منى الأربعاء بأكمله ونهار الخميس أيضاً . .

كل هذا وأنا أعد نفسى للقاء عبد الحكيم عامر فى المعتقل يوم الجمعة حيث كان فى نيتى أن أنصحه بالتصالح مع عبد الناصر وكفانا تصارعاً فالمصيبة التى نحن فيها أكبر وأخطر من أى شىء ، كما كنت مصمماً على أن أبقى معه فى المعتقل إلى أن تحل الأمور إما بالصلح أو بالمحاكمة . .

وفى مساء الخميس ١٤ سبتمبر سنة ١٩٦٧ تناولت طعام العشاء ورأسى ما زال مشغولاً بلقاء يوم الجمعة فإذا بجرس التليفون يدق وعبد الناصر يتكلم . .

قال : أنور

قلت : أبوه يا ريس خير .

قال : « أنور »

وسكت لمدة دقيقة . . دهشت

قلت : جمال . . أنت على الخط ؟

قال : آه

قلت : أمال سكت له ؟ فيه ايه ؟

قال : عبد الحكيم عامر انتحر ومات الساعة ٧ مساء وبلغوني دلوقت من المعتقل . .

قلت : والله إذا كان ده حصل فعلا يبقى ده أحسن قرار اتخذه عبد الحكيم عامر كقائد خسر معركة . . لأنى لو كنت مكانه كنت عملت كده يوم ٥ يونيو . .

جمال سكت قليلا ثم قال : إزاي بتاخذ الموضوع بالشكل ده ؟

قلت له : فى التقاليد العسكرية أى قائد يتهزم بيعمل كده . .

طلب منى عبد الناصر فى نهاية الحديث أن اتصل بحسين الشافعى وعلى صبرى وأطلب منهما الذهاب إلى المعمورة معى لكى نساfer جميعاً إلى القاهرة وكان زكريا محي الدين فى القاهرة . . ولكن دون أن أذكر لهما الأسباب . .

وصلنا القاهرة بعد منتصف الليل فركت جمال فى منشية البكرى وتوجهت إلى معتقل عامر الذى لم يكن يبعد عن بيتى فى الهرم بأكثر من خمس دقائق . . هناك وجدت النيابة والطبيب الشرعى وشقيق عبد الحكيم عامر وكان مستشاراً فى القضاء - حضرت التحقيق وأثبتوا ذلك فى المحضر ثم بدأت أسأل الطبيب الذى كان يصاحبه فى المعتقل وهو الدكتور بطاطا الذى ما زال إلى يومنا هذا طبيبى الخاص . .

كانت إجابة الطبيب أن عامر وهو فى الحمام أصيب بما يشبه أزمة

فوقع على الأرض - حملوه إلى فراشه حيث كان يرقد أمامي . . وحاولوا إسعافه ولكن عبثاً فقد مات بمجرد أن وقع على الأرض .. لم يكن هناك أى شيء غير عادى فى جسمه سوى ما لاحظته الطبيب الشرعى عندما كشف عليه فوجد عند مفصل فخذه الشمال مع جسمه بلاستر وتحتة جبتان . . ماذا كانا ؟ أعتقد أن هذا جاء فى تقرير الطبيب الشرعى . .

تأملت وجه عامر قبل أن أغادر المكان . . فلم أشاهد عليه صفرة الموت - بالعكس كان وجهه يبدو طبيعياً وكأنه مستغرق فى نوم عميق فلا انفعال ولا تقلصات ولا أى شيء من هذا القبيل - بالعكس عادت السماحة إلى وجهه فرأيت أمامي عبد الحكيم الأسمر اللون العادى الهادئ اللطيف الذى رأيته أول ما رأيته فى رفح . . وهو فى مقتبل عمره مند سنوات وسنوات . .

عندما دخلت بيتى فى الصباح المبكر سمعت جرس التليفون يدق كان عبد الناصر على الطرف الآخر للخط يحاول أن يطمئن على ما حدث رويت له ما رأيت وقلت إنى سأغير ملابسى لكى ألحق بالجنائزة فى بلدة عامر (اسطال) فستشيع الجثة هناك بعد خروجها من المشرحة .

ولكن عبد الناصر لم يوافق . . فقد كان يخشى أن يخرج أولاد عامر عن حدودهم عندما يعلمون بالخبر - وليس هذا من المصلحة فى شيء فالوقت الذى نمر به يحتم علينا الحفاظ على هبة الحاكم . .

ختم عبد الناصر حديثه معي بقسوله ورنه الأسى فى صوته : -

« تصور يا أنور عبد الحكيم وأنا وأنت - احنا الثلاثة أصدقاء لكن تصور يا أنور أن عبد الحكيم يموت وأنا واثق أن ما حدث حاشى فى جنازته هناك واحنا كمان مش قادرين نمشى فى جنازته . . تصور » .

لم أكن أتصور فعلاً أن شيئاً من هذا يمكن أن يحدث وأن الصراع من أجل البقاء يمكن أن ينتهى بين الأصدقاء بمأساة ولكن يبدو أن هذا هو شأن الحياة . .

كانت محاكمة أعوان عبد الحكيم عامر أمراً لا مفر منه . . فقد بدأت الناس تفيق بعد ٩ و ١٠ يونيو وتتساءل من المسئول عن الهزيمة ؟ ولماذا حدثت ؟ كما بدأوا يدركون أن عملية الصراع بين عامر وناصر لعبت دوراً رئيسياً في الكارثة التي حلت بمصر .

رأس المحكمة حسين الشافعي وقد جعلها علنية كما طلب هو من عبد الناصر وطبعاً حاول المتهمون إنقاذ رقابهم فحولوا القضية إلى محاكمة لثورة ٢٣ يوليو فكانت النتيجة أن اختفى الوجه الجميل للثورة وهو إنجازاتها ولم يظهر غير وجهها القبيح وهو تضاعف الإجراءات الإستثنائية وكبت الحريات وكل ما جعل الناس تضيق بالثورة .

رأى الناس هذا الوجه للثورة وكأنه وجهها الوحيد فزاد سخطهم وخاصة أن جروح الهزيمة كانت ما زالت تدمى في قلوبهم فكانت النتيجة الحتمية لهذا إنفجار الطلبة في فبراير سنة ٦٨ الذي ما لبث أن عم جميع فئات الشعب .

حاولنا حصار الإنفجار وانتهت عملية الحصار عندى في مجلس الشعب عندما أرسلت في طلب الطلاب وكانوا معتصمين في الجامعة وجلست معهم خمس ساعات ذهب بعدها كل منهم إلى منزله . .

لجأ عبد الناصر كعادته إلى احتواء الانفجار فأصدر بيان ٣٠ مارس الذى حاول فيه أن يمتص غضب الشعب بمعالجته لكل الأمور التى تشكو منها الناس بعد أن كشفت لهم القضية عن الوجه القبيح للثورة - ولم يكتف عبد الناصر بإصدار البيان بل طلب من الشعب الاستفتاء عليه فخرجت البلد بأكملها لتأييده مما أذهل المراسلين الأجانب فقد كانوا مؤمنين بأن أحداً من الناس لن يذهب للاستفتاء وهم ما زالوا جميعاً يعانون من الهزيمة وآثارها . .

صورة أخرى من صور فترة الانتقال هذه كانت حرب الاستنزاف التى بدأتها فى سبتمبر ٦٨ بعد أن كان اللواء أحمد اسماعيل قد انتهى من بناء خط الدفاع المصرى وكنا قد سرنا شوطاً لا بأس به فى تدعيم قواتنا المسلحة . . . بدأنا الحرب بالمدفعية فردت علينا إسرائيل بضرب محطة المحولات فى نجع حمادى وقناطر نجع حمادى وكوبرى قنا فى الصعيد . . فاضطررنا إلى التوقف من سبتمبر ٦٨ إلى مارس ٦٩ حيث استطعنا فى تلك الفترة من حماية جميع المنشآت ثم أستأنفنا فى سنة ٦٩ رغم أن الاتحاد السوفيتى كان ضد هذا ولم يعوضنا عن الذخيرة التى استنفدناها حينذاك إلا مع الكوبرى الجوى عند بدء معركة ٦ أكتوبر سنة ٧٣ . وكان هذا عقاباً لعبد الناصر لأنه بدأ حرب الاستنزاف واستمر فيها ضد رغبة السوفييت . .

من أحداث تلك الفترة التى كانت ذات أثر بعيد فيما بعد - أن عبد الناصر فى ساعة صفاء وإلهام قال لى وكان ذلك يوم ١٩ ديسمبر ٦٩ : أنا مسافر يا أنور لحضور مؤتمر القمة العربى فى المغرب يوم ٢٠ ديسمبر . . وزى ما أنت شايف المؤامرات حولى كثيرة ومتممل جداً أن أصاب فى إحدى هذه المؤامرات وأنا مش عايز البلد تبقى تايهة ومش عايز أسيب البلد فى فراغ . . ولذلك قررت أن أعينك نائب رئيس جمهورية وتحلف اليمين قبل ما أمشى .

كنت أعرف أن مؤامرات عملاء الإتحاد السوفييتي قد بدأت بعد أن أتى الطبيب الروسي شازروف إلى مصر ورأى عبد الناصر وأسر إلى وإليهم دون شك بأن الأزمّة القلبية التي أصابت عبد الناصر من النوع الحبيث وأنه لن يعيش بها طويلا . . فتمعنت ما قاله لي عبد الناصر وأجبته : —

— فكرت يا جمال ورسيت ؟ أنا مش عاوز يا جمال أبقى نائب رئيس جمهورية . . أنا حاكم معاك وأشتغل وإذا كان لابد من لقب كفاية على مستشار رئيس الجمهورية .

قال : « لأ . . بكرة تفوت على ” عشان تحلف اليمين . . » وفعلا ذهبت إليه في اليوم التالي ومعى حسين الشافعى كعادتنا لاصطحابه إلى المطار . . في المنزل طلب أن أحلف اليمين وكان ذلك في وجود حسين الشافعى ففعلت وحينما ذهبنا إلى المطار لتوديعه أعلنها عبد الناصر على الجميع . .

من أوضح مظاهر الصراع من أجل البقاء في هذه الفترة صراع عبد الناصر مع السوفييت من أجل بقاء مصر وصراع السوفييت مع عبد الناصر من أجل بقائهم في المنطقة . .

ففي أول يناير سنة ١٩٧٠ حينما ضربت إسرائيل مصنع أبو زعبل وقتل فيه أكثر من ٧٠ عاملاً بريثاً استدعى عبد الناصر السفير السوفيتي وكبير الخبراء وأخبرهما أنه ليس في إمكانه الانتظار إلى يونيو وهو ميعاد تسليم بطاريات الصواريخ سام ٣ وخاصة بعد أن وصلت إسرائيل إلى العمق وضربت التجمعات العمالية والسكانية ، فحدد له القادة السوفييت ميعاداً في ٢٢ يناير وسافر إلى موسكو في زيارة سرية استغرقت أربعة أيام عاد بعدها وهو في قمة السعادة . . قلت له : خير يا جمال . .

قال : الدور ده الظاهر حيصدقوا معنا . . فأنا لما قلت أن الأمر عاجل وملح وطلبت منهم يبعثوا لنا صواريخ سام ٣ بأطقم سوفيتية إلى أن يتم تدريب أطقمنا في أغسطس جمعوا القيادة السياسية وأخذوا قراراً بإرسال سام ٣ ابتداء من شهر مارس سنة ٧٠ .

كنا منذ الهزيمة نلح على السوفييت أن يعاونونا في الدفاع الجوي حتى أن عبد الناصر طلب منهم حينذاك أن يتولى الدفاع الجوي عن مصر قائد سوفيتي . . فقد كان الدفاع الجوي عندنا نقطة ضعف بارزة كما ثبت في عامي ٦٩ ، ٧٠ عندما ضربت إسرائيل مصنع أبو زعبل ومدرسة بحر

البقر للأطفال . . . ولذلك اعتبرنا دخول سام ٣ مصحوباً بجنود سوفيت نقطة تحول في تعامل السوفييت معنا . . .

ولكن جاء إبريل موعد وصول الطائرات في ١٦ التي كانوا قد وعدوا بإرسالها مع الصواريخ ولم يظهر لها أثر وسألنا مرة ومرات أين الطائرات التي وعدتم بها ؟ ولكن لا اجابة . . . نفس الأسلوب القديم الذي كنا قد تصورنا أنهم غيروه . . . ضاق عبد الناصر بالموقف كله وقال لي :

— اسمع يا أنسور أوراق اللعبة كلها في أيدي أمريكا شئنا أم أبينا ولقد آن الأوان عشان نتكلم وندخل أمريكا في العملية .

وكنا في ذلك الوقت قد فوضنا الاتحاد السوفيتي بالتحدث مع أمريكا لإزالة شكوكهم الرهيبة . . .

ولذلك في أول مايو سنة ٧٠ وهو عيد العمال وجه عبد الناصر أغلب كلامه في الخطاب الذي ألقاه بمناسبة عيد العمال إلى نيكسون وقال له . . . هل أنت غير قادر على حل المشكلة أم غير راغب في هذا ؟ . . . كانت لهجة الخطاب رقيقة أو على الأقل خالية من العنف كما كان بها قدر كبير من الدبلوماسية التي تفصح عن رغبة عبد الناصر في أن يفتح باب الحوار مع أمريكا . . .

وفعلاً بدأت أمريكا الحوار في يونيو سنة ٧٠ بمبادرة روجرز التي تنص على نقطتين هما الانسحاب ووقف إطلاق النار لمدة ٩٠ يوماً يجري فيها وسيط من الأمم المتحدة المفاوضات بين الأطراف المعنية من أجل تسوية مشكلة الشرق الأوسط . . . كان الوسيط جونار يارنج منذ أن صدر قرار مجلس الأمن ٢٤٢ في نوفمبر ١٩٦٧ وكنا نعرف أن مهمته محكوم عليها بالفشل بسبب تعنت إسرائيل ، وفعلاً لم يستطع أن يحقق شيئاً وانتهت مهمته في سنة ٧١ .

بعد إعلان مبادرة روجرز بقليل قام عبد الناصر بزيارة إلى موسكو أعددت لها أنا مع السفير السوفيتي فينوجرادوف إعداداً كاملاً حتى يقتنع القادة

السوفييت بضرورة إرسال سلاح الردع لنا ، ولكن رغم كل الجهود التي بذلت رفض السوفييت الاستجابة لمطالب عبد الناصر . فاضطر إلى أن يعلن قبوله لمبادرة روجرز وهو على نفس المسائدة مع القادة السوفييت في الكرملين .. جن جنون بريجنيف وسأل عبد الناصر كيف تقبل حلاً أمريكياً فأجابه عبد الناصر أنه على استعداد لقبول الحل من أية جهة ..

استغرقت رحلة عبد الناصر هذه ٢٠ يوماً فقد أدخلوه غرفة الأوكسيجين الخاصة برجال الفضاء ليجدد خلايا جسمه كله حتى أنني عندما التقيت به في مطار القاهرة عند عودته من موسكو دهشت .. فقد بدا أصغر من سنه بعشرين سنة على الأقل وما زلت أذكر قولي له وأنا أرحب به « ما شاء الله يا ريس .. ايه الشباب ده ! » وما زالت صورته أمام عيني وهو يسير في أرض المطار بخطى واسعة منشرح الوجه وصدرة إلى الأمام كفتى في الثلاثين من عمره .. ولكن ماذا تفيد غرفة الأكسجين رجلاً يعلم أنه مكتوف الأيدي نتيجة موقف السوفييت معه ؟

في أثناء غيابه في موسكو جمعت اللجنة السياسية للإتحاد الاشتراكي وأوصينا برفض مبادرة روجرز .. ولكنه عندما عاد وشرح لي ما حدث في الكرملين وأخبرني أنه قبل المبادرة قلت له : « معاك حق لأن السوفييت حيودونا في داهية فنظر إلى وقال : « السوفييت يا أنور حالة ميثوس منها تماماً .. »

كانت هذه آخر زيارة قام بها عبد الناصر للقادة السوفييت وقد كان تأثيرها على صحته سيئاً للغاية - فلأول مرة أحس عبد الناصر بأنه ليست هناك أرض للمناورة ، وعبد الناصر مناور ممتاز ولذلك فهو بدون أرضية مناورة يساوى صفراً وهو لا يحب أن يكون صفراً .. وكان الوحيد الذي كان يقف إلى جانبه في ذلك الوقت الاتحاد السوفيتي .. فعلاقاته مع أمريكا وغرب أوروبا والبلاد العربية مقطوعة أو ممزقة فلا مجال للمناورة ولا مجال بالتالي للصراع من أجل البقاء ..

منذ هزيمة سنة ٦٧ لم يسلم عبد الناصر من المرض إلى أن مات . . . في ٥ يونيو ١٩٦٧ إنفلت السكر ولم يتمكن من السيطرة عليه إلا في نوفمبر سنة ١٩٦٧ . . . خمسة شهور متتالية كانت كفيلة بأن تدمر الجهاز الداخلى لعبد الناصر على صورة أمراض متوالية أولها أصيب به في ديسمبر سنة ٦٧ على هيئة بثور في بعض أجزاء من جسمه وكان أى احتكاك للملابس بها يسبب له آلاماً رهيبية فأرسلنا في استدعاء الأطباء من مختلف أنحاء العالم إلى أن اكتشف المرض طبيب إنجليزي وأوصى بعلاجه عن طريق الهرمونات المضادة واضطر عبد الناصر إلى أن يخضع لهذا العلاج الذى كان يسبب له أزمات عصبية شديدة مدة شهرين كاملين إلى أن شفى من المرض فتلقفه على الفور مرض آخر . . . إذ بدأ يحس في ساقيه بآلام عنيفة أخذ عنها يزداد يوماً بعد يوم إلى أن وصلت إلى درجة لا يمكن احتمالها أو وصفها ومما زاد الحالة ضراوة أن عبد الناصر كان عليه أن يكتم آلامه ليظهر أمام الناس بكل هيئته وبالهالة الضخمة التى كانت تحيط به حتى إذا ما خلا إلى نفسه أغلق حجرة النوم عليه وعلى - فقد كنت أأزمه - وراح يصرخ بأعلى صوته كالأسد الجريح الذى لا يملك من أمر نفسه شيئاً . . . ظل على هذه الحال شهوراً متوالية إلى أن سافر للعلاج بالمياه المعدنية في (سختوبو) في روسيا .

وفي سبتمبر سنة ٦٩ أصيب بنوبة قلبية أخفيها وأعلن أنها أنفلونزا . . . فبعد أن فحصه الأطباء المصريون أسروا إلى بأنها أزمة قلبية . . . وطلبني عبد الناصر وقال لى : « والله يا أنور شوف حتمل ايه وصرف الأمور كما ترى » قلت له : « أنا حابعت أجيب لك الدكتور شازوف » .

كان شازوف طبيب القيادة السوفيتية وقد سبق له أن تولى علاج عبد الناصر في موسكو ، فأثنى على وجه السرعة وأكد تشخيص الأطباء المصريين وأوصى بأن يلتزم عبد الناصر بالراحة التزاماً كاملاً لأن هذه النوبة القلبية بالذات كانت من نوع خبيث للغاية فإذا تعرض صاحبها لأي إجهاد بدني أو نفسي فسوف تودي بحياته بدون أن يشعر بأي ألم . . وهذا ما حدث لعبد الناصر بعد ذلك بسنة بالضبط . .

ففي خلال تلك السنة حدثت بعض الأمور التي أنهكت عبد الناصر صحياً وكان أولها قبوله لمبادرة روجرز فبمجرد أن سمع الفلسطينيون بهذا شنوا عليه حملة شرسة هوجاء دون أن يترثوا أو يسألوه عن سبب قبوله لمبادرة روجرز وهو الذي وقف إلى جانب القضية الفلسطينية كما لم يقف أي رئيس أو حاكم عربي آخر.. بل لا أبالغ إذا قلت إن عبد الناصر بتبنيه لقضية فلسطين قد أضنى على القضية كل أبعادها السياسية التي لولاها لظلت مجرد قضية لاجئين . . فهو الذي ملأ العالم العربي والعالم كله باسم فلسطين . . وكان يهاجم بعنف أي حاكم عربي لا يقف إلى جانب القضية الفلسطينية . . بل وكرس كل جهده واستخدم الثورة نفسها للدفاع عن حق الفلسطينيين في وطنهم . .

كان من الطبيعي أن يتأثر عبد الناصر بموقف الفلسطينيين منه وأن يكون تأثيره شديداً وعميقاً . . فهاهم الذين أفنى صحته في الدفاع عنهم يتنكرون له بالمزایدات والشعارات والانفعالات الطائشة الهوجاء والسفاهات الصببانية !

كيف يتحمل رجل مريض بأقصى أنواع المرض أن يطعن كبرياؤه هكذا وليس على أيدي الغرباء كما حدث في آخر زيارته لموسكو بل على أيدي الأقرباء الأصدقاء . . الإخوة الذين كثيراً ما فضل مصالحهم على مصلحته الشخصية ؟

كان من الطبيعي أن يؤثر كل هذا على صحة عبد الناصر فيعجل بنهايته . .

ولكن ليت الأمور توقفت عند هذا الحد . . . في سبتمبر دعا عبد الناصر إلى مؤتمر قمة عربي في القاهرة من أجل مذبحة أيلول (سبتمبر) سنة ٧٠ بين الملك حسين والمقاومة الفلسطينية . . . وكان السبب في هذه المذبحة أن الملك حسين قرر تصفية المقاومة في الأردن فاشتبك معها في صدام مسلح مما أدى إلى مذبحة بين أفرادها بالمعنى الكامل للكلمة . . .

لم يستطع عبد الناصر السكوت على هذا فدعا إلى المؤتمر في القاهرة برغم كل ما ناله من أذى وحضر جميع الملوك والرؤساء العرب ما عدا الملك حسين . . . أما أنا فقد كنت قد شفيت لتوى من الأزمة القلبية التي انتابني للمرة الثانية سنة ٧٠ وحضرت إلى القاهرة للإشتراك في المؤتمر . . .

حضر المؤتمر معمر القذافي وكان ظاهرة تلفت النظر بالطبنجة التي لا تفارق حزام سترته كما كان دائم السباب في الملك حسين . . . كان يصفه بأنه رجل مجنون ولا بد له من دخول مستشفى المجاذيب . . . وكنت أنا إلى ذلك الوقت أفسر سلوكه على أنه نوع من اندفاع الشباب والحماس الزائد عن اللازم . . . المهم انقسم الأعضاء إلى مؤيد لمجىء الملك حسين ومؤيد لعدم مجيئه ولكنهم انتهوا إلى اقتراح عبد الناصر من ضرورة اشتراك الملك حسين في المؤتمر . . . وفعلاً جاء الملك حسين وسار المؤتمر ، ولكنه أصبح يشكل ثقلاً رهيباً على الأعصاب لا من ناحية الملك حسين بل من ناحية معمر القذافي وتصرفاته هو وياسر عرفات من خلف الكواليس . . .

كنا مجتمعين ذات صباح في جناح عبد الناصر في فندق هيلتون أثناء انعقاد المؤتمر وكان معنا ياسر عرفات وكان جمال حريصاً على أن يصل إلى صيغة يحل بها المشكلة وكان من رأيه أن يتنازل كل من الطرفين قليلاً فكلاهما مخطيء . . . فإذا بياسر عرفات يفعل ويبدأ سلسلة من الانفجارات لا نهاية لها . . . ضاق جمال بالموقف فقال له : « أنا ما أعملش ده كله عشانك ويتحرق دمي بالشكل ده عشانك وانت بيتي موقفك كده . . . » .

وترك عبد الناصر الجناح عائداً إلى بيته بعد أن أعلن تصميمه على عدم العودة إلى المؤتمر . . لحقنا به وهو يهم بركوب المصعد فأقنعناه بالعودة معنا وبعد محاولات عديدة ابتداءً ياسر عرفات يستجيب . .

المهم أن المؤتمر كان حملاً ثقيلاً على أعصاب عبد الناصر ، فقد أجهد فيه أعنف إجهاد بسبب القذافي وتصرفاته من ناحية ومن ناحية أخرى بسبب ياسر عرفات الذي كان عبد الناصر قد دعا إلى عقد المؤتمر ليحل له مشكلته . . انتهى المؤتمر بالإتفاق على ما اتفقوا عليه وعاد الملوك والرؤساء العرب إلى بلادهم وكان عبد الناصر في وداعهم جميعاً . . كان آخر من سافر الملك فيصل وأمير الكويت . . وعند توديع الملك فيصل نبهني كبير الياوران إلى أن قدمي الرئيس جمال قد « لفت على بعضها » وهو يسير فطلبت من عبد الناصر أن يذهب إلى بيته ليستريح وأقوم أنا نيابة عنه بتوديع أمير الكويت ولكنه رفض .

كان من الواضح أنه يتحامل على نفسه فعندما ركب أمير الكويت طائرته لم يتحرك عبد الناصر من أمام الطائرة بل وقف مكانه والعرق يتصبب من وجهه وقد امتقع لونه بصفرة رهيبة . . فطلب أن تأتي السيارة إلى حيث كان . . وتركته على اتفاق أن نسافر في الغد إلى الإسكندرية للإستجمام والراحة وذهبت إلى منزلي لأستريح قليلاً فاتصل بي سكرتيره الخاص ليقول لي إن عبد الناصر سيحضر عندي لتناول العشاء معي . . وذهبت لأنام قليلاً ولكنهم أيقظوني في الساعة مساء وقالوا إن بيت الرئيس جمال اتصلوا وقالوا إنك مطلوب في البيت لأمر هام . .

ارتديت ملابسى بسرعة وذهبت إلى منشية البكرى حيث وجهوني إلى حجرة نوم عبد الناصر فوجدته على فراشه والأطباء يحيطون به قالوا

لى إنه مات منذ ساعة . . كشفت عن وجهه جمال فوجدته طبيعياً جداً وكأنه يستغرق فى نوم عميق . . ألصقت خدى بوجهه فلم أحس بالبرودة التى تصاحب الموت . . التفت إلى الأطباء وقلت : « مش ممكن . . الكلام اللى بتقولوه ده مش ممكن يبقى صحيح . . » قالوا لى إنهم قاموا بجميع الإسعافات اللازمة واستعملوا جهاز القلب الذى يعطى صدمة توقظ القلب . . قلت لهم : « حاولوا .. حاولوا مرة أخرى . . » فانفجروا بالبكاء وعلمت منهم أنهم حاولوا كل جهدهم لمدة ساعة كاملة قبل وصولى ولكن قضاء الله وقدره كان قد نفذ . .

أمرت بنقل الجثمان إلى سراى القبة وكنا فى يوم الإثنين فجمعت مجلس الوزراء واللجنة العليا للاتحاد الاشتراكى وقررنا أن يكون ميعاد الجنازة يوم الخميس حتى يتمكن المعزون من الملوك والرؤساء من تشييع الجنازة . . وطلبت من الأطباء العمل على حفظ الجثمان بطريقة سليمة إلى يوم الخميس . . ومكثت بقصر القبة حيث جثمان عبد الناصر إلى أن أتى وقت تشييع الجنازة فخرجت لعمل الترتيبات لسير الجنازة التى كانت تبدأ من مجلس قيادة الثورة ولكن بعد أن وصل الجثمان والجنازة على وشك الابتداء أصبت بانهايار مفاجيء . . فحملونى إلى مجلس قيادة الثورة وأعطانى الأطباء خمس حقن لم أفق منها إلا حوالى الساعة الواحدة والنصف بعد الظهر . .

كان أول سؤال سألته : هل دفن عبد الناصر ؟ فقد كنت أخشى أن تحمل جماهير الشعب التى كانت تقدر بالملايين النعش وتسير مندفعة به .

فموت عبد الناصر كان فاجعة مفاجئة للجميع . .

١. أن علاج من قرية ميت أبو النكاح



• على أثر تخرجي في رتبة الملازم
الثاني من الكلية الحربية



• في مدينة العريش في سنة ١٩٥٠



• في قفص الاتهام أثناء نظر محكمة
الجنابات لقضية مقتل أمين عثمان





• على شاطئ البحر في بورسعيد
سنة ١٩٥٢



• مع ابني جمال و سنة ١٩٦٢

• جمال عبد الناصر مع بناتي أثناء
إحدى زيارته لي في منزلي في شهر مايو
سنة ١٩٦٢





◦ مع المرحومة أم كلثوم
في عام ١٩٧٢ ▼

▲ ◦ أمام المسجد الأقصى أثناء زيارتي
لقدس في عام ١٩٥٥



• في القطار مع عبد الناصر





▼ مع أسرتي في حديقة بيتي بالجيزة
في سنة ١٩٧٢

▲ مع عبد الناصر وابني جمال
والمرحوم والدي في أكتوبر سنة ١٩٦١





• في جلسة هادئة داخل واحدة من
الخيام بالقرب من مرسى مطروح في
عام ١٩٧٢



• مع افراد أسرني في استراحة
القناطر الخيرية عام ١٩٧٢

• مع شريكة حياتي و ابني جمال وابنتي
جيهان في عام ١٩٧٤



• مع أفراد أسرتي في صورة تذكارية



أكتوبر . والصورة مع شريكه حياتي في حديقة بيتي بالجيزة على أثر عودتها
من إثناء واجبها الإنسان في رعاية هؤلاء الأبطال .





• نكريم أبطال حرب أكتوبر ▼

▲ • في القيادة العامة للقوات المسلحة
يوم ٦ أكتوبر سنة ١٩٧٣





• تكريم المشير أحمد إسماعيل في
مجلس الشعب



• تكريم أبطال أكتوبر في مجلس الشعب



هـ في إحدى مناورات القوات البحرية
في مايو سنة ١٩٧٥



هـ في الاحتفال بافتتاح مدينة العاشر
من رمضان في مايو سنة ١٩٧٧

• من بورسعيد إلى الإسمايلية في
الاحتفال بعودة الملاحة إلى قناة السويس
في يونيو ١٩٧٥



• غرس أول شجرة في أرض سيناء في
ديسمبر ١٩٧٥



الفصل الثامن

الشورة الثانية

بعد موت عبد الناصر مباشرة لم تكن بى رغبة فى أن انتخب رئيساً للجمهورية ولما كان عبد الناصر فى خطاب العودة يوم ١٠ يونيو سنة ١٩٦٧ قد أعلن أنه سوف تجرى انتخابات للرئاسة بعد إزالة آثار العدوان فقد قلت إننى سأعمل نائباً لرئيس الجمهورية إلى أن أزيل آثار العدوان وبعد ذلك تجرى الانتخابات . .

ولكننى بدأت أراجع نفسى لما أحسست من تيارات ومناورات من جانب مراكز القوى وأغلبية أعضاء اللجنة التنفيذية العليا التى تركها لى عبد الناصر وهى المكتب السياسى . . كما أئى لاحظت أن البلد رغم حالة الحزن الشامل الذى كان يخيم عليها كانت فى حالة ترقب . . فالشعب يريد أن يعرف إلى أين يسير وهو كله مجمع على شئ واحد وهو ضرورة أن نضمد جراحنا ونلم شملنا بأسرع وقت ممكن لنكمل المسيرة . . وهذه ميزة الشعب المصرى الأصيل الذى يستند إلى حضارة سبعة آلاف سنة . . إنه لا يفقد إحساسه بكيانه مهما كانت الظروف . .

وشئ آخر كان له وزنه فى مراجعتى لنفسى ، فقد وصل الرئيس بومدين رئيس الجزائر قبل الجنازة واجتمع بى ولما علم أنى سأعمل نائباً لرئيس الجمهورية إلى أن تتم إزالة آثار العدوان اعترض بشدة وقال إنه لا يجب أن يكون هناك أى شك أو اهتزاز فى صورة مصر فى عيون العالم . . وإنه يجب أن ينتخب الشعب رئيس الجمهورية فوراً حفاظاً على مكانة مصر ومسئولياتها التاريخية بالنسبة للمعركة والأمة العربية كلها . .

ولكن لعل ما جعلنى أحسم الأمر ، مذكرة أرسلتها لى القوات المسلحة تقول فيها إن الظروف التى تمر بها مصر صعبة ودقيقة للغاية . . وإن أمام

القوات المسلحة واجباً لا بد من إنجازه ولذلك فهم بحاجة إلى وجود قائد أعلى مسئول يتمكنون تحت رئاسته من تحقيق هدفهم . .

كانت المناورات قد بدأت بالفعل من جانب بعض مراكز القوى وكان المركز الذى أراد استغلال هذا الموقف أولئك الذين كانوا يستندون إلى الاتحاد السوفيتى ، وكان هناك آخرون . .

ولكن المركز الأول الذى كان يضم عملاء الاتحاد السوفيتى أخذ يرتب نفسه ، وتعهدوا فيما بينهم على أن يكونوا الورثة الشرعيين لعبد الناصر بدعوى أنهم الأمناء على خطه . .

فى يوم الخميس بعد تشييع الجنازة استدعيت المسئولين وقلت لهم إننى عدلت عن البقاء كنائب لرئيس الجمهورية وإنه لا بد من الإنتخاب ولذلك طلبت انعقاد اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكى (المكتب السياسى) فكل شىء يجب أن يسير وفقاً للدستور .

طبعاً كانت هناك صراعات ومناورات أثناء انعقاد اللجنة - فأحدهم مثلاً وكان العضو الباقى معى من أعضاء مجلس الثورة طلب أن يظل الوضع كما هو وقال لى : « أنا أخشى لو قدمنا اسمك أن تكون مجرحاً فالبلد ترفضك وإذا حدث هذا فسيكون معناه أن البلد بترفض ثورة ٢٣ يوليو » .

قلت له : أنا عندى من الشجاعة الكافية - إذا عرضتم اسمى ورفضه الشعب - أن أجمعكم مرة أخرى ونختار مرشحاً آخر وإذا رفض الشعب المرشح الآخر فسنعاد الكرة ونختار مرشحاً جديداً . . فلن أسلم البلد إلا لرئيس منتخب من الشعب مهما كلفنى هذا من معارك . .

انتهت المناقشات بالموافقة على تسميتى رئيساً للجمهورية وذهبنا إلى اللجنة المركزية التى وافقت على اختيارى كما وافق مجلس الشعب . . وبعد ذلك أجريت الانتخابات وانتخبنى الشعب رئيساً للجمهورية وكان ذلك فى ١٥ أكتوبر سنة ١٩٧٠

بمجرد انتخابى أصدرت قرارى بتعيين الدكتور محمود فوزى رئيساً للوزراء وعبد المحسن أبو النور أميناً عاماً للاتحاد الاشتراكى فأنا أوأمن أن العمل بفرد واحد خطير جداً لأنه يؤدى فى النهاية إلى أن هذا الفرد لا يستطيع أن يلم بكل شىء فينتهز بعض معاونيه الفرصة يأخذون الأمور فى أيديهم كل يتصرف كما يشاء وبذلك توجد مراكز القوة - تماماً كما حدث بالنسبة لعبد الناصر . .

أرادت مراكز القوة أن تصعد الصراع ، بحجة أننا لابد أن نسير على خط عبد الناصر . . فقلت لهم إننى لا أستطيع أن أصرف الأمور كما كان يصرفها عبد الناصر - فكل منا يختلف عن الآخر . . صحيح نحن لا نختلف فى المبادئ أما الوسائل فنختلف عليها مائه فى المائة . .

وقد كانت لى جلسات مع عبد الناصر فى بيته وفى بيتى خلال السنة السابقة لوفاته إذ كنا نتبادل الزيارات فلتقى يوماً لديه ويوما لدى . . وكنت دائم الحديث معه عن ضرورة تغيير منهج الحكم والأساليب التى كانت الناس تحكم بها إذ كان الشعب بعد الهزيمة وبعد الصمود الذى أبداه فى حاجة ملحة إلى التغيير . .

أذكر أنه فى أول يوم تسلمت الحكم أى فى يوم ١٧ أكتوبر سنة ١٩٧٠ جاءنى سامى شرف وكان هو كاتم سـ عبد الناصر ووزير شئون رئاسة الجمهورية ومعه أوراق كثيرة لعرضها على . . سألته : « ايه دى » ؟ قال لى : « دى مكالمات تليفونية لأشخاص موضوعين تحت المراقبة » قلت له : « آسف . . أنا ما أحبش أقرأ الكلام الفارغ ده . . إذا كان فيه شىء خاص بأمن الدولة أشوفه وأحكم فيه . . أما ناس بتتكلم مع بعضها - أنا دخلى ايه ؟ وأنتم بأى حق تخطوهم تحت المراقبة ؟ شيل » وأزحت الأوراق من أمامى فجمعها وخرج ولكن قبل خروجه كنت قد أصدرت أمرى إليه بإلغاء جميع المراقبة التليفونية وأن لا تتم أى مراقبات إلا بأمر القضاء وفعلا تم هذا . .

منذ أول يوم توليت فيه استيقظت في إرادة التحدى . . صحيح أنها لم تتم يوماً طوال السنوات السابقة فهي إحدى مقومات شخصيتي ولكنها لم تكن بهذه اليقظة والحدة الآن . . بعد أن تسلمت الحكم . . فقد صارت مسؤوليتي أن أسلم الشعب الأمانة سليمة . . رغم كل الظروف المحيطة به من هزيمة عسكرية كاملة الأبعاد ووضع اقتصادي مذلّار وعزله سياسية قاتلة ، فعلاقتنا مع الدول العربية وأمريكا وغرب أوروبا ممزقة تماماً . . بل لم تكن لنا علاقة إلا مع الاتحاد السوفيتي الذي لم يفكر حتى في أن يعرضنا عن قطع علاقتنا مع جميع دول العالم . . فإذا أضفنا إلى كل هذا بعض الحقائق التي لمستها بنفسى والتي تقطع بأن أحداً من المسؤولين الذين كانوا يحيطون بعبد الناصر لم يكن يأخذ في حسابه إلا مصلحته الخاصة وبقائه في منصبه وسلطته المطلقة بغض النظر عن مصلحة مصر (فقد أصبحت الحسابات كلها شخصية كما أصبح الجميع يعيشون بالحقد والبغضاء) . . لأدركنا أن كل هذه الصعاب قد شحنت إرادة التحدى عندى فدعمتها وأيقظتها بحيث لم تضعف أو تغفل لحظة واحدة منذ أن توليت حتى الآن . .

قلت لجميع أعضاء مجلس الثورة ومراكز القوة في بداية حكمى إننى لن أقبل هذا الكابوس والحمل الرهيب ذا الأبعاد غير الواضحة . . وسأعيد تصحيحه بالحب وبالقوة الداخلية التي أعتر بها دون أن أقف على أشلاء أى إنسان أو أجرح أى شخص . .

كنت أعرف أننى بهذا أتحدى الكثير من الأوضاع والأخلاقيات القائمة ولكنى كنت أعرف أيضاً أننى قادر على هذا التحدى فأنا فى أى وضع ملئ بقوة ذاتية أكبر بكثير من المنصب الذى أشغله - ولكن ها أنا الآن أملك قوة مادية أعطاهها لى الله وهى منصب رئيس الجمهورية فلا بد أن أستخدمها للخير . . كان هذا خطى طول عمرى . . فأى عمل أقوم به يصدر عن مبادئ معينة هى إسعاد وحب مصر ولكن لم تكن الفرصة مواتية لى فى أى وقت مضى مثلما أصبحت بعد أن اختارنى الشعب رئيساً للجمهورية . .

وعندما أراجع خط سيرى فى الحكم فى تلك المرحلة المتقدمة أجد أننى فى ديسمبر سنة ١٩٧٠ أصدرت قرار تصفية الحراسات . . كانت للشعب آمال تراوده وكان هذا أحدها ولذلك لم أدهش عندما علمت أن القرار قد استقبل بحماس شديد ليس فقط من جانب أولئك الذين كانوا قد وضعوا تحت الحراسة بل أيضاً لدى جماهير الشعب العريضة التى لن يفيدها القرار فى شىء مثل سائقى التاكسى وغيرهم .

بالنسبة للوضع الخارجى فقد تقدمت بعد ٤ شهور من بدء ولايتى بالمبادرة المصرية التى كان لها وقع شديد خارج مصر وداخلها فكنت أرى أنه ما دامت المعركة العسكرية مستحيلة فلا بد أن تحل محلها معركة دبلوماسية لأن القاعدة العريضة من الشعب تتطلب دائماً الحركة المستمرة . .

عندما تسلمت الحكم كانت التركة التي تركها لى عبد الناصر مبهمة بالنسبة لى أول الأمر - ولكن أيا كان الوضع الذى كانت مصر فيه فقد قبلت التحدى لأصححه . . كنت أعرف أن القيم قد ضاعت ولكنى استطيع أن أصحح هذا بقيمى ومبادئى . . وليس بضرب الناس . . كانت مراكز القوة تحكم أمام عيني فقلت لهم : أنا أتسامح ولكنى لا أسمح بالعيب . .

لم يكونوا يعرفون أنى لا أسمح لنفسى بالحكم على مصائر الناس بتقارير تقدمها مراكز القوى كنت أعلم أنها مزورة وليست إلا شهوات انتقام أو تخويف . . وكانوا يجهلون أيضاً أنى لا يهمنى أن أبنى نفسى فى الخارج . . فالصورة يجب أن تكون فى مصر أساساً . . ولعلمهم كانوا يجهلون أيضاً أن أبشع ما واجهت هو جبل الحقد الذى بناه عبد الناصر على كل المستويات حتى على مستوى الأسرة الواحدة حيث كان يمكن للإبن أن يتجسس على أبيه أو أخيه كما كان يحدث فى الأنظمة الفاشية . . وهذا فى تقديرى أقبح ما يمكن أن نصل إليه . فعندما قامت الهيئة التأسيسية للضباط الأحرار قبل الثورة كانت تركز على

أساس خلقي ومثالى . . وعندما أصبحت مجلس قيادة الثورة كان يحكمنا نفس الأساس ولكن بداية حكم الثورة كانت غير موفقة ، فبدلاً من أن تبدأ بالثقة وتعطى الفرصة إلى أن يثبت العكس (كما أو من أنا وكما تعودت أن أمارس فى حياتى) بدأت بالشك فى كل إنسان إلى أن يثبت العكس وهو الثقة وهو نادراً ما يثبت لأسباب كثيرة . . من أجل هذا أوغرت النفوس ضد الثورة . . ولذلك فى الأربع سنوات الأولى وهى حكم مجلس قيادة الثورة كانت هناك أخطاء وانتهكات فى حق الإنسان المصرى ولكنها كانت فى دائرة ضيقة اتسعت فيما بعد . . فى سنة ٥٦ كان يجب على عبد الناصر أن يؤصل الانتصار بعد انتصاره فى معركة القناه بأن يعطى للشعب المصرى بعد معركة ١٩٥٦ حريته كاملة ولكنه لم

يفعل فكانت النتيجة أن أصبح الإنسان المصرى سلبياً مما جعل انتصارات عبد الناصر كلها انتصارات على السطح بالنسبة للشعب . . لأنه يعرف في أعماقه جيداً أنه لم يشارك بل ولم يؤخذ رأيه في أمر ما . . وعندما كان الشعب يتململ من هذا كان تململه يفسر على أنه ثورة مضادة فتقع الحراسات والاعتقالات وكل هذا هو التطبيق الفعلي لامتهان كرامة الإنسان . .

وقد لاحظت أن أكبر خطأ ارتكب في حق الإنسان المصرى كان هو زرع الخوف . . فبدلاً من أن نبني الإنسان أصبح كل همنا أن نخيفه . . والخوف هو أخطر ما يهدم كيان الفرد أو الشعب فلقد كانت أرزاق الناس كلها ملكاً للحاكم إن شاء منح وإن شاء منع وكان المنع مصحوباً في أغلب الأحيان بمصادرة حرية الفرد واعتقاله ثم فصل جميع أهله من وظائفهم مع اتخاذ إجراءات ضدهم . .

وهكذا تحول الناس إلى « مساحيط » أو أصبحوا دمي في أيدي حكامهم يفعلون بهم ما يشاؤون . . فلم يعد مسموحاً للناس بالسفر أو بأن يقولوا كلمة تختلف عما يقوله الحاكم وإلا اعتقلوا أو صودروا في أرزاقهم . . ومن هنا ازداد الناس سلبية فقد أصبح الأمان لهم أن يسيروا إلى جانب الحائط لا شأن لهم بأحد ولا بأى شيء مما يدور حولهم وكأنهم أصبحوا لا يبصرون ولا يسمعون ولا ينطقون . . من أجل ذلك قلت وما زلت أقول إنه بقدر ما كانت ثورة ٢٣ يوليو عملاقة في إنجازاتها فإنها كانت أيضاً عملاقة في أخطائها . . ولكن مع الزمن انتهت الإنجازات أو ذهبت أو أصبحت أمراً واقعاً مجرداً من الهالة ولم يبق من الثورة غير بقعة سوداء رهيبة تشيع الحقد والخوف بين الناس ولكنهم لا يملكون منها فراراً . .

ولكن رغم هذا كله ، يخطيء من يظن أن شعب مصر يمكن أن يموت فهو عملاق دائماً قد يتحمل أشد أنواع الأذى من الداخل والخارج ولكن هذا الأذى لا ينال منه أبداً . . فبمجرد أن ينكشف عنه الغبار تجده عملاقاً كما هو . . قد تجده مجروحاً ينزف دماً . . ولكنه يعلم أنه سيأتى الوقت الذى يقف فيه الزيف ويضمد جراحه . . هذا هو الشعب المصرى الذى آمنت وما زلت أومن به وأدعو الله أن يمكنى من أن أزيل من طريقه جميع المعوقات وأن أجعل الكلمة الأولى والأخيرة له فأنا أعرف أنه عند ذاك سوف يحقق المعجزات . .

كانت التركة التي ورثها من عبد الناصر في حالة يرثى لها . . فمن الناحية السياسية وجدت أن علاقتنا مقطوعة مع جميع انحاء العالم ما عدا الاتحاد السوفيتي . . وفي العالم العربي ساد ما نادى به عبد الناصر وسمى بالتقدمية والرجعية وبناء على هذا التقسيم التعسفي كان يقيم أو لا يقيم علاقاته بدول الأمة العربية . . وقد أخذ درساً حين رأى أن الذي وقف إلى جانبه بعد هزيمة سنة ١٩٦٧ كانوا من ظل طول حياته يصفهم بالرجعية مثل السعودية والكويت والملك السنوسي ملك ليبيا فهم الذين دعموه بالمال بعد الهزيمة .

كانت السياسة عند عبد الناصر تخضع لانفعالاته ، وقد أدرك هذا أولئك الذين يحيطون به ولذلك كانوا يستطيعون تطويعه كما يريدون إذا أحضروا إليه في الوقت المناسب المعلومات المناسبة التي يفجرها فتحدث في العالم دويّاً هائلاً . .

أذكر أنه في سنة ١٩٦٤ كان عبد الناصر على وشك أن يلقي خطابه بمناسبة عيد النصر في ٢٣ ديسمبر في بورسعيد كما اعتدنا كل سنة بعد عدوان سنة ١٩٥٦ . . وقبل الخطاب بخمس دقائق قال له على صبرى وكان رئيساً للوزراء إن وزير التموين سأل السفير الأمريكي عن موعد وصول معونة القمح فرد السفير بما أهان مصر وقال للوزير إن الكونجرس لم يوافق بعد - وبعد أن سمع عبد الناصر هذا « التقرير » مباشرة ألقى خطابه فجاء مليئاً بالسباب والطعن

في أمريكا . . . وعندما سمع السفير الأمريكي الخطاب ذهب مباشرة إلى المسؤولين وقال إن شيئاً مما نسبته إليه عبد الناصر لم يحدث وأيد السفير وزير التمسوين المصري نفسه فقد بادر بعد سماعه الخطاب إلى الإتصال بمستشار عبد الناصر الصحفي ونفى هذه المعلومات وطلب إبلاغ ذلك إلى عبد الناصر . وأسقط في يد عبد الناصر فقد أدرك أن أقدار الشعوب لا يمكن أن تكون رهينة الانفعالات وهكذا اضطر إلى أن يطلب منى ومن عبد الحكيم عامر أن نصلح هذا الأمر فاجتمعنا مع السفير الأمريكي على مائدة عشاء في منزل المستشار الصحفي المذكور وحاولنا بكل المحاولات أن نصلح هذا الخطأ . . . ولكن لم يلبث الأمر أن تكرر . . . إذ أن ما حدث مع أمريكا حدث أيضاً مع إيران فقد أسر أعوان عبد الناصر إليه بكلمات نسبوها إلى شاه إيران خطأ قبل أن يلقى خطاب ٢٦ يوليو في الاسكندرية (وكان هذا تقليداً منذ خروج الملك من الإسكندرية في ٢٦ يوليو سنة ١٩٥٢) فما كان من عبد الناصر إلا أن أعلن قطع العلاقات مع إيران في هذا الخطاب ، رغم أنه ثبت فيما بعد أن حديث الشاه كانت قد حرفته وكالات الأنباء . . . ومرة أخرى طلب منى عبد الناصر أن أصلح الأمر مع شاه إيران في المؤتمر الإسلامى الذى عقد في الرباط حيث مثلت عبد الناصر لإصابته في ذلك الوقت بأزمة قلبية وطلب منى أن أوسط الملك حسين في ذلك وقد فعلت ذلك ولكن المصالحة لم تتم . . . كانت هذه هى التركة التى ورثها سياسياً . . . لا وجود لوزارة الخارجية أو سياسة مدروسة ومخططة . . . لم يكن هناك سوى الرئيس نفسه الذى ينفعل فيصدر قراراته بناء على هذا الانفعال وهو راض سعيد ما دام كل ما يقوله يصفق له الشعب . . .

أنا اختلف عن عبد الناصر في هذه الناحية اختلافاً تاماً ، فعندما أردت أن ألغى المعاهدة مع السوفييت بعد ما فوتوا على سنة الحسم بعدم الوفاء بالتزاماتهم . . . ومناوراتهم التى لم تكن لها نهاية . . . اتصلت بطرف ثالث من دول عدم الإنحياز وهى الهند وطلبت منها أن ترسل إلى بعض الأسلحة التى تصنعها بموافقة السوفييت لأنها أسلحة سوفيتية واتصلت الهند بالاتحاد السوفيتى تستأذنه فى

إرسال الأسلحة ولكن رفض السوفييت لأنهم كانوا يأملون في أن يصبح السلاح الذى عندى خردة يباع لمجمع الحديد والصلب . .

كان هناك طرف ثالث يقوم بدور الشاهد وهى الهند . . ولذلك وجدت الفرصة مناسبة لكى أخلص البلاد من آخر التزام عليها وهو المعاهدة السوفيتية وخاصة بعد مسلك الاتحاد السوفيتى وأيضاً كنت لا أريد أن أترك من خلقي التزاماً قد يستغل من بعدى وأيضاً لأننى كنت الذى عقدها وقبلها الشعب على مضض لثقتة فى . .

وفى رأى أنه ليس من حق أى إنسان أن يحتكم إلى انفعالاته عندما يتعلق الأمر بمصير الوطن . . بل يقتضى الواجب فى نظرى أن أبحث عن كل مصدر لخير وسعادة الشعب وأن أفتح كل الأبواب التى أغلقت فى وجه مصر مهما كلفنى هذا من جهد وعناء . .

واليوم وبعد أن أصلحت كل هذه الأخطاء فإننى أفخر أن علاقات مصر بإيران وبالعالم كله تقوم على الثقة والاحترام المتبادل ولن أنسى أبداً يوم أن كان احتياطى البترول فى مصر قد أصبح فى مرحلة الخطر بعد معركة أكتوبر سنة ١٩٧٣ لأن حقول بترولنا كانت مغلقة وأرسلت إلى شاه إيران فبادر فى الحال بإرسال أكثر من نصف مليون طن وأمر ناقلات البترول فى عرض البحر أن تغير طريقها لكى تتوجه إلى مصر لنجدها وهو يقول : « السادات أخ لى - والذى يريده سأستجيب له فى الحال » .

كانت التركة التي ورثها اقتصادياً أسوأ بكثير من التركة السياسية فاستقلال
أى بلد حر هو فى حقيقته الاستقلال الاقتصادى وليس الشعارات السياسية . .
فماذا كان حالنا سنة ٧٠ ؟

كنا قد نقلنا بغباء شديد النمط السوفييتى ونحن نسير على الخط الاشتراكى
رغم أننا كنا نفتقر إلى الموارد والإمكانات وتراكم رأس المال . فى سنة
١٩٥٢ عندما استلمنا البلد كانت ميزانية مصر ٢٠٠ مليون جنيه تركهسا
لى عبد الناصر ٢٠٠٠ مليون ، ولكن لم تكن هذه الزيادة إلا على السطح فقط
أما فى الأعماق فالمسألة تختلف تماماً . . فعندما تم تمصير البيوت الأجنبية
فى مصر بعد معركة العدوان الثلاثى فى أواخر سنة ١٩٥٦ انعكس هذا الحال
على الوضع الاقتصادى لمصر . . وكان لنا فى هذا الوقت أيضاً أرصدة مقدارها
٤٠٠ مليون جنيه استرلىنى ودائع فى إنجلترا من متخلفات الحرب العالمية الثانية
فأفرج عنها بعد أن كان إيدن قد جمدها بعد تأميم قناة السويس .

وهكذا . . فى أول يناير سنة ٥٧ بعد الإفراج عن ودائعنا فى لندن وتأميم جميع
البيوت الأجنبية عندنا كنا فى أروع أوضاعنا الاقتصادية . . ومن هنا بدأ القطاع
العام بالأموال والمؤسسات التى مصرت ولم تكن تقل فى مجموعها عن ألف
مليون جنيه . . ولكن لو كان البدء سليماً لكنا الآن دولة عظمى . . فى
سنة ٦١ صدرت قوانين التأمين . . وكان من الممكن أن ينطلق اقتصادنا بالقطاع
العام مع تشجيع القطاع الخاص إلى آفاق هائلة لأن المنافسة بين الإثنين

في صالح بناء أكبر واندفاع أعظم ، ولكن الذي حدث هو أن التطبيق الاشتراكي بدأ يتجه إلى الماركسية فأصبح أي عمل حر رأسمالية بغيضة وأصبح القطاع الخاص استغلالات ولصوصية فاخترت تماماً نشاط الأفراد مما استتبع سلبية رهبة من جانب الشعب أعاني منها إلى اليوم وصلت إلى أن أصبحت الدولة مطالبة - إلى جانب التخطيط وإدارة السياسة الخارجية والداخلية - بتوفير البيض والدجاج ومئات من الحاجات التي كان يمكن أن يوفرها الأفراد بالمبادرة والنشاط الفردي .

ولقد كان من نتيجة هذا أن أصبح الشعب حسب النظرية الجديدة يعتمد على الدولة في كل شيء . . الأكل والوظيفة والسكن والتعليم ، فما دامت الدولة قد أصبحت اشتراكية فعليها أن توفر للمواطن كل ما يتطلبه دون أي جهد إيجابي من جانبه . . وهذا الانكماش هو زاوية الهبوط إلى الهاوية . .

في سنة ٧٠ قرأت تقريراً صدر في أمريكا بعد تحليل لواقع مصر الاقتصادي يقولون فيه : « اتركوا عبد الناصر يصرخ فسوف يركع على ركبتيه اقتصادياً في القريب العاجل » .

كنا في ذلك الوقت نعتمد فقط على أنفسنا فلا معونة أمريكية أو سوفيتية أو عربية أو غربية فكل ما كنا نأخذه من الغرب والشرق والعرب كان الشماتة . . فقد ضاع اقتصادنا في حرب اليمن والانفصال عن سوريا والتطبيق الماركسي للاشتراكية وهزيمة يونيو المنكرة . .

قرأت التقرير مرة ومرات واستلفت نظري ما جاء فيه من أن زيادة السكان بمصر وبالتالي زيادة الاستهلاك سوف يجعل الاقتصاد المصري يصل إلى مرحلة الصفر في خلال سنتين من سنة ١٩٧٠ على الأكثر ففزعت ولكني اعتبرته دعاية من الغرب وأنه ضمن الحملة النفسية التي تشن علينا

لكى نسلم لإسرائيل ولكن بعد أن توليت اكتشفت الحقيقة المرة - فقد استدعيت وزير المالية والاقتصاد - د. حسن عباس زكى وسألته عن الموقف الاقتصادى فقال ببساطة: إن الخزينة فاضية . . وإننا نكاد نكون فى حالة إفلاس . . قلت له: « كيف وصل الحال إلى هذا؟ ألم تخبر جمال؟ » قال: « أنا قعدت ألبس طاقية ده لده ولكن دلوقتى خلاص » .

أرسلت واقرضت ٢٠ مليون جنيه ولكن حسن عباس زكى قال لى إن هذا المبلغ لم ينفع كثيراً . . وكنت أذعر فعلاً . . عندما أدركت أننا على وشك أن يأتى اليوم الذى لا نملك فيه رواتب الجنود المرابطين على الجبهة ومرتبات الموظفين فإذا جاء يوم ولم يقبضوا رواتبهم وعرفوا أن أهلهم فى مصر لا يجدون ما يأكلونه فسوف يتركوا الجبهة وتنهار مصر . .

طبعاً كافحت واستعنت بكل مدد يمكن الإستعانة به . . ولم أشعر طوال سنة ٧١ و سنة ٧٢ بحقيقة الكارثة ولكن قبل المعركة بخمسة أيام واجهت مجلس الأمن القومى بحقيقة اقتصادنا وبأنه تحت الصفر وهذا أمر لوصادف غيرى أو أى إنسان لا بد أن يخيفه ولكنى فكرت وقررت . . ولا اعتقد أن أحداً مكانى كان سيجد الشجاعة لإصدار أى قرار ولكنى كنت على ثقة أن مفتاح كل شىء سياسياً واقتصادياً وعسكرياً هو أن نصصح هزيمة سنة ١٩٦٧ لكى نستعيد ثقتنا فى أنفسنا وثقة العالم بنا فلم يكن الوضع الاقتصادى سوى بعد واحد من أبعاد المشكلة .

لقد كان محو عار ومهانة هزيمة سنة ١٩٦٧ هو الأساس ، وكان تقديرى أننى حتى لو دفنت مع أربعين ألف من أبنائى فى القوات المسلحة ونحن نعبر القناة فسيكون ذلك أشرف لنا ألف مرة من أن نقبل هذا الإذلال وتلك المهانة وستأتى الأجيال القادمة من بعدنا لتقول إنهم ماتوا بشرف فى المعركة ولا بد أن يكملوها بعدنا .

فى وفاة عبد الناصر أرسلت أمريكا أحد وزراء نيكسون وهو ريتشاردسون للتعزية وعندما عاد إلى بلاده كتب تقريراً بأن السادات لن يبقى فى الحكم لأكثر من أربعة أسابيع إلى ستة أسابيع . . وفى الداخل بدأ عملاء الاتحاد السوفيتى فى القيادة السياسية الصراع . . وظهر هذا واضحاً بعد أن أصدرت قرار إلغاء الحراسات بعد شهرين فقط من ظهور نتيجة الانتخابات . .

فى هذه الأثناء كنا قد بدأنا نجتمع - مصر وليبيا والسودان وسوريا - من أجل تحقيق وحدة بين البلاد العربية . . لم يكن السودان على استعداد للدخول فى أى عمل وحدوى فى هذه الفترة حتى يتم إقامة مؤسساته الدستورية وكان القذافى يتظاهر بأنه وحدوى متطرف . . أما حافظ الأسد فقد كان حريصاً على الوحدة من أول لحظة . . واتفقنا على الصيغة التى نبدأ بها الوحدة وهى صيغة الجمهوريات العربية المتحدة على أن تكون لكل جمهورية شخصيتها بنظامها ورئيسها حسب أوضاعها وظروفها وبعد ذلك يتكون ما يسمى مجلس الرئاسة ويجتمع رؤساء جمهوريات الوحدة لكى ينسقوا عملية الوحدة والخطوات إليها . . وكان هذا الأسلوب هو ما اتفقنا عليه فى حياة عبد الناصر كدرس مستفاد من الانفصال الذى وقع للوحدة بين مصر وسوريا عام ١٩٦١ التى لم تستمر إلا ثلاث سنوات فقط .

وجد مركز القوة الأول الذى يتكون من على صبرى وشعراوى جمعة وسامى شرف وجميعهم عملاء للاتحاد السوفيتى - وجد هذه فرصة للتصارع وكان معى

ضمن وفد مصر للوحدة على صبرى فصرح بأن ظروف مصر لا تسمح بالدخول في أى نوع من الوحدة . . وكان هذا أول محك للصراع بينى وبين مراكز القوة . . ففى مراحل الوحدة المختلفة كان على صبرى ومعه بقية وفد مصر من القيادة السياسية التى تركها لى عبد الناصر يحاولون تلقيم الطريق إلى الوحدة مع كل من ليبيا وسوريا . . لم يقل لى القذافى أنهم يتصلون به ليضعوا العقبات فى طريق الوحدة أما الأسد فقال لى : « أنت فى وضع غريب جداً . . أنت بتتكلم كلام والوفد اللى معاك بيتكلم كلام مختلف تماماً من وراك » .

وفى اليوم الأخير لاجتماعاتنا قال نميرى : « أنا زى ما قلت لكم مش جاهز للوحدة وكل ما تتخذه من خطوات وحدوية بينك وبين سوريا أنا أوئيده ١٠٠٪ لأنه أمر يخص معركتنا القومية » ، وكان فى اليوم التالى سيسافر إلى موسكو . . وهكذا انتهت المحادثات بالفشل فذهبت إلى القذافى قبل أن يعود إلى ليبيا فى الصباح وقلت له : « يا معمر لعلمك أن حافظ الأسد رئيس سوريا لن يغادر مصر هذه المرة إلا وقد أقمت أنا وهو الجمهورية العربية المتحدة . . هذا قدرنا فمعركتنا واحدة » .

قال : « أنا مستعد أدخل معاكم . . » . . مع أنه فى الليلة السابقة كان له رأى مخالف تماماً لما يقول فهو يريد إما أن تقوم الوحدة على ما يراوده من آمال وأحلام وإلا فهو يضع فى طريقها العقبات . .

قلت له : « الوضع حيكون شاذ لأن نميرى سافر النهارده على أساس أن الاجتماع الرباعى فاشل . . فإذا كنت عايز تخش معانا نرجع لاجتماعنا الذى كان مقررأ فى بنغازى اللى كنا متفقين عليه قبل الاجتماع الرباعى . . أنت تسبقنا على بنغازى وأحنا نيجى بعدك بكذا ساعة » .

وكان هذا الاجتماع الرباعى بين مصر والسودان وليبيا وسوريا قد تم عقب اتفاقنا على اجتماع ثلاثى بين مصر وسوريا وليبيا فى بنغازى ولكنه

عدل إلى اجتماع رباعي في القاهرة بإضافة السودان كطلب الرئيس السوداني نميري . .

طلبت وفداً للذهاب معي إلى ليبيا وكونته من حسين الشافعي وعلي صبري وهما نائبا رئيس الجمهورية في ذلك الوقت . . ذهب علي صبري مبكراً إلى المطار ومعه شعراوي جمعه بصفته وزيراً للداخلية - وهما اللذان كانا يمثلان القيادة بالنسبة لمركز القوة الأول العميل للاتحاد السوفيتي - فعليه أن يكون في وداع القذافي . . انفرد علي صبري وشعراوي جمعة بالقذافي في المطار وبدأوا عملية التخريب فاستجاب لهم وقال لهم : « والله الرئيس السادات هو اللي أخرجني » . . وعندما وصلت المطار قال شعراوي جمعة لي : « القذافي يقول إن سيادتكم ضغطت عليه وهو مش عاوز الوحدة » .

ووجدت علي صبري يقول لي نفس الكلام . . فقلت أنا أرفض الاستماع إلى هذا اللغو . .

وفي بنغازي جلسنا حول مائدة الاجتماع وكان هناك مجلس قيادة الثورة الليبي كله والرئيس الأسد والوفد السوري وأنا والوفد المصري . . أخبرت المجلس بما حدث بيني وبين القذافي وأن الوحدة التي نجتمع من أجلها ليست حرجاً لأحد وذكرت قول القذافي أنه أخرج فلم يتكلم القذافي ولم يعلق علي صبري فبدأنا المناقشة ولكن بعد يومين فقط كان من الواضح أننا لن نستطيع أن نتفق وقررنا السفر وأرسلنا الحقائق إلى المطار وأعدنا البيان الذي سيعلن عقب الاجتماع وفيه أننا لم نتفق وسبقنا الصحفيون إلى المطار وإذا بسوريا تتصل بالقذافي وتعرض عليه تعديل صيغة معينة كنا متفقين عليها فيوافق ويعرضها على فأوافق فأرسلنا لاستدعاء الصحفيين ووقع اتفاق بنغازي . . فإذا بعلي صبري يأتي إلى ويقول إنه غير موافق . . فقلت له : « أجل معارضتك هذه إلى أن نعود إلى القاهرة » . .

في القاهرة جمعت اللجنة التنفيذية العليا وكانت مكونة من ثمانية أشخاص عرضت عليهم الاتفاق على الوحدة الذي وقعته عن مصر في بنغازي وبعد مناقشات طويلة وضح فيها أن الأغلبية وهم مركز القوة الأول من عملاء روسيا كانوا متكتلين لإسقاط الاتفاق وجاهزين في أول اختبار قوة معي لكي يفرضوا الوصاية على قراراتي ، أخذت الأصوات فكانت النتيجة خمسة من ثمانية هم عملاء الاتحاد السوفيتي في القيادة للرفض ضد ثلاثة هم أنا والدكتور فوزي رئيس الوزراء وحسين الشافعي نائب رئيس الجمهورية . . فكان واضحاً أن الصراع في أوجه فإما أن يجهزوا على وإما (على الأقل) أن يحدوا من سلطتي نهائياً بحيث لا أستطيع أن أتخذ أي قرار إلا بموافقتهم . .

وفوجئوا إذ لم يكونوا جاهزين للمفاجأة من جانبي حين طلبت عرض الموضوع ونتيجة التصويت على اللجنة المركزية ، ولم يكونوا جاهزين لهذه المفاجأة كما قلت فحاولوا كسب الوقت بإعادة الدراسة ولكنني أصرت على عرض الأمر كله على اللجنة المركزية التي لم يستطيعوا بكل الجهود اليائسة التي بذلوها كسبها إلى جانبهم . . ووافقت اللجنة المركزية بالإجماع على الاتفاق . . وهكذا انتهى اختبار القوة معي إلى انتصاري المطلق وتسليمهم . . ولكن إلى حين .

في يناير سنة ١٩٧١ كان على أن اتخذ قراراً بالنسبة لمبادرة روجرز فدعوت إلى اجتماع اللجنة المركزية العليا ووزير الحرية ووزير الخارجية - وكان واضحاً من المناقشة أن الرأي الغالب وهو رأي مراكز القوة وهم الأغلبية

في القيادة السياسية التي تركها لى عبد الناصر بأن نستأنف حرب الاستنزاف مع إسرائيل في الوقت الذي كان فيه نصف الوطن وهو الصعيد معرضاً لإغارات إسرائيل كما حدث خلال عام ١٩٦٨ ، ١٩٦٩ ورغم أن الاتحاد السوفيتي كان يماطل في إرسال الصواريخ لمواجهة هذه الإغارات وحماية منشآتنا في الصعيد (برغم أننا وقعنا معه اتفاق إرسالها) وكان يسوف في إرسالها بمختلف الحجج . .

وكان واضحاً أيضاً من مناقشاتهم أنها مناورة لإحراجي وإحراج البلد فانهت من الاجتماع بأن قلت لهم إنني لن أدخل حرب استنزاف أخرى حتى تصاني بطاريات الصواريخ وأؤمن المنشآت في الصعيد نصف مصر كما أنني سأجدد مبادرة روجرز بشهر واحد فقط ينتهي في ٧ مارس ١٩٧١ حتى أعطي آخر فرصة للعالم وأمريكا وإسرائيل ليتحملوا مسئولياتهم . .

وفي ٤ فبراير سنة ١٩٧١ أعلنت أمام البرلمان للعالم كله ولشعبنا وللأمة العربية مبادرة مني أساسها أنه إذا انسحبت إسرائيل من ضفة القناة إلى المضائق فإننا على استعداد لفتح قناة السويس بعد أن تعبر قواتنا إلى شرق القناة وسوف أمد الثلاثة شهور الواردة في مبادرة روجرز إلى ستة شهور بدلا من ثلاثة وسيكون هناك وقف إطلاق نار رسمي وأيضاً سوف أعيد العلاقات مع أمريكا . . لم أخبر أحداً من مراكز القوة بمبادرتي هذه ففوجئوا بها يوم أعلنتها في خطاب ٤ فبراير في مجلس الشعب فأصيبوا بوجوم شديد . . في حين أن العالم الخارجي استقبلها أحسن استقبال . . ف لأول مرة ينتبه العالم لنا لأن كلامنا قبل ذلك لم يكن موضوعياً . . مجرد حماس وانفعال . .

أما الشعب المصري فبأصواته وحسه المرهف أدرك المبادرة ورحب بها كل الترحيب .

في فبراير سنة ١٩٧١ أيضاً فكرت في السفر إلى الاتحاد السوفيتي لأول مرة بعد انتخابي رئيساً للجمهورية لأطالبهم بتنفيذ الجزء الثاني من الإتفاقية التي عقدها مع عبد الناصر وهو إمدادنا بسلاح الردع . . كذلك استعواض الذخيرة التي استهلكناها في حرب الاستنزاف ولتزويدنا ببطاريات الصواريخ من أجل حماية المنشآت في الصعيد . . فأرسل إلى السوفييت أنهم على استعداد

لمقابلتي في ١ ، ٢ مارس وطلبت منهم أن تكون الزيارة سرية ، وسافرت وجلسنا على مائدة المفاوضات في الكرملين وشرحت لهم متاعبنا منذ عهد عبد الناصر ومطالبنا الحيوية وبدأت حديثي بتقرير النقطتين الأساسيتين اللتين قررتهما في كل اجتماعاتي التالية مع قادة الكرملين . . الأولى هي أنه لن يحارب لنا معركتنا جندي سوفيتي والثانية أننا لا نسعى إلى المواجهة بين الاتحاد السوفيتي وأمريكا . . وكنت في شدة الانفعال والحماس فاشتبك مع كوسيجين رئيس الوزراء السوفيتي كما اشتبك مع المارشال جريتشكو وزير الدفاع السوفيتي ورددت عليهما بعنف مما جعل بريجنيف يتدخل ويعلن لي أن الحكومة السوفيتية قد وافقت على تزويد مصر بعدة أصناف من الأسلحة . . لم تكن هي المطلوبة فعلاً ولكن قبلناها لحاجتنا الماسة إلى أى سلاح – كان هذا أسلوب السوفييت معنا دائماً ولكني قلت لهم في هذا الاجتماع : –

– نحن نشكركم ولكن لا بد أن أسجل هنا في محضر الاجتماع أننا مختلفون .

أثناء اشتباكي معهم في هذا الاجتماع قالوا إنهم على استعداد لأن يرسلوا لنا طائرات بالصواريخ ويدربوا عليها المصريين على أن لا تستخدم إلا بموافقة الحكومة السوفيتية . . عندئذ اشتد غضبي وقلت لهم :

« مفيش قرار في مصر إلا لي كرئيس لمصر وأنا برفض هذه الطائرات » بعد ذلك أخذني بريجنيف وقال لي بيني وبينه « أنت عارف الطائرة الميج ٢٥ اللي عندك منها ٤ ؟ » قلت : « دي طائرة ممتازة » . . قال لي : – « سأرسل لك منها ثلاثين تستخدمها قاذفات » . . قلت له : « عندئذ يبقى أنا تنازلت عن كل خلاف على شرط أن الطيارين يأخذوا أوامرهم مني أنا » . .

طبعاً لم يرسل بريجنيف ما وعد به فأصدرت أمرى بأن الأربع طائرات ميج ٢٥ (مثل التي طار بها طيار سوفيتي إلى اليابان) والتي كان يعمل عليها طيارون سوفيت لا تطير . . فإما أن يعودوا إلى بلادهم . . وإما أن أشتري هذه الطائرات .

كانت لدى هذه الطائرات الأربعة ميج ٢٥ وقد قبلت وجودها على الأرض المصرية لأداء الخدمات المطلوبة للاستطلاع للقوات المصرية ولكنها لم تقم سوى مرتين بهذه المهمات ورفض الطيارون أن ينفذوا ما تأمرهم به .

واتضح أن وجودهم كان للاستطلاع لحساب الاسطول السوفيتي الخامس في البحر الأبيض ضد الاسطول السادس الأمريكي في هذا البحر . .

وقد سحب الاتحاد السوفيتي هذه الطائرات ورفض أن يبيعها لى . .

وفي اجتماع اللجنة التنفيذية العليا رويت لهم ما حدث في موسكو وقلت « أنا رفضت قبول هذه الطائرات لأن الشرط كان أن آخذ موافقة موسكو عند استخدامها وليكن واضحاً لكم جميعاً أنه ليس في مصر قرار إلا لى أنا كرئيس جمهورية وأنا لا أريد سلاح الردع هذا إذا كان بهذه الشروط » .

لم يستطع المتآمرون وهم أغلبية القيادة السياسية التى تركها لى عبد الناصر أن يتفوهوا بكلمة أمامى ولكنهم خرجوا من الاجتماع ساخطين على فكيف لا أوافق على أخذ الإذن من الاتحاد السوفيتي وهو دولة عظمى . . ! !

لم يرسل لى السوفيت بطاريات الصواريخ إلا فى شهر إبريل سنة ١٩٧١ أما الذخيرة فقد أرسلوا شيئاً منها ولم يرسلوا بقيتها إلا أثناء حرب أكتوبر سنة ٧٣ . . أما الطائرات وسلاح الردع الذى وعد به بريجنيف فقد كان مجرد كلام . .

هكذا كان السوفيت معنا دائماً . . يضعوننا فى موقف لا نملك فيه أن نتخذ قراراً . . فى ٧ مارس أعلنت فى خطابى أننا غير ملتزمين بوقف إطلاق النار كما أعلنت انتهاء مبادرة روجرز وكان المفروض أن أبدأ بعد هذا مباشرة حرب الاستنزاف ولكن عدم وفاء السوفيت بوعودهم جعلنى غير قادر على الحركة فى ذلك الوقت . .



كانت مبادرتي التي أعلنها في ٤ فبراير سنة ١٩٧١ نقطة بدء لمعركة سياسية لأنه لم يكن في مقدوري في ذلك الوقت أن أفتح معركة عسكرية وكنتيجة لمبادرتي اتصلت بنا أمريكا واقترحت أن يزورنا روجرز فرجت . .

وكانت صدمة للاتحاد السوفيتي وعملائه وخاصة من كان منهم في مراكز القوى. كان قد أصبح واضحاً لمراكز القوة هذه والمتآمرين أني بدأت أكسب أرضاً في مصر وخارج مصر ولكن صراعهم كان تحت السطح مما جعلهم يعجلون بعملية التآمر للخلاص مني . .

طلبوا مني في أول الأمر أن أعين وزير الداخلية وهو أحد كبار المتآمرين وعملاء السوفييت رئيساً للوزراء ولكني رفضت . . وكنت قبل ذلك قد قررت تصفية على صبري عميد العملاء السوفييت في مصر .

وفي لقاء بيني وبين السفير السوفيتي قلت له : « أنا حريص على العلاقات معكم ولكني أرجو أن تبلغ القيادة السوفيتية أنني قررت تصفية على صبري من القيادة السياسية وقد أخبرتك بهذا الأمر مع أنه من صميم شئوننا الداخلية التي لا أقبل فيها تدخلا من أحد ولكنني أخشى عندما أصفيه أن تتحدث صحف الغرب عن تصفيه رجل موسكو الأول في مصر وأن يسبب هذا لكم شيئاً من الحساسية ، وأرجو أن تعلموا أنه لا يوجد لموسكو رجل في مصر فأنتم تتعاملون مع الحكومة لا مع أفراد . . وأنا أصفى على صبري لأنني أقبل الخلاف في الرأي ولكن لا أقبل الصراع على الإطلاق » . .

بدأت مراكز القوى أو على التحديد مركز القوة رقم واحد الاجتماعات والتحريض وبدأ الناس يرسلون لي شكاوى ضدهم موقعة ويخبروني

بالتعليمات التي صدرت إليهم من الاتحاد الاشتراكي الذي كان تحت سيطرتهم فكنت أحيل هذه الخطابات إلى المتآمرين أنفسهم وكنت أرقب حتى إذا اعتدى أحدهم على واحد من أصحاب الشكاوى طالبت به بالمبرر وفتحت المعركة . . وفي أواخر إبريل أصابتهم الحسى فأكثروا من الاجتماعات والتحريض وأطلقوا المزيد من الإشاعات وكان عندهم جهاز إشاعات يفخرون بكفاءته إذ كانوا يقولون إنه باستطاعتهم أن يطلقوا الإشاعة من القاهرة فتشيع في جميع أنحاء البلاد ثم تعود إليهم في زمن قياسي . . وهو تكتيك معروف في روسيا بما يسمونه مراكز التهييج . .

كنت قد وقت معركتي معهم على أن تكون في عيد العمال وهو أول مايو سنة ١٩٧١ . . وقد حاولوا إفشال هذا الاجتماع بكل الوسائل . . ولكنهم فوجئوا بأن خطابي استولى على اهتمام الناس فكان اجتماعاً من أنجح الاجتماعات . وفي يوم ٢ مايو سنة ١٩٧١ ، أقلت على صبرى من جميع مناصبه في سطر واحد صدر في الصحف . . ففرح الشعب بذلك فرحاً عظيماً وفي نفس الوقت زادت عند المتآمرين حمى التآمر والتحريض والاجتماعات والمناقشات وهم يظنون أنني لا أعرف شيئاً مما يدور . . أردت أن أكمل المعركة التي فتحتها ففقدت عدة اجتماعات في القوات المسلحة وقلت في آخر خطبة لي : « لن أسمح بمراكز القوة ولا بالصراع وأى واحد جيعمل حاجة ضد مصر أنا حافره . . » وكان يجلس بجانبى محمد فوزى وزير الحربية وقتذاك وهو واقع تحت تأثيرهم . .

كان المفروض أن أذهب في يوم الخميس ١٣ مايو سنة ١٩٧١ إلى مديرية التحرير ولكنى علمت أنهم قد دبروا كميناً هناك لاغتيالى فأجلت الرحلة معتذراً بأنى مجهد . . وقررت أن أتخلص منهم ولكن كان لابد من بيئة . . منذ تاريخ توليتى فى ١٦ أكتوبر سنة ١٩٧٠ إلى ١١ مايو سنة ١٩٧١ ، كانت هناك أسباب كثيرة للتخلص منهم ولكن كانت تنقصنى البيئة . . إلى أن أتى يوم ١١ مايو سنة ١٩٧١ فجاءنى ضابط بوليس شاب لم تكن لى به سابق معرفة . . وهو يحمل معه شريط تسجيل عليه مكالمة تليفونية بين اثنين من مراكز القوة يتضح فيها تأمرهم على وعلى الدولة وكيف كانت الإذاعة محاصرة يوم جلسة اللجنة المركزية للاستفتاء على مشروع الوحدة . . حتى إذا لجأت إلى الإذاعة لأخاطب الشعب أحاصر هناك ويغتالونى . .

عندما وصلنى هذا الدليل قلت يجب أن أضيفهم على الفور فلم يعد هناك شك فى تأمرهم على مصر - بدأت بإقالة وزير الداخلية زعيم التآمر . . . وفى الساعة الحادية عشرة إلا ثلاث دقائق من مساء نفس اليوم ١٣ مايو سنة ١٩٧١ جاءنى أشرف مروان (وهو زوج كريمة عبد الناصر) وكان يعمل مديراً لمكتب سامى شرف ، وهو يحمل استقالات رئيس مجلس الأمة ووزير الحربية ووزير الإعلام ووزير شئون رئاسة الجمهورية وأعضاء من اللجنة المركزية وأعضاء من اللجنة المركزية العليا . . . وكان المقصود بهذه الاستقالات أن يحدث انهيار دستورى فى البلد . . . قبلتها جميعاً وأعلنتها على الشعب فى الحال وحددت إقامتهم فى بيوتهم . . . وفى نفس الليلة أجريت تعديلاً وزارياً وأعيد تشكيل الوزارة ولم يحدث أى انهيار دستورى مما كانوا يحلمون به بل على العكس خرج الناس إلى الشوارع وهم يهللون فرحين بما تم لا يعرفون ماذا يفعلون فقد كانت الفرحة أكبر من أن تحتويها صدورهم . . . وهكذا تخلصت مصر من كابوس مركز القوة الأساسى الذى شل حركتها سنوات طويلة . . .

ولكن كان من الضرورى أن نتخلص من آثار هذه المراكز التى ظلت جاثمة فوق الصدور سنة بعد سنة تعبت بأقدار الناس تزرع الخوف فى الإنسان المصرى وتعطل العدالة وتشيع الحقد وتذيق الناس من ألوان القهر والتعذيب ما لا طاقة لهم به وتحرمهم من أهم مقومات الحياة وهى الحرية . . . فأمرت بحرق جميع شرائط التسجيل الموجودة فى وزارة الداخلية . . . وكان هذا رمزاً لإعادة الحرية إلى الناس . . . فقد أمرت على الفور بإغلاق جميع المعتقلات وتحريم الاعتقال وأعلنت أن لكل مواطن الحق فى أن يفعل أو يقول أى شئ فى ظل سيادة القانون .

كان ما حدث فى ١٥ مايو سنة ١٩٧١ والأيام التى تلتها تصحيحاً لمسار ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ولكنه كان فى نفس الوقت بمثابة اللبنة الأولى فى بناء المجتمع الاشتراكى الذى نعيشه اليوم والذى يتسم بالعدل الاجتماعى الحقيقى لا بالشعارات ، وبالعمل الإيجابى والأهداف الساطعة فى وضوح النهار لا التفسيرات الملتوية أو الفلسفات الدخيلة علينا البعيدة عن قيمنا العربية ، وعن إيمان هذا الشعب بالرسالات السماوية وتمسكه بتراث وتقاليده العائلية المصرية الأصيلة . . .

جاء بودجورنى لزيارتى فى أواخر مايو سنة ١٩٧١ ، وكانت صحف الغرب كما تنبأت فيما مضى قد نشرت أن رجل موسكو الأول فى مصر بل رجال موسكو كلهم قد وضعوا فى السجن . .

وفعلا نشرت بعض صحف الغرب صورة بودجورنى فى زيارته لمصر وهو يستعرض عملاء موسكو فى ملابس السجن . .

اجتمعت به وطلب منى أن تعقد مصر معاهدة مع الاتحاد السوفيتى . .

لم أعارض ولو أننى قلت إن التوقيت ليس سليماً فمراكز القوة رجالكم فى مصر ما زالوا فى السجن ولم يحاكموا بعد فأنتم بعقد المعاهدة تسيئون إليهم أمام الشعب لأنكم بهذا تؤكدون للشعب أنهم هم الذين كانوا يحمون مصالحكم ولكنه كان متلهفاً على عقد المعاهدة وقال إن المكتب السياسى قد اجتمع فى موسكو وأصر على المعاهدة . . قبلت وكان هدفى أن أطمئنهم فقد كنت أعرف أن من طبعهم أن يتركوا أنفسهم فريسة للشكوك فى كل علاقتهم مع الغير .

والشك فى نفسية الروسى طبيعة ثانية معروفة سواء وقت القيصرية أو الشيوعية . .

وفى اليوم التالى عقدنا المعاهدة وذهبت مع بودجورنى لأودعه فى المطار وطلبت منه وهو يهيم بركوب الطائرة أن ينقل للقادة السوفيت رسالة منى

وهي . . الثقة . . الثقة ، فقد شعرت أنهم مهتزون وكنت أخشى من هذا على معركتنا . .

أثناء اجتماعي مع بودجورني قلت له إننا غير سعداء بهذه المعاملة التي تعاملوننا بها ومع ذلك فنحن نعقد معكم هذه المعاهدة لنثبت لكم حسن نوايانا فقال لي : « بعد أربعة أيام من وصولي إلى موسكو سنرسل إليك كل ما طلبته من سلاح فوراً بما في ذلك سلاح الردع » .

كان هذا في أواخر مايو سنة ١٩٧١ ولكن فات يونيو ويوليو وأغسطس وسبتمبر وأكتوبر ولم يحدث شيء مما وعد به بودجورني . . أسوأ ما كان يضايقني من الاتحاد السوفيتي أنهم كانوا في أغلب الأحيان يصمتون كالقبر . . كنت استدعي السفير السوفيتي مرات ومرات وأبعث إلى السوفييت بالرسالة بعد الأخرى . . ولكن لا إجابة وكأنك تتصل بأشخاص لا وجود لهم إلا في خيالك .

في يوليو سنة ١٩٧١ حدثت ثورة السودان الشيوعية فاتخذت موقفاً حاسماً من هذه الثورة وقلت نحن نشجب هذا الذي حدث ولا أقبل أن يقوم حكم شيوعي على حدودي وما هي إلا أيام قليلة فعلا حتى سقطت هذه الثورة وعاد نميري رئيساً للجمهورية بعد أن تخلص من أعدائه .

اتسعت الفجوة بيني وبين السوفييت بعد موقفي من ثورة السودان فانقضى يوليو وأغسطس وسبتمبر دون أي رد من السوفييت سوى أن القادة السوفييت في مصيفهم بالقرم . .

وأخيراً في أواخر سبتمبر سنة ١٩٧١ جاءتني رسالة منهم بأنهم على استعداد لاستقبالي في ١١ أكتوبر سنة ١٩٧١ - وكنت قد وصلت في هذه المرحلة إلى درجة التشبع وكان لا بد لأي إنسان في موضعي أن يفقد أعصابه نتيجة لهذا الإهمال المتعمد من جانب السوفييت سنة كاملة تقريباً - ومع ذلك كظمت

غيطى وسافرت إلى موسكو وبدأنا المباحثات . . أعدت نفس الكلام الذى قلته لهم فى ١ ، ٢ مارس سنة ١٩٧١ . . « يا جماعة أنا أقبل أن تضعونا خلف إسرائيل بخطوة ولكن أن تكون المسافة بينى وبين إسرائيل عشرين خطوة فهذا أمر لا يحتمل » .

كانوا كعادتهم يتركوننى أتكلم كما أشاء وأحياناً يشتبك بعضهم معى فيما عدا بريجنيف الذى يقف دائماً موقف المتفهم ولا يدخل فى أى اشتباك .

وعدونى هذه المرة أن يرسلوا لى الطائرات بالصواريخ ومعها المدربون الذين سيدربون طيارينا المصريين عليها . . ولكنهم تنازلوا هذه المرة عن الشرط الذى ينص على أن لا تطير هذه الطائرات بالذات إلا بإذن من موسكو . وفى نهاية اجتماعنا قلت لهم : « نحن الآن فى ١٢ أكتوبر . . كل ما أرجوه أن ترسلوا هذه الأسلحة بأسرع ما يمكن حتى نستطيع قبل نهاية السنة أن نكون فى وضع يمكننا من تحريك الموقف » .

وكنت قد أعلنت أن عام ١٩٧١ هو عام الحسم فيما حل سلمى وإما معركة . وافقوا وعدت إلى مصر وأنا على ثقة أن الأسلحة التى وعدوا بها سوف تكون قريباً فى الطريق إلينا . .

انقضى أكتوبر ونوفمبر ولكن كل شىء كما هو . . استدعيت السفير السوفيتى وأرسلت إلى الكرملين عدة رسائل ولكن لا إجابة . . وإذا بى أفاجأ فى ٨ ديسمبر سنة ١٩٧١ بالمعركة بين الهند وباكستان وبأن الاتحاد السوفيتى طرف فيها . . استدعيت السفير السوفيتى يوم ١٢ ديسمبر وقلت له إنه لم تصلنى قطعة سلاح واحدة إلى الآن ولذلك أرجوك أن تبلغ القادة السوفيت أنى أطلب مقابلتهم فى موسكو حتى نبحث عن وسيلة نغطى بها الموقف الذى كشفونى فيه عن سنة الحسم . . وقبل أن ينتهى ديسمبر بأربعة أو خمسة أيام جاءنى السفير ليبلغنى أن القادة السوفيت مواعيدهم مشحونة ولكنهم على استعداد لاستقبالى فى ١ ، ٢ فبراير سنة ١٩٧٢ . .

كنت أعرف أنى سأواجه حملة مسعورة لأننى سبق أن أعلنت أن سنة ١٩٧١ هى سنة الحسم . وفعلا حدث هذا .

فى أول يناير ١٩٧٢ حاول روجرز وزير خارجية أمريكا أن يكفر أمام الرأى العام اليهودى عن موقفه إلى جانبي ذات يوم بعد أن أنبته جولدا مائير رئيسة وزراء إسرائيل علناً أمام الكنيست فى خطاب مشهور فأعلن أنه قد انقضت سنة ١٩٧١ ولكن بلا حسم أو خلافه وأن أمريكا ستعطى إسرائيل المزيد من العتاد والسلاح وكل شىء .

بل وأعلن أيضاً أن الولايات المتحدة قد دخلت منذ نوفمبر ١٩٧١ فى تصنيع الأسلحة مع إسرائيل . . وأن أمريكا ستحتفظ لإسرائيل بالتفوق على العرب مجتمعين وليس على مصر وحدها . .

كانت حرباً نفسية شرسة كما توقعت ، ولكن الشعب المصرى بحسه الصادق أدرك أن المسئول عن هذا هو الاتحاد السوفيتى . .

فى يناير سنة ١٩٧٢ كان الشعب هنا فى أوج غضبه على الاتحاد السوفيتى رغم أننى لم أطلع الناس على الحقائق بل على العكس كنت أدافع عن الاتحاد السوفيتى فى جميع أحاديثى وخطبى . .

ذهبت إلى موسكو في ١ ، ٢ فبراير سنة ١٩٧٢ وسألته عن المسئول عن تأخير الأسلحة التي وعدوني بها - فرد بريجنيف وقال إنه المسئول نظراً للإجراءات المكتبية والروتينية . . . إلخ . . . فقلت : « أنا لست مقتنعاً بهذا الكلام وإذا تكررت ما حدث مرة أخرى فسوف أتخذ قراراً ما . . . » ثم أعدت على مسامعهم وأنا في قمة الغضب نفس الكلام الذي سبق أن قلته في زيارتي السابقة وخاصة النقطتين الأساسيتين وهما أننا لا نريد جندياً سوفيتياً ليحارب معركتنا وأننا لا نسعى إلى مواجهة بينهم وبين أمريكا . . . فأنهوا المناقشة بقراءة قائمة بالأسلحة التي وعدوا بإرسالها فوراً . . . ولم تكن أيضاً الأسلحة الأساسية . . . ولكنها كانت على أي حال أحسن من لا شيء . . .

فعدت إلى مصر ولكن صبري كان قد نفذ . . .

في ذلك الوقت تحدد أول لقاء قمة بين بريجنيف ونيكسون من أجل الوفاق في ٢٠ مايو سنة ١٩٧٢ . وبدأ السوفييت يرسلون لنا الأسلحة التي يريدونهم إرسالها ، أما التي نريدها نحن فيحجبونها عنا . . . وفي ١٥ مايو سنة ١٩٧١ جاءني المارشال جريتشكو ومعه قائد الطيران السوفيتي وأحضروا معهم طائرة جديدة اسمها سوخوى ١٧ وأقاموا عرضاً للطائرة . . .

كان جريتشكو يحمل معه بياناً مكتوباً كالعادة في اللجنة المركزية وطلبوا أن نصدره وفيه أننا قد تسلمنا قاذفات بعيدة المدى (وهو غير صحيح) . . . فأصدرناه بل ومنحتهم نياشين وسافروا . . .

كنت أعلم أن الهدف من زيارة جريتشكو لنا قبل خمسة أيام فقط من وصول نيكسون إلى موسكو هو أن يقوم السوفييت باستعراض نفوذهم في الشرق الأوسط ومع ذلك لم أمانع بل منحت جريتشكو ومن معه نياشين . .

نسيت أن أقول إن السفير السوفيتي فاجأني برسالة عاجلة من القادة السوفييت في أواخر إبريل سنة ١٩٧٢ وقبل زيارة نيكسون المحدد لها ٢٠ مايو ١٩٧٢ يطلبون فيها أن أزورهم في أواخر إبريل . .

طبعاً كان هدفهم من كل هذا أن يثبتوا للولايات المتحدة أن أقدامهم ثابتة في منطقة الشرق الأوسط وبرغم «قرفي» سافرت واتفقنا في هذا اللقاء - القادة السوفييت وأنا - أنه بعد أن تنتهي زيارة نيكسون في ٢٠ مايو ، عليهم أن يرسلوا إلى تحليل للموقف ثم يبدأوا فوراً في توريد الأسلحة المتأخرة التي تعاقدا عليها . . وذلك في خلال خمسة شهور أي من يونيو سنة ١٩٧٢ إلى أكتوبر سنة ١٩٧٢ ميعاد الانتخابات في أمريكا . .

وكانت الفكرة أن نكون مستعدين في نوفمبر سنة ١٩٧٢ بعد انتخاب الرئيس الأمريكي فإذا لم يكن هناك طريق إلى الحل السلمي استطعنا أن نتحرك عسكرياً . . وافقوا على هذا وعدت إلى مصر .

تمت زيارة نيكسون للاتحاد السوفيتي في مايو سنة ١٩٧٢ ، ثم صدر أول بيان وفاق بين موسكو وواشنطن يقول بالاسترخاء العسكري في الشرق الأوسط . .

وكان صدمة عنيفة لنا لأننا كنا كما سبق أن قلت خلف إسرائيل عسكرياً بعشرين خطوة ومعنى الاسترخاء العسكري في هذا الوضع هو التسليم من جانبنا لإسرائيل . .

ثم جاءني التحليل السوفيتي بعد اللقاء مع نيكسون ولكن متأخراً أكثر

من شهر . . في ٦ يوليو سنة ١٩٧٢ . . وكان التحليل السوفييتي يوضح أنه لم يحدث أى تقدم بالنسبة لقضية الشرق الأوسط مع أمريكا . . تماماً كما تنبأت لهم في زيارتي لموسكو في أواخر إبريل سنة ١٩٧٢ وخاصة لأنها سنة الانتخابات في أمريكا . .

والأغرب من هذا أن التحليل السوفييتي الذي حملته لى السفير السوفييتي متأخراً شهراً عما اتفقنا عليه في لقاء آخر إبريل سنة ١٩٧٢ لم يذكر شيئاً على الإطلاق عن إرسال الأسلحة المطلوبة كما اتفقنا . .

بل إن هذا التحليل الذي كان يقع في أكثر من صفحتين ونصف لم يتعرض للمعركة والأسلحة المطلوبة كما اتفقنا في إبريل إلا في خمسة سطور أخيرة تقول ببساطة إننا لا نستطيع أن نبدأ معركة وإن لهم خبرة في هذا الموضوع وكيف أنهم بذلوا مجهوداً خارقاً في إقناع نيكسون بتنفيذ قرار ٢٤٢ لمجلس الأمن .

قلت للسفير السوفييتي : هل هذه هي الرسالة . . قال نعم . . قلت لقد كنت معنا في موسكو في أبريل الماضى وسمعت اتفاقنا بإرسال الأسلحة قبل موعد الانتخابات الأمريكية . . قال نعم . . قلت إن هذه الرسالة لم ترد على ذلك . . قال إن هذه هي الرسالة التى تلقيتها . .

قلت إننى لا أقبلها . . بل وأرفض أسلوب القادة السوفيت في التعامل معنا . .

أرجو أن تبلغ القادة السوفيت كل ما سأقوله لك كرسالة رسمية . .

١ - إننى أرفض هذه الرسالة التى أبلغتها لى من القادة السوفيت شكلاً وموضوعاً ولا أقبلها وأرفض هذا الأسلوب فى التعامل . .

٢ - إننى أقرر الاستغناء عن جميع الخبراء العسكريين السوفيت (وهم حوالى ١٥,٠٠٠) وأن يعودوا إلى الاتحاد السوفييتى فى فترة أسبوع من اليوم وسأعلن وزير الحربية غداً بهذا الأمر . .

٣ - هناك معدات سوفيتية وهى أربع طائرات ميج ٢٥ وهناك محطة للحرب الإلكترونية ويعمل عاينها طاقم سوفيتى فيما أن تبيعوها لنا أو تسحبوها إلى الاتحاد السوفييتى .

٤ - كل هذا لابد أن يتم في بحر أسبوع .

ولم يصدق السفير السوفيتي واعتقد أنها عملية ابتزاز BLACKMAIL

في اليوم التالي استدعيت وزير الحربية وأبلغته بقراراتي لينفذها ، وفي يوم ١٦ يوليو سنة ١٩٧٢ كانت جميع قراراتي قد نفذت ورفضوا أن يبيعوا لنا الطائرات وأجهزة التشويش فسحبوها معهم .

من أسباب هذه القرارات موقف الإتحاد السوفيتي منا طبعاً ولكن كان هناك سبب آخر مهم وهو أنني قد بنيت استراتيجيتي على أساس أن لا أبدأ المعركة وعلى أرض مصر خبراء سوفيت .

حلل السوفيت والغرب وإسرائيل طرد الخبراء السوفيت ووصلوا في النهاية إلى قرار خاطيء أفادني كما توقعت في استراتيجيتي . وهو أنني قد استقر رأيي على أن لا أدخل المعركة . . وقد أسعدني هذا التحليل لأن هذا ما كنت أود أن يتوهموه . . ومن الأسباب الأخرى لطرد الخبراء السوفيت ، أن السوفيت كانوا قد بدأوا يشعرون أن لهم وضعاً ممتازاً في مصر لدرجة أن السفير السوفيتي بدأ يأخذ لنفسه وضعاً أشبه ما يكون بوضع المندوب السامي البريطاني أيام الاحتلال .

وقد حدثني مدير العمليات العسكرية وكان الجمسى في ذلك الوقت عن عمليات التشويش والأربع طائرات والمعدات التي يعمل عليها خبراء سوفيت فقال إنهم كانوا يرفضون تنفيذ أي أمر إلا بعد أن تأذن لهم موسكو .

وكان من أهم الأسباب لقراراتي هذه أنني أردت أن أضع السوفيت في حجمهم الطبيعي كدولة صديقة لأنهم ظنوا في مرحلة من المراحل أن مصر أصبحت في جيبيهم ، وظن العالم أن الإتحاد السوفيتي هو ولي أمرنا فأردت أن أقول للسوفيت إن مصر إرادتها تنبع فقط من ذاتها وأن أقول للعالم إن أمرنا بيدنا وحدنا فن يرغب في الكلام عن مصر ، يأتي إلينا ويتكلم معنا لا مع الإتحاد السوفيتي .

الفصل التاسع

حرب أكتوبر

لم أذهب إلى الإسكندرية كما كانت عادتي في كل صيف منذ هزيمة يونيو ٦٧ إلى سنة ٧٢ ، ولكنني بعد أن اتخذت قرار إخراج الخبراء السوفيت أحسست بشيء من الراحة فقلت أذهب إلى الإسكندرية للاستجمام وأصدرت أمراً إلى مكنتي بأنه إذا حاول السوفيت الاتصال بي أن يقولوا لهم إنني في المصيف بالإسكندرية كما اعتاد السوفيت أن يقولوا لنا إن قادتهم في القرم ولذلك فلا وسيلة للاتصال .

وبمجرد وصولي إلى الإسكندرية بدأت الإعداد للمعركة رغم أن العالم كله بما فيه مصر فسروا طردى للخبراء السوفيت بأنه قرار بعدم الحرب فاستدعيت حافظ إسماعيل مستشار الأمن القومي وقلت له إن أمريكا بعد هذه القرارات التي اتخذتها لابد أن تتصل بنا وعليه أن يعد نفسه للبدائل المختلفة لمناقشتهم ، كما استدعيت وزير الحربية وأبلغته أن يجمع المجلس الأعلى للقوات المسلحة في اليوم التالي ويخطره بأنني قد قررت أن تكون القوات المسلحة جاهزة للقتال ابتداء من يوم ١٥ نوفمبر سنة ١٩٧٢ ، استدعيت بعد ذلك سيد مرعي وكان وقتها أمين الاتحاد الاشتراكي وطلبت منه أن يجتمع بأمناء الاتحاد الاشتراكي ويبلغهم أن معنى هذه القرارات هو أننا سوف ندخل الحرب لا العكس ، وطلبت من ممدوح سالم وكان وقتها نائباً لرئيس الوزراء ووزيراً للداخلية ومسئولاً عن الدفاع المدني أن يعد الجبهة الداخلية ويسد جميع الثغرات فيها .

قبل أن ينقضي أسبوع على وجودي بالإسكندرية اتصل كسينجر وطلب تدبير لقاء على أي مستوى فاتفقنا على أن يلتقي بحافظ إسماعيل في سبتمبر أو أكتوبر من نفس السنة ولكن اللقاء تأجل عدة مرات فلم يتم إلا في فبراير سنة ١٩٧٣ .

وفي أوائل أغسطس سنة ٧٢ خرج القذافي فجأة على العالم بما يسمى الوحدة الإندماجية وكنت قد وعدته بزيارة ليبيا في ذلك التاريخ فذهبت إلى ليبيا لأرى ماذا يريد ووجدته مصمماً على هذه الوحدة بل وقطع شوطاً كبيراً في تعبئة الجماهير عن طريق الراديو والتليفزيون دون أن يتصل بي على الإطلاق . . وفوجئت بعد وصولي إلى بني غازي بأنه قد أعد مشروع الوحدة الإندماجية ولم أكن متحمساً للسريعة التي أراد بها القذافي أن يتم هذا الموضوع ولكنني في النهاية آثرت أن أعطي موقف القذافي كطلب بعض زملائه أعضاء مجلس الثورة الليبي ووافقت على اجتماع وفدين لمناقشة هذا الموضوع . . كان المشروع قد أعده القذافي وتعجبت عندما وجدت أن هذا المشروع يقضى بأن أتولى رئاسة الدولة الجديدة التي ستتكون من مصر وليبيا وأن القذافي سيتولى منصب نائب رئيس الجمهورية والقائد العام للقوات المسلحة للدولة . . وقد أوضحت للقذافي وزملائه أنني لا أوافق على هذا المشروع وبالذات على تعيين القذافي لقيادة القوات المسلحة فقد كانت لنا تجربة في هذا انتهت بالفشل عندما يتولى من يعمل بالسياسة القيادة الفعلية للقوات المسلحة في تجارب مريرة لنا في معركة ١٩٥٦ ثم في حرب اليمن وأخيراً في معركة ١٩٦٧ وأن القوات المسلحة يجب أن تكون محترفة وأن لا تتدخل في السياسة . . ولم يعترض القذافي . . والسبب الثاني لإعتراضي كان أن إتمام وحدة كاملة في هذا الوقت سوف يسبب متاعب اقتصادية للشعب الليبي لا داعي لأن يتحملها وسنكون مسئولين عن هذا وأخذ المجتمعون باقتراحى وهو أن تسير هذه الوحدة بالتدريج . . وعدت إلى مصر .

وفي يوم ٢٩ أغسطس سنة ١٩٧٢ كتبت رسالة للإتحاد السوفيتي ، وأنا أعتبر أن هذه الرسالة من العلامات الأساسية في تاريخنا فقد كانت تحمل توصيفاً كاملاً لكل ما بيننا وبين الإتحاد السوفيتي . . في هذه الرسالة أعلنهم أنني أمنحهم فرصة إلى شهر أكتوبر سنة ١٩٧٢ بعد أن شرحت الموقف كاملاً بيننا وبين السوفييت فإذا لم تحدث أية استجابة لمطالبنا سأكون حراً في اتخاذ ما أرى من قرارات ولكنني كنت في واد والسوفييت في واد آخر ، فقد كانوا يعدون لافتتاح الجامعات المصرية في أكتوبر سنة ١٩٧٢ (إذ جاءني المخطط الصادر من الأحزاب الشيوعية العربية - وهو صادر طبعاً عن موسكو - عن كيفية تحرك العملاء داخل الجامعة .)

كان المفروض أن يقدم لي وزير الحربية تقريراً عن الخطة والهيكل العام لها فقد كلفته كما أسلفت بجمع المجلس الأعلى للقوات المسلحة لهذا الغرض . . بل إنه عاد لي بعد يومين وقال إنه جمع المجلس الأعلى وأبلغهم رسالتي وإن القوات المسلحة المصرية ستكون جاهزة ليس في ١٥ نوفمبر ١٩٧٢ كما طلبت وإنما ستكون جاهزة في أول نوفمبر ١٩٧٢ . .

وهنا أريد أن أفسر لماذا اخترت ١٥ نوفمبر ١٩٧٢ لتكون القوات جاهزة فقد كانت الانتخابات لرياسة الجمهورية الأمريكية ستم في الأيام الأولى من نوفمبر سنة ١٩٧٢ وأردت أن أعطي الرئيس المنتخب فرصة لمحاولة حل المشكلة سلمياً فإذا لم يتم ذلك كان لا بد أن نكون جاهزين للتحرك عسكرياً . . من أجل ذلك فإنني دعوت المجلس الأعلى للقوات المسلحة إلى اجتماع في ٢٨ أكتوبر ١٩٧٢ لاستوثق من استعداد القوات المسلحة وطلبت أن يدلى القادة لي بتقاريرهم عن استعداد القوات وخاصة أننا كنا نقرب من نوفمبر ١٩٧٢ الذي حددته مع وزير الحربية . . وحينما ذكرت القادة برسالتي التي كلفت وزير الحربية بنقلها إليهم في الصيف . . فوجئت بالجنرال نوال المستول عن الشئون الإدارية للقوات المسلحة يرفع يده ويسأل : « أنا لم أسمع أي رسالة من قبل وأريد أن أسأل ما هي هذه الرسالة التي سيادتكم بعثتها لنا ؟ أنا ما عنديش فكرة عن أي رسالة جت من سيادتكم . . » نظرت إلى وزير الحربية وقلت له أمام المجلس الأعلى للقوات المسلحة « إزاي ده يحصل ؟ احنا مش اتفقنا في الصيف إنك تجمع المجلس وتبلغهم يكونوا مستعدين للمعركة في ١٥ نوفمبر ؟ ألم تعد إلى بعد يومين لتقول إنك جمعت المجلس وإنهم سيكونون مستعدين اعتباراً من أول نوفمبر . . أي قبل الميعاد الذي حددته ؟ » فهمس في أذني « أنا ما رضيتش يا أفندم أقول للكل . . أنا قلت بس لقادة الجيوش عشان السرية » .

سرية ؟ سرية على الناس الذين سيحاربون ؟ وضع غريب . . قلت في نفسي . . إزاي يقدر قادة الجيوش يحاربوا من غير المجلس الأعلى للقوات المسلحة ؟ ثم إن الجنرال الذي سأل هذا السؤال كان هو المستول عن الشئون الإدارية التي عليها أن ترعى الجيوش بإمدادها بالطعام والماء والذخيرة والبنزين . . الخ . . وبدونها لن تتمكن أي وحدة من القوات المسلحة من تنفيذ مهامها القتالية . .

عندئذ تأكدت عندى الشكوك التى كنت أحسها إزاء وزير الحربية فهو لا يريد أن يحارب لأنه يخشى المعركة فبدأت أسأل قادة الجيوش . . سألت قائد الجيش الثالث عبد المنعم واصل : - أنت حالك إيه ؟ قال لى : - « يا أفندم احنا مكشوفين . . وأى حشد حنعمله حيكشفوه اليهود ويضربوه قبل ما يعدى . . ليه ؟ لأن اليهود مقيمين ساتر ترابى ارتفاعه ١٧ متر على جانب القناة وإحنا تحت هذا المستوى . . حوالى ٣ أمتار فقط . . وهذا جعل العساكر تنشأ عندهم فكرة أن اليهود عاملين وراء هذا الساتر الكترونات وأشياء لا قبل لهم بها » .

ما معنى هذا الذى أسمعته ؟ إن الخطة الدفاعية ٢٠٠ التى استلمتها من عبد الناصر قد انهارت . . فقبل أن يموت عبد الناصر بشهر واحد دعانى وذهبنا سوياً إلى مبنى القيادة العامة للقوات المسلحة فى مدينة نصر وهناك جمع القادة المصريين والخبراء السوفيت ومحمد فوزى وزير الحربية فى ذلك الوقت ووقف الخبراء السوفيت والقادة المصريون لمدة ٧ ساعات أمام عبد الناصر وأمامى يشرحون الخطة الدفاعية ٢٠٠ التى أقرها الجميع . كان هذا هو الوضع العسكرى الذى تسلمته من عبد الناصر . . خطة دفاعية سليمة ١٠٠٪ ولكن لا وجود لخطة هجومية .

كان محمد فوزى وهو وزير للحربية دائماً المحافظة على الخطة الدفاعية ٢٠٠ فإذا ارتفع اليهود متراً ارتفعنا نحن متراً ونصف فلما جاء من بعده وزير الحربية الجديد واسمه صادق ألغى ما كان يفعله سلفه فوزى فلم يرتفع متراً واحداً . . وهكذا وصل اليهود إلى ١٧ متر وظللنا نحن ٣ أمتار فقط .

سألت الجنرال سعد مأمون قائد الجيش الثانى (وهو الآن محافظ القاهرة) فقال نفس كلام قائد الجيش الثالث قلت لهم : « آسف - أنا جاي النهارده وفاكر أنكم جاهزين لتنفيذ أى خطة نضعها . . أقوم ألاقى الخطة الدفاعية منهارة ؟ إزاي نهجم واحنا مش جاهزين حتى دفاعياً . . عاوزينا نكرر هزيمة ١٩٦٧ ؟ »

أنهيت الاجتماع وخرجت وقد استقر رأى على تغيير وزير الحربية المتخاذل الذى كذب على ، واستدعيت الجنرال أحمد إسماعيل الذى كان مديراً للمخابرات فى ذلك الوقت وهو الذى أنشأ أول خط دفاعى فى سنة ١٩٦٧ من بور سعيد

للسويس ، وطلبت منه أن يعمل قائداً عاماً للقوات المسلحة على أن يأتي في اليوم التالي لحلف اليمين كوزير للحربية ، وفي نفس الوقت أرسلت سكرتيرى الخاص إلى وزير الحربية المتخاذل ليبلغه أنى قبلت استقالته . . وأعطيت أوامرى لرئيس أركان حرب القوات المسلحة بأن يتولى القيادة إلى أن يحلف الجنرال أحمد إسماعيل اليمين فلم يكن فى إمكانى أن أترك أى فراغ فى القوات المسلحة مهما كان بسيطاً ولو للحظات .

طلبت من الجنرال أحمد إسماعيل بعد أن تسلم عمله تصحيح الخطة الدفاعية ٢٠٠ وإعادتها إلى ما كانت عليه فإذا كان الساتر الترابى لليهود ١٧ متراً فلا بد أن نكون نحن ٢٠ متراً واعتمدنا لهذا ٢٠ مليون جنيه .

ولكن رغم هذا لم أستطع أن أنام ليلة واحدة بعد اجتماعى بالمجلس الأعلى للقوات المسلحة فى أكتوبر سنة ١٩٧٢ . . كيف تتكرر مأساة سنة ١٩٦٧ ؟ ثم إن القوات المسلحة هى أمل البلد فكيف يحدث فيها هذا التقصير ؟ وإذا حدث أى تحرك من جانب إسرائيل فكيف نرد عليه ؟ واستمر حالى هكذا . . هواجس وقلق إلى أن جاءنى الجنرال أحمد إسماعيل فى ٣٠ نوفمبر سنة ١٩٧٢ وكان قد تم تعيينه فى ٣٠ أكتوبر ليبلغنى أن الخطة الدفاعية أصبحت كاملة . . وأنه بصدد إعداد تجهيزات الهجوم .

فى أوائل يناير سنة ١٩٧٣ كان الجنرال أحمد إسماعيل قد وضع الهيكل الأساسى للخطة وقد قام بشيء لم يحدث فى العسكرية من قبل إذ طلب من كل ضابط على امتداد القناة أن يتسلق الساتر الترابى الذى أصبح ٢٠ متراً - وينظر أمامه على امتداد ١٠ كيلو داخل سيناء وأن يحدد على الأرض خطته التى يستطيع أن ينفذها بعد العبور . . مما أعطى للضباط ثقة فى أنفسهم وجعلهم يشاركون مشاركة فعالة ليس فقط فى العمل بل وفى التخطيط أيضاً .

وعلى ذلك نستطيع أن نقول إن خطة حرب أكتوبر ١٩٧٣ قد وضعها القوات المسلحة بأجمعها على كل المستويات .

نعود للإتحاد السوفيتى مرة أخرى . . فى أكتوبر سنة ١٩٧٢ كان الرئيس حافظ الأسد فى موسكو وعاد منها إلى القاهرة ليلغنى أن السوفييت قد حددوا ١٦ أكتوبر ١٩٧٢ للقاء يتم بينهم فى موسكو وبين وفد مصرى يرأسه رئيس الوزراء وكان هذا طبعاً تنفيذاً لما قلته فى خطابى للقادة السوفييت فى ٢٩ أغسطس سنة ٧٢ وسافر وفد من عندى برئاسة رئيس الوزراء عزيز صدقى . . وقد علمت أن الجلسة من جانبهم كانت كلها انفعالات رهيبة إثر القرارات التى أصدرتها وكيف أن هذه القرارات وتنفيذها قد وضعتهم فى وضع صعب أمام العالم . . وعاد عزيز صدقى رئيس الوزراء المصرى بلا شىء . . مجرد وعود ولم تنفذ .

كان بيننا وبين الإتحاد السوفيتى اتفاقية للتسهيلات البحرية فى البحر الأبيض كان عبد الناصر قد وافق عليها سنة ١٩٦٨ لمدة خمس سنوات وكان الباقى منها إلى ذلك الوقت ثلاثة شهور فقط فطلبت من الجنرال أحمد إسماعيل فى ديسمبر سنة ١٩٧٢ أن يستدعى السفير الروسى فى القاهرة ويبلغه أن قرار مصر هو تجديد الاتفاقية لمدة ٥ سنوات أخرى تنتهى فى سنة ١٩٧٨ وكان هدفى من هذا أن أثبت لهم أنه برغم قرار خروج الخبراء السوفييت فإننى لا أرغب فى مقاطعتهم . .

أذكر بعد ذلك زيارتين قام بهما حافظ إسماعيل مستشار الأمن القومى والجنرال أحمد إسماعيل وزير الحربية فى نفس الوقت ، الأولى هى لقاء مستشار الأمن القومى المصرى بكيسنجر فى باريس والثانية هى ذهاب الجنرال أحمد إسماعيل فى أواخر فبراير إلى موسكو . . وكان قد مضى أكثر من ثمانية شهور على صدور وتنفيذ

قرار إخراج الخبراء السوفيت . . وكان قد ثبت للسوفيت أنني لم أتصل بأمريكا قبل هذا القرار كما قررت مراراً وثبت أيضاً أنني كما قلت وكررت ألزم بالجانب الخلقى فى معاملتى مع الأعداء والأصدقاء . . ولقد عقد السوفيت مع أحمد اسماعيل أكبر اتفاقية عقدت بينهم وبين عبد الناصر أو بينهم وبينى . . ولأول مرة فى تاريخهم بدأ توريد بعض أجزاء هذه الصفقة فى زمن قياسى على غير عادتهم وقد توقف السوفيت بعد ذلك عن إتمام الجزء الباقى منها باستثناء بعض المواد التى أرسلوها عام ١٩٧٥ وقد أعلننا عن ذلك . . وأريد أن أقرر هنا أنه حتى بدون هذه الصفقة كنا سندخل المعركة لأننا كنا قد قررنا ذلك وكان تخطيطنا كله مبنياً على ما كان لدينا من أسلحة قبل تلك الصفقة . وهذه المناسبة عندما زار وزير خارجية مصر الإتحاد السوفيتى فى ١٩٧٦ قرر السوفيت إلغاء جميع الصفقات المتفق عليها معنا كما رفضوا إعادة جدولة الديون المصرية .

أما من ناحية أمريكا فقد التى حافظ اسماعيل بكسينجر فى باريس فى فبراير ٧٣ ولكن لا شىء جديد . . وكما كنت أقول دائماً لم يكن من الممكن لأمريكا أو لغيرها من القوى أن تتحرك ما لم نتحرك نحن عسكرياً وكان ملخص ما قاله كسينجر لحافظ اسماعيل أنهم للأسف لا يستطيعون مساعدتنا لأننا مهزومون وإسرائيل متفوقة . كان لابد أن أعد للمعركة على المستوى العربى وهنا يجب أن أقرر أن هناك قوة خارجية أقوى من البشر تدبر أمورهم وتسيرها حسبما ترى وفى ظروف معينة لا سلطان لنا عليها . . ولذلك فنن العبث أن نقول فى أحيان كثيرة أننا صنعنا هذا أو ذاك لأننا فى الواقع لم نصنع شيئاً . . وهذا ما ينطبق على إعدادى للمعركة على المستوى العربى . . فقد كانت الأمور كلها معدة قبل أن أبدأ أنا فى الإعداد أو فى التفكير فيه .

فى الكويت يعتبرنى آل الصباح أحد أفراد عائلتهم فقد كانت لى صلة بعبد الله مبارك الصباح يحكمها الوفاء ، وكان هو فى ذلك الوقت من عام ١٩٥٥ وزير داخلية ووزير الدفاع وولى عهد الكويت ولظرف تاريخى أراد الله ، عندما مات جمال عبد الناصر كنت أنا وجابر الأحمد ولى عهد الكويت ورئيس وزرائها صديقين حميمين نتبادل الرسائل .

وفي السعودية كان الملك فيصل صديقاً شخصياً لى منذ واحد وعشرين عاماً وبالذات منذ المؤتمر الإسلامى فى سنة ١٩٥٥ وكان وقتها ولى العهد وبرغم حرب اليمن ظللنا أصدقاء لأن معنى الصداقة عنده وعندى واحد .

وفى لبنان كان شقيق سليمان فرنجية . . حميد فرنجية . . صديقاً شخصياً لى .

وفى المغرب ترجع صلاتى بالملك الحسن الثانى إلى عام ١٩٦٩ حين ذهبت بدلا من عبد الناصر لأحضر أول مؤتمر إسلامى يعقد من أجل حرق المسجد الأقصى وهناك توطدت علاقات أخوة وصداقة بينى وبين الحسن وبلغنى أن الملك فيصل قال للملك الحسن : « إذا أراد الله لمصر خيراً يحكمها أنور السادات » .. وقد عرف عنى أثناء المؤتمر أنى واضح وصريح ولا أنحاز إلا للحق .

بالنسبة للجزائر كان بومدين يحمل فى نفسه حساسية من عبد الناصر لأنه صديق بن بيلا .

وفى تونس نفس الشئء فالحبيب بورقيبة طالما اختلف مع عبد الناصر لأنه صور بورقيبة على أنه خائن يبيع نفسه لمن يدفع .

هكذا أراد الله أن أكون على علاقة شخصية مع زعماء العالم العربى ولذلك عندما توليت رحبوا بى جميعاً وأبدوا استعدادهم لمعاونتى . . فأعلنت سياستى الواضحة وهى أنه بالنسبة للعرب فمصر لا تفرق بين دولة عربية وأخرى على أساس ما يسمونه بالرجعية والتقدمية أو الملكية والجمهورية . . الأمر الوحيد الذى يجب أن نلتزم به جميعاً هو أننا عرب فحسب .

كان على بعد ذلك أن أُنْتَبه للوضع الإفريقى ، فذهبت فى مايو سنة ١٩٧٣ إلى مؤتمر الوحدة الإفريقية الذى يعقد كل سنة فى أديس أبابا ولأول مرة اتخذ المؤتمر قراراً واضحاً بإدانة إسرائيل وقطعت ٨٠٪ من الدول الإفريقية علاقاتها الدبلوماسية مع إسرائيل قبل أن تقوم المعركة .

حدث فى تلك الفترة أن اغتالت إسرائيل ثلاثة من الزعماء الفلسطينيين فى قلب

بيروت فأرسلت للرئيس فرنجية أقول إن عليه أن يطالب بدعوة مجلس الأمن وإلا فعلت أنا هذا . . فدعا فرنجية إلى اجتماع مجلس الأمن وساندت أنا دعوته بدعوة أخرى من عندي . . واجتمع مجلس الأمن وبدأ أعماله بقضية اغتيال الزعماء الفلسطينيين وإذا بالعالم ومجلس الأمن نفسه يفاجأ بمصر تطرح قضية الشرق الأوسط . . استمرت المناقشات لمدة شهرين ثم اتخذ أول قرار في صفنا بأغلبية ١٤ صوتاً من ١٥ أى باستثناء صوت واحد هو صوت أمريكا الذى يعنى الفيتو .

لقد كان هذا تنفيذاً للاستراتيجية التى رسمتها بتجهيز الموقف عربياً كما شرحت وإفريقياً فى مؤتمر الوحدة الأفريقية فى أديس أبابا عام ١٩٧٣ ودولياً بقرار مجلس الأمن الذى أشرت إليه سابقاً ثم فى عالم عدم الانحياز الذى اجتمع مؤتمره الذى يعقد مرة كل ثلاثة سنوات فى سبتمبر ١٩٧٣ فى الجزائر . . وكانت كل هذه التواريخ فى ١٩٧٣ عام المعركة كأنها منحة من السماء .

فى سبتمبر سنة ١٩٧٣ حضرت مؤتمر دول عدم الانحياز فى الجزائر وقلت فى خطابى إنه لا مفر من المعركة فإسرائيل هى التى تريد لنا هذا . . وضعت أوراقى على المنضدة وأخبرتهم بالتسليم الذى تطالبنا به إسرائيل ، وبذلك هيأت دول عدم الانحياز للمعركة وكانت الأغلبية فى صفى .

بهذا الشكل كان معى أكثر من مائة دولة قبل المعركة بثلاثة أسابيع . . فى خلال الفترة ما بين يناير إلى سبتمبر سنة ٧٣ كنت قد جهزت الساحة العالمية كلها للمعركة .

— دولياً فى مجلس الأمن بقرار بأغلبية ١٤ من ١٥ أى باستثناء صوت واحد هو صوت أمريكا .

— عربياً على مستوى كل الدول العربية مهما اختلفت سياساتها .

— إفريقيا فى مؤتمر الوحدة الإفريقية فى مايو ١٩٧٣ .

— على مستوى العالم الثالث وعدم الانحياز فى مؤتمر الجزائر فى سبتمبر ١٩٧٣ .

فى داخل مصر لم يكن اهتمامنا منصباً على الناحية المعنوية فحسب.. فقد أنفقنا أكثر من ١٢٧ مليون جنيه على إعداد الدولة للحرب ، إذ كان تخطيطى يقوم على أن مصر كلها من الإسكندرية إلى أسوان أرض معركة . . كل مصنع . . كل محطة كهرباء وضعت لها خطة دفاع بحيث إذا ضرب جزء من المرفق يعمل الجزء الباقى .

فى إبريل سنة ١٩٧٣ جاء الرئيس حافظ الأسد إلى مصر فى زيارة سرية . . كان الفريق الجسمى وقتها مدير العمليات بالقوات المسلحة ، فأحضر لنا المذكرة التى دون فيها المواعيد المناسبة للعمليات الحربية على مدار السنة من وجهة نظر العلوم العسكرية وقد كانت مكتوبة بخط يد الجسمى لأنها سرية ، وهى ثلاثة مجموعات من الأيام . . المجموعة الأولى فى شهر مايو سنة ١٩٧٣ والثانية فى أغسطس وسبتمبر سنة ١٩٧٣ والثالثة فى أكتوبر سنة ١٩٧٣ .

كانت أنسب هذه المجموعات مجموعة أكتوبر وخاصة أن الجبهة السورية إبتداء من نوفمبر وحتى الربيع غير جاهزة للعمليات نظراً للظروف الطبيعية هناك .

فى هذا الاجتماع كنت أنا وحافظ الأسد وحدنا فى برج العرب وهى عاصمة الصحراء الغربية فقلت له : « لقد قررت أن أدخل المعركة هذا العام وأعطيت تعليماتى بذلك للجنرال أحمد اسماعيل فما رأيك ؟ » . . قال لى : « أنا معاك وداخل وبنجهز نفسنا » .

لم أكن أنوى أن أدخل المعركة فى مايو سنة ١٩٧٣ ولكن كجزء من الخداع الاستراتيجى قمت بحملة فى الصحف عندى وفى الدفاع الشعبى فما كان من الإسرائيليين إلا أن صدقوا وفى الأيام المناسبة للحرب حشدوا جيوشهم بينما كنت

أنا في حالة استرخاء تام . . في أغسطس من نفس السنة فعلت نفس الشيء وكان رد الفعل في إسرائيل هو نفس ما صنعوه في مايو فأعلنوا التعبئة العامة . . ولذلك عندما سئل موشى ديان بعد حرب أكتوبر لماذا لم يعلن التعبئة في أكتوبر قال إن السادات قد دفعني إلى هذا مرتين مما كلفني في كل مرة عشرة ملايين دولار دون جدوى فلما جاءت المرة الثالثة ظننت أنه غير جاد مثلما حدث في المراتين السابقتين ولكنه خيب ظني .

اتفقت مع حافظ الأسد ألا نبدأ المعركة إلا بعد تكوين مجلس أعلى مشترك للقوات المسلحة المصرية السورية ، فكونا هذا المجلس المشترك واجتمع فعلا في أغسطس ١٩٧٣ في الإسكندرية ليضع اللمسات الأخيرة للمعركة .

في أواخر أغسطس ١٩٧٣ خرجت في زيارة للسعودية ثم قطر ثم سوريا حيث اجتمعت مع الرئيس الأسد يومى ٢٨ ، ٢٩ أغسطس واتفقنا على أن يكون يوم ٦ أكتوبر هو بدء المعركة . . أى يوم (ى) في التعبير العسكرى .

في تلك الفترة كنت أزور جميع وحدات القوات المسلحة لأشرح لهم الموقف السياسى وأقول لهم إن المعركة أصبحت قريبة وأستطيع أن أقول إنه في يونيو ١٩٧٣ أى قبل المعركة بحوالى ثلاثة شهور كنت قد أعطيت الأوامر النهائية والإحساس النهائى بالمعركة ولكنى طبعاً لم أفصح عن تاريخها وكان جميع من بالقوات المسلحة فى قمة الإنفعال . . فى ٥ يونيو ١٩٧٣ زرت مطار القطامية وهو من مطارات الجبهة واجتمعت بالطيارين وفى أثناء اجتماعى بهم دق جرس التليفون . . فقام الجنرال أحمد اسماعيل يرد على التليفون بينما واصلت أنا حديثى مع الطيارين إلى أن انتهيت منه فذهبت لأخذ طائرتى وأمر على الجيشين الثانى والثالث فإذا بالجنرال أحمد اسماعيل يسر إلى أن السفير السوفيتى يطلب موعداً عاجلاً وأنه طلب منه أن يبلغنى برسالة عاجلة وهى أن القيادة السوفيتية رأت بعد فترة الجمود الطويلة هذه أن ترسل بودجورنى رئيس هيئة السوفيت الأعلى ليزورنى

يوم ١١ يونيو ١٩٧٣ . . قلت للجنرال اسماعيل : « آسف : أنا لا استقبله » ، يعلم السوفيت جيداً أني لا أحب بودجورني والسبب أنه كان أثناء زيارة له لتركيا قد سب العرب والعسكري العربي وقال إنهم لن يعطوا العرب أبداً أى أسلحة متقدمة لأنهم يتركون الإسرائيليين يستولون عليها . . أرسلت في وقتها أطلب تفسيراً لهذا الحديث من جانب رئيس الدولة السوفيتية ولكن لم يصدر أى تكذيب . . ثم إن بودجورني هذا من أكثر الناس كرها لمصر . . حتى في اجتماعاتنا في القيادة السوفيتية على مائدة الكرمليز كانت تعليقاته دائماً تسيء إلى مصر . . فكيف أستقبله على أرض مصر ؟ .

بعد ذلك ذهبت لزيارة الجيش الثاني والثالث ثم توجهت إلى أماكن العبور على خط الدفاع الذي كان يتكون من عدة أهرامات على مسافات متقاربة بين السويس وبور سعيد يرتفع كل منها عشرة أمتار فوق تحصينات إسرائيل . . ولذلك استطعت أن أرى من فوقها سيناء كما أرى كف يدي . . وقفت أمام القنطرة شرق وجاءني القائد المكلف باسترجاع القنطرة وكان فؤاد عزيز وشرح لي العملية .

كنت أعتبر أن القنطرة شرق من أهم النقاط التي يجب أن نستولي عليها في الساعات الأولى للحرب لأنها تمثل شيئاً هاماً جداً بالنسبة لإسرائيل فهي ثاني مدن سيناء بعد العريش العاصمة وكان ديان في غمرة نشوته بنصر سنة ١٩٦٧ قد خطب في طلبة الجامعات في إسرائيل وقال : « لقد تسلمنا الأمانة من الجيل السابق لجيلنا فوصلنا حدود إسرائيل من القنطرة في مصر إلى القنيطرة في سوريا وعليكم أنتم الجيل الصاعد أن تحموا هذه الحدود وتوسعوها » .

فكان هذا من الأسباب الأولى التي جعلتني أهتم بالقنطرة . . لأن الأمل كان دائماً يراودني في أن أرد على ديان وأقول له : « انتهى حلمك إلى الأبد » .

وقبل أن يموت عبد الناصر ذهبت إلى الفريق عبد المنعم رياض وكان رئيساً لأركان حرب القوات المسلحة المصرية بعد هزيمة ١٩٦٧ وقلت له : « لمسا توضعوا خطة الهجوم اعمل حسابك أنا داخل مع القوات التي حترح تسترجع القنطرة شرق » .

كل هذه الصور مرت بى وأنا أقف على إحدى مواقع الهجوم وأتطلع إلى القنطرة شرق وهى بين يدى إسرائيل صامتة لا أنفوه بكلمة . . كنت فقط أتأمل وأفكر . . لم أكن قد رأيت القنطرة منذ سبع سنوات وكنت قد خدمت بها حينما عدت إلى الجيش سنة ١٩٥٠ . . مر بى هذا الحاضر . . فزاد صمتى ولكن مشاعرى كانت تجيش فى صدرى تدهمه وتعذبه وفى نفس الوقت تضيئه بنور الأمل . . قال لى أحمد اسماعيل القائد العام تعليقاً على موقفى أمام القنطرة أثناء عودتنا إلى القاهرة : « يا أفندم أنا لما شفتك ساكت من الرهبة جالى إحساس أنك حتدنى أمر بيدء الهجوم فوراً » .

حينما بدأت أفكر فى وضع التخطيط الإستراتيجى للمعركة كان أمامى عدة أشياء أولها الأساس الإستراتيجى الذى أبنى عليه الخطة . . وفى حياة عبد الناصر كنت أقول له على سبيل المبالغة إننا لو أخذنا حتى عشرة سنتيمترات فى سيناء ووقفنا فيها لم ننسحب فسوف يتغير الموقف شرقاً وغرباً وكل شىء . . وخاصة المهانة التى كنا نعيشها نتيجة هزيمة سنة ١٩٦٧ فهذا العبور إلى سيناء والصمود بها سيعيد إلينا ثقتنا بأنفسنا . . هذا إلى جانب أننا سنكون قد انتهينا من أكبر عائق مائى فى تاريخ الحروب لأن شواطئ القناة مصنوعة من الحجر وهناك أيضاً الساتر الترابى الذى يبلغ ارتفاعه ١٧ متراً .

وبناء على هذا وضعت توجيهى الإستراتيجى فقلت للقوات المسلحة فى أواخر فبراير سنة ١٩٧٣ إن الذى يكسب الأربعة وعشرين ساعة الأولى سوف يكسب الحرب كلها . . ولذلك فلا بد من أن يعتمد الأداء والخطة على عمل من شأنه أن نكسب الأربعة وعشرين ساعة الأولى .

من ضمن الخداع الإستراتيجى الذى قمت به أنه كان فى زيارتى وزير خارجية دولة أجنبية فقلت له وكنا فى سبتمبر ١٩٧٣ : « بلغ رئيس جمهوريتك بينك وبينه ما يطلعش السر ده بره إنى ذاهب إلى الأمم المتحدة فى أكتوبر القادم . . بس مش عاجوز أعلن هذا » . . كنت أعلم أن هذا الخبر بعد ثوان سوف يصل إسرائيل . . وقد حدث وبناء عليه فهمت إسرائيل أنى غير مقدم على الحرب .

فى يوم ٢٨ سبتمبر سنة ١٩٧٣ وهو يوافق ذكرى وفاة عبد الناصر أردت أن أضع اللمسة الأخيرة للشعب . . وكنت قبل ذلك بشهور طويلة قد عزلت عدداً من الصحفيين أو على الأصح نقلتهم من الصحف إلى مصلحة الاستعلامات لأنهم كانوا يساعدون على إيجاد حالة تمزق وبلبلة فى البلد واشترك البعض منهم فى أحداث الطلبة التى وقعت فى أواخر ١٩٧٢ وأوائل سنة ١٩٧٣ بإيعاز من الشيوعيين . . كان لهؤلاء الصحفيين مقالات وتصرفات تهدف كلها إلى إشعال النار بين الطلبة . . فى خطابى يوم ٢٨ سبتمبر سنة ١٩٧٣ أعلنت أنى قد عفوت عفواً تاماً عن الطلبة والصحفيين . . حتى القضايا التى كان الطلبة متهمين فيها - وكلهم من اليساريين - أسقطتها جميعاً وكأنها لم تكن . . تلقف اليساريون هذا وفسروه على أنه مصالحة وطنية من أجل تدعيم الجبهة الداخلية ولم يخطر لهم على بال أن هذا كان جزءاً من تخطيطى للمعركة . .

قبل ذلك كانت قد حدثت فتنة طائفية ولكنى صفيتها . .

وفى يوم ٣٠ سبتمبر سنة ١٩٧٣ جمعت مجلس الأمن القومى وطلبت من الأعضاء إبداء رأيهم فى الوضع الذى كنا فيه وتناقشنا طويلاً . . طالب البعض بالمعركة وتردد البعض الآخر . . قال وزير التموين إن التموين الموجود لا يكتفى معركة طويلة . . وبعد أن تحدث الجميع عن المعركة وظروف البلد والتحرك . . قلت لهم : « كل واحد منكم قال كلمته . . طيب أنا عايز أقول لكم إن اقتصادنا النهارده فى مرحلة الصفر وعلينا التزامات إلى آخر السنة لن نستطيع الوفاء بها للبنوك . . وعندما تأتى سنة ١٩٧٤ بعد شهرين

لن يكون عندنا رغبة الخبز للمواطنين . ولا أستطيع أن أطلب من أى عربى دولاراً واحداً لأن العرب يقولوا لنا أحنا بندفع الدعم بتاع قناة السويس وخلص ولا فيه حرب ولا فيه حاجة .

هكذا أعلمت المسؤولين عندى بالموقف ثم أنهيت الاجتماع . .

وفى اليوم التالى أى أول أكتوبر سنة ١٩٧٣ جمعت المجلس الأعلى للقوات المسلحة ووقف جميع القادة أمام الخريطة وشرح كل واحد خطته بالتفصيل ودوره فى هذه الخطوة . . وقبل أن ينتهى الاجتماع قلت لهم : « كل واحد يكون جاهز فى أى لحظة لصدور الأمر » . .

ويوم ٢ أكتوبر سنة ١٩٧٣ وقعت للقائد العام الجنرال أحمد اسماعيل أمر القتال وكنت قبل ذلك فى سبتمبر سنة ١٩٧٣ قد أصدرت الأمر الاستراتيجى للقائد العام ووضعت فيه تصورى للهدف الاستراتيجى وقد كان هذا الأمر الأول من نوعه فى تاريخ مصر الحديث . .

بدأ العد التنازلى قبل المعركة بعشرة أيام كما خرجت القطع البحرية لتتخذ أماكنها فى الحرب قبل ساعة الصفر بعشرة أيام وكانت مع كل قطعة بحرية ظروف مقفلة تحمل تعليمات العمليات ولا تفتحها إلا بعد أن تتلقى كلمة شفرة محددة وعندئذ ستجد التعليمات المفصلة لخطة عملها .

كان تدريب القوات يستلزم هذه الأيام العشرة أيضاً فالحرب لم تعد خطة توضع وأوامر تصدر للقوات لتنفيذها فحسب . . بل يجب التدريب على كل شىء بالتفصيل وكلما كثرت التدريبات وأتقنت زادت فرص النجاح . . كان العد التنازلى للتدريب قد انتهى فى ٢١ سبتمبر سنة ١٩٧٣ . . وكان تدريب آخر لواء من اللواءات المشتركة فى العمليات على الواجب الذى سيقوم به قد تم يوم ٢٣ سبتمبر سنة ١٩٧٣ .

وفى يوم الأربعاء ٧ رمضان الموافق ٣ أكتوبر سنة ١٩٧٣ - حسب اتفاق مع الرئيس حافظ الأسد فى أواخر أغسطس سنة ١٩٧٣ - استدعيت السفير الروسى وقلت له : « أريد أن أبلغك رسمياً أننى أنا وسوريا قد قررنا بدء العمليات العسكرية ضد إسرائيل وعندى سؤال أريد الإجابة عليه من القادة السوفيت بصفة عاجلة

وهو ما موقف الاتحاد السوفيتي منا ؟ » سألتني عن الموعد فقلت له : « إننا لم نتفق عليه بعد » . .

كنت قد اتفقت مع الأسد على أن يستدعى السفير السوفيتي عنده في اليوم التالي وهو الخميس ٤ أكتوبر سنة ١٩٧٣ ويعلنه بالموعد لأن علاقائي بالسوفيت كانت سيئة .

في اليوم التالي ٨ رمضان أي الخميس ٤ أكتوبر سنة ١٩٧٣ طلب السفير السوفيتي موعداً عاجلاً معي فتصورت أنه جاءني بالرد على سؤالي . . استقبلته فكان أول ما قاله هو : « معي رسالة عاجلة من القيادة السوفيتية - إنهم في موسكو يطلبون موافقتك على وصول أربع طائرات ضخمة لحمل العائلات السوفيتية من مصر . . »

وهذه العائلات السوفيتية هي عائلات المدنيين السوفيت الذين يعملون في المصانع والقطاع المدني لأن العسكريين السوفيت وعائلاتهم كانوا قد رحلوا قبل ذلك بعام عند صدور قرارى بترحيل المستشارين العسكريين السوفيت من البلاد . . ومضى السفير قائلاً إن القادة السوفيت يريدون للعائلات أن ترحل من مطار عسكري حتى لا يراها الناس في المطار الدولي وأن هذه الطائرات ستصل غداً صباحاً أي الجمعة ٥ أكتوبر سنة ١٩٧٣ . .

ما هذا الفأل السيء ؟ قلت في نفسي : هذا معناه أنهم يقولون لي مقدماً إن معركتك فاشلة ونحن نخاف على أرواح رعايانا . . وماذا عن المصريين أهل البلد ؟ ألا يعلمون أنني أخاف عليهم . . ؟

قلت للسفير السوفيتي وما زالت الدهشة من تصرف السوفيت تعقد لساني : « أنا ما عنديش مانع وبلغ موسكو بموافقتي . . ولكن أين الإجابة على سؤالي ؟ » قال لي : « هذه هي الرسالة الوحيدة التي كلفتني موسكو بإبلاغها لكم » وفعلاً في اليوم التالي وكان يوم الجمعة ٩ رمضان الموافق ٥ أكتوبر سنة ١٩٧٣ وصلت أربع طائرات نقل ضخمة سوفيتية وحملت الرعايا السوفيت من عائلات الخبراء المدنيين في المصانع من السوفيت عائدة بهم إلى بلادهم . .

ولقد رصد الإسرائيليون هذه الطائرات الضخمة بواسطة رادارهم واعتقدوا أنها تحمل إمدادات من روسيا إلى مصر وكذلك إلى سوريا لأن نفس الأمر تكرر مع سوريا في نفس التوقيت . .

لقد كنا نحن وإسرائيل بما لدينا من أساليب الحرب الإلكترونية نرصد ما يحدث عند الآخر . .

كان تصرف السوفييت يدل على عدم الثقة فينا وفي قدراتنا . . وأسوأ من هذا أن سفينة سوفيتية كانت في طريقها إلينا تحمل بعض الإمدادات - وكان عندنا إخطار من السوفييت بموعد قيامها وأنها ستدخل الاسكندرية يوم ٩ رمضان - ولكن صدرت إليها الأوامر السوفيتية وهي في عرض البحر بأن تتجول في البحر الأبيض وفعلاً تجولت في البحر حوالى ستة أيام إلى أن تأكدوا من انتصارنا فرست في الاسكندرية . . ولما سألناهم عن أسباب التأخير قالوا إن السفينة قد تاهت في البحر . .

انتقلت يوم الخميس ٨ رمضان إلى قصر الطاهرة بعد أن جهز كمركز قيادة لإدارة الحرب ، وفي يوم الجمعة ذهبت لأصلي في الجامع الذى تعلمت فيه الصلاة منذ خمسين سنة وهو زاوية صغيرة . . وهناك فى رحاب الله وهدوء الجامع شرد ذهني في أيام الطفولة والنقاء . .

بعد الظهر جلست في الشرفة وكان القمر ما زال صغيراً وطلعت جميلة وأنا أعشق الطبيعة المجردة ولا أحب المدينة ولا الزخرف والأضواء . .

كنت في أقصى درجات السلام الروحي فرغم اللحظة التي كنت مقبلاً عليها كنت أرنو إلى الغد موعد المعركة على أنه مجرد يوم قدر لي الله أن أعيشه ولذلك دخلت المعركة دون أدنى انفعال أو عصبية . .

لم يكن يشغلني سوى بعض التفاصيل التي لم تكن إلا مجرد رتوش حول المعركة . . وقد يعجب الناس إذا عرفوا أن ليلة المعركة كانت من أحسن الليالي التي نمتها في حياتي . . ولذلك عندما استيقظت في الصباح قمت بالتدريبات الرياضية اللازمة وسار برنامجي اليومي كالعادة وكان عقلي في منتهى النشاط والراحة مستعداً لمسئوليات اليوم الجديد . .

فى الساعة الواحدة والنصف من بعد ظهر السبت ٦ أكتوبر ، حضر المشير أحمد اسماعيل إلىّ حسب ما اتفقنا عليه وركبنا العربى الجيب الخاصة بالجيش وكنت أرتدى الزى العسكرى وتوجهنا إلى غرفة العمليات حيث جلست فى مكانى والقائد العام عن يمينى وكانت التعليمات أن الجميع يجب أن لا يلتزموا بالصيام . . وقد أصدرنا هذه الأوامر بفتوى من المشايخ وكنت أتصور أن القادة قد نفذوها ولكننى لم أكن واثقاً من أن هذا قد حدث بالفعل فسألتهم : « أنتم ما بتدخنوش ليه ؟ ليه ما بتشربوش سجائر ؟ العملية دى عازية تركيز وانتباه » لاحظت عليهم حرجاً شديداً فطلبت الشاى لنفسى وأشعلت غليونى ورحت أدخن . . على الفور فعلوا كلهم مثلى . . وفى الساعة الثانية تماماً وهى إشارة عبور الطيران وصل الخبر بأن طائرتنا قد عبرت قناة السويس وكانت ٢٢٢ طائرة نفائة سرعتها فوق سرعة الصوت انتهت من ضربتها الأولى فى ثلث ساعة بالضبط فقدنا فيها خمس طائرات فقط . . كما فقدت فى تلك اللحظات الأولى من الحرب أخى الطيار الشهيد عاطف الذى هو فى منزلة ابنى لأننى أنا الذى رببته ولكنهم أخفوا على حينذاك نبأ استشهاد أخى .

ونجحت ضربة الطيران نجاحاً كاملاً ومذهلاً حسب التخطيط الذى وضعناه لها . . مذهلاً لنا فى المقام الأول فقد حققت الضربة نتائج فاقت التسعين فى المائة بخسائر لم تزد عن إثنين فى المائة ومذهلاً لإسرائيل وللعالم كله شرقه وغربه . . فقد كان تقدير الاتحاد السوفيتى الرسمى بواسطة خبرائه قبل أن يخرجوا من مصر أنه فى أية حرب مقبلة فإن ضربة الطيران الأولى سوف تكلف سلاح الطيران

المصرى على أحسن الفروض ٤٠٪ من قوته ولن تحقق نتائج أكثر من ثلاثين فى المائة . . وبالقطع كان هذا التقدير من جانب السوفيت يهدف إلى تعجيزنا وتخويفنا من المعركة فلم يكن لهم ثقة فىنا على الإطلاق تماماً كما فقدنا الثقة فىهم .

فى ثلث ساعة فقط أى بعد عشرين دقيقة من ساعة الصفر كانت طائرتنا قد ضربت مراكز القيادة ومراكز إدارة الطيران ومراكز إدارة الدفاع الجوى . . وحين تحققت من هذه النتيجة وأنا فى غرفة العمليات هنأت قائد الطيران حسنى مبارك الذى خطط ونفذ هذه الضربة وهنأت جميع القادة فى غرفة العمليات إذ أن هذه الضربة قد حددت بالفعل مصير المعركة بعد ذلك . . فقد فقدت إسرائيل توازنها بالكامل ليس للأربعة وعشرين ساعة الأولى الحاسمة بل لأكثر من أربعة أيام كاملة فقدت فيها السيطرة على قواتها فى سيناء وانقطع الاتصال كاملاً بهذه القوات . . لقد استعاد سلاح الطيران المصرى بهذه الضربة الأولى كل ما فقدناه فى حربى ١٩٥٦ ، وهزيمة ١٩٦٧ ومهد الطريق أمام قواتنا المسلحة بعد ذلك لتحقيق ذلك النصر الذى أعاد لقواتنا المسلحة ولشعبنا ولأمتنا العربية الثقة الكاملة فى نفسها وثقة العالم بنا . . وأنهى إلى الأبد خرافة إسرائيل التى لا تهزم . . لقد كان قائد سلاح الطيران المصرى فى هذه المعركة الجنرال حسنى مبارك الذى طلبت إليه بعد ذلك أن ينزع ملابسه العسكرية ليرتدى الملابس المدنية لكى يعاونى فى عملى كنائب لرئيس الجمهورية .

عقب ضربة الطيران بدأت المدفعية المصرية تزجر بأكبر تركيز شهده العالم بعد معركة العلمين فى الحرب الثانية إذا انطلقت قذائف أكثر من ألفى مدفع لتقصف بدقة رائعة أهدافها . . وهكذا بدأت ملحمة ٦ أكتوبر والأداء الرائع للجندى المصرى العربى إذ لم ينتظر جنودنا على القناة أمر العبور وإنما كان مرور ٢٢٢ طائرة مصرية على ارتفاع منخفض يكاد يلمس رؤوسهم فى وقت واحد كافياً لإلهاب حماسهم ومشاعرهم المكبوتة منذ وقت طويل فأخذوا يسحبون زواقهم إلى مياه القناة من خلف الساتر وفى حالة هستيرية اندفعوا يعبرون القناة وهم يصرخون « الله أكبر » .

وهكذا بدأت مراحل الخطة تنفذ ولأول مرة يغير التخطيط العسكرى المصرى تلك المفاهيم التى كانت ثابتة إلى معركة أكتوبر ١٩٧٣ . . كانت القاعدة ألا يتصدى للمدركات إلا المدرعات . . وقد تعلمنا كما تعلم العسكريون فى العالم كله أن قوات المشاة مهما كان تدريبها أو نوعيتها فلا يجب أن تدخل فى أية معارك مع المدرعات لأنها كما يقول التعبير العسكرى (SOFT) ولكن فى حرب أكتوبر عبرت القوات الخاصة والمشاة المدربة فى الأفواج الأولى وهم يحملون الصواريخ فى أيديهم وواجهوا الدبابات الإسرائيلية فى معركة مريرة وضربوا أعداداً ضخمة منها قبل أن تعبر دباباتنا وتصل إليهم وتدخل معركة الدبابات .

كان فى الخطة أن ضربة الطيران تليها ضربة المدفعية كما ذكرت وتحت ستار ضرب المدفعية يتم العبور ولكن الذى حدث أن العبور تم أثناء عملية الطيران وقبل أن تبدأ المدفعية . . وبعد العبور دخل جنودنا على الحاجز الترابى الذى كان فى بعض مواقعه يبلغ ارتفاعه ١٧ متراً واستخدموا فى تسلقه عمليات بدائية أذهلت العالم - فهى عبارة عن سلم من الحبال يحمله الجندى ثم يتسلق الحاجز الترابى وعندما يبلغ القمة يطرح السلم لإخوانه فيتسلقونه وهم يحملون الأسلحة المضادة للدبابات من صواريخ ومدفعية ثقيلة وبسرعة يستولون على المواقع التى أعدها الإسرائيليون خلف الساتر الترابى على الضفة الشرقية ليتربصوا فيها بالعدو ويستروا زملاءهم الذين يعبرون .

كان مهرجاناً رائعاً وأنا أرى هذا المشهد من غرفة القيادة هادىء البال حتى خيل إلى أنه لو دخل أى إنسان نفسى لوجد بها طمأنينة كاملة . . لم يكن فى خاطرى أى هم فكل الهموم قد انقشعت وانتهت تماماً .

أول لواء من لواءاتنا المصرية رفعت العلم المصرى على الضفة الشرقية كان اللواء السابع وتوالت الأنباء بعد ذلك وبدأ سقوط النقاط الحصينة فى خط

بارليف الواحدة بعد الأخرى وفي نهاية ست ساعات فقط كان قد اتضح تماماً أن اليهود قد فقدوا توازنهم وفقدوا السيطرة وفقدان السيطرة هذا تعبير عسكرى معناه أن القيادات قد فقدت الاتصال بينها وبين القوات وهذا أهم شىء فى العسكرية من أجل تحقيق المفاجأة .

بعد عبور الموجات الأولى من القوات حاملة الصواريخ والمدفعية المضادة للدبابات واحتلالها للمواقع التى أعدها الإسرائيليون لإعاقة عبورنا بدأ المهندسون فى تطبيق نظرية شق الحاجز الترابى بنحرا طيم المياه المكثفة وهذه فكرة مصرية ١٠٠٪ فسلح المهندسين هو الذى قام بها وأذكر أننا حين طلبنا من الألمان صنع هذه المضخات ذات الضغط العالى سخرُوا منا وكانوا يتساءلون : « هل هناك حريق فى العالم كله يحتاج إلى كل هذه القوة ؟ » . . من قوة دفع الماء قطع الساتر الرملى كما لو كان بالسكين وفتحت الثغرات فى هذا الساتر الذى يبلغ ارتفاعه سبعة عشر متراً حيث ركبت فيها الكبارى . وعبرت الدبابات .

فى المساء كان كل شىء قد تم قبل مواعده حسب الخطة . . أما بالنسبة للموقف على الجبهة صباح ٦ أكتوبر فإن القادة المحليين قاموا بخدعة لطيفة وهى أنهم جعلوا الجنود يجلسون على ضفة القناة وهم يمتصون عيدان قصب السكر فى تراخ وكأنهم فى إجازة . . أما الخداع التكتيكى الأساسى الذى أجبر إسرائيل على احترام الجندى المصرى إلى الأبد فهو النزول بخمس فرق كاملة على خط المواجهة الذى كان طوله ١٨٠ كيلو متراً .

فى الساعة الثامنة إلا ثلث أى بعد ست ساعات إلا ثلث قضيتها فى غرفة القيادة أبلغونى أن السفير السوفيتى يريد مقابلتى فقلت للجنرال أحمد اسماعيل إننى ذاهب إلى قصر الطاهرة وهو المكان الذى أعدده بأحدث وسائل التكنولوجيا للإتصال بكل أنحاء مصر حتى لو ضربت المدن والمنشآت وأوصيته بأن يبلغنى بتطورات الموقف أولاً بأول بعد أن هنأت الجميع فى غرفة العمليات على الأداء الرائع لقواتنا وأرسلت لقواتنا أشكرهم على الجبهة فكما قلت كان مصير المعركة قد تحدد نهائياً .

عندما التقيت بالسفير السوفيتى كنت أظن أنه جاء ليحمل إلى رد القيادة السوفيتة على سؤالى الذى سبق أن سألته وهو ما موقف السوفيت منا ؟ ولكن خاب ظنى فقد جاء ليقول لى إن الرئيس حافظ الأسد استدعى السفير السوفيتى يوم ٤ أكتوبر وأبلغه أن الحرب ستبدأ يوم ٦ أكتوبر فقلت له نعم أنا أعرف ذلك وقد كان ذلك باتفاق سابق بيننا ثم استطرد السفير السوفيتى قائلاً إن حافظ الأسد طلب فى هذه المقابلة منا أى من الاتحاد السوفيتى العمل على وقف إطلاق النار بعد ٤٨ ساعة على الأكثر من بدء العمليات يوم ٦ أكتوبر . . وبناء على ذلك فقد جاء ليبلغنى ذلك رسمياً من القادة السوفيت ويطلب منى الموافقة على ذلك . . قلت له : « أنا أشك فى أن الرئيس الأسد قد طلب هذا قبل المعركة . . ومع ذلك فهل أنت تبلغنى هذه الرسالة كمعلومات أو كرسالة رسمية » ؟ قال لى : « أنا أبلغك هذا كرسالة رسمية من قادة الاتحاد السوفيتى وإذا كان لديك أى شك فيمكنك أن تتصل بالرئيس الأسد للتفاهم معه » . . قلت له : « سوف أرسل للرئيس الأسد أسأل فى هذا الموضوع ولكن أرجو أن تبلغ القيادة السوفيتية أنه حتى إذا كان هذا طلب سوريا فعلاً فإننى لن أوقف إطلاق النار إلا بعد الإنتهاء من الأهداف

الأساسية المحددة لمعركتي « . . بعد ذلك سألته عن الرد على سؤالى الذى أبلغته له يوم ٨ رمضان عن موقف الاتحاد السوفيتى من دخولى المعركة فأجاب بأنه مازال موضع دراسة . . وبمجرد مغادرة السفير السوفيتى للمقر كتبت برقية شفرية إلى الرئيس الأسد وأبلغته بنص ما أبلغه السفير السوفيتى وكان ذلك حول الساعة الثامنة والنصف مساء بتوقيت القاهرة أى بعد ست ساعات ونصف فقط من بدء حرب أكتوبر . . وأبلغت الرئيس الأسد أيضاً ردى على السفير السوفيتى وهو أننى لن أقبل وقف إطلاق النار إلا بعد تحقيق أهداف المعركة ورغم خطورة الموضوع جاءنى الرد من الرئيس الأسد عصر يوم ٧ أكتوبر ١٩٧٣ أى بعد أربع وعشرين ساعة . . ! بأن هذا الذى يدعيه الاتحاد السوفيتى لم يحدث .

فى اليوم التالى لم أذهب إلى القيادة فالعمليات تسير فى خطها السليم ثم إن القادة جميعاً محترفون وصنعهم الحرب . . هذا إلى جانب اعتبار آخر وهو أن وجودى بينهم قد يسبب لهم شيئاً من التوتر العصبي . . ولكننى طبعاً طلبت من المشير أحمد اسماعيل أن يطلعنى على الموقف أولاً بأول .

فوجئت يوم ٧ أكتوبر بالسفير السوفيتى يطلب مقابلة عاجلة فى المساء . . قابلته وقلت له : من نصف ساعة فقط تلقيت الرد من الرئيس الأسد وهو أن ما أبلغته لى رسمياً أمس كرسالة رسمية من القادة السوفيت لم يحدث . . ابيض وجه السفير فأصبح بلون الثلج وقال : « أنا جأى لك برسالة ثانية من الحكومة السوفيتية بناء على طلب سوريا للمرة الثانية بوقف إطلاق النار » قلت له : « اسمع . . أرجو أن تقفل هذا الموضوع وتعتبره انتهى عند هذا الحد فأنتم تعلمون منذ أمس أننى لن أوقف إطلاق النار إلا بعد أن تتحقق أهداف المعركة وأريدك أن ترسل للقيادة فى موسكو بأن يرسلوا إلى دبابات فوراً فهذه المعركة سوف تكون أكبر معركة دبابات فى التاريخ » (وكان القتال يومى ٦ ، ٧ أكتوبر شرساً كل الشراسة ومعركة الدبابات قد بدأت) . . وهنا أبلغنى السفير السوفيتى بالكوبرى الجوى الذى قرر الاتحاد السوفيتى إقامته لكى يرسل إلى ذخائر ومعدات متأخرة كان لابد من تسليمها خلال سنة ١٩٧٣ وفقاً للاتفاقية التى عقدها معهم المشير أحمد اسماعيل فى أوائل عام ١٩٧٣ . . رحبت على أى حال بهذا النبأ وقلت له : « هكذا يجب أن يكون شكل العلاقة بيننا » .

بعد ذلك كان السفير السوفيتى يزورنى يومياً فى قصر الطاهرة لتبادل المعلومات ولكنه لم يكف عن الإلحاح على وقف إطلاق النار وأنا أنهره وأقول له : « ليس قبل أن أحقق هدفى وهو ضرب نظرية الأمن الإسرائيلى » .

ظل الموقف العالمى مبلبلاً . . يأخذ بوجهة نظر إسرائيل لأنه يستقى معلوماته من البلاغات الإسرائيلية التى كانت تقول إنهم سوف يطحنون عظامنا وقد استخدمت إسرائيل لكى تغطى هزيمتها أفلام حرب ١٩٦٧ فى إسرائيل وفى العالم وظنوا أن حرب الدعاية يمكن أن تلغى الحقائق . . ولم يكن العالم فى بادئ الأمر يصدق بلاغاتنا رغم أن المشير إسماعيل كان متحفظاً فيها إلى أبعد الحدود . . لدرجة أن عدد الدبابات التى خسرتها إسرائيل كان فى بعض بلاغاتنا أقل من الواقع لأن المشير كان يطلب التأكد من أكثر من جهة فإذا لم يتوفر له هذا كان يأخذ بالرقم الأقل والحقيقة أنه لو جمعنا عدد الدبابات التى خسرتها إسرائيل وفقاً لبلاغاتنا ستجده أقل من الواقع بحوالى ١٥٠ دبابة . . وكنت قد قلت لأحمد إسماعيل والدكتور عبد القادر حاتم نائب رئيس الوزراء ووزير الإعلام وقتها : « فى هذه المعركة نريد الحقيقة كما هى للناس بخيرها وشرها . . حتى نعود شعبنا على أن يسمع الحقيقة كاملة مهما كانت » .

فى هذه الأثناء اتصل بريجنيف بالرئيس تيتو وطلب منه أن يتوسط عندى حتى أن أقبل وقف إطلاق النار لأن سوريا كانت قد أرسلت للاتحاد السوفيتى (كما أبلغ بريجنيف تيتو) ثلاث مرات تطلب وقف إطلاق النار وقال له إن مصر رفضتها وأن الرئيس السادات بإصراره هذا سوف يكون السبب فى كارثة تودى بالعالم العربى والنظم التقدمية والعالم بأجمعه . . كان تيتو حريصاً فرد على بريجنيف يبلغه أنه لا يسمح لنفسه بالتدخل فيما يفعل السادات رغم الصداقة به فالرئيس السادات أمامه الصورة كاملة للأمور وهو يتصرف على أساسها . . فى هذا الوقت كان تيتو قد أتم تجهيز ١٤٠ دبابة كنت قد طلبتها على وجه السرعة لخبرتى بأسلوب السوفيت معى أرسلها إلى وهى محملة بالذخيرة والبنزين لكى تدخل إلى ميدان المعركة مباشرة فتيتو له خبرة من الحرب العالمية الثانية وهو مناضل أصيل . . موقف لن أنساه أبداً للرئيس تيتو وليوغوسلافيا .

بعد اليوم الثالث تأكد انتصارنا فبدأ العالم يأخذ ببياناتنا ويبدى إعجابه بقدرتنا القتالية وفرحته لانتصارنا - ففي هذه الأيام الثلاثة فقدت إسرائيل أكثر من ثلث سلاح طيراتها على الجبهتين المصرية والسورية وخيرة الطيارين المدربين ولذلك ففي المعارك التي دارت بعد ذلك كانت طائراتنا الميج ١٧ وسرعتها أقل من سرعة الصوت تهزم الفانتوم التي كانت أحدث طائرة في ذلك الوقت عند إسرائيل وهي التي سلمتها لها أمريكا .

وبذلك انتهت خرافة سلاح الطيران الإسرائيلي واليد الطولى وخرافة المدرعات الإسرائيلية والجندى الإسرائيلي بوجه عام ، وعلى سبيل المثال قتل على الجبهة المصرية قائد عام مدرعات إسرائيل الجنرال ابراهام مندler وكانت له شهرة عالمية . . ولعل البرقيات المتبادلة بينه وبين القيادة الإسرائيلية توضح حقيقة هزيمة إسرائيل . كل هذا الانهيار الذى تم فى الأيام الثلاثة الأولى للحرب جعل كيسنجر يقول لمسز مائير فى اليوم الرابع : « لقد خسرت الحرب ويجب أن تعدى نفسك لهذا » . . ثم بدأ كيسنجر مساعيه لإيقاف إطلاق النار حتى يلتقط الإسرائيليون أنفاسهم . . فقد كانت المعارك تسير بالنسبة لنا من نصر إلى نصر . . فمثلا اللواء ١٩٠ المدرع الإسرائيلى وكان من أهم لواءاتهم المدرعة إذ يعتبرونه رأس الحربة كانت خطته أن يخترق ويندفع إلى أن يصل إلى ضفة القناة ويفصل قواتنا بعضها عن البعض فإذا بقائده عساف ياجورى يصاب بالانهيار عصبى وهو يسلم نفسه للقوات المصرية لأنه بعد ثلث ساعة فقط من بدء المعركة . . تلفت حوله فلم يجد سوى دبابته أما بقية اللواء وقدرها أكثر من مائة وخمس عشرة دبابة فكان قد قضى عليها بالكامل . . والذى قام بهذا العمل الرائع قائد من البراعم المصرية الجديدة اسمه أبو سعدة . .

لقد سجلنا رقماً قياسياً عسكرياً مصرياً بالقضاء على أى لواء مدرع معادى فى عشرين دقيقة .

كما سجلنا من قبل أن أكبر قطعة بحرية إسرائيلية هى إيلات بقوة نيرانها وصواريخها وطاقمها الذى يبلغ أكثر من ٣٠٠ (ثلاثمائة) بحار يمكن أن يقضى عليها زورق صواريخ لا يزيد طاقمه عن ١٧ فرداً وكان هذا إيذاناً بتغيير استراتيجى فى حرب البحار أخذت به كل دول العالم بعد حرب أكتوبر وسجل التاريخ أن أول صاروخ بحرى سطح سطح والذى غير الاستراتيجية

البحرية العالمية . . كان صاروخاً مصرياً أطلق من زورق مصرى وبأيدى ضباط وجنود مصريين فى وقت ظن العالم فيه أن مصر والعرب لا يستطيعون استيعاب التكنولوجيا الحديثة . .

وقع ذلك فى أحلك لحظات الهزيمة عام ١٩٦٧ . .

ثم كان ما سجله المقاتل المصرى من تغيير جذرى فى حرب المدرعات والمشاة فى تاريخ العالم العسكرى بعد ست سنوات فى أكتوبر سنة ١٩٧٣ والذى ذكرته سابقاً . .

إن العسكرية المصرية فى أكتوبر سنة ١٩٧٣ وبعد هزيمة سنة ١٩٦٧ قد سجلت فى تاريخ العسكرية العالمية علامات محددة هى :

١ - الأسس الجديدة لاستراتيجية حرب البحار التى أخذ بها العالم بعد أن ثبت أن زورقاً صغيراً يمكن أن يصيب أكبر القطع البحرية وأن قوة النيران لم تعد تتطلب بوارج أو مدمرات ثقيلة فقد كانت قوة نيران زورق صغير أفعل من قوة نيران مدمرة ثقيلة بالمدافع والصواريخ هى إيلات . .

٢ - أن أول حرب اليكترونية وصاروخية وقعت فى معركة أكتوبر سنة ١٩٧٣ وثبت أن المصريين والعرب يفخرون بأنهم خاضوا هذه الحرب وانتصروا فيها ولولا تدخل الولايات المتحدة بكل ثقلها إلى جانب إسرائيل لتغير الوضع . مع أن ما كان لدى إسرائيل فى هذه الحرب من تكنولوجيا حديثة حصلت عليها من الولايات المتحدة الأمريكية كان سابقاً لما لدى العرب من روسيا بأشواط طويلة .

٣ - أن معارك الدبابات أصبحت فى عصر الصواريخ والحرب الإليكترونية معارك رهية تعتمد على أعداد رهية من الدبابات لم يشهد لها العالم مثيلاً فى خلال الحرب الثانية كانت معركة كورسك فى روسيا للدبابات هى أكبر معركة شهدتها العالم . . وفى معركة أكتوبر سنة ١٩٧٣ التى استمرت ١٧ يوماً فقط فقد المحاربون ثلاثة آلاف دبابة أى أن القوات التى دخلت المعركة فى حرب أكتوبر كانت أكثر من خمسة آلاف دبابة فى الوقت الذى اعتبرت فيه معركة كورسك الروسية التى أشترك فيها ٥٠٠ دبابة أكبر معركة دبابات خلال خمس سنوات من الحرب وليس سبعة عشرة يوماً كما حدث فى حرب أكتوبر . .

فى يوم ١٣ أكتوبر سنة ١٩٧٣ أى بعد سبعة أيام من ابتداء الحرب أيقظونى من النوم فى الفجر وقالوا لى إن السفير البريطانى يطلب مقابلة عاجلة لتسليم رسالة عاجلة من رئيس وزراء بريطانيا « هيث » . . استقبلته فى الصالون المجاور لحجرة نومى فأعطانى رسالة من كسينجر عن طريق رئيس وزراء بريطانيا فقد كانت علاقاتنا لا تزال مقطوعة بأمريكا - وكان كسينجر فى رسالته يطلب من « هيث » أن يتأكد أننى موافق على وقف إطلاق النار فقد أخبره السوفيت بهذا .. وكان كسينجر قد أفاق منذ اليوم الرابع للحرب ونداء SAVE ISRAEL الذى وصله فى اليوم الرابع بعد أن كانت دعاية إسرائيل تحكى لمدة الثلاثة أيام الأولى أنهم يطحنون عظام المصريين وسائرهم إذاعات العالم - أقول أفاق كسينجر الذى لم يكن لديه أدنى شك فى طحن عظامنا على نداء SAVE ISRAEL وطلب إسرائيل لأربعمائة دبابة بصفة عاجلة وهى مجموع ما خسرتة على الجبهة المصرية إلى ذلك التاريخ أى اليوم الرابع وتقرير من البتاجون يقول إن المعركة على الجبهة المصرية تسير فى غير صالح إسرائيل ولا بد أنه وصله أيضا بكاء ديان على الجبهة المصرية أمام جميع مراسلى الصحف العالمية وانهياره وقوله إن الإسرائيليين لن يستطيعوا أن يزحزحوا المصريين بوصة واحدة وأن الطريق مفتوح إلى تل أبيب .. كان كسينجر منذ اليوم الرابع بعد أن عرف كل هذا يعمل على وقف إطلاق النار مع السوفيت فبدأ أولا بالنداء لوقف إطلاق النار مع عودة الأطراف المتحاربة إلى الخطوط التى بدأ منها القتال على أساس أن الإسرائيليين كانوا يطحنون عظامنا .. ثم بدأ يعدل موقفه لإنقاذ إسرائيل بعد النداء المشهور وتقرير البتاجون إلى وقف إطلاق النار على الخطوط القائمة بالفعل يوم ١٣ أكتوبر ورفضنا العرضين . . ولكن حينما أخبره السوفيت أن مصر وافقت على وقف إطلاق النار على الخطوط

الحالية للقتال يوم ١٣ أكتوبر سعد جداً واتصل بوفد أمريكا في الأمم المتحدة للإعداد في مجلس الأمن وأراد أن يستوثق مني فأرسل هذه الرسالة عبر هيث رئيس وزراء إنجلترا لأنه كان قد عرف قبل ذلك من مستشار الأمن القومي المصري الذي قابله في باريس أوائل سنة ١٩٧٢ حقيقة أبلغتها رسمياً للولايات المتحدة وهي أن الاتحاد السوفيتي لا يملك أن يتحدث باسم مصر . . لذلك صدم كسينجر حينما أبلغه هيث ردى على الرسالة وكان « بلغ كسينجر أن هذا لم يحدث فأنا لم أوافق على وقف إطلاق النار لا للسوفيت ولا لغيرهم وقد سبق أن أخبرته بأن يتصل بالقاهرة إذا كان ثمة ما يخص مصر وليس بموسكو . . ثم إننى لن أوافق على وقف إطلاق النار إلا بعد إتمام المهام التي تتضمنها الخطة » . سألتى السفير الإنجليزي : « هل صحيح أنكم تصرون على قفل البحر الأحمر؟ » .

قلت له : فعلا

قال : طيب . . ما هي الشروط ؟

قلت له : أنا مستعد لوقف إطلاق النار في حالة موافقة إسرائيل على الانسحاب من الأراضي العربية .

وخرج السفير من عندى ليبلغ كسينجر بالموقف . . بعدها مباشرة وصلنى خبر من الاتحاد السوفيتي بأن رئيس الوزراء كوسيجين سيحضر لزيارتى - فقلت أهلا وسهلا .

وجاء كوسيجين والتقينا . . كان مطلبه الأساسى وقف إطلاق النار على الخطوط الحالية . . قلت له : « أنا مش مستعد أكرر هدنة سنة ١٩٤٨ التي كانت السبب في خسارتنا للحرب » .

قال لى « إحنا حندخل ضامين » .

قلت : « إسرائيل لا ضمان لها إطلاقاً - ثم أنا طالب دبابات من ثانى يوم للمعركة ولم تصلنى للآن والكوبرى الى انتم عاملينه بييجيب لى معدات تأخرتم في تسليمها وكان لازم تورد في سنة ١٩٧٣ قبل المعركة » وطبعاً كان من ضمنها الذخيرة التي رفضوا أن يستعوضوها لعبد الناصر في حرب الاستنزاف لأنه رفض أن ينفذ

طلباتهم .. ثم بدأ أسلوبه الهجومي ، وكوسيجين هجام وبير وقراطى .. وهم يضربون به المثل فى الاتحاد السوفيتى بأنه خدم مع ستالين فى الحكومة لمدة ثلاثة عشرة عاماً ومع ذلك لم يصنى بواسطة بيريا وزير داخلية ستالين أو يرسل إلى سبيريا بعكس كل ما حدث لمن عملوا مع ستالين ولم ينج منهم أحد كما حدثنا خروشوف فى زيارته لنا عام ١٩٦٤ .

قلت له : « تعالى بقى نستعرض الكلام اللى أنت بتقوله — الكبارى اللى إنت وردتها لى واللى أنا ركبها على قناة السويس . . الكوبرى الواحد منها يحتاج لحمس ساعات تركيب وهى كبارى الحرب العالمية الثانية فى الوقت اللى عندك كوبرى B.M.P. بتركب فى نصف ساعة . . كل المعدات اللى أعطيتها لى متأخرة . . وحاططنى وراء إسرائيل بـ ١٠ خطوات ومع ذلك قبلت وبدأت معركتى وأنا منتصر — أدى علاقتكم معنا .. وأظن أن الأوان قد آن لكى ننسى الماضى ونبدأ صفحة جديدة » .
قال لى : — « يا سيادة الرئيس أنا لم أكن أتصور أنك بهذا الانفعال » .
وانتهى اللقاء الأول — ولكن فى فترة الأربعة أيام التى قضائها بمصر كان يقضى اليوم كله فى السفارة السوفيتية ويقابلنى فى المساء .

وأثناء وجوده فى مصر حدثت الثغرة فجاءنى وعلى وجهه علامات التشقى وقال : « لقد حدثت الثغرة وموقفكم خلاص إتحدد .. القاهرة أصبحت مهددة » .
قلت له : — « آسف . . القاهرة لن تهدد أبداً . . ولكن أين الدبابات التى طلبتها منكم . . أين ؟ » .

قال لى : — « إحنا ركزنا على سوريا لأنها إنكسرت وفقدت ١٢٠٠ دبابة فى يوم واحد » .

قلت له : — « لا اعتراض لى على هذا ولازم تنجدوا سوريا بكل الطرق . . ولكن هذا لا يمنع من إرسال الدبابات اللى طلبتها . . أرسلوا الدبابات وأنا كفيل بالتعامل مع الثغرة » . . وسافر بعد ٤ أيام وقلت له وأنا أودعه : — « لن أوقف إطلاق النار إلا بعد إتمام المرحلة النهائية من الخطة . . أرجو أن يكون ذلك واضحاً لكم » .

اتضح لى بعد ذلك أن القمر الصناعى الأمريكى الذى كان يوصل المعلومات لإسرائيل ساعة بعد ساعة بعد نداء SAVE ISRAEL أخطرهم بنقل الفرقة ٢١ المدرعة المصرية من الضفة الغربية للقناة إلى الضفة الشرقية لمحاولة تخفيف الضغط على سوريا كما طلب وألح الرئيس الأسد وأن البتاجون قد نصح الإسرائيليين بمحاولة عمل الثغرة لإنقاذ الموقف الإسرائيلى المهار على جبهة سيناء . . وقد كتب بعد ذلك رئيس الأركان الإسرائيلى أثناء حرب أكتوبر ليدافع عن نفسه فى مذكرات نشرها ليبرىء نفسه بعد أن أدانته تقرير لجنة أجرانالت أن جولدا مائير قالت لهم بعد وصول معلومات القمر الصناعى الأمريكى افعلوا أى شئء فنحن على الجبهة المصرية قد وصلنا إلى الحضيض BOTTOM بنص الكلمة . . كان القمر الصناعى الأمريكى يوصل المعلومات لإسرائيل ساعة بعد ساعة وأقرر هنا للتاريخ أن روسيا التى تدعى وقوفها مع الحق العربى لم تبلغنا بشئء بواسطة أقمارها الصناعية التى كانت تتابع المعركة منذ لحظة بدئها إلى لحظة وقف إطلاق النار لأننا أخطرناها بواسطة سوريا عن ساعة الصفر كما قلت سابقاً . . وهذا التسجيل للمعركة عرض فى اللجنة المركزية للاتحاد السوفيتى وطلبت صورة منه فلم أتلق رداً إلى اليوم ولن أتلقى هذا الرد . . ولكن القمر الصناعى الأمريكى والبتاجون كانوا يوافون إسرائيل بالموقف ساعة بعد ساعة دون أن تطلب ذلك . . وخاصة بعد أن سجل القمر الأمريكى كما قلت أن المعركة على الجبهة المصرية تسير لغير صالح إسرائيل وأقر ديان أن الطريق من سيناء مفتوح إلى تل أبيب . . ثم حدث تطور خطير بدأت أشعر به وأنا أتابع الحرب من غرفة العمليات .

لقد استخدم الكوبرى الجوى الأمريكى لنجدة إسرائيل مطار العريش لنزول الطائرات الأمريكية الجبارة التى تحمل الدبابات وكل الأسلحة الحديثة SOPHISTICATED والعريش مدينة مصرية وهى عاصمة سيناء . . تقع خلف الجبهة مباشرة . . وبدأت ألاحظ تطوراً خطيراً آخر . . فى معارك الدبابات التى اعترف الإسرائيليون أنفسهم بشراستها وكفاءة المصريين فى إدارتها (وخاصة بعد أن أفنينا الدبابات التى كان يقودها مندler قائد الدبابات الإسرائيلى الذى كان فخر إسرائيل وبعد إعلان استغاثته وموته) كنت كلما أصبت لإسرائيل عشرة دبابات أرى مزيداً من الدبابات .

أمريكا . . لقد دخلت أمريكا الحرب لإنقاذ إسرائيل بعد النداء المشهور فى اليوم الرابع . . وهى تستخدم بكل صراحة مطار العريش المصرى الذى يقع خلف الجبهة بكل وضوح لكى تحول الهزيمة الإسرائيلية إلى انتصار . . وتذكرت فى تلك اللحظات ما فعلته أمريكا على جبهة ألمانيا فى الحرب العالمية الثانية . . ثم على الجبهة اليابانية . . لقد كانت أمريكا تغير على الأهداف الألمانية ومدن ألمانيا بألف طائرة فى الغارة الواحدة لكى تلقن الألمان درساً لا يمكن أن ينسوه . . وأغارت على نجازاكي وهيروشيما على الجبهة اليابانية لكى تلقنهم أيضاً درساً لن ينسوه . .

وتطور خطير ثالث . . فقد أطلقت الطائرات الإسرائيلية من طراز فانتوم الأمريكى عشرة صواريخ على بطاريات الصواريخ المصرية فلم يصب إلا هوائى لبطارية واحدة أصلح بعد ربع ساعة فقط ولم تتعطل بطاريات الصواريخ المصرية التى أسقطت ثلث السلاح الجوى الإسرائيلى فى الأيام الأولى للمعركة مما دعا القيادة الإسرائيلية أن تصدر أمراً إلى الطائرات الإسرائيلية فى اليوم الثالث لحرب أكتوبر بعدم الإقتراب من جبهة القتال فى سيناء . . أما التطور الثالث الخطير فهو أن أطلق صاروخان على بطاريتين مصريتين للصواريخ فعطلا البطاريتين تعطيلاً كاملاً وعرفت بعد ذلك أنه صاروخ أمريكى جديد يسمى القنبلة التليفزيونية تم تطويره فى اليابان لحساب أمريكا وأنه كان لا يزال تحت الاختبار فى أمريكا فأرسلته أمريكا لنجدة إسرائيل .

لقد دخلت أمريكا الحرب لإنقاذ إسرائيل SAVE ISRAEL حتى بالأسلحة التي تحت الاختبار . . وقنبلة المافريك . . وأسلحة أخرى . . وأنا أعرف إمكانياتي وأعرف حدودي . . لن أحارب أمريكا . .

ولذلك بعد عودتي من غرفة القيادة في الساعة الواحدة والنصف من صباح ١٩ / ٢٠ أكتوبر ١٩٧٣ كتبت للرئيس الأسد شريكى في القرار برقية أخطره فيها أنني قررت الموافقة على وقف إطلاق النار وسجلت في هذه البرقية موقفي وهو أنني لا أخاف مواجهة إسرائيل ولكنني أرفض مواجهة أمريكا . . وأني لن أسمح أن تدمر القوات المصرية مرة أخرى . . وأني مستعد أن احاسب أمام شعبي في مصر وأمام الأمة العربية عن هذا القرار .

وأعود إلى القصة . . في يوم ١٦ أكتوبر أرسلت رئيس الأركان الجنرال سعد الشاذلى للتعامل مع الثغرة وكان من السهل جداً التعامل معها في ذلك اليوم ، فقد كان السباق فيها للزمن . . ولو أنه نفذ ما طلبته منه أنا والفريق أحمد إسماعيل وفي التوقيت الذى حددته له فأحاط شاطئ البحيرة المرة بسد يسجنهم داخلها ويوقفهم في مكانهم لأصبح من السهل القضاء عليهم وكان في إمكانه أن ينتهى من العملية كلها بعد وصوله بساعات ولكنه أضاع الليلة بأكملها في جمع المعلومات وإنشاء قيادة له ينافس بها قيادة غريمه الجنرال اسماعيل وكانت قوات الصاعقة قد تقدمت إلى الدفرسوار ووصلت فعلا إلى نقطة النزول واعترف الإسرائيليون بشراسة قتال قوات الصاعقة والقوات الخاصة . . ولكن الشاذلى أعطاهم الأمر بالانسحاب إلى أن يجمع المعلومات وكانت النتيجة أن توسع اليهود في الثغرة .

في يوم ١٩ أكتوبر عاد الشاذلى منهاراً وقال لا بد أن نسحب قواتنا في شرق القناة لأن الغرب مهدد . . وكان هذا - لوتم - هو ما يريده الإسرائيليون . . فطلب منى أحمد اسماعيل في منتصف ليلة ١٩ / ٢٠ أكتوبر أن أذهب إلى القيادة حتى أتخذ قراراً مهما بوصنى القائد الأعلى للقوات المسلحة . . ذهبت إلى القيادة . واستعرضت الموقف فوجدت أن لنا خمس فرق كاملة في شرق القناة وعندنا ١٢٠٠ دبابة في الشرق أيضاً أما في الغرب فعندنا فرقة مدرعة تواجه قوات إسرائيل

وفى القاهرة فرقة يمكن سحبها - هذا غير الحرس الجمهورى الخاص بى والذي أدخلته الحرب وقاتل قتالا مجيداً وعاد كاملاً بكل دباباته .

بعدما اتضح الموقف لى جمعت القادة كلهم وكان معى الفريق أحمد اسماعيل القائد العام للقوات المسلحة والفريق الجمسى مدير العمليات والفريق حسنى مبارك والفريق محمد على فهمى قائد سلاح الصواريخ ، وكانوا جميعاً من رأيى وهو أنه لم يحدث شىء يستدعى القلق . . فأعطيت الأمر الذى اعتبره أهم من قرار ٦ أكتوبر - بأن لا ينسحب جندى واحد ولا بندقية واحدة ولا أى شىء على الإطلاق من شرق القناة وأنه علينا أن نتعامل مع الغرب حسب الأوضاع الموجودة ثم بدأت أتصل بنفسى مع الفرقة المدرعة فى الغرب وكان يقودها ضابط اسمه قابيل وهو بطل من أبطال أكتوبر وقلت له : - ثبت الإسرائيليين ولا تجعلهم يتمكنوا من التوسع وإياك أن تشتبك معهم إلى أن تصلك الإمدادات .

فى هذه الليلة أعطيت تعليماتى لأحمد اسماعيل بغزل الشاذلى من رئاسة الأركان على أن لا يعلن هذا القرار على القوات حتى لا يحدث رد فعل عندنا أو عند الإسرائيليين . . وفى نفس الليلة استدعيت الجمسى وعينته رئيساً للأركان .

وفى هذه الليلة اتخذت القرار بوقف إطلاق النار فقد كان لى عشر أيام أحارب فيها أمريكا وحدى بأسلحتها الحديثة التى لم يستخدم أغلبها من قبل .

وكان الموقف على غير ما يتصوره العالم كله . . فقد كان اعتقاد الجميع فى العالم أن الاتحاد السوفيتى يقف إلى جانبنا وأنه قد أرسل الكوبرى الجوى لنجدتنا . . ولكن الموقف كان غير ذلك فى الواقع . . فأمريكا وإسرائيل فى مواجهة وفى الاتحاد السوفيتى فى يده الخنجر ويقبع وراء ظهرى ليطعننى فى أية لحظة عندما أفقد ٨٥٪ أو ٩٠٪ من سلاحى كما حدث فى سنة ١٩٦٧ وقد أصبح من الواضح أن أمريكا تستطيع أن تقضى على دفاعى الجوى بأكمله باستخدام القنابل التليفزيونية الجديدة وبهذا تعود سماء مصر مفتوحة للإسرائيليين كما حدث فى عام ١٩٦٧ . .

وقد كان حسنى مبارك قائد الطيران يستخدم كل الطائرات الموجودة . . حتى طائرات التدريب التى فى مدرسة الطيران ركب بها صواريخ وقاقلت . . وطائرات الميج ١٧ وسرعتها أقل من سرعة الصوت استخدمها طيارونا بمهارة شديدة ضد الفانتوم والميراج . .

وكان هذا فى مجموعه يشكل ملحمة رائعة لسلاح الطيران المصرى على عكس ما كان الاتحاد السوفيتى يتوقع . . إذ كان يريد أن يثبت أننى لست كفتاً للحرب بعد أن طردت الخبراء السوفيت وأن مصر يجب أن تعود مرة أخرى إلى الاتحاد السوفيتى . . وقد صرح بهذا بريجنيف للرئيس بومدين عندما زار الاتحاد السوفيتى زيارة سرية لم يخطر بها أحداً ونحن فى أوج انتصارنا ليشترى

لنا السلاح . . . ففي أثناء المناقشة احتد بريجنيف وقال له إن أنور السادات ضيع مصر وسوف يضيع العرب والقاهرة ودمشق والنظم التقدمية وإنه أحرق . . . فرد عليه بومدين وقال : « أنا زبون جاي أشتري منك سلاح . . . اتفضل آدى مائة مليون دولار لمصر ومثلها لسوريا . . . أرسل لهم الأسلحة التي يطلبونها . . . ولما عاد بومدين إلى الجزائر جمع مجلس الثورة وحكى لهم ما حدث وقال : « إذا كان الأمريكان وإسرائيل عايزين يهزموا أنور السادات قيراط فالاتحاد السوفيتي عايز يهزمه ٢٤ قيراط » . هل يذكر بومدين هذا وقد قاله لى شخصياً أم نساه بعد أن أصبح عضواً في جبهة رفض مبادرتي الأخيرة للسلام ؟ .

في يوم ١٩ أكتوبر بعد اجتماعي بالقواد عدت إلى قصر الطاهرة وبدأت في الحال تنفيذ قرارى — طلبت منهم أن يستدعوا لى السفير السوفيتي وإلى أن حضر كتبت برقية إلى الرئيس الأسد قلت فيها إننى قد قبلت وقلبي ينزف دماً وقف إطلاق النار . . . لأننى مستعد أن أحارب إسرائيل مهما طال الوقت لكننى غير مستعد على الإطلاق لمحاربة أمريكا — كما أنى لا أسمح بأن تدمر قواتى المسلحة مرة أخرى أو أن يدمر شعبنا ومنشآته وفى آخر البرقية قلت له إننى مسئول عن هذا القرار يحاسبنى عليه الشعب فى مصر وتحاسبنى عليه أمتنا العربية . . .

وجاء السفير السوفيتي فقلت له : « لقد قبلت وقف إطلاق النار على الخطوط الحالية » . . . فى هذا الوقت كان كيسنجر فى طريقه إلى موسكو بشأن عملية وقف إطلاق النار فاستأنفت حديثي مع السفير وقلت له :

« الدولتان العظيمان يجب أن تضمنا وقف إطلاق النار والتنفيذ الفورى لقرار ٢٤٢ » . . .

وفعلا اتفقت الدولتان واجتمع مجلس الأمن وقرر أن يكون وقف إطلاق النار فى الساعة السابعة مساء ٢٢ أكتوبر ويجب أن أقرر هنا للحقيقة والتاريخ أن قواتنا قاتلت من ١٩ إلى ٢٢ أكتوبر قتالا رائعاً مجيداً وأنا اتحدى إسرائيل أن تعلن عن خسائرها الحقيقية فى الثغرة أو فى سيناء لأنهم بالفعل منيوا بخسائر فادحة على أيدي قواتنا الخاصة وقواتنا الجوية . . . وخاصة فى الثغرة فى

الضفة الغربية ولم يفصحوا عن ذلك إلا منذ سنة حينما وصفوا الثغرة على الضفة الغربية بأنها كانت « وادى الموت » وهو وصف إسرائيلي . .

وأكرر مرة أخرى إنني أتحدى أن تعلن إسرائيل حقيقة الثغرة ودور شارون . .

يوم ٢٢ أكتوبر قبل وقف إطلاق النار ذهبت إلى غرفة العمليات وأعطيت الأمر بضرب صاروخين أرض أرض . . اثنين فقط . . على الدفرسوار ، فقد أردت أن تفهم إسرائيل أن هذا السلاح موجود عندنا ويمكن أن نستعمله في المرحلة القادمة وكانت إسرائيل قد أدركت منذ بدأنا الحرب أننا نغني ما نقول وننفذه . .

أوقفنا القتال على خط ٢٢ أكتوبر وهذا الخط كما اعترف اليهود بعد ذلك كان مقتلاً لهم لأنه شريط مستطيل بجانب بحيرة الدفرسوار مفتوح من جميع الجهات فانهزوا فرصة وقف إطلاق النار (كعادتهم منذ حرب ١٩٤٨) وبعدها بساعتين وجهوا هجوماً نحو الجنوب تجاه السويس وهجوماً آخر تجاه الإسماعيلية .

في هذه الأثناء قامت قواتنا الخاصة بأعمال عظيمة في الثغرة فبمجرد حلول الليل يحل معه الرعب في قلوب الإسرائيليين ومن أجل هذا تحدث أن يعلنوا عن خسائرهم الحقيقية في الثغرة ، ففي الثلاثة أيام الأولى من الحرب ضربنا لهم ٤٠٠ دبابة . . تلك التي طلبوها من أمريكا رسمياً تعويضاً لهم ، ولكنني بعد هذا وجدت أمامي مئات الدبابات - كما ذكرت - أمدتهم بها أمريكا بسرعة ولذا أوقفنا القتال على خط ٢٢ أكتوبر . .

قامت إسرائيل بالهجوم الذي أشرت إليه بعد وقف إطلاق النار بساعتين وكان الهدف منه أن يوسعوا الثغرة فتمتد قواتهم خلف الجيشين الأول والثاني وبذلك يقطعون خط إمداد الجيشين ويتراجع خط دفاعنا الجوى إلى الخلف فتحرم الجيوش التي في المقدمة من الحماية وبذلك يتمكنون من الاستيلاء على الإسماعيلية والسويس وينقذون سمعهم أمام العالم . .

ولكن الذى حدث كان عكس هذا - فقد أمرت قادة الجيشين الثانى والثالث وخاصة الجيش الثالث بأن لا يسمحوا لقوات إسرائيل بتحقيق أى تقدم من ناحية الجنوب ولكن قائد الجيش الثالث أهمل وبذلك تمكنت قوات إسرائيل من أن تقتحم المنطقة فتصل إلى مشارف مدينة السويس ولكنهم لم يتمكنوا من دخول السويس على الإطلاق . . كل الذى استطاعوا تحقيقه هو أنهم فتحوا ثغرة بين الجيشين فى الشرق حجمها ٦,٥ كيلو مترات وذلك بين خمس فرق مصرية كاملة بدباباتها وأسلحتها بالكامل فقد أعطيت الأمر بأن لا تنسحب أية بندقية أو فرد من هذه الفرق من الشرق تحت أى ظروف . . أما فى الغرب فعندما حاول الإسرائيليون الاستيلاء على مدينة الإسماعيلية لم يستطيعوا الوصول حتى إلى مشارفها . . وكنت قد كلفت ممدوح سالم وكان فى ذلك الوقت مسئولاً عن المجلس الأعلى للدفاع الشعبى . . فأرسل ١٠٠٠ فرد من قوات الأمن المركزى وهم مدربون على مستوى عال . . فأتوا بأسلحتهم وعتادهم وكانوا على أتم استعداد ومعهم الجيش والأهالى لإستقبال الإسرائيليين . .

بعد أن خرقت إسرائيل وقف إطلاق النار بنذالة وفشلت فى دخول الإسماعيلية والسويس اتصلت بالقوتين الأعظم روسيا وأمريكا وقلت لهما : « اتفضلوا . . أنا مستعد أقبل نزول قواتكم عندي - أى قوات أمريكا وروسيا - عشان ترجعوا لى خط ٢٢ أكتوبر أو تتركونى أسترد هذا الخط بشرط أن لا تعتبروا هذا خرقاً لوقف إطلاق النار » . . وكان حرصى فى هذا هو أن لا تتدخل أمريكا إلى جانب إسرائيل كما حدث . .

استجاب السوفييت فقاموا بحشد قوات للإنزال فى البحر الأبيض . .

أما الأمريكان فأعلنوا حالة التعبئة الذرية وقد سببت لهم هذه متاعب كثيرة لأنهم لم يستشيروا حلفاءهم فى حلف الأطلنطى . . وقد كان رأى العام الأوروبي فى سنة ١٩٧٣ معنا وضد إسرائيل على عكس ما كان الحال عليه فى ١٩٦٧ .

انتهت المسألة بأن الإسرائيليين حينما يسوا من السويس والإسماعيلية اكتفوا بالوقوف فى الثغرة . . وبدأت قواتنا فى الغرب تضغط عليهم باستمرار . .

ولن أنسى هنا موقف الضابط قابيل لأنه وقف يناور بفرقة مدرعة واحدة في مسافة بين السويس والإسماعيلية تحتاج لثلاث فرق من الشمال إلى الجنوب حتى يثبت الإسرائيليين في الجيب .. وكان يمكن أن يتغير الموقف لو أننا كنا ننوى خرق إطلاق النار بدلا من الإسرائيليين بحيث ينضم الجيشان اللذان كانا في الشرق ويضغطان على الثغرة التي تسلك منها الإسرائيليون إلى الغرب وهي ٦,٥ كيلومتر فنتهي في الحال .. ولكننا كنا ولا نزال نلتزم بالقواعد الأخلاقية في الحرب والسلام على السواء ..

ولكن إسرائيل منذ سنة ١٩٤٨ أى منذ قيامها لا تلتزم بأى قانون أخلاقي أو دولي وحاولت أن تضغط علينا نفسياً فشحت قوات كبيرة جداً من أجل تخويفنا وبقصد المساومة .. أرسلوا ٤٠٠ دبابة داخل الثغرة في رقعة أرض لا تتحمل أكثر من ٢٠٠ دبابة - وقواتي تحيط بهم من كل جانب فهناك خمس فرق في الشرق وأربع فرق في الغرب هذا بخلاف حائط صواريخ كاملة ودباباتي التي تحاصرهم حصاراً تاماً - فقد وصلني أول إمداد بالدبابات من بومدين وكان عددها ١٥٠ دبابة ثم وصلني إمداد آخر ١٤٠ دبابة أرسلها الرئيس تيتو بالذخيرة والبنزين بحيث تنزل من السفينة على أرض المعركة مباشرة .. أما الاتحاد السوفيتي فلم يكن بعد قد أرسل الدبابات التي طلبتها ثاني يوم للمعركة ..

وقد جاءني السفير السوفيتي ذات يوم وقال إن اللجنة المركزية قد قررت إهداء مصر ٢٥٠ دبابة فشكرته وطلبت منه سرعة إرسالها ولكن السوفيت لم يستجيبوا لمطلي إلى أن تثبت الوضع بالنسبة للثغرة .. مع أن الثغرة لم تكن في الحقيقة إلا مجرد محاولة لإنقاذ سمعة إسرائيل ..

وقد جاء لزيارتي بعد ذلك الجنرال بوفر وهو رئيس معهد الدراسات الاستراتيجية الفرنسي وقال لي : إن هذه الثغرة لا قيمة لها لأنها ليست إلا معركة تلفزيونية .

طلب كسينجر أن يزورني وجاء إلى مصر في أول زيارة له في نوفمبر سنة ١٩٧٣ وقال لي : - « أنت أزمت الموقف دولياً وأنا جاي لك عشان كده فما هي طلباتك ؟ » .

قلت له : « أنا عاوز خط ٢٢ أكتوبر . . أنا الآن عندي ٨٠٠ دبابة وإسرائيل لها في الثغرة ٤٠٠ دبابة وأنا عندي صاروخ ونصف لكل دبابة والإسرائيليون محصورون ومدخلهم ٦,٥ كيلو متراً في شرق القناة وإذا أغلقناه . . فهم مقضى عليهم .. مش عاوزة جدال » .

استمرت الجلسة ٣ ساعات اتفقنا فيها على ست نقاط كان من ضمنها أن تبدأ المحادثات على الكيلو ١٠١ على طريق مصر السويس بين المصريين والإسرائيليين من أجل فصل القوات والعودة إلى خط ٢٢ أكتوبر .

قامت المفاوضات على الكيلو ١٠١ بين المصريين والإسرائيليين تحت علم الأمم المتحدة . . وطالت المفاوضات وانعقد خلالها مؤتمر القمة العربي في الجزائر وذهبت إلى هناك وعندما وجدت أن المفاوضات لم تصل إلى أية نتيجة طلبت من الجسمي إيقافها وقلت لهم : « أنا غير مستعد للدخول في مساومات ومهاترات » .

في ديسمبر سنة ١٩٧٣ كنت مستعداً لتصفية جيب الثغرة فقد بدأت قواتنا حرب الإستنزاف ولم يتوقف ضغطها على الثغرة لحظة واحدة مما جعلنا نكسب أرضاً جديدة كل يوم، تارة بالأمطار وتارة بالكيلومترات ولكننا كنا نكسب دائماً . . أنا فعلاً كنت على أتم الاستعداد لتصفية الثغرة وخاصة أنه ليست أمامي قناة لعبورها ..

ولا خط بارليف للقتال معي ولكن الخطر الذي كان أمامي كان تدخل أمريكا . . .
ففي ١١ ديسمبر جاء كسينجر وقلت له « أنا مش مستعد أقبل الأسلوب اللي هم
ما شيين به ده وأنا حاصني الثغرة » .

قال لي : « أنا قبل أن أحضر إليك عارف أنك جاهز . . أنا طلبت صورة الموقف
من البنتاجون فأعطوني تقريراً كاملاً . . حائط صواريخك يتكون من كذا بطارية
دباباتك حول الثغرة ٨٠٠ دبابة . . مدافعك عددها كذا وتستطيع فعلاً أن تصني
الثغرة ولكن اعلم أنك إذا فعلت هذا سيضربك البنتاجون » .

قلت له : — « هذا هو السؤال . . ما هو موقف أمريكا ؟ » .

قال لي : — « سيضربك البنتاجون . . سيضربك البنتاجون لسبب واحد . .
وهو أن السلاح الروسي قد انتصر على السلاح الأمريكي مرة ولن يسمح له في
الاستراتيجية العالمية بتاعتنا أن ينتصر للمرة الثانية » .

واستأنف كسينجر حديثه قائلاً : — « هل تعرف أنه عندما أزمّت أنت الموقف
عالمياً وقلت للقوتين تعالوا هاتوا لي خط ٢٢ أكتوبر أو أن تستعيده على شرط ألا
يقف البنتاجون ضدك . . تعرف الخطة اللي وضعها البنتاجون في ذلك الوقت كان
شكلها إيه ؟ كنا حنزل في بلدك سيناء ونخلص عليك إذا الروس نزلوا عندك في
الغرب لأننا كنا عاوزين نوريك إن الروس لا يعتمد عليهم فنضربك ضربه نضرب
بها الروس . . نفس الوضع دلوقت . . لو أنت حاولت تصني الثغرة سيتدخل
البنتاجون ويضربك لأن دي سياسة أمريكا المقررة — ثم إن البنتاجون عاوز ينتقم
لهزيمة أسلحته اللي حصلت في أكتوبر » .

قلت له : طيب وما العمل ؟

قال لي : « ادبني فرصة لغاية يناير ١٩٧٤ وأنا بأوعدك أنني أعمل لك فض
اشتباك » .

في هذا اليوم قال لي كسينجر : « إن جينيف مفروض أن تجتمع في ديسمبر
سنة ١٩٧٣ فهل ستذهب ؟ » .

قلت له : « أنا رايح جينيف » .

غادر كسينجر مصر يوم ١٢ ديسمبر ١٩٧٣ وكان الألم قد استولى على وصار يحز في نفسى ساعة بعد ساعة ويوما بعد يوم لا أستطيع منه فكاكاً فالأوضاع من حولى كلها خاطئة . . وأنا غير قادر على أن أصلحها لأنه ليس بيدي إصلاحها فأصبت بنزيف لمدة ٤ أيام واستدعيت الأطباء ليفحصوا البول الذى كان قد صار كتلا من الدم . . قال لى الأطباء إن هذا نزيف بسبب التوتر النفسى ولكن لا خطورة منه وأعطونى بعض الأدوية استمر بعدها يومين ثم انتهى والحمد لله .

فى يوم ٢٤ ديسمبر ١٩٧٣ دعوت قادة الأسلحة وقادة الجيوش وعينت لتصفية الثغرة قائداً هو الجنرال سعد مأمون وهو محافظ القاهرة الآن ثم ناقشنا الخطة على مدى سبع ساعات وصدقت عليها .

فى يوم ٢٥ ديسمبر ١٩٧٣ وهو يوم عيد ميلادى ذهبت كعادتى كل عام لأقضيته فى قريتى ميت أبو الكوم . . وفى يوم ٢٦ سافرت إلى أسوان ثم جاء كسينجر فى يناير ١٩٧٤ ووقعنا اتفاق فض الاشتباك الأول - الذى كانت أمريكا تقوم فيه بدور الوسيط بيننا وبين إسرائيل . .

كان همى فى اتفاق أسوان شىء واحد أساسى .

لم أكن أريد أكثر من حجم انتصارى على الأرض لأنى أعلم أن الإسرائيليين مسجونين عندى فى الثغرة وبقاؤهم فى الغرب مقبرة لهم وعلى هذا الأساس بالفعل وهو تحديد حجم انتصارى على الأرض تم الإتفاق بيننا .

كنت فى حالة نفسية مرهقة . . لماذا ؟ لأن جميع القوى تريد أن تجهض انتصارى . . أمريكا تريد أن تجهضه . . والاتحاد السوفيتى يريد أن يجهمه لأن سوريا خرجت مكسورة رغم وجود الخبراء السوفيت ، وأنا خرجت منتصراً مع أنى طردت الخبراء السوفيت . . وطبعاً إسرائيل تريد إجهاض انتصارأتى .

لم تكن محاولات الإجهاض هذه فى حد ذاتها بالشىء الذى يقلقنى . . فقد كنت أنظر إلى انتصارى على أنه الطريق إلى السلام العادل الذى كنت أسعى إليه دائماً . .

الفصل العاشر

الطريق إلى السلام

من أسعد لحظات حياتي في الفترة الأخيرة تلك الساعات التي أقضيها في كشك صغير عادي على حافة قناة السويس ، أرقب المشروعات والإنشاءات الجديدة . .

وفي كل مرة أزور فيها مدن القناة يمثل أمام عيني يوم ٥ يونيو ١٩٧٥ ، عندما وصلت إلى بورسعيد ومن مكان الطائرة الهيلوكبتر أخذت السيارة وتوجهت لكي أفتح قنصة السويس بعد أن ظلت مغلقة لثمان سنوات كاملة ، لن أنسى أبداً ذلك اليوم ، كانت الفرحة التي تشع من عيون كل رجل وامرأة وطفل شيئاً جميلاً حقاً . . لقد عادوا إلى وطنهم أخيراً بعد سنوات بأكملها من التشريد والنفي والضياع . .

لا يستطيع أحد أن يقدر هذه الفرحة وأثرها على النفس مثل من اقتلعت جذوره فعانى من إبعاده بالقهر ورغم إرادته عن وطنه . . أو عن مدينته أو عن الشارع الذي يقطنه والصحبة التي يجالسها كل يوم . . أو عن أرضه التي التي يعرفها جيداً ويحبها فهو نبت منها وبدونها لا يكون . .

ونحن في مصر شعب عمره سبعة آلاف سنة قدم للعالم أول حضارة أهم مقوماتها حب الأرض والالتصاق بها . . ولذلك لم تكن الفرحة التي رأيتموها على وجوه الناس فرحة الإنسان بخير أو مكسب يناله . . كانت في الواقع أكثر من هذا بكثير وأبعد أثراً . . كانت فرحة يأس طويل تحول فجأة إلى أمل . . نبت ذبل وانتهى فإذا بالحياة فجأة تدب في أوصاله . . فقد هجر هؤلاء الناس لثمان سنوات

كاملة ماتت خلالها أجيال وولدت أجيال . . وتساءلت الناس عبر الزمن متى العودة ؟ !

ولكن السؤال ظل بلا إجابة ولو حتى على الأفق البعيد . . فإذا أخذنا في الاعتبار أن أهل القناة دون شعب مصر بأجمعه - لهم حياتهم الخاصة التي تتمثل في البحر ، القناة ، لأدركنا مدى فرحتهم بالعودة . . التي لم تكن مجرد عودة إلى الوطن . . بل إلى الذات نفسها . . فكما أن الأرض تمثل لنا نحن أهل الوادي قمة القدسية والأصالة ، كذلك القناة والبحر بالنسبة لهم . . فالقناة هي التي شكلت نمط حياتهم وبالتالي شكلت وجدانهم جيلا بعد جيل حتى أصبحت هذا الوجدان نفسه . .

في ذلك اليوم ٥ يونيو ١٩٧٥ الذي ما زال قريبا من قلبي كل القرب لن أنسى أبداً هذا المنظر الذي هز كياني هزاً . .

السيارة متجهة إلى مبنى هيئة القناة ، وفجأة يعترض الطريق أحد الرجال ويشير إليها بالتوقف . . كان شيخاً طويل القامة شعره الأبيض يتدلى على كتفيه مهيب المنظر حاد النظرات رغم شيخوخته . . حاول الحراس إبعاده فقلت لهم اتركوه . . وأمرت السائق بالتوقف . . نظر إلى الرجل نظرة طويلة ثم ركب على الأرض أمام السيارة ساجداً لله يشكره . . ثم قام وأشار إلى الموكب باستكمال المسيرة ، وفي ومضة عين اختفى بين الجماهير المحتشدة . .

لم يستغرق كل هذا أكثر من لحظة زمن . . ولكن وراء هذه اللحظة كانت تكمن أيام وأعوام من اليأس والعذاب . . ورغم قصر هذه اللحظة نفسها فقد كانت كل شئ بالنسبة لهذا الشيخ . . فقد امتد به العمر ليرى بعينه وطنه وقد عاد إليه . . ربما لن يعيش به طويلاً لكنه سيدفن في ترابه . . من هنا كان الإحساس بالطمأنينة والأمان والسلام . . مما جعله يسجد لله امتناناً لأنه عز وجل قد بدد الظلمات بنور لم يكن في الحسبان . .

تركت الشيخ المهيب الوقور خلفي وذهبت لحضور مراسم إفتتاح القناة وصورته ما زالت ماثلة أمام عيني تهز وجداني هزاً . . . وبمجرد وصولي تقدمت إلى القوات المسلحة بوثيقة تسليم القناة من القوات المسلحة إلى الإدارة المدنية لهيئة القناة - وقعتها ثم ركبت المدمرة ٦ أكتوبر وفتحت القناة .

كان العالم كله يقف إلى جانبي في ذلك اليوم - نفس العالم الذي كان يردد قبل ذلك بشهور قليلة أن القناة قد فقدت قيمتها بينما كانت إسرائيل لا تكف عن القول بأن إعادة فتح القناة أمر مرهون بإرادتها وحدها . .

ولكن لا شيء مثل الواقع فهو الذي يدحض كل افتراء وهو الذي يجعل الناس تتحول من حال إلى حال . . . ففي ٥ يونيو ١٩٧٥ كان العالم ممثلاً في الوفود التي تدفقت على القناة يحتفل معي وكأنه يعلن أن يوم ٥ يونيو لم يعد يوم أحزان بالنسبة لمصر وللعرب بل يوم أفراح لنا وللعالم بأجمعه - فهو يوم الافتتاح الثاني لقناة السويس بعد أكثر من مائة سنة . .

قبل الافتتاح بشهرين كانت إسرائيل قد رفضت جهود أمريكا بل وأهانت وزير خارجيتها كيسنجر وهو يتفاوض من أجل فك الاشتباك الثاني . . . ورغم أن أمريكا هي شريان الحياة بالنسبة لإسرائيل فقد كان وضع الرئيس فورد في نظرهم ضعيفاً لأنه لم يكن رئيساً منتخباً ثم إن أمريكا مشغولة بفضيحة ووترجيت . . فلم لا تستغل إسرائيل الفرص كعادتها ؟

وكان ردى على كل هذا هو الفعل لا رد الفعل ففتحت القناة رغم أنها كانت تقع في مدى المدافع الأمريكية الضخمة التي زودت بها إسرائيل وأعدت المهجرين إلى المدن الثلاثة - بورسعيد والإسماعيلية والسويس - كانوا حوالى ٧٠٠ ألف إنسان كادوا أن يفقدوا آدميتهم أثناء الهجرة ليس فقط للوضع الكئيب الذى كانوا يعيشون فيه بسبب ازدحام الوادى بل لسبب أهم من هذا بكثير فقد كانوا يعيشون بلا أمل . . والأمل أهم مقومات الحياة وبدونه لا يمكن للإنسان أن يكون . .

كنت أعرف وأنا أفتح القناة أن مدافع الإسرائيليين تقع في مداها هي والمدن الثلاثة - ولذلك أعلنت للعالم أن المدن الثلاثة والقناة قد أصبحت في عمق الجمهورية وأن العدوان عليها من جانب إسرائيل يعتبر عدواناً على العمق ولا بد لي في تلك الحالة من الرد في عمق إسرائيل . .

كانت هذه عملية مقامرة منى دون شك . . فقد كان في الإمكان ألا تنصاع إسرائيل بعد ذلك بشهور وتقبل فض الاشتباك الثانى الذى خرجت به من مدى القناة ومدنها - ولكنى خاطرت من أجل السلام وكل شىء جائر . . المقامرة والصعاب بل والأخطار التى يمكن أن يتعرض لها الإنسان في سبيل السلام .

بعد سنتين من حرب أكتوبر كان للإسرائيليين ٣٩ جثة من أبنائهم عندى . . على طريقة اليهود كل شىء له ثمن ، فأخذوا يتفاوضون مع رجالى على الثمن الذى يستردون به موتاهم . . قلت لهم : « إن هذا عمل إنسانى لا نتقاضى عليه ثمناً تعالوا خذوا قتلاكم » . . وبكل تكريم عسكرى سلمتهم الجثث التسعة والثلاثين بلا مقابل . . وأقيمت لبعضهم جنازات رسمية لأنهم كانوا من كبار الضباط . .

وفي عام ١٩٧٧ ونحن نعمق مجرى القناة ظهرت ١٩ جثة أخرى للمقاتلين الإسرائيليين سلمتها على الفور لإسرائيل بكل حفاوة وتكريم . .

لساذا فعلت هذا ؟ من أجل السلام . . فإنى أؤمن أنه في سبيل السلام يمكن بل يجب أن يفعل الإنسان أى شىء لأنه لا شىء في الدنيا يساوى السلام . .

كان لأمریکا دور فعال فى إعادة فتح القناة - فقد كانت تقف معى بوجهها الصحيح وليس بوجه رجل البوليس الذى يفرض نفسه فرضاً . . . ذلك الوجه الذى شوهته حرب فيتنام . . فى عام ١٩٧٤ عندما قلت إننى سأفتح القناة وبدأنا العمليات بالفعل كانت المعدات الوحيدة التى تصلح لمثل هذا الأمر لا توجد إلا فى البحرية الأمريكية وليس حتى فى الشركات الأمريكية ذات الميزانيات والإمكانات الفنية العملاقة . . قلت هذا لكيسنجر وكان فى زيارة لمصر عقب فض الاشتباك الأول - كان رده بسيطاً . . قال :

— هل أفهم من هذا أنك تطلب مساعدتنا ؟

قلت : نعم .

قال لى : أعطنى ساعة زمن . .

فى هذه الساعة كما علمت اتصل كيسنجر بالبيت الأبيض والبنجاجون ثم عاد وقال :

— هل تقبل أن تدخل بورسعيد حاملة الطائرات الهليكوبتر « أيوجيا » - وهى من قطع الأسطول السادس وعليها الهليكوبترات ومعدات التطهير لكى تبدأ فى مساعدتك ؟

إلى هذا التاريخ كان المفروض أننا كنا وعلى مدى ثمانية عشر سنة فى مواجهة مع أمريكا . . ولكنى قلت له : - نعم .

اتصل كسينجر مرة أخرى بالبيت الأبيض والبنجابيون وعاد ليقول لى : -
« بعد غد ستدخل (أيوجيا) ميناء بورسعيد لتتعاون معكم وتطهر القناة تحت
قيادة البحرية المصرية » .

بعض ضباط حامله الطائرات وبعض الدبلوماسيين فى سفارة أمريكا
بالقاهرة أشفقوا من دخول (أيوجيا) فقد خشوا أن تطلق المدفعية المصرية
التي تحمى السواحل نيرانها على الحاملة ، ولكنتى طمأنتهم وقلت إن شيئاً من هذا
لن يحدث فقد أصدرت أوامرى إلى بحرى .

فى الميعاد المحدد دخلت (أيوجيا) على استحياء ميناء بورسعيد وهى تتلمس
خطاها فى كل مرحلة ، ولكن فوجئ رجالها بالمقابلة الدافئة من جانب بحرىنا
وبدأوا العمل فى الحال .

قد يذهل الشعب الأمريكى عندما يعلم أنى لم أبادل مع الحكومة الأمريكية
أى مستند بشأن اشتراكها فى تطهير القناة - ليس فى ذلك الوقت ، بل وإلى
اليوم . . ومن هنا أتوجه بالشكر إلى الشعب الأمريكى ، فهذه هى روح الفروسية
الأمريكية وهذا هو الوجه الحقيقى لأمريكا . . فالقناة ليست لمصر فقط . . بل
من أجل رخاء العالم كله . . وأمريكا بإمكاناتها العملاقة المفروض بل والمتوقع
منها أن تقف إلى جانب كل من يحتاج إلى معونة من أجل حياة أفضل له وللعالم
كله .

هكذا كانت صورة أمريكا ومازالت عندى وعند شعبنا المصرى العريق . .
الذى دأب عبر تاريخ البشرية على احترام القيم الإنسانية والحفاظ عليها .

وقد أثبتت القناة بعد افتتاحها أنها Lucky Strike .

لكفاحي من أجل السلام قصة طويلة تعود إلى تاريخ انتخابي رئيساً لجمهورية مصر في ١٥ أكتوبر سنة ١٩٧٠ ، وبدء ولايتي الأولى في ١٦ أكتوبر . . فيوم أن توفي عبد الناصر كانت علاقتنا الدبلوماسية مع أمريكا مقطوعة جاء للعزاء فيه السفير ريتشاردسون على رأس وفد أمريكي وللأسف التقيت به في ظروف مؤلمة . . ذلك أنه في يوم الجنازة ونتيجة للإرهاق الشديد وقعت مغشياً على فأخذوني إلى أقرب مكان في مجلس قيادة الثورة حيث أعطاني الأطباء خمس حقن أفقت بعدها بساعات ، وكان أول من وقع عليه نظري ريتشاردسون الذي قدموه لي على أنه وزير من الحكومة الأميركية جاء ليقدم العزاء فشكرته وأنا في الفراش ثم ضربت له موعداً بعد ذلك فجاء ومعه اثنان من خبراء الشرق الأوسط وأجرينا حديثاً طويلاً .

كانت مبادرة روجرز قائمة في تلك الأيام فقلت لهم : « اعلموا رعاكم الله وانقلوا ما أقول إلى الرئيس الأمريكي . . لقد كنت ضد مبادرة روجرز وبالفعل رفضتها ولكنني وافقت عليها بعد أن عاد عبد الناصر من الاتحاد السوفيتي وشرح لي الظروف هناك فكل ما أريده هو السلام— دعونا إذن نعمل من أجل السلام معاً . . أنا اليوم ملتزم بمبادرة روجرز ولكنني لا أرضي لأمریکا أن تنقاد لإسرائيل في دعواها أن مصر قد نقضت المبادرة بتحريك الصواريخ في الضفة الغربية للقناة . . ومع ذلك فالضفة الغربية والضفة الشرقية للقناة هي أرضي . . مرة أخرى أدعوكم للعمل من أجل السلام . . وأنا مستعد للذهاب إلى أقصى مدى في سبيل ذلك » .

عاد ريتشاردسون إلى بلاده وقدم تقريراً إلى وزارة الخارجية الأمريكية يقول إن السادات لن يبق في الحكم أكثر من أربعة أو ستة أسابيع وبعد ذلك لا يعلم مستقبل مصر إلا الله . . وأكدت المخابرات البريطانية نفس الشيء . . وبناء على هذا اتخذوا قراراً فيما بينهم أن ينتظروا حتى يروا مصري . . لم أعلم بهذا الموضوع إلا متأخراً وكثيراً ما أتندر به اليوم مع المسؤولين في أمريكا .

وفي نوفمبر ١٩٧٠ انتهت التسعون يوماً التي تنص عليها مبادرة روجرز فجمعت مجلس الأمن القومي وقلت لهم إننا بحاجة إلى تسعين يوماً أخرى ولكنها سوف تكون الأخيرة . . فالمبادرة كانت تنص على وقف إطلاق النار لمدة ٩٠ يوماً ، يعمل في خلالها يارنج مبعوث السكرتير العام للأمم المتحدة بيننا وبين إسرائيل لتنفيذ البند الثاني من المبادرة وهو انسحاب إسرائيل . . بحيث يتم في خلال التسعين يوماً الإتفاق على الإنسحاب - وهذا ما لم تكن إسرائيل تريده .

تقدم وزير خارجيتنا إلى مجلس الأمن بإقتراحنا وفعلاً تجددت مبادرة روجرز ولكن انقضى نوفمبر وديسمبر ويناير ولم يحدث شيء ، فإسرائيل تدعى أن مصر قد خرقت المبادرة وتسأيرها في دعواها أمريكا ، تحركها العناصر الصهيونية القوية فيها . . وكل ذلك بهدف نسف المبادرة من أساسها بل ونسف روجرز نفسه كما حدث بعد ذلك .

وفي ٢٤ ديسمبر سنة ١٩٧٠ أى بعد انتخابي رئيساً بشهرين فوجئت بالدكتور محمود فوزى وكان في ذلك الوقت رئيساً للوزراء ، يحيل إلى خطاباً من الرئيس نيكسون يشكر مصر لأنها أوفدت الدكتور فوزى يمثّلنا في جنازة أيزنهاور . . مباشرة استدعيت القائم على رعاية المصالح الأمريكية عندنا وأطلعته على خطاب نيكسون وقلت له : - « لقد استدعيتك لأحملك الرد إلى الرئيس الأمريكى وهذا هو نص الرسالة : -

أولاً : لقد أرسلت لكم مع ريتشاردسون الذى جاء للغزاء فى عبد الناصر ولكنكم لم تردوا علينا . . مبادرة روجرز انسقمت فيها وراء دعوى إسرائيل أن مصر قد نقضت المبادرة وأنتم تعلمون جيداً أن الأرض شرق القناة وغربها مصرية .

ثانياً : بمجرد أنكم أرسلتم خطاباً لرئيس وزرائنا . . تعبرون فيه عن شكركم وتطلبون فيه إبلاغى بهذا الشكر . . ها أنا أكتب إليكم لأؤكد رسالتى التى بعثت بها مع ريتشاردسون ولأقول لكم إذا كنتم تعتقدون أننا فى منطقة النفوذ السوفيتى فأنتم مخطئون . . نحن لسنا فى منطقة نفوذ سوفيتية ولن نكون فى منطقة نفوذ أحد أبداً . . وأرجو أيضاً أن تعلموا أنه ليس لمصر ولى أمر - فإذا شئتم أن تتحدثوا عن أى شىء خاص بمصر فالمكان هنا فى القاهرة ومعنى . . لا مع أية جهة أخرى (وبهذه الجهة الأخرى كنت أعنى بصراحة كما أفهمت المشرف على رعاية المصالح الأمريكية السوفيت الذين أرادوا أن يتولوا أمرنا وكان عبد الناصر قد أعطاهم هذا الحق فى مرحلة من المراحل) وأرجو أيضاً أن تعلموا أن قرارنا بيدنا وحدنا فنحن أحرار ومستقلون فإذا اقتربتم منا خطوة سنقرب منكم عشرة خطوات وإذا ابتعدتم خطوة سنبتعد عشرة . . وكما أن فى القوانين الطبيعية لكل فعل رد فعل كذلك شأننا معكم فكل فعل طيب من جانبكم سوف تكون له عشرة ردود أفعال طيبة من جانبنا والعكس صحيح .

كان هذا أول اتصال لى بأمريكا بعد أن توليت وبعد الرسالة التى حملتها لريتشاردسون ولم يكن لها أى صدى عندهم . . وجاء رد نيكسون على الفور وتعجبت للسرعة فقد كنت إذا كتبت للسوفيت عن أى شىء لا يصلنى الرد إلا بعد أربعة شهور على الأقل وبعد أن استدعى السفير السوفيتى عشرات المرات وأطلب منه استعجال الأمور . .

فى ٤٨ ساعة جاءنى الرد موقعاً عليه من نيكسون وكانت رسالة رقيقة يشكرنى فيها الرئيس الأمريكى ويقول إنه لا يطلب صداقتنا على حساب أحد (وكنت قد

حذرته في رسالتي من هذا) فهم يعلمون في أمريكا أنني رجل مستقل الإرادة وأن لمصر وحدها الحق في أن تتكلم عن نفسها .

كان هذا في ٢٦ ديسمبر سنة ١٩٧٠ وانقضى ديسمبر وبعده يناير سنة ١٩٧١ وكانت التسعون يوماً الثانية لمبادرة روجرز تنتهي في ٤ فبراير سنة ١٩٧١ فقررت أن أفعل شيئاً قبل هذا التاريخ . . كان من الواضح أن أمريكا مازالت تسير في خط إسرائيل منقادة للدعاية الصهيونية وأن أمريكا لظروف خاصة بها كانت تعطي إسرائيل أولوية حتى على مصالحها هي منذ حكومة جونسون . . ورغم رسالة نيكسون لي فقد كنت أدرك أنه ليس من السهل بعد ١٨ سنة مواجهة مع أمريكا والصورة التي صورها لنا السوفييت في نظر الأمريكان أن تمد أمريكا يدها لنا أو أن تقوم بأي إجراء يعيد السلام إلى المنطقة وخاصة بعد أن استقر في أذهان المسئولين هناك ما جاء في تقرير المخابرات من أنني لن أبقى في رئاسة الجمهورية أكثر من أربعة أو ستة أسابيع . . صحيح أنه كان قد مضى على ولايتي أكثر من أربعة شهور في فبراير سنة ١٩٧١ ولكن الشك كان مازال يخامرهم . . هل أبقى أو لا أبقى ؟ هل أنا قادر على أن أفعل شيئاً أو غير قادر ؟

إزاء كل هذا كان لابد من إنهاء مبادرة روجرز ولكن في نفس الوقت كان لابد لي من أن أفعل شيئاً بناءً يثبت لأمريكا ونيكسون والعالم كله حسن مقاصدي فأنا أريد السلام ومستعد له وفي يدي أن أتخذ قراراً في هذا الشأن . . هكذا فكرت ولم أطلع أحداً على تفكيري إلا الدكتور محمود فوزي رئيس الوزراء في ذلك الوقت فاستدعيته وقلت له لقد قررت أن أتقدم بمبادرة سلام كالتالي :-

أولاً : تنسحب إسرائيل من شاطئ القناة الشرقى إلى المضائق في فترة سنة شهور يأتي خلالها يارنج لكي يتفق معنا ومع إسرائيل على مراحل الانسحاب . . وبمجرد انسحاب إسرائيل إلى المضائق تعبر القوات المصرية إلى الضفة الشرقية .

ثانياً : بعد أن يتم الانسحاب إلى المضائق تعيد مصر علاقتها مع أمريكا فوراً فباعتبارها طرفاً أساسياً في المشكلة لابد أن تحضر معنا كل مراحل التسوية .

ثالثاً : إن مصر مستعدة لإبرام اتفاق سلام مع إسرائيل تنهى بموجبه حالة الحرب القائمة بين العرب وإسرائيل إلى هذا اليوم ومنذ قيام إسرائيل سنة ١٩٤٨ مع إعطاء إسرائيل كافة الضمانات التي ترغب فيها وتنتهى بذلك أخطر مشكلة يعيشها العالم لاحتكاك مصالح الدولتين الأعظم بها .

سعد الدكتور فوزى جداً بهذه المبادرة وقال إنها ستحرك الموقف أمام العالم كله وتثبت أن مصر ترغب فعلاً في السلام .

وفي يوم ٤ فبراير سنة ١٩٧١ ذهبت إلى مجلس الشعب وألقيت خطابي وأعلنت المبادرة وكما توقعت كان استعدادي لإبرام اتفاقية سلام مع إسرائيل مفاجأة مذهلة للعالم كله . . فهذا ما لم يجرؤ قائد أو زعيم عربي أن يقوله منذ أن قامت إسرائيل عام ١٩٤٨ . . ولكنني كنت أعنى ما أقول لأنني فعلاً راغب في السلام . .

دخلت بعد إعلان المبادرة إلى صالون رئيس الجمهورية بمجلس الشعب فوجدت تجمهاً غريباً على وجوه المسؤولين من الوزراء وغيرهم من أصحاب مراكز القوى في ذلك الوقت وهم الذين كانوا يشكلون القيادة السياسية التي تركها لى عبد الناصر . . كانت المبادرة تتعارض طبعاً مع أهدافهم التي رسمها لهم السوفييت كما اتضح لى بعد ذلك . على أى حال لم يرق لى تجمهمهم هذا فقلت في نفسي هؤلاء لا فائدة منهم ولن ألتقى بهم في اجتماع آخر .

أما الشعب فقد كان استقباله للمبادرة على طرف نقيض تماماً من استقبال القيادة السياسية المصرية في ذلك الوقت مضافاً إليهم بعض الوزراء . . ففي أقل من ٢٤ ساعة كان الشعب المصرى يهلل لهذه المبادرة من جانبي ويرحب بها كل الترحيب . . وهنا يجب أن أسجل أن حس الشعب أوعى بكثير وسابق عن كل مسئول عمل معى حتى هذه اللحظة وهو ما أعز به .

أمور كثيرة لا يفهمها أغلب من يعملون معى يلتقطها الشعب من الدقيقة الأولى ويدركها إدراكاً كاملاً .

فى خطاب إعلانى لمبادرة السلام يوم ٤ فبراير سنة ١٩٧١ أمام البرلمان قلت إن التسعين يوماً تنتهى اليوم وبهذا تسقط مبادرة روجرز ولكن ها هى مبادرتى أعلنها وأضعها أمام أنظار العالم كله . . فى عالم تحمل مسئولياتك وأنت أيضاً يا مجلس الأمن . . ويا أمريكا ويا سوفيت تحملوا مسئوليتكم جميعاً - إننى أعطيكم مهلة إلى مارس سنة ١٩٧١ . . ولكن بعد هذا التاريخ لن أكون مقيداً بمبادرة ولا أى شىء .

رحب روجرز بالمبادرة وذهل العالم كله ووجدت إسرائيل نفسها فى مأزق يصعب الخروج منه فها هو أول رئيس عربى يعلن أنه على استعداد لإبرام اتفاقية سلام مع إسرائيل . . شىء لم يكن فى الإمكان توقعه أو التنبؤ به أو حتى الحلم به .

وفى مصر لم تقم مظاهرات ولم يرتفع صوت بالاحتجاج أو الرفض أو التبرم - على العكس سعادة تامة تسود الناس فى كل مكان وفهم وإدراك واع وحصيف من الشعب كله .

لو أن هذه المبادرة وجدت العناية الكافية من أمريكا لما قامت حرب أكتوبر ولبدأنا السلام فى فبراير ومارس ١٩٧١ .

وضح لأمریکا أنني أتکلم من مرکز قوة وأن شعبي کله ورائي وأنتي قادر على ما لم یجروا أي زعيم فی العالم العربی أن یقوله أو یفعله طوال اثنين وعشرين عاماً . . . ولكن رغم هذا کله لم تفعل أمریکا شيئاً ولم تغير موقفها واستمر الوضع على هذا الحال إلى أن جاء مايو فاتصل بی روجرز وجاء لزيارتي فی ٤ مايو . . . کان سعيداً جداً بمبادرة السلام التي قمت بها . . . قال لی .

– أتعرف أنك أوجدت لنا حلاً للمشكلة ؟

سألته : كيف ؟

فروی لی أن جولدا مائير طلبت السفير الأمريكي فی تل أبيب وقالت له : « اكتب لروجرز ولنيكسون وقل لهما إنني أنا جولدا مائير رئيسة وزراء إسرائيل أتحدى أي زعيم عربي أن یقول إنه على استعداد لإبرام اتفاق سلام مع إسرائيل فإذا حدث هذا – قل لهما – فسوف أكون على استعداد لكي أضع كل أوراقی على المنضدة » ثم استطرد روجرز یقول لی : لقد وصلتنا هذه الرسالة منذ فترة طويلة ، فإذا بنا نفاجأ بك فی ٤ فبراير سنة ١٩٧١ – ودون أن تعرف ما قالت جولدا مائير – تعلن على العالم أنك على استعداد لإبرام اتفاقية سلام مع إسرائيل أعجبنا بذلك كل الإعجاب ولذلك طلبت زیارتك .. والشئ العجيب أيضاً – استمر روجرز فی حديثه – أنه حسب التقارير التي عندنا كنت أتوقع أني عندما أصل إلى مصر سوف یقذفني الناس بالطوب . . . ولكن شيئاً من هذا لم یحدث على العکس نزلت الشارع بدون حراسة وعرفني بعض الناس فحيوني وسلموا علی .

قلت له : أنت هنا مع شعب عمره ٧٥٠٠ سنة وقد آن الأوان لكى تعرفوا الشعب المصرى . . على أى حال ماذا تريد منى أن أفعل ؟

قال : أبداً . . لقد قلت كل شىء فى مبادرتك ونحن معك . . سأتوجه من هنا إلى إسرائيل وسأقول لجولدا مائير إن السادات قد قبل التحدى . . حتى دون أن يعلم به . . ولذلك أرجو أن تكونى عند وعدك وتضعى كل أوراقك على المنضدة حتى يتسنى لأمريكا أن تدخل وتحل المشكلة . .

غادر روجرز مصر إلى إسرائيل . . وبعد ذلك بأيام قليلة تخلصت من مراكز القوى الذين كانوا أغلبية فى القيادة السياسية المصرية وكانوا يستندون على الاتحاد السوفيتى وينفذون تعليماته فجاءنى (بودجورنى) يلهث فزعاً وطلب أن تعقد مصر معاهدة مع السوفيت . . وزاد الطين بلة أن كاريكاتيرات الصحف الغربية تعليقاً على زيارة بودجورنى وعقد المعاهدة المصرية السوفيتية أظهرت بودجورنى يستعرض طابوراً يلبس ملابس السجن المخططة وعلقت أن بودجورنى القائد يستعرض طابور الأصدقاء فى السجن . .

وبرغم كل ذلك وبرغم أن بودجورنى قرر أن رسالتى لهم بشأن تصفية الصراع قد وصلتهم فإننى وافقت على إبرام المعاهدة المصرية السوفيتية فى مايو سنة ١٩٧١ وسافر بودجورنى سعيداً . . ولم تستمر هذه المعاهدة إلا خمس سنوات فقط بدلا من خمس عشرة سنة هى مدة المعاهدة وقد أنهاها البرلمان المصرى .

ولهذه المعاهدة قصة . .

فبعد هزيمتنا فى يونيو ١٩٦٧ ووضوح دور جونسون رئيس أمريكا فى ذلك الوقت فى خداعنا لحساب إسرائيل عندما اتفق مع عبد الناصر بعد إغلاق خليج العقبة فى مايو ١٩٦٧ فى وجه الملاححة الإسرائيلية على أن يرسل نائبه همفرى إلى القاهرة أو يرسل عبد الناصر أحد نوابه إلى واشنطن فبادر

عبد الناصر بإخطار جونسون أنه سيرسل له أحد نوابه إلى واشنطن لحل مشكلة مضايق العقبة وكانت المشكلة قد شدت انتباه العالم كله وكل يوم تتطور إلى الأسوأ واتفق رسمياً بين عبد الناصر وجونسون أن يتوجه أحد نواب الرئيس المصريين لمقابلة جونسون يوم الأربعاء ٧ يونيو ١٩٦٧ في واشنطن وفي نفس الوقت كان جونسون يستحث الإسرائيليين على المبادرة بالهجوم على سيناء بعد أن قدم لهم صور القمر الصناعي الأمريكي عن أوضاع القوات المصرية في سيناء ساعة بساعة بل وطلب من الإسرائيليين سرعة بدء الهجوم قبل وصول نائب رئيس الجمهورية المصرية إلى واشنطن في ٧ يونيو ١٩٦٧ وخاصة عندما عرض الإسرائيليون خطتهم عليه في مكتبه بالبيت الأبيض بحضور رئيس الـ C.I.A. وأحد القادة الكبار من البنتاجون ..

وقد نفذت إسرائيل فعلاً كلام جونسون وهجمت يوم ٥ يونيو ١٩٦٧ أي قبل وصول نائب الرئيس المصري بيومين وطبعاً لم تتم هذه الزيارة .. لم يكتف جونسون بهذه الخديعة لحساب إسرائيل بل إنه استخدم أيضاً الخط الساخن مع القادة السوفيت وأكد لهم أن إسرائيل لن تبدأ بالهجوم وأن عليهم أن يخطروا عبد الناصر بذلك وقد استجاب السوفيت لهذه الخديعة أو اشتركوا فيها لا يستطيع أن أجزم ولكن ما حدث هو أن بادر السوفيت عقب اتصال جونسون بهم إلى الاتصال بعبد الناصر وأيقظوه في الفجر ليبلغوه على لسان سفيرهم في القاهرة رسالة جونسون وتأكيدهم وتأيدهم هنا ..

أعود إلى القصة فإنه بعد وضوح دور جونسون لنا بعد هزيمتنا في ١٩٦٧ لم يكن أمامنا إلا أن نلجأ إلى الاتحاد السوفيتي لبيع أسلحة لنا نستعوض بها ما فقدناه وكان ما فقدناه أكثر من ٨٥٪ من أسلحتنا ..

وكان طبعياً أيضاً أن نحافظ على صداقتنا مع الاتحاد السوفيتي بأي ثمن .

وهناك حقيقة معروفة عن الروسى سواء كان في عهد القيصرية أو بعد ذلك تحت الحكم الماركسي ذلك أن الشك طبيعة ثانية فيه SECOND NATURE وقد زاد هذا الشك تحت الحكم الماركسي بفعل طبيعة النظام وحصار العالم لروسيا بعد قيام ثورة ١٩١٧ البلشفية ووقوع الحرب الأهلية والإجراءات الصارمة

والشك المسبق في كل إنسان إلى أن يثبت العكس .. لذلك حرصنا للبقاء على صداقتنا مع الاتحاد السوفيتي ومحو شكوكه الرهيبة بعدة أمور .. كان أولها أن طلبنا إلى السوفييت أن يتولوا عن مصر مع الولايات المتحدة كل ما يخص قضية الصراع العربي الإسرائيلي بعد أن لمسنا شكوكهم من أى اتصال أمريكي بنا .. بل ووصلت الأمور إلى الحد الذي طلبنا إليهم تعيين قائد سوفيتي للدفاع الجوي المصري وقائد سلاح الطيران المصري أيضاً أمام عربة إسرائيل الجوية في أجوائنا ولكنهم رفضوا المطلبين لحسن حظنا ..

وكان قمة ما أردنا أن نطمئنهم به هو أن نطلب إليهم عقد معاهدة معنا تريحهم وتزيل شكوكهم (التي كنا نعجب لها) وتضمن لنا إمدادات الأسلحة التي نحن في أشد الحاجة إليها برغم أنها كانت باستمرار متخلفة عما تأخذه إسرائيل من أمريكا ..

عرض عبد الناصر عليهم عقد المعاهدة مرتين ، وسافرت أنا بتكليف من عبد الناصر إلى موسكو وطلبت أيضاً مرتين عقد هذه المعاهدة وكان الرد من جانب السوفييت لعبد الناصر ولى هو الرفض .. لعلهم كانوا ولا يزالون لا يثقون فينا وكانوا يخافون أن نورطهم بمثل هذه المعاهدة إلى ما لا يريدون .

وذهب عبد الناصر إلى آخر الشوط قبل أن يموت بشهرين وهو في موسكو حين طلب إليهم أن يعقدوا معنا حلفاً PACT إذا كانوا يشعرون أن في ذلك مدعاة لراحة شكوكهم .. ورفضوا .. فما كان من عبد الناصر إلا أن أعلنهم في هذه الجلسة وعلى مائدة الكرملين بقبوله مبادرة روجرز برغم انفعال وغضب بريجنيف الذي قال لعبد الناصر في انفعال إنك بهذا تقبل حلاً أمريكياً فرد عليه عبد الناصر إنني أقبل أى شيء مادام هذا هو أسلوبكم معي . لقد كان تعليق عبد الناصر لي يوم وصوله إلى القاهرة من هذه الرحلة الأخيرة في حياته إلى موسكو كلمتين قاهماتى بالإنجليزية . لقد قال لي وأنا أسأله في طريقنا إلى منزله من المطار عما تم في موسكو فلم يزد عن « السوفيت Hopeless Case » أى حالة ميئوس منها .

لذلك استغربت أن يأتيني بودجورنى رئيس الاتحاد السوفيتى إلى القاهرة فى أواخر مايو ١٩٧١ بعد زيارة روجرز لى فى نفس الشهر وبعد أن صفت عملاءهم فى القيادة المصرية ، أقول استغربت أن يأتى بودجورنى ملهوفاً على عقد معاهدة فوراً معنا . . . وقلت له فى الحال أنا لا مانع عندى وقد طلبها منكم عبد الناصر مرتين فرفضتم وعرض عليكم أيضاً حلفاً PACT فى زيارته الأخيرة لكم فرفضتم وطلبها أنا منكم كطلب عبد الناصر مرتين فرفضتم . . . لا مانع لدينا ولكنى كصديق أنصحكم أن التوقيت الذى اخترتموه لعقد المعاهدة خاطيء جداً ذلك أن الكل سيعرف أنكم تطلبون المعاهدة بلهفة بعد أن كنتم ترفضونها لأن بعض أفراد من القيادة المصرية ينتظرون المحاكمة وكأنهم كانوا هم الذين تعتمدون عليهم فى علاقاتكم مع مصر وهذا خطأ جسيم سبق أن نبهتكم إليه . . . ولهذا التنبيه أيضاً قصة . . .

فإننى حينما قررت تصفية عملاء الاتحاد السوفيتى فى القيادة المصرية وقبل أن تم هذه التصفية بشهر كامل استدعيت السفير السوفيتى فى القاهرة وطلبت منه أن يبلغ القادة السوفيت رسالة عاجلة منى ولو أنها أمر من أمور مصر الداخلية إلا أننى حرصاً على صداقتنا مع السوفيت أريدكم أن يكونوا على علم بها . . . هذا الأمر هو أننى قررت تصفية على صبرى وكان عميد عملائهم فى القيادة المصرية لأننى أسمح بالإختلاف فى وجهات النظر فى القيادة السياسية ولكنى أرفض الصراع ولذلك فإننى أريد أن يعرف الأصدقاء السوفيت بذلك قبل أن يقع حتى لا تستيقظ شكوكمهم التى أعانى منها وحتى لا تهيج صحف الغرب أعصابهم . . .

ولقد حدث هذا فعلاً بعد أن أقلت على صبرى فقد خرجت صحف الغرب بالمانشيتات عن تصفية رجل موسكو . . .

بدأت صورتنى فى نظر أمريكا حتى بعد عقد المعاهدة مع السوفيت تتخذ ألواناً وأبعاداً لم تكن مألوفة لديهم من قبل ساعدتهم على المزيد من التعرف على وفهمى على حقيقى وهو الأمر الذى لم يحدث بالنسبة لأصدقائنا السوفيت الذين بيننا وبينهم معاهدة . . . فهم منذ بدء علاقتنا معهم ومهما اختلفت الظروف

يتصرفون معنا بنفس الاسلوب الفج الفظ والذي يبعد كل البعد عن إدراك الحقيقة كما هي . . أو حتى مجرد محاولة الإدراك . .

ولم يمض شهران حتى وقع تطور آخر سبب لي الصداق والصراع مع السوفييت في يوليو ١٩٧١ قامت الثورة الشيوعية في السودان وعندما جاءني السفير السوفيتي في القاهرة يطلب مني الاعتراف بالحكم الجديد رفضت وقلت له :

« أنا لا أسمح بقيام حكم شيوعي على حدودي - هذه نقطة أما النقطة الأخرى التي أرجو أن تنبهوا لها فهي أنه لن يقوم في هذه المنطقة حكم شيوعي لأن الدين يجري في دماءنا ، فالأفضل لكم أن توقفوا كل نشاط لكم في هذا المجال حتى تريحوا وتستريحوا » .

انصرف السفير السوفيتي في حالة غضب وأكد موقفى هذا شكوكهم في طبعاً . .

نعود إلى موقف أميركا - غادر روجرز مصر في أوائل مايو ١٩٧١ إلى إسرائيل ليواجه جولدا مائير ثم انقضى يونيو ١٩٧١ وجاء يوليو ١٩٧١ وأنا خلال تلك الفترة دائم الاستدعاء للقائم على شئون أميركا أطلب منه أن يكتب إلى روجرز ليخبرني بما حدث مع إسرائيل . . ولكن دون جدوى تماماً كما يفعل السوفييت معى . . إسرائيل مستمرة في غرورها وأمريكا متحفظة لا تتكلم ولا تتخذ أى موقف . . إلى أن جاء ٦ يوليو ١٩٧١ فإذا بأحد رجال وزارة الخارجية الأمريكية يأتى من واشنطن يطلب موعداً عاجلاً للأهمية - قابلته في مساء نفس اليوم فقال لي إنه يحمل رسالة من نيكسون وروجرز ولكن عنده بعض الأسئلة يريد مني الإجابة عليها أولاً . .

كان السؤال الأول : هل غيرت المعاهدة السوفيتية التي عقدت في أواخر مايو ١٩٧١ موقفك أو فرضت عليك التزامات تحد من حريتك في التعامل معنا لإعادة السلام إلى المنطقة ؟

وأجبت : أبداً . . لقد أعلنت أن المعاهدة السوفيتية ليست لها بنود أو ملاحق

سرية ولا بد أن تتعودوا أنتم وغيركم على أن ما أقوله في العلن هو نفس ما أقوله في السر وأن أي التزام التزم به من حق شعبي على أن يعسرفه قبل غيره من الناس لأنني غير مستعد لأن أضحك على شعبي في يوم من الأيام ومهما كانت الظروف ومع ذلك فإن المعاهدة قد أعلنت بنودها رسمياً في البرلمان عند إقرارها وليس على مصر أي قيود من أي نوع فنحن مصريون على حريتنا واستقلالنا . .

وكان السؤال الثاني : هل ما زلت توافق على مبادرتك التي أعلنتها في فبراير ١٩٧١ وأخطرت بها روجرز عندما كان في مصر ؟

قلت له : طبعاً . . ولو حدث أن غيرت أي شيء فلا بد أن أعلنه على الناس فوراً . . وأحب أن أنبهكم - وهذه ليست أول مرة - إلى أن كل ما يخص مصر يجب أن تتكلموا معي أنا في شأنه . . فإذا تكلمتم مع أي شخص آخر ثقوا أننا لن نستمع إليكم . .

قال لي : حسناً . . حسب ما لدى من معلومات أحب أن أقول لك إنه بعدما تلقيت منك هذه الردود فابتداء من منتصف الليلة ٦ - ٧ يوليو ١٩٧١ ، فإن الرئيس الأمريكي سيتدخل بنفسه لبدأ الحل السلمي . .

قلت له : على خيرة الله . . ما الذي فعله روجرز في إسرائيل ؟

أجاب : تحدث إليهم ولكن عندهم بعض الشكوك . . على أي حال أنا ليست عندي تعليمات بأن أقول شيئاً في هذا الشأن .

وانصرف وانتظرت . . مضى نصف الليلة وأنصاف ليال كثيرة وكثيرة جداً بعد ذلك ولكن لا حراك . . العكس حدث . . فقد وقفت جولدا مائير في الكنيست الإسرائيلي تلقن روجرز درساً عنيفاً . . ومبلغ دراستنا لشخصية مسز مائير أنها مولعة في حياتها العادية ومع مجلس الوزراء الإسرائيلي بمعاملة الوزراء كما كانت تعلم الطلبة في فصل المدرسة وهي تدرس للأطفال في ميلووكي . . ويظهر أن كل ذنب روجرز هو أنه طالبها بأن

تضع أوراقها على المنضدة كما سبق وأن أخطرتة رسمياً عن استعدادها لذلك إذا أعلن أحد زعماء العرب عن قبوله توقيع اتفاقية سلام بينما كان يعلم تمام العلم أنها لم تكن مستعدة لذلك .

وكان لزاماً عليه أيضاً أن يدرك أنها عندما أرسلت التحدى عن طريق السفير الأمريكى فى تل أبيب كانت على ثقة من أنه لا يوجد زعيم عربى يمكن أن يدعو إلى اتفاقية سلام مع إسرائيل . . فقيم كثرة الكلام إذن ؟ وإلى أين سوف تؤدى 'سذاجة روجرز وجهله بحقائق الأمور بأمريكا وإسرائيل على السواء ؟ كان هذا الدرس بمثابة إشارة إلى الدوائر الصهيونية فى الولايات المتحدة لكى تقضى على روجرز . .

وبالفعل عندما خرج من منصبه بعد ذلك ظل معزولاً عزلاً تاماً . .

ومما هو جدير بالذكر هنا أن الرسالة التى وصلتني يوم ٦ يوليو ١٩٧١ على لسان الرئيس الأمريكى ووزير خارجيته روجرز مع دبلوماسى أمريكى كان هو رئيس قسم مصر فى وزارة الخارجية لم يكن لدى الرئيس الأمريكى أى علم بها كما عرفت بعد ذلك . . شىء غريب حقاً . . أليس كذلك ؟ !

المهم أنه بعد خطاب جولدا مائير فى الكنيست عادت الأحوال بينى وبين أمريكا إلى أسوأ مما كانت عليه . . فقد كان للخطاب أثره فى رأى العام الأمريكى كما أنه أربب روجرز فتراجع عن كل شىء . .

وليت روجرز اقتصر على التراجع بل إننا نجده فى أول يناير سنة ١٩٧٢ يصرح بأن أمريكا قد أعطت إسرائيل معونات جديدة ودخلت معها فى عمليات تصنيع ولن تكف عن بذل المعونة لها حتى تظل متفوقة عسكرياً على العرب مجتمعين . .

مسكين . . كان يريد أن يشتري رضا إسرائيل مرة أخرى بعد الدرس الذى أعطته له جولدا مائير ولكن بلا جدوى .

بعد تصريح روجرز وبعد عدم استطاعتي تحقيق وعدى بأن سنة ١٩٧١ لا بد أن تكون سنة الحسم إما سلماً أو حرباً بدأت أعانى الشماتة فى العالم الخارجى

وفي الداخل من عملاء السوفييت وبعض من ضللتهم الدعاية السوفيتية ومسلك أمريكا معي فيها هي سنة ١٩٧١ تنقضي دون أي حسم ما لقد تعمد الاتحاد السوفيتي أن يخذلني بعدم إرسال العتاد الذي طلبه وكأنهم في موسكو يريدون أن يقولوا لي أنت لا تستطيع أن تقرر شيئاً بدون إذن السوفييت وقد اعترف بريجنيف بعد ذلك بستين للمارشال أحمد إسماعيل عندما زار موسكو في مارس سنة ١٩٧٣ للمصالحة بأنه تعمد عدم إرسال الأسلحة

وتستمر سخرية عملاء الاتحاد السوفيتي وعملاء مراكز القوى عندى فى مصر من سنة الحسم واضطر إلى أن أكتم آلامى وأخفى جروحى وأذهب إلى مجلس الشعب فى فبراير سنة ١٩٧٢. أدافع عن السوفييت رغم أنى مطعون فى ظهرى منهم فقد زرت موسكو فى سنة واحدة أربع مرات أطلب العتاد وألح فى الطلب ولكن عبثاً . . وفى نفس الخطاب أمام مجلس الشعب عمدت إلى مهاجمة أمريكا وروجرز بأعنف ما يمكن للهجوم أن يكون . . وهكذا بدأ فصل جديد من العلاقات السيئة بينى وبين أمريكا . . مواجهة عاتية كاملة . .

طبعاً أصيب الأمريكان بذهول يوم ١٦ يوليو سنة ١٩٧٢ عندما اتخذت قرار الإستغناء عن الخبراء السوفيت ولكنهم حاولوا جهد طاقهم أن لا يأخذ القرار مكانه في إعلامهم . . فالوفاق بدأ . . وكان نيكسون قد زار موسكو في مايو سنة ١٩٧٢ أى قبل شهرين فقط من قرارى بالاستغناء عن الخبراء السوفيت . . فكأنما كانت مؤامرة صمت . .

ولكن يخطيء من يظن أنى اتخذت قرار طرد الخبراء السوفيت لإرضاء أمريكا أو أية جهة أخرى . . لقد كان قراراً وطنياً سعد به شعب مصر كل السعادة فهو قرارى وقرار شعبى وحده ، وكان هجوماً على روجرز وأمريكا لما لقيته من سلوك من جانبهم لا يقل عنفاً عما وجهته للسوفيت وأنا أطرد خبراءهم .

لم يمض وقت طويل بعد ذلك حتى أطيح بروجرز وجاء كيسنجر وزيراً للخارجية - فطلب أن يلتقى بأى رسول أرسله له ولكن سنة ١٩٧٢ كانت سنة انتخابات والحكومة الأمريكية فى مثل هذه السنة لا تقدم ولا تؤخر ثم إن الوفاق بين أمريكا وروسيا كان قد أعلن فلم يتحقق لهذا اللقاء الذى طلبه كيسنجر أن يتم إلا فى فبراير سنة ٧٣ .

أرسلت له حافظ إسماعيل مستشار الأمن القومى عندنا فالتقى به فى باريس مرة فى فبراير سنة ١٩٧٣ وأخرى فى أبريل سنة ١٩٧٣ .

كانت حصيلة كلام كيسنجر أن الذى فعله روجرز كان بغير مساندة الرئيس الأمريكى ولذلك لم يتم شىء . ولكن الرئيس الأمريكى الآن مستعد للتعاون من أجل السلام . . قال له حافظ إسماعيل إن مبادرتنا ما زالت قائمة رغم تحدى روجرز وزير الخارجية الأمريكية لنا فى يناير سنة ١٩٧٢ فرد كيسنجر قائلاً : -

- قل للرئيس السادات رغم أننى لا أعرفه شخصياً إن تقديرنا له الذى بنى على تقرير مندوب أمريكا فى جنازة عبد الناصر كان خاطئاً . . بل إن الحقائق كلها تشير إلى عكس ما جاء فى هذا التقرير . . فقد رأيناها يتقدم بمبادرة سلام ثم رأيناها وهو يتخذ قرار طرد الخبراء السوفيت . . وهذه مسائل لافتة للنظر . .

« ولكن نصيحتي للسادات أن يكون واقعياً . . فنحن نعيش في عالم الواقع ولا نستطيع أن نبني شيئاً على الأمانى والتخيلات . . والواقع أنكم مهزومون فلا تطلبوا ما يطلبه المنتصر . . لا بد أن تكون هناك بعض التنازلات من جانبكم حتى تستطيع أمريكا أن تساعدكم . . »

« فكيف يتسنى وأنتم في موقف المهزوم أن تملوا شروطكم على الطرف الآخر . . إما أن تغيروا الواقع الذى تعيشونه فيتغير بالتبعية تناولنا للحل وإما أنكم لا تستطيعون ، وفي هذه الحالة لا بد من إيجاد حلول تتناسب مع موقفكم غير الحلول التى تعرضونها وأرجو أن يكون معنى ما أقول واضحاً فلست أدعو السادات إطلاقاً إلى تغيير الوضع العسكرى فلو أنه حاول هذا فسوف تنتصر إسرائيل مرة أخرى بأشد مما انتصرت فى سنة ١٩٦٧ وفى هذه الحالة يصعب علينا أن نفعل أى شىء . . وسوف تكون هذه خسارة كبيرة لمصر وللسادات شخصياً وهو رجل أحب أن أتعامل معه فى يوم ما . . فأنا شديد الإعجاب به لمواقفه وشجاعته الواضحة ولأنه إنسان لأول مرة فى هذه المنطقة يضع كل شىء فى مكانه بأسلوب علمى سليم ويتخذ خطأً جديداً لم يتخذه أى زعيم عربى من قبله . . »

كان هذا كلام كيسنجر فى فبراير وإبريل سنة ١٩٧٣ فقلت فى نفسى لا فائدة ترجى من الأمريكان فقد استولت عليهم إسرائيل وما زالت السياسة التى وضعها جونسون لأمريكا تفضل مصالح إسرائيل على مصالح أمريكا نفسها . وكما يقول رجل الشارع عندنا فى مصر . . إسرائيل هى الحارس الوحيد على مصالح أمريكا فى الشرق الأوسط . . هذا ما جعلت من نفسها . . أو هكذا جعلتها أمريكا . . والنتيجة فى كلا الحالين واحدة وهى أنه لا أمل فى تحقيق السلام عن طريق أمريكا ما دامت إسرائيل لا تريد السلام .

فوجئت أمريكا بحرب أكتوبر سنة ١٩٧٣ وفوجيء كيسنجر وحزن حزناً شديداً على مصيرى كما قال لى فيما بعد - إذ كان الإسرائيليون فى الأيام الثلاثة الأولى للحرب يؤكّدون للعالم كله بأنهم يطحنون عظام المصريين والسوريين وأن المسألة كما أعلنت إسرائيل ليست إلا ساعات أو يوم أو يومين ويقضى على المصريين ويدفنون فى القناة . .

واستخدموا أفلام هزيمتنا فى سنة ١٩٦٧ فى كل الإذاعات عندهم وأرسلوها إلى الخارج . . وكأن « البروباجاندا » السوداء ستجعلهم ينتصرون . . وفى اليوم الرابع للحرب وصلت الخارجية الأمريكية إشارة : « أنقذوا إسرائيل » . . وأن إسرائيل خسرت على الجبهة المصرية ٤٠٠ دبابة مطلوب إرسالها فوراً من أمريكا لإسرائيل . .

ولابد أن كيسنجر أصيب بالذهول حتما حينما أكد البنتاجون بأقماره الصناعية ما أبلغته إسرائيل للخارجية الأمريكية . .

وعلى الفور بدأ كيسنجر - بعد أن أفاق من ذهوله - فى العمل على وقف إطلاق النار على أن تعود القوات إلى المواقع التى بدأت منها القتال يوم ٦ أكتوبر . . طبعاً رفضت . . لقد عبرنا وحققنا المرحلة الأولى بالإستيلاء الكامل على خط بارليف ولم يعد أمامنا إلا المرحلة الثانية وهى الوصول إلى المضائق . .

وساء حال إسرائيل أكثر . . فتقدم كيسنجر بعرض آخر وهو وقف إطلاق النار على الخطوط الحالية ولكن سوريا كانت في ذلك الوقت قد رجعت عن خط البدء فرفضت هذا أيضاً . . وخاصة عندما قفز إلى ذهني الموقف في سنة ١٩٤٨ عندما طلب الإسرائيليون هدنة واستجاب العرب فاسترد اليهود أنفاسهم ثم أجهزوا على كل شيء . . كانت هذه حيلة مماثلة ولا يلدغ المؤمن من جحر مرتين . .

أرسل الاتحاد السوفيتي لى ثلاث طلبات بوقف إطلاق النار ورفضتها جميعاً . . ثم حضر رئيس وزراءهم كوسيجين إلى مصر وبقى عندنا أربعة أيام . . وفي يوم ١٢ أكتوبر أرسل الاتحاد السوفيتي إلى أمريكا يقول إن السادات قد وافق على وقف إطلاق النار . . وأراد كيسنجر أن يستوثق فاتصل برئيس الوزارة البريطانية مستر هيث لكي يتصل بي عن طريق السفير البريطاني في القاهرة ليسأل عن مدى صحة الرسالة . . وفوجئت بالسفير البريطاني يوقظني من النوم فجر ١٣ أكتوبر ليلغني الرسالة . . قلت له لم يحدث وأرجو أن تبلغ كيسنجر أن لا أحد يتحدث عن مصر إلا أنا فقط . .

طبعاً كانت أمريكا تساند إسرائيل منذ بداية الحرب وقبلها . .

ولكن بعد أن تأزم الموقف تحولت هذه المساندة إلى تدخل واضح وصريح ومباشر . . فكانت الدبابات تنزل إلى أرض سيناء في العريش المصرية عاصمة سيناء وهي التي تقع وراء الجبهة مباشرة وهي محملة بالبنزين والذخيرة فتدخل المعركة مباشرة . . كما كانت ثمة أسلحة أخرى لم تستخدم من قبل سبق أن رويت قصتها .

ووجدتني فجأة أواجه أمريكا . .

وهذا ما جعلني أعلن على العالم يوم ١٩ أكتوبر سنة ١٩٧٣ أني لا أحارب أمريكا . . وبناء عليه فأنا أقبل وقف إطلاق النار وهو ما رفضته أربع مرات على مدى ١٧ يوماً عندما كان خصمي في المعركة إسرائيل وحدها - لا أمريكا .

وهنا أحب أن أسجل للتاريخ أن الثغرة هي مسئولية أمريكا بل ومسئولية البنتاجون ذاته والمساعدات التي قدمها لإسرائيل والصور الجوية والعتاد

والأسلحة الحديدية التي استخدمت لأول مرة ولم تكن متاحة لأي إنسان خارج أمريكا إلى ذلك التاريخ . .

لم تكن الثغرة في ذاتها هي التي جعلتني أقبل وقف إطلاق النار . . الذي دفعني إلى هذا - كما سبق أن قلت - أنني أصبحت في حالة مواجهة عسكرية كاملة مع أمريكا وهو ما لا قبل لي أو لأية دولة غير عظمى به .

أما الثغرة نفسها فقد كانت من الناحية العسكرية مجرد عملية تليفزيونية كما أسماها بحق الجنرال بوفر رئيس معهد الدراسات الاستراتيجية الفرنسية ومن الناحية السياسية كان واضحاً أن الهدف منها هو إعطاء إسرائيل نقطة انطلاق تحفظ ما تبقى لها من كرامة في المفاوضات بينها وبين مصر بعد أن وصلوا على الجبهة المصرية إلى الحضيض BOTTOM كما قالت مسز مائير وقتذاك . . لقد حشدوا قوات كبيرة في الثغرة في منطقة صغيرة لا تحتل هذه القوات وكانوا يأملون أن يخيفني هذا فأعتقد أن القاهرة مهددة . . طبعاً خاب ظنهم فالحرب النفسية قد تصلح مع غيري ولكنها لاتصلح أبداً معي لأنني أعرف ما أفعل وأعد لكل خطوة أخطوها عدتها . .

كنت واثقاً كل الثقة من أن عملية الثغرة مغامرة طائشة ساذجة ومكتوب لها الفشل المحقق . . فلو أنني صفيت الثغرة حسب الخطة الموضوعية والتي وقعها بنفسى كانت إسرائيل ستفقد ٤٠٠ دبابة وعشرة آلاف عسكري ما بين قتل وجريح ولم يكن هذا بالأمر الصعب أو المحتمل بل الأكيد . . ففي هذه المعركة لم يكن أمامي قناة أعبرها أو خط بارليف أفتحمه . . العدو أمامي وعلى مساحة ضيقة من الأرض ظهره للبحيرة ووراءه على الضفة الشرقية خمس فرق كاملة لي ومدخل الثغرة من الضفة الشرقية فتحة هي ستة كيلو مترات فقط عند نقطة الارتكاز بين الجيشين الثاني والثالث . . كل الحسابات العسكرية كانت تشير إلى أن هذه المعركة لو تمت فستكون مذبحة التاريخ . .

ولكنها لم تتم . . لماذا ؟ لأنها كانت ستعني المزيد من الدم والكراهية والأحقاد . . وأنا أكره كل هذا . .

بل إنني لأذهب إلى آخر العالم - كما يعرف شعبي وقواتي المسلحة - إذا كان ذلك من شأنه أن أتفادى جرح - ولا أقول قتل - فرد واحد .



كان أول لقاء لي مع كيسنجر بعد وقف إطلاق النار الذي تم في الساعة السابعة مساء ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٧٣ . . وخرق إسرائيل لوقف إطلاق النار بعد ذلك بساعتين فقط . . فقد كانت أمريكا بالتضامن مع روسيا مسئولة عن وقف إطلاق النار فأرسلت إلى القوتين نداءً أحملهما فيه مسؤولية ما فعلت إسرائيل وأعلن أنني رغم التزامي بوقف إطلاق النار إلا أنني أعتبر نفسي في حل من التزامي فيما أن يعيدا اليهود إلى خط ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٧٣ وهو الخط الذي كان قائماً وقت وقف إطلاق النار وتعرفه أمريكا وروسيا بأقمارهما الصناعية ونعرفه نحن وإسرائيل على الأرض . . وإما أن أعيدهم أنا بيدي - كيسنجر أرسل يطلب الحضور إلى مصر فقلت على الراح . . وأتى . .

كان ذلك في أواخر أكتوبر سنة ١٩٧٣ واستغرقت الجلسة الأولى ثلاث ساعات . . بعد الساعة الأولى شعرت أنني أمام عقلية جديدة وأسلوب جديد في السياسة وأنى أرى لأول مرة وجه أمريكا الحقيقي الذي كنت فيما مضى أتمنى أن أراه - لا الوجه الذي صنعه دالاس ودين راسك وروجرز . . وأعتقد أنه لو رأنا أحد بعد الساعة الأولى من اجتماعنا بقصر الطاهرة لاعتقد أننا أصدقاء منذ سنوات وسنوات .

لم تكن هناك أية صعوبة في التفاهم فانفقنا على النقاط الستة ومن ضمنها إقرار أمريكا بخط ٢٢ أكتوبر في إطار فض الاشتباك .

كان الاتفاق على النقاط الستة بداية قيام علاقة فهم مشترك بيننا وبين أمريكا

تبلورت فيما نسميه بعملية السلام (PEACE PROCESS) التي سارت فيها أمريكا معي وما زالت حتى اليوم .

نفس هذه البداية اعتبرها السوفييت نهاية للعلاقة بينهم وبيننا - أو هكذا يبدو - على أى الأحوال كان الاتفاق على النقاط الستة بيني وبين كيسنجر بمثابة القشة التي قصمت ظهر البعير - كما نقول في العربية - بالنسبة للسوفييت ، لقد تحملوا كارهين قرار طرد الخبراء السوفييت وتصفتي لمراكز القوى ثم موقفى من ثورة السودان الشيوعية المجهضة ثم قرار الحرب وانتصارى فيها رغم تحذيرهم لسوريا بأننى سأغرق فى القناة بعد ساعة وأترك السوريين ليواجهوا إسرائيل وحدهم . . فإذا بالأمور تسير بالعكس فأعبر القناة أخطر مانع مائى فى التاريخ وأسيطر على خط بارليف فى ساعات وأدخل سيناء . . ولكن حتى فى هذه المرحلة المتقدمة لم يكف السوفييت عن طلب وقف إطلاق النار ثلاث مرات والرابعة حين حضر إلى مصر رئيس وزراءهم كوسيجين - كما سبق أن رويت - ليقنعنى بوقف إطلاق النار وحدثت بيننا مشادة فى منتهى العنف .. وأخيراً كان اتفاق مع كيسنجر على النقاط الستة وبداية عملية السلام . . منذ تلك اللحظة إلى هذا اليوم فى سنة ١٩٧٧ وكل شىء عند السوفييت موقوف عنى . . لا بيع أسلحة أستعوض بها كما استعوضت سوريا ما فقدت ولا قطع غيار ولا أى شىء على الإطلاق . . بل موقف متشدد يكاد أن يصل فى بعض الأحيان إلى العداء . .

فى ١١ ديسمبر سنة ١٩٧٣ جاءنى كيسنجر حسب الاتفاق لتنفيذ النقاط الستة فقلت له : « يا هنرى أنا لا أطلب بعودة اليهود إلى الضفة الشرقية ولكنى أريد عودتهم إلى خط ٢٢ أكتوبر - كان هذا اتفاقنا وقت وقف إطلاق النار فيما أن يعودوا إليه وإما أن آخذه بالقوة » . .

قال : - ما الداعى إلى المعركة ؟

قلت : - لأن ثمة عربة إسرائيلية - وهم يتصورون أنهم يخيفوننا بهذه الثغرة - وأنا لست على استعداد لأن أجهض نتائج حرب أكتوبر بل لن أسمح بهذا . . هل تعرف مدى قوتى ومدى قوتهم فى الثغرة ؟

قال : نعم أعرف ..

وأخرج من جيبه صورة بالقمر الصناعي رسمها البنتاجون . كما سبق أن رويت .

وقال : قبل أن أحضر إليك طلبت من البنتاجون أن يعطوني الموقف فأعطوني هذه الصورة وفيها الـ ٤٠٠ دبابة إسرائيلية ومن حولها ٨٠٠ دبابة مصرية ولديك صاروخ ونصف تقريباً لكل دبابة بخلاف حائط الصواريخ القائم .. أنت فعلاً تستطيع أن تصني الثغرة بهذه القوات ..

قلت : هذه سوف تكون معركة التاريخ بالنسبة إلى .. فما هو موقف أمريكا .. إنكم أنتم الذين أخرجتموني من الحرب ولكنكم أنتم المسئولون عن الثغرة .. ما هو موقف أمريكا إذا صفت الثغرة بمعركة .. ؟

قال : سيضربك البنتاجون بكل قوته .. هذا هو موقف أمريكا .. ولكن لي سؤال : هل أنت مصر على تصفية الثغرة بمعركة عسكرية .. ؟

قلت : أبداً .. أنتم تعلمون أنني رجل سلام .. ولو كنتم قبلتم مبادرتي سنة ١٩٧١ لما كانت هناك حرب – فأنا ضنين بحياة الجندي قبل الضابط ولكنكم لم تأخذوا كلامي مأخذ الجد وهذه هي النتيجة ..

قال : كما بدأنا عملية السلام ، نعمل فض اشتباك تنهى هذه الثغرة بمقتضاه سلمياً .

قلت له : أنا معك ١٠٠٪ . ولكن متى ؟

في ذلك الوقت كنا قد حددنا لمؤتمر جنيف يوم ١٩ ديسمبر سنة ١٩٧٧ وأجل إلى ٢١ من الشهر نفسه ، وفعلاً ذهبت مصر والأردن وإسرائيل وامتنعت سوريا – وعقدنا في جنيف جلستين أو ثلاثة ثم أجلنا الجلسة واتفقنا أنا وكيسنجر على فض الاشتباك في يناير سنة ٧٤ – وذلك بالنسبة للجبهتين المصرية والسورية .

قبل ذلك بفترة – وعلى وجه التحديد في يوم ١٦ أكتوبر بعد بدء المعركة بعشرة أيام وبينما كان انتصارنا واقعاً أذهل العالم كله – خطبت في مجلس الشعب هنا في مصر وقلت إنني مستعد أن أذهب إلى جنيف شريطة أن تنسحب إسرائيل من الأرض العربية المحتلة في عام ١٩٦٧ ونجتمع في جنيف لنضع اتفاقية

سلام . . كان في إمكاني في ذلك الوقت أن أضرب في عمق إسرائيل . .
وهي تعلم ذلك وتعلم أن لدى السلاح الذي يقوم بذلك . .

أي رجل مكاني كان يفعل هذا ولو من باب الانتقام من إسرائيل لثلاث
حروب مضت - ولكني لم أفعل لأنني أفضل السلام - . . ومن نفس المنطلق
آثرت أن أصني الثغرة سلمياً فجاء كيسنجر حسب الاتفاق في يناير سنة ١٩٧٤
وأخذ يتنقل بين أسوان وتل أبيب فترة من الزمن إلى أن جاء إلى في يوم
وقال : -

- للأسف يبدو أننا قد وصلنا إلى طريق مغلق فهم في تل أبيب غير راغبين
في التفاهم .

قلت له : لقد جاء دوركم أنتم الأمريكان . . فحلوا الموقف أنتم
بأنفسكم . .

قال : هل تقبل عرضاً أمريكياً ؟

قلت : بكل سرور . . مستعد ألقاه وأدرسه وأرد عليك . .

تلقيت الاقتراح الأمريكي وتلقته إسرائيل في نفس الوقت . . وبالاتفاق على
فض الاشتباك الأول على الجبهة المصرية بدأنا مرحلة جديدة . . المرحلة
الثانية في عملية السلام . .

وهنا لابد لي أن أقول إنه لا يستطيع أحد غير أمريكا أن يقوم بهذا الدور
وهو التدخل بين الطرفين اللذين تأكلهما أحقاد رهبة ودماء وكرهية وعنف
ومذابح قامت بها الصهيونية في القرى الفلسطينية . .

لم تفرض أمريكا فض الاشتباك الأول بل تدخلت بيننا لتفتح الطريق
المسدود . . وفض الاشتباك الأول مكتوب على رأسه كلمة « عرض أمريكي
AMERICAN PROPOSAL . . لهذا قلت وأقول إن بيد أمريكا ٩٩٪
من أوراق اللعبة . . مهما أغضب ذلك الآخرين . .

كان من المفروض أن ندخل المرحلة الثالثة من عملية السلام في سبتمبر ١٩٧٤ وهي فض الاشتباك الثاني - ولكن حدثت زيارة نيكسون إلى مصر ثم عاد إلى أمريكا حيث كانت مسألة ووترجيت قد نضجت تماماً وتفجرت فاستقال نيكسون ودخلت أمريكا في دوامة رهيبة استمرت خلال سنوات ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ سنة الانتخابات بعد أن استقال نيكسون وحل فورد محله ، وبدأت دبلوماسية (المكوك) بين أسوان وتل أبيب لإتمام عملية فض الاشتباك الثاني .

في تقديري أن فض الاشتباك الأول استغرقت مفاوضاته من أسبوع إلى عشرة أيام . . أما هذه المرة فقد كان الأمر يختلف .

استغرقت رحلات كيسنجر أكثر من أسبوعين ولا شيء يلوح في الأفق . . وقبل أن تنتهي هذه الرحلات بعشرة أيام قلت له وهو عندي في أسوان :

- يا هنري لن يتم فض الاشتباك هذه المرة - ولن يستجيب اليهود لكم ولا للسلام . . لأنهم يعلمون أن الحكومة الأمريكية في حالة ضعف - فوترجيت ما زالت متفجرة - والرئيس الموجود معين وليس منتخباً . . قال : بالعكس أنا أرى أن العملية تسير سيراً حسناً - صحيح أنها قد تستغرق وقتاً أطول من فض الاشتباك الأول ، ولكن هذا لا يعني الكثير .

قلت له : تقدر تقدم مقترحاً أمريكياً يا هنري ؟

قال : لا . .

قلت : أرايت ؟ أنت لا تقدر لأنكم في وضع داخلي صعب . . ولذلك

لن توافق إسرائيل .

بعد عشرين يوماً جاء إلى وقال :

— أنت على حق . . إنها حالة ميثوس منها . .

قلت له : لا تعلن هذا من عندى — سافر إليهم وأعلنها من عندهم .

وفعلاً أعلن فشل مفاوضات فض الاشتباك الثانى فى مرحلته الأولى من تل أبيب ، وفى نفس الوقت أعلن وزير خارجية مصر فشل مساعى كيسنجر فى مؤتمر صحفى عقده بأسوان ، وفى صباح اليوم التالى سافر كيسنجر من عندهم رأساً إلى أمريكا .

الذى أريد أن أقوله للشعب الأمريكى هنا هو أنه برغم أن شريان الحياة يمتد من أمريكا إلى إسرائيل بكل ألوان الحياة من رغيف العيش إلى الفانتوم إلى سد العجز فى الميزانية ، إلا أن إسرائيل رفضت أن تستجيب للسلام لأنه كان فى تقديرها فى ذلك الوقت أن الحكومة الأمريكية فى موقف ضعف . . فهى إذن ليست موضع ثقة إسرائيل — أنا أيضاً كنت أعرف أن الحكومة الأمريكية فى موقف ضعف . . ولكن رغم هذا ورغم أننى كنت قبل ذلك فى مواجهة صريحة كاملة مع أمريكا لمدة ١٨ عاماً . . إلا أننى كنت أثق فيها من أجل تحقيق الخير والسلام . .

وهنا تتضح حقيقة لا أظن أنها تفوت على الكثيرين . . وهى أن ما هو معروف من أن إسرائيل هى راعية مصالح أمريكا فى المنطقة هو فى الحقيقة مجرد ادعاء . . فأين حماية هذه المصالح والبتروال الذى حظره العرب كان يهدد كيان أمريكا الاقتصادى بل ويهدد المدينة الغربية كلها بالإنهار ؟ إن إسرائيل لا تنظر إلا إلى مصالحها الذاتية . . والمسألة بعد هذا أعمق وأدق فهى مسألة أخلاق . . ومسألة حب للسلام أو العكس بصرف النظر عن سيدفع ثمن فشل محاولات السلام . . وهذا ما دعانى رغم كل علاقاتى السابقة مع أمريكا أن أقول لوزير خارجيتها إنه مهما كان موقف إسرائيل فدعنا نعمل سوياً من أجل السلام . .

هل يحتاج الأمر إلى عقد المزيد من المقارنات بين موقف إسرائيل وموقف مصر فى تلك المرحلة التاريخية . . وما قد تفصح عنه هذه المقارنات من الحرص على السلام أو العكس ؟ لا أعتقد .

أنا لا أريد أبداً أن أثبت أني رجل سلام بالكلام فقط ولذلك فبمجرد خذلان إسرائيل لمساعي كيسنجر من أجل السلام ذهبت إلى البرلمان وأعلنت للشعب كل ما حدث ثم تقدمت بقرارات لا تتسم بالعصبية أو رد الفعل ، وإنما كانت قرارات صادرة عن الثقة بالنفس وبالحق فأعلنت فتح قناة السويس في ٥ يونيو سنة ١٩٧٥ بعد أن كان لأمريكا هذا الدور الرائع في تطهيرها مع فرنسا وإنجلترا والاتحاد السوفيتي الذي طهر خليج السويس لوصوله متأخراً . . وسمعتي شعبي وأمتي العربية والعالم أجمع .

كما سمعتي الجميع أعلن أيضاً أن المهجرين سيعودون إلى مدن القناة ، وأنني سأسلم إسرائيل ٣٩ جثة من قتلها كانت إسرائيل مستعدة لدفع أي ثمن لاسترجاعها بواسطة كيسنجر ولكنني أعطيتها لهم بدون مقابل . .

كل هذا من أجل السلام . . مع ذلك فقد حذرت إسرائيل من أنها لو ضربت أي مدينة من مدن القناة أو القناة ذاتها بعد فتحها بمدافعها الأمريكية طويلة المدى فسوف أرد بالضرب في عمق إسرائيل . .

كنت طبعاً قد قابلت فورد في سالزبورج (يومى ١ ، ٢ يونيو ١٩٧٥) بعد فشل محادثات مارس واتفقنا على عملية جديدة يتولاها فورد شخصياً . .

في أغسطس جاءني كيسنجر وبدأ (المكوك) بيني هنا وتل أبيب . . كان الرجل مكسور القلب . . فالوضع السيئ الذي كانت عليه الإدارة الأمريكية في مارس أصبح أسوأ بكثير في أغسطس . . فالفضائح تتفجر

كل يوم والإضطراب وعدم الإستقرار مستمر . . واليهود ينتهزون كل فرصة ليضربوا مصالح أمريكا عندما تتعارض مع مصالحهم . .

قلت له : كنت قد قلت لك في مارس إن العملية لن تتم ولكنني أقول لك هذه المرة إنها سوف تتم . . فقد كشفت إسرائيل أمام العالم بفتح القناة وعودة المهجرين . . إلى آخر ما فعلت من أجل إعادة السلام إلى المنطقة . . ولذلك فلو حاولت إسرائيل أية محاولة لإفشال السلام فستضح الحقيقة للعالم كله وهي أنها وحدها المسئولة عن هذا . .

وفعلا لم تستطع إسرائيل إلا أن توافق ، فوقعنا في أول سبتمبر سنة ١٩٧٥ إتفاقية فض الاشتباك الثاني وبذلك تمت المرحلة الثالثة من عملية السلام .

بعد ذلك لم يعد هناك مجال لحل الخطوة خطوة فنحن الآن بصدد تسوية شاملة أى اتفاق السلام النهائى وإنهاء حالة الحرب التى لا تزال قائمة إلى اليوم منذ ثلاثين سنة . . وعلينا أن نسعى إلى السلام الدائم العادل . . بعد ما ثبت من أن مصر التى كانت فى مواجهة مع أمريكا لمدة ١٨ سنة تستجيب للسلام بينما إسرائيل وهى ربيبة أمريكا مستعدة لأن تطيح بمصالح أمريكا إذا شعرت بأن هذا قد يحقق شيئاً من أطماعها .

ذهبت لزيارة كارتر بعد أن نجح في الانتخابات وأصبح رئيساً للولايات المتحدة . . واستعرضت معه كل المراحل التي تمت ، كما وضعت أمامه استراتيجية سلام محددة لا أعتقد أن إسرائيل قادرة أو راغبة في أن تصنع مثلها أو شبيهة بها .

ما هي استراتيجية السلام التي وضعتها أمام كارتر وأضعها أمام العالم كله اليوم ؟ قبل أن أدخل في التفاصيل أحب أن أدعو كل من يتعرض لقضية الشرق الأوسط أن يدرك أن المشكلة الأساسية فيها هي المشكلة الفلسطينية . . دعونا إذن نبدأ بحل المشكلة الفلسطينية فليست سيناء أو الجولان إلا أعراض لمرض أساسي هو هذه المشكلة بالذات . . ولعل مما يلفت النظر في هذه المسألة أن بعض الأصوات ترتفع هذه الأيام تطلب من الفلسطينيين الاعتراف بإسرائيل . . تناقض غريب . . فهم يطلبون من أناس فقدوا الأرض والدولة بل وحقوق الإنسان نفسها - يطلبون من هؤلاء وهم المشردون الفلسطينيون أن يعترفوا بدولة هي إسرائيل تتمتع باعتراف ١٤٠ دولة في الأمم المتحدة ولديها الأرض واعتراف ومساندة الولايات المتحدة وتأييد الاتحاد السوفيتي الذي لم يحاول قط إخفاء مساندته لإسرائيل وحققها في أن لا تمس . .

حتى أنه في زيارة حديثة قام بها ياسر عرفات للسوفيت خلال عام ١٩٧٧ طلب بريجنيف منه أن تعترف منظمة التحرير بإسرائيل كأساس مبدئي لحل المشكلة . .

في استراتيجية السلام الأولى التي أعرضها على العالم اليوم لا أنكر على إسرائيل حقها في أن تعترف بها دول المنطقة . . ولكن بشرط أن يأخذ كل شيء وضعه الطبيعي . . فاتفاقية السلام يجب أن تتضمن إقامة دولة فلسطين في الضفة الغربية وقطاع غزة ، على أن تنسحب إسرائيل من الأرض المحتلة سنة ١٩٦٧ .

وبذلك عندما نجتمع في جنيف نعلن رسمياً إنهاء حالة الحرب التي استمرت منذ قيام إسرائيل حتى هذه اللحظة . .

وقد قلت للرئيس كارتر إن إسرائيل يجب أن تعطي جميع الضمانات التي تطلبها حتى إذا رأت أن تسليح كل مواطن فيها بدبابة وطائرة وأعطتها أمريكا هذا فلن نمانع . . بشرط أن تستعملها إسرائيل داخل حدودها وليس في أرض الغير . . لن نمانع إطلاقاً في أي شيء تطلبه إسرائيل سواءً من أمريكا أو الاتحاد السوفيتي أو مجلس الأمن ، وبأية صورة تطلبه . . قوة مشكلة من الأمم المتحدة . . قوات على الحدود . . مناطق منزوعة السلاح على الجانبين . . ميثاق دفاع مشترك مع أمريكا . . أقول إنني في استراتيجية السلام مستعد لكل هذا ولا مانع عندي إطلاقاً . . ولكنني أرى أنه من الحق والعدل أن كل ضمان تأخذه إسرائيل يجب أن نحصل عليه نحن العرب أيضاً . . فيما عدا شيء واحد . . وهو أنه إذا اختارت إسرائيل أن تعقد مع أمريكا ميثاق دفاع مشترك فلن أطالب بالمثل لا مع أمريكا أو الاتحاد السوفيتي أو أية دولة أخرى . . فنحن دولة عدم انحياز وسنظل كذلك . . إرادتنا ملك لنا ولنا فقط . .

كل هذا وضعته أمام كارتر بوضوح وأكدت له أننا اليوم في سنة ١٩٧٧ مستعدون للسلام كما كنا عندما قمت بمبادرتي في ١٩٧١ بل وأكثر . . كما أكدت أنني على استعداد لتنفيذ جميع الالتزامات التي يفرضها على قرار ٢٤٢ لمجلس الأمن ولكن على إسرائيل أيضاً أن تفعل نفس الشيء . . فلا مساومة على حقوق شعب فلسطين أو على شبر واحد من الأرض العربية المغتصبة في سنة ١٩٦٧ . بهذا يتحقق السلام الدائم والعادل . .

ما هو رد الفعل عند إسرائيل إزاء كل هذا ؟

كلنا يعرف نظرية الأمن التي نادى بها بن جوريون ونشأت عليها إسرائيل والتي تقول صراحة إنه لا بد من فرض الصلح على العرب بالقوة . . قلت لكارترو وأنا في زيارتي للبيت الأبيض إن السلم لا يفرض لأنه إذا فرض لا يصبح سلمي لأن هذا معناه أن هناك طرفاً يملئ شروطه على الطرف الآخر وإسرائيل لم تستطع أن تملئ شروطها علينا برغم هزيمة سنة ١٩٦٧ المنكرة ونحن برغم انتصارنا سنة ١٩٧٣ لم نستطع أن نملئ شروطنا على إسرائيل . . يجب إذن استبعاد فكرة إملاء السلم والحدود الآمنة . .

لقد كانت أسطورة سقطت بحرب أكتوبر وسقطت معها أسطورة العسكري الإسرائيلي الذي لا يقهر . . وهذا ما يدركونه جيداً في إسرائيل اليوم ، ولذلك نجدهم يكفون عن الكلام عن نظرية الأمن الإسرائيلي ويحلون محلها موضوعاً جديداً هو طبيعة السلام . .

ماذا يقصدون بطبيعة السلام ؟ فتح الحدود وإقامة علاقات دبلوماسية واقتصادية بين إسرائيل والدول العربية ؟

إنهم يعلمون تمام العلم أن هذه كلها معوقات جديدة توضع في طريق السلام . . لأنه لا يوجد إنسان في العالم العربي بعد ثلاثين سنة من المواجهة مع إسرائيل وأربعة حروب ومذابح ودم وكراهية وتعبئة في كل ناحية مهياً لفتح الحدود فجأة وبين ليلة وأخرى . .

ثم هل السلام لا يتحقق إلا بفتح الحدود ؟

ماذا عن دول كثيرة كانت الحدود مفتوحة بينها ومع ذلك قامت بحروب ضد بعضها البعض ؟ ونفس الشيء يمكن أن يقال عن العلاقات الدبلوماسية فهي أيضاً لا تمنع قيام الحرب . . خذ مثلاً اليابان في (بيرل هاربر) لقد كان السفير الياباني في زيارة (لكوردل هل) وزير خارجية أمريكا في نفس الوقت الذي كانت اليابان تقصف فيه (بيرل هاربر) بالقنابل . .

إن الحدود المفتوحة والتمثيل الدبلوماسي مسألة سيادة ولكل دولة الحق في أن تفتح حدودها أو تقيم علاقات دبلوماسية مسع من تشاء من الدول دون أن يكون لهذا أى دخل في قيام الحرب أو السلم . . وقد دعوت الرئيس كارتر إلى أن يتأمل موقف أمريكا مع السوفييت بعد ثورة سنة ١٩١٧ فقد انقضت تسعة عشر عاماً قبل أن يعترفوا بالاتحاد السوفيتي ولم يكن هذا يعنى أو يدعو إلى الحرب بين الدولتين . . ونفس الشيء بالنسبة للصين الشعبية فمستوى التمثيل الدبلوماسي بينها وبين أمريكا لم يزد إلى الآن عن قنصلية أو شيء من هذا القبيل مع أنه قد انقضى على ثورة الصين الشعبية ما يقرب من ثلاثين سنة . .

فلماذا نطلب من العرب إقامة علاقات دبلوماسية كاملة مع إسرائيل كشرط من شروط السلام وكأن السلام قد أصبح مرهوناً بمثل هذه العلاقات وهو الأمر الذي لم يكن في يوم من الأيام بين أية دولة وأخرى كما يقول لنا التاريخ ؟

إن طبيعة السلام التي تتطلب إسرائيل معرفتها اليوم ليست في الواقع إلا محاولة جديدة من جانب إسرائيل لإعاقة السلام تهدف من ورائها إلى كسب الوقت لكي تتمكن من فرض سياسة الأمر الواقع ببناء المستعمرات الإسرائيلية في الأرض العربية المحتلة . . كما تحاول الآن . . ثم على المدى البعيد لكي تنهى أزمة الطاقة فلا يعود هناك تعارض بين مصالح إسرائيل ومصالح أمريكا كما هو حادث الآن . .

وفي هذه الناحية أدعو القارئ أن يعقد معي مقارنة بسيطة بين موقف العرب وموقف إسرائيل إزاء المصالح الأمريكية . .

إن ٩٩٪ من مصالح أمريكا في المنطقة معنا نحن العرب ونحن أصدقاء ونود أن نظل أصدقاء مع أمريكا . . ومصالحها عندنا مصانة وكل ما نطلبه منها أن لا تقف وراء روح التوسع والعدوان الإسرائيلي . . ونحن لا ننادى بأن ترمى إسرائيل في البحر أو أن تقطع أمريكا علاقتها الخاصة معها . . فلتعطيها كما تشاء ولكن داخل حدودها . . ولن يؤثر هذا على علاقتنا بأمريكا بأي شكل من الأشكال فنحن كأصدقاء لها تهمننا مصالحها وأقرب دليل على هذا قرار رفع حظر البترول الذي اتخذناه عندما وجدنا أن الحظر قد بدأ يضر بمصالح الشعب الأمريكي . .

وهذا عكس ما تفعله وما فعلته إسرائيل في كل مرحلة من المراحل .

فعلاقتها بأمريكا برغم أنها وطيدة وحيوية ويطلق عليها كلمة خاصة لم تمنعها في أي وقت من الأوقات من التضحية بمصالح أمريكا في سبيل تحقيق ما يعود عليها وعلى أطماعها التوسعية بالنفع . .

هذه حقيقة أدركها العالم كله أخيراً وأرجو أن تكون أمريكا قد أدركتها بالقدر الكافي فأنا أحمل أمريكا مسئولية كبيرة ليس فقط نحو إقرار السلام في المنطقة كدولة عظمى ، بل ونحو نفسها ومصالحها في هذا الجزء الهام من العالم وكل ما نطلبه من أمريكا وهي ترسم سياستها في هذا الصدد شيء واحد وهو أن تفكر تفكيراً أمريكياً خالصاً يتفق مع مصالح شعبها - وأرجو أن لا يغضب مني القارئ الأمريكي لقولي هذا فقد سلمت أمريكا في أوقات متعددة نفسها وسياستها إلى إسرائيل وخاصة في أيام جونسون - عندما قيل لنا وقتها نحن لا نستطيع أن نفعل أي شيء - فتفاهموا أنتم مع إسرائيل إذا شئتم . . وبمعرفتنا بخط إسرائيل وعجرفتها كان هذا بمثابة تنازل أمريكا عن كيانها كدولة عظمى مسئولة عن السلام . .

أرجو أن لا يتكرر هذا فأنا متفائل جداً بعد مقابلي مع كارتر ووافق أنه سينهض بمسئوليته كرئيس لأعظم دولة في العالم . . وأعتقد أنه سيستمر في عملية السلام التي بدأها سوياً والتي أرجو أن تتم إن شاء الله في جينيف برغم الحملات الإسرائيلية التي سيتعرض لها الرأي العام الأمريكي والكونجرس لمحاولة فرض شروط إسرائيل على العرب وهو ما لن نقبله . . فقد رفضناه ونحن مهزومون فكيف نقبله بعد انتصار أكتوبر وإثبات ذاتنا ؟

بقي شيء واحد أريد أن أقوله للشعب الأمريكي الصديق : نحن مستعدون للسلام نريده ونرحب به وقد مددت يدي في مبادراتي منذ سنة ١٩٧١ إلى الآن . . كم أتمنى أن تفعل إسرائيل نفس الشيء .

قد أصبح أمراً واضحاً كل الوضوح للعالم بأجمعه بزيارتي التاريخية للقدس في نوفمبر سنة ١٩٧٧ .

كيف تمت هذه الزيارة ؟

قبل المبادرة بشهرين تقريباً فوجئت برسالة من السفارة المصرية في واشنطن تقول إنها تسلمت خطاباً خاصاً للرئيس السادات من الرئيس كارتر وأنه مكتوب بخط اليد ومختوم بالشمع الأحمر . فقلت لهم أرسلوه . ولكن السفارة لم ترسله في الحقيبة الدبلوماسية بل أصرت على إرساله مع مندوب خاص (كان بالصدفة ابن المرحوم المشير أحمد إسماعيل على الذي يعمل بالسفارة هناك) . قرأت هذا الخطاب الذي لا يعلم أحد عنه شيئاً ، ويخيل إلى أن أحداً لن يعلم عنه شيئاً في المستقبل أيضاً – ثم كتبت الرد عليه بنفس الطريقة . أى بخط اليد ووضعت عليه الشمع الأحمر وسلمته لنفس المبعوث الذي سافر به وسلمه للرئيس كارتر شخصياً .

ربما تبادر إلى ذهن البعض أن هذا الخطاب تضمن طلباً من الرئيس كارتر لي بالقيام بهذه المبادرة . ولكن هذا غير صحيح . إذ أننى منذ أن زرتة في إبريل ١٩٧٧ وأنا أتبادل معه الرسائل عن طريق سفارتينا وأتبادل معه تقييم الموقف من وقت لآخر والإتفاق على الخطوات المقبلة . وأعتقد أنه يفعل ذلك أيضاً مع بقية الأطراف وخاصة مع إسرائيل (وقد علمت أثناء وجودى في القدس أن ثمة « خطأ أحمر » بين الرئيس الأمريكى ورئيس إسرائيل) .

ولكن – رغم أن هذا الخطاب كان خطاباً شخصياً لا يمكننى أن أفصح عن

محتوياته فقد كان يتضمن آخر تقييم للموقف ويمثل في الحقيقة بدء التفكير في المبادرة التي حدثت بعد ذلك بشهرين .

كما قلت لم يطلب كارتر منى هذه المبادرة فهو لا يستطيع ذلك لأنه يعلم أن بيننا وبين إسرائيل حاجزاً نفسياً رهيباً . ولا بد أنه قد تبين ذلك بنفسه عندما قابلته في واشنطن أثناء زيارتي للولايات المتحدة في إبريل ١٩٧٧ وأعتقد أنه عرف أن ذلك الحاجز يمنعه من طلب هذه المبادرة .

وللتاريخ والحق فإن كارتر رجل صادق مع نفسه وصادق مع الآخرين دون شك .. وهذا ما يجعلني لا أجد صعوبة في التعامل معه . فأنا أتعامل مع إنسان يفهم ما أريده .. مع رجل لديه إيمان ولديه قيم - وإلى جانب هذا فهو فلاح مثلي . كانت رسالته تشتمل - كما قلت - على استعراض للموقف وكان ردى عليها بنفس الروح التي تسود تعاملنا . ومع ذلك فقد فتحت رسالته لي طريقاً جديداً كل الجدة . لماذا ؟

بعد أن أرسلت ردى أخذت أتأمل الموقف فتبين لي أننا داخلون على حلقة مفرغة رهيبة - تماماً كالتى عشناها طوال الثلاثين عاماً الماضية . إذ أنه بسبب الجدار أو الحاجز النفسى الرهيب الذى أشرت إليه - أخذت إسرائيل في هذه المرحلة التمهيدية لعملية السلام تعترض على شكليات وإجراءات - من أبسط الأشياء كفاصلة أو نقطة في النص إلى كلمة مضافة أو كلمة محذوفة وكان يهتمها جداً أن يقال إن ورقة العمل التي ستكون أساساً لإجتماع جنيف ورقة أمريكية إسرائيلية . .

وأخذنا نحن العرب أيضاً بسبب ذلك الحاجز الرهيب نعترض بصورة تلقائية على هذه الشكليات فنقول إننا لا يمكن أن نقبل ورقة عمل أمريكية إسرائيلية بل إننى إذا قبلت من ناحيتى ورقة عمل عربية أمريكية فإن إخوانى العرب سوف يرفضون كلمة أمريكية (مع علمهم أنه لا يمكن تحقيق حل بدون أمريكا) وبذلك دخلنا الحلقة المفرغة للإجراءات الشكلية وابتعدنا عن جوهر القضية .

والحاجز النفسى الذى أعنيه هنا هو ذلك الجدار الضخم من الشك والخوف والكراهية بل وسوء الفهم إذ أن كلا من الطرفين غير مستعد لتصديق الآخر وغير مهياً نفسياً لتقبل ما يصله منه عن طريق أمريكا (بل ويشك فيه عشرات المرات لو وصله عن طريق آخر) .

ولذلك أشبه هذا الجدار الرهيب بالحاجز المرجانى الضخم عند أستراليا والذى يمكن أن يشطر أى سفينة تقترب منه شطرين .

وإذا كان عمق ذلك الحاجز ثلاثين عاماً - أى منذ قيام إسرائيل - فإن له جذوراً أعمق من هذا التاريخ - أى أنه إذا كان يجب أن يدعى أن للمسألة بعداً دينياً بالنسبة لهم فإن لها بعداً دينياً أيضاً بالنسبة لنا . . وهكذا . بدأت أتأمل الموقف من زاوية جديدة وعكفت على دراسته دراسة ذات عمق جديد .

وهنا وجدت ما تعلمته فى الزلزلة ٥٤ فى سجن مصر يمدنى بقوة جديدة و طاقة جبارة على التغيير . إننى أواجه واقعاً بالغ التعقيد يحتاج إلى طاقات نفسية أولاً وفكرية ثانياً لتغييره ولقد تعلمت أثناء تأملى للإنسان والحياة فى ذلك المكان المنعزل أن من لا يستطيع أن يغير أفكاره أولاً لن يستطيع أن يحدث أى تغيير فى عالم الواقع ومن ثم لن يستطيع تحقيق أى تقدم . التقدم مستحيل دون التغيير . وليست هذه مجرد فكرة اهتديت إليها بل أسلوب عمل وديدن حياة منذ أن اكتشفت ذاتى فى الزلزلة ٥٤ .

ماذا يمكننى إذن أن أغیره ؟ لقد درجنا على اعتبار إسرائيل موضوعاً مشحوناً بحساسية وخطورة إلى الدرجة التى تحرم الاقتراب منه . بل لقد استمر هذا الموقف سنين طويلة حتى بلغت التراكمات حداً يصعب معه التغيير إن لم يكن يستعصى فعلاً - تماماً مثلما حدث بالنسبة للنظرة الإسرائيلية للعرب . وهنا وجدت أن السبيل الوحيد إلى التغيير لابد أن يتناول صلب هذه النظرة وجوهرها . فإذا كان لنا أن نناقش جوهر القضية وأساسها بغية تحقيق السلام الدائم فلا بد لنا من أسلوب جديد تماماً - أسلوب يتخطى مرحلة الشكليات والإجراءات ويكسر حاجز عدم الثقة المتبادلة حتى لا نعود للدائرة المغلقة والطريق المسدود .

هذا من ناحية . نظرت من ناحية أخرى إلى موقف أمريكا . ماذا تستطيع الولايات المتحدة أن تفعل ؟ كان لابد من بحث هذا الموضوع على أساس حقائق الحياة وأولها أن قدرة الرئيس كارتر على الحركة مرهونة بالوضع العالمي الراهن . وثانيها أن قدرة أمريكا على المساعدة لا يمكن أن تتخطى طبيعة علاقتها الخاصة بإسرائيل . إذ أنه من غير المعقول أن أكلف الرئيس كارتر بما لا يستطيع أو أطلب منه إيقاف هذه العلاقة الخاصة أو أن يقف إلى جوارى ضد إسرائيل . أعلم أن هذا غير ممكن وتأكدت منه أثناء مباحثاتي في واشنطن في إبريل ١٩٧٧ .

إزاء هاتين الحقيقتين ومن منطلق النظرة العلمية الواقعية وجدت أن كل ما أستطيع أن أطلب به الرئيس كارتر هو انتهاج خط سياسى أمريكى أى موقف يتسق أولاً مع مصالح أمريكا ويتسق ثانياً مع مسئولية الولايات المتحدة كقوة عظمى مسئولة عن السلام فى العالم . ومعنى هذا وضع حد لسياسة « الكارت بلانش » التى أعطاها إدارة جونسون لإسرائيل - أى أن تعطىها التأييد الكامل غير المشروط مهما فعلت .

وربما كان أهم من هذا كله تلك الحقائق الجديدة التى أتت بها حرب أكتوبر إلى العالم وأولها أن العرب ليسوا جثة هامدة بل قوة قادرة على القتال وهزيمة إسرائيل فعلاً (ولعل النداء - نداء «أنقذوا إسرائيل» الذى صدر فى اليوم الرابع للقتال أكبر برهان على هذا) وثانيها أن العرب قد استخدموا سلاح البترول - عصب المدينة فى الغرب - لأول مرة وبكفاءة عالية .

(وهنا لابد أن أذكر الشعب الأمريكى أنه بمجرد أن شعرنا أن حظر البترول قد بدأ يضر بالمواطن الأمريكى رفعناه فوراً لأن الهدف لم يكن عقاب المواطن الأمريكى أو الغربى بل التنبيه بأن الانحياز الأعمى لإسرائيل له ثمن . . فللغرب مصالح مثلما لنا مصالح ولنا قضية وينبغى أن يعود الغرب إلى رشده ويتبين أين مصالحه ومصلحنا) .

وهكذا - بالنسبة للمبادرة - كانت هذه الحقائق مجتمعة تشكل البويرة التي تجمعت عندها خيوط تفكيرى بعد أن تلقيت رسالة كارتر .

وفي نفس الوقت استقبلت مبعوثاً من الرئيس حافظ الأسد فوجدته ما يزال يردد نفس العبارات التي سادت العالم العربى سنين طويلة والتي تفصح عن العقد التي تحكم موقف الجانبيين . قال إن إسرائيل لا تريد التوصل إلى حل وإنما تلعب على الوقت (وهذا صحيح) وقال إن الولايات المتحدة لا تريد حل المشكلة وحتى لو أرادت فإنها لن تستطيع . وهنا أبدت اختلافى مع هذا رأى وقلت للمندوب السورى إن الرئيس كارتر يريد الحل ويستطيع تحقيقه واستشهدت على ذلك بواقعة فض الاشتباك الثانى عندما كان رئيس الولايات المتحدة معيناً وغير منتخب وكانت أمريكا ما تزال تعاني من فضيحة ووترجيت . وقد بدأت أيضاً تدخل دوامة الانتخابات القادمة - أى أن الإدارة الأمريكية كانت فى أضعف حالاتها ومع ذلك استطاعت أن تحقق فض الاشتباك الثانى لأن الرئيس فورد كان لديه العزم والتصميم . فإذا كان هذا هو الموقف بالنسبة للرئيس فورد فما بالك بالرئيس كارتر ؟

استمر تفكيرى فى الموقف وبدأت الأفكار تأخذ صورة أكثر تجسيدا ووضوحاً . فإلى جانب الموقف النفسى الذى تبلور فى أعماق ذاتى داخل الزنزارة ٥٤ وإيمانى بأنه لا يمكن إحداث التغيير فى عالم الواقع إلا إذا استطاع الإنسان إحداث تغيير فى عالم أفكاره وجدت أن مسئوليتى تجاه شعبى - تلك المسئولية أو الأمانة التي أحملها بالنسبة لجيلنا وبالنسبة للأجيال المقبلة تفرض على أن أقوم بما ينبغى أن أقوم به دون اعتبار لكرسى الحكم .

لا بد أن أودى واجبى كما ينبغى وإذا كان فى إمكانى أن أجنب أجيالنا المقبلة الصورة التي ورثناها - إذا كنت أستطيع ذلك ثم تقاعست عنه فسأكون قد أخطأت أمام نفسى وأمام الله الذى سوف يحاسبنى على كل ما أفعل . .

انتهت هذا المرحلة من تفكيرى قبل أن أقوم بالمبادرة بشهرين - بعد أن تسلمت رسالة كارتر وقبل أن أقوم بزيارتى إلى كل من رومانيا وإيران والسعودية .

وعندما وصلت إلى رومانيا تحدثت مع شاوسيسكو طويلاً فأخبرنى عن اجتماع كان قد عقده مع مناحم بيجين رئيس وزراء إسرائيل واستمر ثماني ساعات (ساعتين ضمن الوفود الرسمية وست ساعات بينهما على انفراد) . سألت شاوسيسكو عن انطباعاته فقال لى : -

- إن بيجين يريد التوصل إلى حل .
قلت له :

- كل ما يشغلنى فى هذا الموضوع هو هل إسرائيل تريد السلام حقاً أم لا ؟ .. أنا عن نفسى أريد السلام وقد أثبت هذا بما لا يدع مجالاً للشك عند أحد . لكن هل إسرائيل اليوم - وخاصة بيجين زعيم كتلة ليكود المتعصبة - تريد السلام ؟ هل بيجين الذى يسلك هذا النهج المتطرف رجل يريد السلام ؟
فقال لى :

- دعنى أقرر لك إنه بالقطع يريد السلام ..

كان شاوسيسكو بالغ الثقة وأنا أثق فى حكمه . وإلى جانب هذا فهو على صلة طيبة بالإسرائيليين لم تنقطع يوماً ما . ولذلك فحينما أكد لى أن بيجين

يريد السلام وأنه « رجل قوى » كان ذلك بمثابة التأكيد على ما شعرت به أولاً من الحاجة الملحة إلى التغيير . . . والتغيير من الجانبين . ولذلك عندما ركبت الطائرة في طريقى إلى إيران - وبالذات عندما مرت الطائرة فوق تركيا - وجدت ملامح المبادرة تبرز بوضوح أمامى . . . كان معى فى الطائرة وزير الخارجية فقط الذى لم تستطع أعصابه تحمل المبادرة واستقال . . . مسكين . . . قلت له إننى أتصور دعوة الخمسة الكبار كارتر وبريجنيف وديستان وكالاهان وهوا كوفينج إلى اجتماع فى القدس . . فى الكنيسة . . لماذا؟

أنا من المؤمنين بأنه لا ينبغي أن نضغط مرحلتين فى مرحلة واحدة وبأنه إذا كان لمؤتمر جنيف أن ينجح فلا بد من التحضير له تحضيراً كاملاً . . . وقد حاولنا التحضير له من قبل عن طريق لجنة العمل التى اقترحتها والتى تقدم بها فانس وزير الخارجية الأمريكية ولم تلق أى استجابة نتيجة لنفس الموقف الذى ساد بين العرب والإسرائيليين - نفس الشكوك ونفس الحذر . . . ونفس الدائرة المفرغة . . . لابد إذن من تحضير يتخذ صورة أخرى . وقد تصورت أنه من الأفضل أن أدعو الخمسة الكبار - أصحاب الفيتو فى مجلس الأمن - إلى اجتماع فى القدس وأن أدعو معهم الأطراف المعنية فى العالم العربى ، أى دول المواجهة - سوريا والأردن ولبنان والفلسطينيين ومصر - بحيث يعلم بيجين أننا قد عقدنا العزم على التحضير بصورة جادة لمؤتمر جنيف وأنها بصدد إعداد ورقة عمل تتحدد فيها الموضوعات الرئيسية (Headlines) حتى نبدأ مؤتمر جنيف بنجاح تام .

أما بالنسبة للتوقيت فقد فكرت أن تكون الزيارة مناسبة لى كى أصلى العيد مثلاً (أو الجمعة) فى المسجد الأقصى ثم أزور كنيسة القيامة وهما يمثلان لنا مسلمين ومسيحيين قيمة هامة بل وأساسية . . . فنقوم معاً بزيارة لهذه الأماكن المقدسة - أصدقائى كارتر وديستان وكالاهان وكذلك هواكوفينج الذى قال ماوتسى تونج عنه لحسنى مبارك إنه رجل ممتاز وقال له وهو على فراش موته : الراحل ده كويس جداً وأنا بازكيه لكم وللدنيا كلها . (وكانت

هذه آخر وصية له) - أما بريجنيف فلم أكن واثقاً أنه سيقبل رغم أنني أقول وأسجل هنا أنه الوحيد الذى يتمتع بعقلية سياسية فى القيادة السوفيتية ولذلك لم أختلف معه مطلقاً . وإنما كان الخلاف دائماً مع زملائه الآخرين والموظفين .

كانت هذه هى الصورة الأولى لمبادرتى - كنت واثقاً من ترحيب أصدقائى كارتر وديستان وكالاهان وهواكوفينسج وكان تصورى أن بريجنيف لن يجد مفراً من القبول لإزاء ترحيب هؤلاء . ومن ثم يمكننا أن نعقد اجتماعاً نحن الأطراف المعنية فى الشرق الأوسط للتحضير لمؤتمر جنيف حتى نجعل إسرائيل تعلم - فى القدس نفسها - أنه لا فكاك لها من العنصرين الأساسيين فى التسوية وهما الانسحاب من الأرض العربية المحتلة بعد عام ١٩٦٧ وقيام دولة فلسطين كحل للمشكلة الفلسطينية التى هى لب القضية .

اكتملت صورة هذه المبادرة فى ذهنى ومضيت فى رحلتى فزرت إيران والسعودية ولكننى لم أخبر أحداً بها . وذلك حتى لا أورط أحداً من أصدقائى فيها . لقد أردت أن أتحمل مسئوليتها بالكامل . وعندما عدت إلى القاهرة بدأت أحس أن صلاة العيد أفعل فى النفس من صلاة الجمعة وربما كان العيد مناسبة رائعة للقاء أهلنا فى الأرض المحتلة . .

كانت المشكلة أن الوقت ضيق إذ كان بيننا وبين العيد أيام معدودة ولم يكن من الممكن ترتيب زيارة الخمسة الكبار ومعرفة مدى ملائمة مواعيدهم فى نطاق هذا الوقت الضيق .

وهكذا تغيرت صورة المبادرة فى ذهنى وبدأت تأخذ شكل الزيارة التى أقوم بها شخصياً لأصلى العيد فى المسجد الأقصى تحقيقاً لما قلته من أنني مستعد أن أذهب إلى آخر العالم لتحقيق السلام . لقد قلت إننى مستعد أن أذهب إلى آخر العالم فى سبيل السلام فكيف أستثنى إسرائيل ؟ أنا أعنى ما أقول دائماً وأتحمّل مسؤولية الكلمة . . ومن ثم فقد قررت أن أذهب إلى الكنيست ممثل الشعب هناك لأضع

أمامهم حقائق الموقف كاملة وأضع على عاتقهم مسئولية الاختيار والعمل إذا كانوا يريدون حقاً العيش في سلام في هذه المنطقة .

قبلت هذه الصورة المعدلة للمبادرة وتبلسورت تماماً في ذهني وقررت أن أعلنها في خطبة افتتاح الدورة الجديدة لمجلس الشعب . وفعلاً أعلنت أنني مستعد للذهاب إلى آخر العالم بما في ذلك إسرائيل إذا كان من شأن ذلك أن يجنبنا جرح (ناهيك عن قتل) جندي أو ضابط واحد . .

أعلنت أنني أعني ما أقوله تماماً وأني على استعداد للذهاب إلى الكنيست إذا كان هذا سيحقق أهدافنا أمام الجميع وكان جميع الوزراء حاضرين ومعهم ياسر عرفات . كان رد الفعل المباشر مضحكاً إذ تصور البعض أنها زلة لسان ولم يعلموا أن وراءها تفكيراً طويلاً عميقاً . . فما زال البعض يتصور كما هي العادة أن يقول السياسي كلاماً لا يعنيه . . وهذا لا يمكن أن أفعله .

وقد حدث قبل أن أتجه إلى مجلس الشعب لإلقاء خطابي أن اتصل بي الرئيس حافظ الأسد ليدكرني بالوعد الذي كنت قد أعطيته إياه بأن أزوره في الصيف ونجتمع في اللاذقية . وهنا قلت له إنني سأتى على الفور . . وفعلاً . . سافرت إلى سوريا واجتمعت مع الرئيس الأسد الذي سألني : -

- هل تعني ما قلته في خطابك بالنسبة لزيارة القدس ؟

فأجبت :

- نعم . . أنا لا أقول شيئاً لا أعنيه . .

فتساءل :

- ولكن كيف يتم ذلك ؟

واستمرت مناقشاتنا أربع ساعات كاملة قلت له بعدها : -

— اسمع يا حافظ . . لو ثبت أن هذه آخر مهمة أقوم بها كرئيس جمهورية فسوف أقوم بها وأعود لأقدم استقالتي إلى مجلس الشعب في مصر كما ينص الدستور . أما أنا فمقتنع مائة في المائة بإتمام هذه المبادرة .

انفصلنا بعد هذه المناقشة الطويلة التي لم يقنعني فيها ولم أقنعه كما أعلنت ذلك في مؤتمر صحفي لم يحضره الرئيس الأسد ثم عدت مباشرة إلى الإسماعيلية حيث جاءني السفير الأمريكي حاملاً الدعوة الرسمية لي من بيجين . كان ذلك يوم الخميس فقبلتها على الفور وحددت يوم السبت موعداً لسفري وقمت بإعداد الخطاب الذي سألقيه .

وهنا أحب أن يعرف الناس أن وزير خارجيتي خاف من هذه المبادرة . فعندما كنا نستعد للسفر إلى سوريا اعتذر كتابياً عن مصاحبتني بسبب المرض فقلت لا بأس . . يمكنه أن يصاحبني إلى إسرائيل .

ولكن نائب رئيس الجمهورية شرح لي الأمر بعد ذلك وهو أن الوزير معترض على المبادرة كلها من أساسها . وإزاء هذا قلت له إنني لا أكلف أحداً بأن يفعل شيئاً غير مقتنع به . ثم قبلت استقالته . .

وصلت إسرائيل في أقل من أربعين دقيقة استغرقتها رحلة الطائرة من مطار أبو صوير في القناة إلى مطار اللد . لا أحد يصدق والذهول يسود . بمجرد أن خطوت خارج الطائرة وجدتني وجهاً لوجه أمام جولدا مائير التي كانت في أمريكا ثم قطعت رحلتها وعادت . بادلتها السلام . ثم رأيت ديان . ديان أنا أعرفه لأنه كان خصمي في معركة ١٩٧٣ . ثم قابلت أبا إيبان وبعده إريك شارون الجنرال الذي كان لدينا في الثغرة - قلت له إذا أتيت مرة أخرى إلى الضفة الغربية للقناة فسيكون السجن في انتظارك ! فقال : أبداً . . أنا حالياً وزير الزراعة ! . .

ثم رأيت بعد ذلك موردخاي جور رئيس الأركان الحالي الذي كان قد حذرهم قبل زيارتي بأني أقوم بخدعة وأن الهدف من الزيارة هو تغطية هجوم وشيك . ولذلك حينما رأيته قلت له إنني لا أمارس الخداع الأخلاقي مطلقاً . . الخداع الاستراتيجي والخداع التكتيكي مقبول ولكنني لا يمكن أن أقبل الخداع الأخلاقي . .

بعد ذلك ركبت السيارة مع رئيس إسرائيل كاتزير وهو أستاذ جامعي ممتاز . وصلت إلى القدس الإسرائيلية ونزلت في فندق الملك داود .

في الصباح خرجت لصلاة العيد . دخلت القدس العربية لثاني مرة بعد ٢٢ سنة كاملة (كانت المرة الأولى عندما كنت وزير دولة وسكرتيراً عاماً للمؤتمر الإسلامي) . وتبين لي على الفور أن المسجد الأقصى قد ساءت حاله إذ ما تزال آثار الحريق

الذى اجتاحه عام ١٩٦٩ قائمة . . وجدت أن منبر صلاح الدين قد احترق تماماً وأن عملية إصلاحه تسير بصورة بالغة البطء ولهذا أمرت أن يتم بناء المنبر من جديد على أيدي المصريين الذين بنوا منبر صلاح الدين وبعدها عدت إلى الفندق .

بعد الظهر اتجهت إلى الكنيسة وألقيت خطابي ثم قام بيجين بإلقاء خطاب مضاد وتلاه زعيم المعارضه بيريز وانتهت جلسة الكنيسة . رغم التعب والإرهاق الذى كابדתه ذلك اليوم فقد أحسست بسعادة غامرة لأن ابنتي كما علمت كانت قد رزقت بمولود (بنت) فى الثامنة صباحاً وأنا أصلى فى المسجد الأقصى .

لم يكن سبب الارهاق هو المشاغل الكثيرة أو المقابلات ولو أن هذا أمر مسلم به - ولكن كان السبب الحقيقى هو التركيز الذهني العميق إلى أبعد الحدود والذى يجعل الإنسان يحس بالتعب . كان ذهني بالغ التركيز لسبب بسيط وهو أنني كنت أعتبر هذا المهمة مهمة مقدسة حقاً وصدقاً . ورغم ثقتي من تأييد شعبي لى فقد كنت مستعداً إذا أبدى أى رفض من جانبه أن أتوجه إلى مجلس الشعب عندنا وأقدم استقالتي .

ولكن ثقتي لم تخب . فقد خرج خمسة ملايين مواطن من بين الملايين الثمانية الذين يعيشون فى القاهرة لاستقبالى عند العودة . كانت مظاهرة تأييد لم يسبق لها مثيل . كان الجميع فى قلق على و كانوا يرون أنها مجازفة منى أكثر منها شجاعة . ولهذا كان الجميع يلهجون بالحمد والشكر لله وهم لا يكادون يصدقون ولا يعرفون كيف يعبرون عن فرحتهم الغامرة . كان إحساسى بهذا هو قمة السعادة وبأننى قد كلفت تكليفاً لا فكاك منه بأن أكمل هذا العمل الذى بدأته . . كان تكليفاً بأن أخدم شعبي وأهلى حتى نحقق سوياً الهدف من المبادرة .

ولابد أن أسجل هنا قبل أن أنتقل إلى النتيجة أن الرئيس جعفر نمبرى زارنى فور عودتى وأبدى تأييده الكامل تماماً مثلما زارنى فى أعقاب ثورة التصحيح يوم الجمعة ١٤ مايو ١٩٧١ . . إنه موقف لا يسغى إلا أن أذكره له ولشعب السودان الشقيق .

ماذا كانت النتيجة ؟ ماذا كانت حساباتي ؟ وهل تحققت ؟

كنت قد قدرت أن تؤدي رحلتى إلى كسر الدائرة المفرغة - الحلقة التى ظللنا ندور فيها سنين وسنين . . وأنا أضع دائماً لكل شيء حساباته الدقيقة (تماماً مثلما فعلت فى حرب أكتوبر ١٩٧٣) وقد صدق ما حسبت له . إذ أنه مثلما استقبلنى شعبى هذا الاستقبال الرائع المذهل كانت استجابة الشعب والناس فى إسرائيل - النساء والأطفال والشيوخ - استجابة مذهلة . حتى القوات الخاصة وقوات المظلات الإسرائيلية التى كلفت بحراستى كانت ترقص فرحاً وتحية لي رغم أننى حاربتهم فى ١٩٧٣ وألحقت بهم خسائر لم يروا لها مثيلاً طوال ٣٠ عاماً . . لماذا ؟

لأنهم يحترمون المقاتل ولأنهم يحترمون أكثر ذلك الإنسان الذى يستطيع بعد النصر أن يقول لهم فلتكن حرب أكتوبر آخر الحروب ولنجلس معاً مثل كل المتحضرين حول المنضدة لنناقش ما تريدونه وهو الأمن بدلاً من اللجوء إلى القوة .

عدت من إسرائيل بعد أن اتفقت هناك على شيتين أساسيين :

أولاً : أن تكون حرب أكتوبر آخر الحروب . .

وثانياً : أن نتناقش حول منضدة المفاوضات فى موضوع الأمن لهم ولنا . .

وهكذا اتجهت إلى مجلس الشعب ورويت له ما حدث وقد وافق بالإجماع

تقريباً (إذ لم يعترض إلا عضوان أو ثلاثة من بين الـ ٣٦٠ عضواً) . . مما زادني سعادة ومن ثم فكرت في أن أعود إلى القناة كي أنال قسطاً من الراحة . ولكنني ما لبثت أن عدلت عن هذا وقررت الدعوة إلى مؤتمر القاهرة حتى لا تضيع قوة الدفع . وفعلاً أرسلت الدعوات إلى جميع الأطراف بغية تمهيد الطريق إلى جنيف . لم نتلق إجابات إلا من أمريكا وسكرتير عام الأمم المتحدة وإسرائيل ولم يرسل باقي الأطراف إجاباتهم ولكنني مصمم على المضي في مبادرة السلام إلى النهاية .

ماذا سيحدث عندما يصدر هذا الكتاب بعد شهر ؟ لا أدري . ولكن الذي أدريه هو أنني أولاً سأظل متمسكاً بمبادرة السلام التي قمت بها . . . وثانياً : هو أنني لن أضيع فرصة على الإطلاق لكي نحل مشكلة السلام في الشرق الأوسط حلاً جذرياً وحضارياً . وهنا أريد أن أردد ما قلته أمام الكنيست الإسرائيلي من أنني لا أبغى اتفاقاً ثنائياً من أجل سيناء (فهذا لا يحل المشكلة) ولكن سلاماً قائماً على العدل وسوف أعمل في الفترة المقبلة - إلى أن يصدر هذا الكتاب وبعده - على إقامة سلام عادل في المنطقة بإعادة الأرض العربية المحتلة عام ١٩٦٧ وحل المشكلة الفلسطينية بإقامة دولة أو - كما قال كارتر معي - وطن قومي فلسطيني .

بطبيعة الحال لا بد من ترك التفاصيل الخاصة بكل دولة عربية أو جانب عربي لهم (سيناء مع مصر والجولان مع سوريا والضفة الغربية مع الفلسطينيين) ولكنني سأستمر في المناقشة إلى النهاية - حتى ولو عارضني العالم كله .

هدفى الأساسى إذن هو إنهاء المشكلة بحل المشكلة الفلسطينية والحلاء عن الأرض المحتلة عام ١٩٦٧ - وسيكون رائدى دائماً أنني أريد السلام القائم على العدل وأنا مستعد لأن أبذل في سبيل ذلك كل شيء مهما طال الزمن . أما إذا كان الأمر أمر فرض إرادة طرف على طرف آخر فلا بد أن أقول إنني مثلما أعلنت عن استعدادى للذهاب إلى آخر العالم في سبيل السلام فأنا أعرب عن عزمى على أن أحارب إلى آخر العالم في سبيل هذا الهدف .

لقد فقدت أخى الأصغر الذى كان بمثابة ابن لى بعد خمس دقائق من بدء

معركة أكتوبر ١٩٧٣ ولقد رأيت المصايين في تلك الحرب - شباناً في عمر الزهور كتب عليهم أن يقضوا بقية عمرهم مقيدين إلى كراسي ذات عجلات . ولقد رأيت حالات مماثلة في إسرائيل وتأملت لها ألى لكل من نالت منه ويلات الحروب . . أيا كان . . ولعل هذه الروح هي التي ساعدتنا على تأكيد الهدافين اللذين تحددا في زيارتي وهما أولاً ألا تقع حروب بعد حرب أكتوبر وثانياً أن نحقق الأمن للطرفين . .

ولابد في النهاية أن أسجل أن الشعب المصري قد استعاد كرامته وثقته بعد معركة أكتوبر سنة ١٩٧٣ مثلما استعادت قواتنا المسلحة كرامتها وثقتها . . لذلك لم تعد تحركنا أى عقد - سواء عقد النقص والإنهزامية أو عقد التشكك والأحقاد . . وهذا هو الذى جعلنا نلتقى - بعد أن انجلى غبار المعركة - سواء في فض الاشتباك الأول أو الثانى أو عندما قابلت جولدا مائير لدى وصولى إلى إسرائيل .

لم يكن بيننا - بعد أن انتهى القتال - إلا الاحترام - وهذا هو ما يفهمه شعبنا المتحضر . . وهذا هو ما جعل خمسة ملايين مواطن يخرجون لتحييتي وجعل القوات المسلحة تحييني كما لم تحي إنساناً من قبل .

إن جذورنا الحضارية قائمة . . عمرها أكثر من سبعة آلاف عام وما تزال حية ونابضة . . لم تهن أو تضعف أبداً . . وإذا اندهش البعض فذلك لأنهم لا يستطيعون فهم هذه الحقيقة وإدراك طبيعة المصرى الأصيل الذى يبنى للحضارة اليوم مثلما بناها على ضفاف النيل منذ آلاف السنين في ظل الحرية والسلام . .

وبعد..

فليست هذه قصة الصراع العربى الإسرائيلى أو قصة تحرير مصر من الاحتلال البريطانى أو قصة منجزات وأخطاء ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ . . ربما كانت ذلك كله وأكثر . . ولكنها فى المقام الأول قصة البحث عن الذات - ذاتى وذات مصر - ذلك الكيان الواحد الذى أشرق فى نفسى منذ الطفولة عندما توحدت ذاتى مع ذات بلادى أرضاً وشعباً .

هل نجح البحث ؟ هل استطعت تحقيق صورة تلك الذات التى وضعتها نصب عيني منذ طفولتى المبكرة ؟ أترك للقارئ الحكم على ذلك - فكل ما أستطيع أن أقوله - وحسب مبلغ علمى - هو هذا :

لم يستهونى يوماً بريق المتع الدنيوية ولم أحاول قط أن أبنى سعادتى على حساب شقاء الآخرين . فأنا أصدر فى كل قرار أتخذه وكل عمل أقوم به عن الإيمان الراسخ بحق الإنسان فى الكرامة والحرية والسلام والمساواة .

لقد وجدت ذاتى فى الصداقة . . وفى الحب . . وفى العمل الذى يرقى بحياة من حولى . . وفى انتصار الحق على الباطل . . باختصار فى كل ما من شأنه تحقيق صورة كيانى الذى هو كيان بلادى .

لم أسع يوماً وراء السلطة إذ اكتشفت فى فجر حياتى أن قوتى تنبع من داخلى - من إيمانى المطلق بالخير والحق والجمال .

وأحمد الله أننى لا أختلف اليوم عما كنت منذ سنوات بعيدة ، عندما كنت أصحو مع شروق الشمس وأخرج إلى الحقول لأعمل مع الآخرين حتى تعود إلى الأرض الحياة . . وتحمل الأشجار اليابسة الثمار مرة أخرى . . .

لم ينته البحث بعد . . وأعتقد أنه لن ينتهى يوماً ما . . إذ أننا فى كل عمل نتخذه لتحقيق ذواتنا نحقق إرادة الله وإرادته عز وجل خالدة .

مازال أمامى وأمام شعبى طريق طويل لا بد أن نقطعه حتى نصنع حياة يسودها الحب والسلام والرخاء والاكتمال .

وفقنا الله وهدى خطانا وخطى الجميع فى كل مكان .

وثائق

للعناية
سرى

الرسالة التى وجهها السيد الرئيس

لبريجنيف فى ٣٠ أغسطس ١٩٧٢

===

الصديق العزيز الرئيس ليونيد بريجنيف

المسكرتير الأول للحزب الشيوعى السوفىيتى

أكتب اليك شخصيا لنفتى فى مشاعرك الصديقة التى لمستها
بنفسى خلال لقاء اتنا المتعددة لعلنا نخرج من الدائرة
المفرغة التى تجتازها العلاقات بين بلدينا والتى أصبحت
تتسم بسوء الفهم الذى أحس أنه سيتفاقم اذا لم تنضج الأمور.

لذلك سيكون رائدى فى هذا الخطاب الصراحة الثامة مهما
كانت حتى نكون على علم بوجهة نظرنا كاملة بعيدا عن أى
تحليلات مشبوهة أو مؤثرات مفتعلة .

١ - ان تجربتكم فى الحرب العالمية الثانية مازالت
مائلة فى أذهاننا ، فلقد رفضت الشعوب السوفيتية
الاحتلال النازى ولم تستطع صبرا على استمراره ، وحاربت
بشجاعة وقدمت كل التضحيات من أجل تحرير الأرض ولسم
تبخل بشيء من أجل الحفاظ على كرامتها ، ومن نسم
فليس غريبا أن يكون الشعب العربى فى مصر همسو
الآخر حريصا على تحرير أرضه مستعدا لتقديم كل

(٢)

التضحيات في هذا السبيل مهما بلغت .

ومن هنا في تقديري يجب أن تكون نقطة البدء

الصحيحة .

٢ - من أجل ذلك فأنتنى أجد أن واجب الحرص على صداقتنا يقتضى أن أبدأ هذه الرسالة من حيث انقطع الحوار بيننا بعد آخر مقابلة في إبريل سنة ١٩٧٢ لكي أدخل الى صلب الموضوع الذى أدى الى هذه الوقفة بيننا لعلنا نستطيع ان نكمل هذا الحوار ونصل الى جوهر المشكلة ، فاذا استطعنا التفهم لوجهة نظر كل مننا أمكن معالجة كل الظواهر الأخرى .

٣ - لعلك توافقنى إيهما الصديق العزيز على أننى كنت حريصا أشد الحرص على استمرار صداقتنا ودعمها فى جميع المجالات ، ومن ثم كانت زيارتى الأربع لموسكو فى مارس وأكتوبر ١٩٧١ ثم فى فبراير وإبريل من العام الحالى ، ولقد كان الموضوع الأساسى فى جميع هذه اللقاءات هو بحث مشكلة العدوان الاسرائيلى والخطوات التى يلزم ان نتبعها لتحرير الأرض .

وهنا أرجو أن تسمح لى أن أذكرك أنتنى كنت حريصا فى جميع اللقاءات التى تمت مع القادة الموفيين

(٣)

برناستكم على تأكيد مبدأ أين رئيسيين:
أولهما ... أننا لا نريد ان يحارب معركتنا أحد غير
جنسودنا .

ثانيهما ... أننا لا نريد ولا نسعى الى ان تكون معركتنا
سببا فى مواجهة بين الاتحاد السوفييتى
والولايات المتحدة لما يحنيه ذلك مسمن
كارثة للعالم كله ، واننى كنت أقول
بالحرف الواحد ان من يسعى الى ذلك
مجنون بلاشك .

٤ - ولقد كان الرأى الذى اتفقنا عليه فى لقاء اتنا وخاصة
فى اللقاء الاخير فى ابريل سنة ١٩٧٢ هو أن اسرائيل
ومن ورائها الولايات المتحدة لن يتحركا لتحقيق
حل للمشكلة سواء كان سلميا او غير سلمى الا اذا احسست
اسرائيل بأن قوتنا العسكرية اصبحت قادرة على أن تتحدى
التفوق الحسكرى الاسرائيلى وعندئذ فقط ستجد اسرائيل
وابضا الولايات المتحدة ان مصلحتها الوصول الى حل
للمشكلة .

وفى مناقشاتنا المتكررة كنت أذكر ان يكون لدينا
سلاح للردع ، يجعل العدو يتردد فى ضرب عمق اراضينا
كما فعل فى الماضى عندما يعلم أننا سنكون قادرين

(٤)

على الوصول الى عمق اراضيه .

وكان واضحا ولايزال اننا بدون توفر سـلاح الردع فلن نكون قادرين على التحرك عسكريا وبالتالي فالحاجة تدعو اسرائيل الى ان تغير من موقفها المتحنت بالنسبة للوصول الى أية تسوية للمشكلة .

• - من هنا كانت رسالتي لك مع المارشال جريتشكو الذى زارنا فى مايو سنة ١٩٧٢ قبل اجتماع موسكو بأبىام ، وقد عدلت من جانبى على أن تنجح زيارته على أروع صورة ، ووافقت على اصدار البيان الذى أتى به من موسكو ، وكان هذا البيان ينص على ان الطيارين المصريين قد استخدموا الطائرات الاسرع من الصوت ثلاث مرات (ميج ٢٣) وان قاذفات مقاتلة جديدة قد استخدمت فى مصر .

وكان هذا كله غير صحيح ..

ولكننى وافقت على اصدار ماصدر لكى تنجس الزيارة كما قلت ، ولاننى كنت أعرف أهداف الزيارة السياسية خاعة قبل اجتماع موسكو بأبىام ، وأردت كصديق أن يكون حديثكم فى موسكو من موقع القوة .

(٥)

ولكننى فى نفس الوقت حملت المارشال جريتشكو رسالة محددة لك عما يجب ان يكون عليه تصرفنا بعد اجتماع موسكو ، لان التكهن بنتائج اجتماع موسكو بالنسبة لمشكلتنا لم يكن لغزا ولا معضلة ، وحددت ٣١ أكتوبر ١٩٧٢ نهاية لما يجب ان ننجزه فى هذه الفترة ، وهى فترة تكفى بالكاد لى نكمل استعدادنا لجولة مابعد الانتخابات الامريكية ، وكما أبلغت المارشال جريتشكو فأنا فى حاجة الى كل ساعة وكل دقيقة الى ذلك التاريخ حتى ننجز ما هو ضرورى لدخول الجولة الجديدة من أرض صلبة .

٦ - حين أبلغنى سفيركم برسالتكم عن نتيجة اجتماع موسكو يوم ٦ يونيو ، أى بعد الاجتماع بحوالى العشرة أيام ، لم يكن هذا جديدا ولا مستغربا لنا ، وأرسلت لسكرتيرى فى نفس اليوم رسالة محددة فى نقاط سبع أكدت فيها رسالتى لك مع المارشال جريتشكو وبالتحديد وألححت أن لانضيع الوقت الى ٣١ أكتوبر فكل دقيقة لها ثمن .

وفى هذه الرسالة تجدون أننى طلبت رسميا حل مشكلة القيادة والسيطرة فورا ، فلا يعقل ان تكون هناك وحدات سوفيتية فى مصر ولا تخضع للقيادة المصرية .

(٦)

٧ - بعد شهر كامل وبعد الحاج منا مرة عن طريق رئيس الوزراء ومرة عن طريق وزير الخارجية ، جـاءت رسالتك لى التى تسلمتها فى ٨ يوليو ، علما بأننى كما أخطرتك من قبل كنت أحسب اليوم والساعة والدقيقة .

وكانت رسالة مخيبة للآمال لأنها تجاهلت بالكامل كل ما سبق أن أرسلته لك سواء مع المارشال جريتشسكو أو فى ٦ يونيو ، ولكنها أكدت لى حقيقة هى أن هذا الأسلوب فى التعامل والتجاهل لأوضاعنا وممركتنا ينبع من عقلية عانىنا منها طوال السنوات الخمس بعد العدوان ، وحاولت أنا مرارا طوال سنة ونصف أن أنبئه اليها ولكن بدون فائدة .

ومن أجل هذا رفضت هذه الرسالة ورفضت أيضا الأسلوب ، وكان لابد لنا من وقفة كأعداء نحدد فيها مواقفنا بصراحة .

وأود أيضا التذكير أن الشخص الذى انتلباعانى فسسى تلك الفترة ، لأن من حثك كصديق ان تعرف مبررات قراراتى .

الآزمة متجذدة ولا توجد طرق متساحة للتحرك .

(٧)

الادعاء الأمريكى بتصاعد حتى بعد اجتماع موسكو
بقدره الولايات المتحدة وحدها ووحدها فقط على الحل...
اسرائيل تزداد عريضة فى المنطقة العربية
بلا رادع ..

البيان الصادر عن مؤتمر موسكو يقول بالاسترخاء
العسكرى فى المنطقة بعد حل المشكلة ..

رسالتكم فى ٨ يوليو تتجاهل بالكامل ما اتفقنا
عليه وما يتحتم علينا ان نتخذه من اجراءات تؤمن
أنها ضرورية لتمكننا من التحرك عسكريا اذا لزم
الامر بعد الانتخابات الأمريكية ..

امريكا تعطى اسرائيل بلا حساب ، وتجدد لديها
سلاح الطيران بالكامل بخلاف الاسلحة المتطورة الاخرى.

موقفكم بعد الرسالة يوضح ان الحظر الجزئى الذى
فرضتموه علينا بالنسبة لاسلحة الردع منذ خمس سنوات
امتد فى هذه الفترة الحرجة الى ضرورات اساسية
كتبت لك عنها فى رسالتى بالتحديد وتجاهلتموه
بالكامل .

من كل هذه الاعتبارات كان قرارى بانهاء مهمتى

(٨)

المستشارين كوقفة ننهي بها مرحلة لابد ان تنتهي لكي
نبدأ مرحلة جديدة بفهم جديد وتقدير جديد وتحديس
لمواقفنا .

٨ - دعني أيتها الصديق ان أضرب لك امثلة مما يدور داخل
قوات المسلحة وبالتالي بين الشعب ، فليست
القوات المسلحة الا أبناء منه ، وكان يجب على
المستشارين ان يبلغوكم بها قبل ان يتفاقم الامر .

أ - في البحرية مثلا :

ظل قائد البحرية طوال أربع سنوات يطالب بجهاز
جديد لكشف الغواصات لان الجهاز السوفييتي الذي
لدينا مداه نصف كيلو متر فقط ، وكان السرد
ولا يزال الى يومنا هذا انه لا يوجد غير هذا
في الاتحاد السوفييتي في الوقت الذي يعرف
فيه كل ضباط البحرية عندنا ان سفنكم مزودة
بجهاز يكشف الغواصات الى الافق (Horizon ..)
وهو مالمدي الغرب أيضا ، وليس هذا سرا فنحن
لسنا دولة متخلفة ، وانما نحن نقرأ ما عند
الشرق والغرب ، ونتابع العالم كله ، والادى من
ذلك ان سفن اسطولكم تعيش بيننا .

(٩)

فى اسواق الغرب معروض جهاز الكشف الى الافق ،
وليس سرا ، ومعرض لها . أجهزة لمسافات على الاقل
عشرين مرة اكثر مما عندنا وليس سرا أيضا .

فما ذا يكون تعليق ضباط البحرية ؟...

ب - فى الطيران مثلا :

كل ضباط الطيران - وهم خريجو كلياتكم - يعلمون
ان لديكم طائرات متفوقة مثل (M 500) التى
كانت عندنا ، ولكن كل شئ عندكم سر ولا يقترب
منه أحد .

طائرات الصواريخ عندنا سرعتها وهى تحمل الصواريخ
نصف سرعة طائرة الركاب اليوشن ٦٢ التجارية
والهوينج ، والصاروخ ينطلق منها بسرعة أقل
من سرعة الصوت ويظل معرضا أكثر من ٦ دقائق
للاسلحة المضادة ، فى الوقت الذى تحمل فيه
الفاستوم ذات المرتين وربع سرعة الصواريخ
الصاروخ الأمريكى شرايك وينطلق بأسرع من الصوت
طبعاً ، وقد نبهتكم فى حينه عن طريق مشيركم وقبل
ان يخلق علينا عشرة صواريخ منه ..

...ماذا يكون تعليق ضباط الطيران ؟

(١١)

وفى المشاء يعرف كل ضابط وجندى ان اسلحة
 فتح الثغرات تساوى حياته عند بدء العمليات،
 ومع ذلك فما لدينا منها هو اسلحة الحرب
 الثانية وكل ضباطنا وهم متعلمون فى فرونيسز
 يعرفون ان لديهم ولدى الغرب - وليس سسرا -
 صواريخ تفتح الثغرات ، وألحنا سنتين فى طلبها
 الى اليوم ، والرد كما هو ، لا يوجد فى الاتحاد
 السوفييتى .

هذه عينات بسيطة من مئات الامثلة ، أستطيع أن
 اسوقها لك، يعرفها كل ضابط وجندى فى فروع
 القوات المسلحة وانتقلت الى الشعب .

فهل هذا هو اسلوب تعاون الصديق ؟ .

ان جهازنا الدفاعى ينقصه الكثير من التفاصيل
 برغم أننا نقول للناس وللعالم يعكس ذلك ،
 وهذا هو ما أريد ان نقف عنده ، لكى نناقش العقلية
 التى وراء كل هذا .

انكم تعاملوننا وكأننا دولة متخلفة لانعرف شيئا
 فى الوقت الذى تلقى فيه ضباطنا العلم فى
 مدارسكم كضباطكم تماما ، علاوة على أننا نتابع

(١٢)

العالم شرقه وغربه فى كل شيء وهو ليس سرا لان التمليح
مكتوب فى كتب متداولة فى العالم كله ، وعند ممسكها
يسأل المستشارون السوفييت كانوا يجيبرن اما بالصمت
او بأنه ليس لدى الاتحاد السوفييتى .

ونحن فعلم وغيرنا يعلم ان لدى الاتحاد السوفييتى
كل شيء ...

٩ - وأصارك ايها الصديق اننى استشعر الان خطورة
شديدة على مستقبل علاقاتنا .. اخطر ما فيها انها
ستترك لدى شعبنا مرارة من الاتحاد السوفييتى .

فلكم الحق كل الحق بعد صدور قراراتى بـأن
تتخذوا الموقف الذى ترويه مناسبا لمصالحكم ،
ولكننى لا أعتقد ابدا ان من مصلحتكم ان تتركوا لىدى
شعبنا مرارة من الاتحاد السوفييتى بعد هذا الشوط
الطويل من الصداقة والبناء الذى أتمناه سويا ..

ان قرار سحب الطائرات (٥٠٠ م) بمعد ان
صدر بيان سوفييتى مصرى اثناء زيارة المارشال جريتشكو،
بأن الطيارين المصريين استخدموها فى نظرى هو من
اسوأ القرارات التى تصيب شعبنا وقواتنا المسلحة.
بالمرة .

(١٢)

وقرار سحب أجهزة التشويش التى كان يعمل عليها
 افراد سوفيت بحجة انها سرا أو أننا لانسطيع
 تشغيلها أو أى حجة أخرى هو أيضا فى نظرى مـ
 اسوأ القرارات التى تصيب الصداقة السوفيتية
 المصرية فى الصميم .

ان معنى هذه القرارات هو فرض الشروط مـ
 جانب الاتحاد السوفيتى ...

ولقد كسرنا احتكار السلاح فى العالم سـ
 منذ سنة ١٩٥٥ ...

وأمر آخر أخطر ..

اننا فى معركة نواجه عدوا مزودا بكل شـ ...
 فماذا يكون استنتاج المواطن العادى ..

اننى اترك لك تقدير كل ذلك ، ولكننى أكون
 مقصرا فى حق صداقتنا اذا لم اذكر لك كل هـ
 بمثل هذه الصراحة .

١٠- امرا اخيرا أريد ان يكون واضحا امامك ..

لقد سبق لى ان حددت بتاريخ ٢١ اكتوبر فى رسالتى
 لك مع المارشال جرينشكو وفى رسالتى لك مع سفيركم
 فى ٦ يونيو ، واخطركم ايضا به رئيس الوزراء فسـ
 زيارته الاخيرة لكم .

لقد كان هدفنا من زيارة رئيس الوزراء لكم هو
اصدار بيان مشترك يوفر علينا كل هذا الدس والتشفيء
ولكنكم رفضتم ..

ويمنى أن أقول لك بكل صدق وصراحة اننى متمسك
بهذا الموعد ٣١ اكتوبر كتاريخ فاصل بيننا ..

وأرجوكم مخلصا وبأخوة ان تدرك اننى لا أوجه
انذارات كما يحلو للبعض ان يفسر فنحن لانوجه لاحسد
انذارات ، لاننا لانقبل ان توجه اليينا من احسد
انذارات .

ولكن هذا التاريخ مبنى على عاملين احدهما
سياسى والاخر عسكرى ..

اما العامل السياسى فهو اننا حسب اتفاننا
فى آخر لقاء وفى رسائل لكم سنجد انفسنا بعد
انتخابات الرئاسة الامريكية فى وضع سنواجه فيه
تحركا امريكيا واسرائيليا يهدف الى فرض حل لصالح
اسرائيل ومالم نكن على أرض صلبة عسكرى كـ
اتفقتنا فاننا سندخل الى الحلقة المفرغة مرة أخرى ...
مهمة بارنتج .. وقرار مجلس الامن .. واسرائيل لانه يحرك
لتفوقها .

(١٥)

اما العامل الثانى وهو العسكرى ، فنستطيع ان تسأل العسكريين عندك ماذا سيكون عليه التفوق الاسرائيلى فى نوفمبر وديسمبر القادمين .

ان اسرائيل ستكون قد استوعبت بالكامل كل التجديد فى طيرانها بالاعداد الكبيرة من الفانتوم والسكاى هوك ، وستتبع الفجوة بيننا بأخطرها... الان ..

وهكذا يتضح لك ايها المديق ان لهذا التاريخ مدلولات سياسيا وعسكريا سبق ان اتفقنا عليه .

وبعد ...

اننا فى مصر سنظل عارفين بالجميل لمساعدتكم ، وليس ادل على ذلك من اننى عندما ما اعلنت قرارات انهاء مهمة المستشارين السوفييت خروصت فى احاديثى الى الشعب العربى فى مصر وفى المنطقة كلها على تأكيد دور الاتحاد السوفييتى فى مساندتنا .

ولكن واجب الامانة يدعونى ان اذكر أن اولوية أولى فى هذا التعاون الذى نرغبه هى فى تمكيننا من تحرير اراضينا .

اننا نرغب فى دعم التعاون بيننا الى أقصى مدى..

وهذا المدى سيحدده المدى الذى يذهب السببه
اصدقائونا فى الاتحاد السوفييتى فى مدنا بما يساعدنا
على حل مشكلتنا الاولى والاخيرة وهى تحرير الارض .

لقد كتبت اليك لى اطلب تدخلك شخصيا لثقتى
الكاملة فى مشاعرك وفهمك لقضيتنا وحماسك من أجل
حلها .

ان مشكلة تحرير الارض هى كل شئ فى حياتنا
وسلوكننا وعلاقاتنا وتصرفاتنا وان أخوف ما أخافه
ان لايقدر البعض هذا الامر حق قدره ، فتحل المرارة
بدلا من الصداقة .

وبعد ذلك فاذا كنتم ترون فيما أوضحت مايساعد
على تفهم اكثر لظروفنا ، فان الدكتور عزيز صدقى
رئيس الوزراء على استعداد للسفر فى زيارة خاصة
للاتحاد السوفييتى فى الوقت الذى ترونه مناسباً
للتمهيد لمقابلتنا سوياً واجراء بحث مستفيض لكسب
الامور حتى تتقدم علاقاتنا فى المستقبل على قاعسة
صلبة من الثقة والتعاون القائم على الصراحة
المتبادلة لتحقيق مصالحنا المشتركة .

(١٧)

أرجو أن تتقبلوا خالص مودتى وتقديرى ،
مع أطيب تمنياتى لكم شخصيا ولزملائكم القادة
السوفيت والشعب السوفيتى الصديق .

القاهرة فى ١٩٧٢/٨/٣٠

الرئيس

بسم الله

هوجية صادر الى القائد العام للقوات المسلحة

وزير الحربية الفريق أول احمد. اسماعيل على

أولا - عن الوضع العام

١ - لقد مضت حتى الان اكثر من ست سنوات على

احتلال العدو الاسرائيلي لاجزاء من التراب العربى.

٢ - ان اسرائيل موعودة بدعم أمريكى خصوصا فى مجال

امدادات السلاح . . حاولت وتحاول فرض ارادتها

علينا وانهاء أزمة الشرق الاوسط على نحو يصدق

لها سيطرة شبه مطلقة فى المنطقة العربية وليس

أمنها وفى مفاصلها .

٣ - ان مصر حاولت بكل الوسائل ، ومنذ صدر قرار وقف

اطلاق النار عن مجلس الامن فى ٨. يونية ١٩٦٧ أن تجد

(يجمع)

الرئيس

- ٣ -

فدائية على الخطوط أو داخل الارض الممتلئة .. ولكن
هذه العمليات كلها وان أدت الى نتائج لها
أثرها فانها لاسباب متعددة لم تصل في ضغطها
على العدو الى الحد اللازم .

٥ - ان مصر كانت تدرك طول الوقت انه سوف يجرى وقت
يتعين عليها فيه أن تتحمل مسؤولياتها .. وكما ان
اهم ما يجب ان نعنى به هو أن نوفر لهذا اليوم
كل ما نستطيع .. وفى حدود طاقتنا .. ومع التزامنا
بواجب الدفاع عن التراب والشرف .

٦ - ان الشعب فى مصر تحمل بأكثر مما كان يشهده أحد
خصومه وأصدقائه على السواء .. ولقد كانت الاعباء التى
تحمّلها الشعب ، مادية ومعنوية ، اعباء فادحة
لا يتحملها الا شعب يؤمن بالحرية ويضئ فلسفه
سبيلها .

(يجمع)

الرئيس

- ٤ -

٧ - أن تدسينات مهمة طرأت على الموقف السياسى العربى

عموما وزادت من احتمالات تأثيره .. ومع تزايد

أهمية أزمة الطاقة وأزمة النقد فى العالم فسان

الضغط العربى فى أحوال ملائمة يستطيع أن يكون

عاملا له قيمته .

٨ - أن تأثيرات الموقف العربى العام تجلت بشكل واضح

فى أوضاع تسليدنا .. فالى جانب ما حصلنا عليه

من الاتحاد السوفييتى والكتلة الشرقية ، وهو كثير ،

فقد اتيت لنا من مصادر أخرى أنواع من السلاح

لم تكن متوفرة لنا .

٩ - ان العدو فى شبه عزلة عالمية بعد الجهود المصرية

الناجدة فى مجلس الامن والجمعية العامة للأمم

المتحدة ومؤتمر منظمة الوحدة الافريقية الاخير فى

أديس ابابا ، ومؤتمر الدول غير المنحازة الذى

لحقه فى الجزائر .

(يتبع)

الرئيس

- ٥ -

١٠ - ان الموقف الدولى يتغير .. وما زالت حركتنا مستمرة .. وقد نجد أنفسنا أمام توازنات طويلة الاجل تؤثر على حرية حركتنا وعلى حقنا فى الاختيار ^{الى} طوع البدائل .

ثانيا - عن استراتيجية العدو ..

ان العدو الاسرائيلى كما نرى انتهج لنفسه سياسة تقوم على التدوير ، والادعاء بتفوق لا يستطيع العسكرب تحديده .. وهذا هو اساس نظرية الامن الاسرائيلى التى تقوم على الردع النفسى والسياس والعسكرى .

ان نقطة الاساس فى نظرية الامن . الاسرائيلى هى الوصول الى اقناع مصر والامة العربية انه لا فائدة من تحدى اسرائيل ، وبالتالي فليس هناك مفر من الرضوخ لشروطها حتى وان تضمنت هذه الشروط تنازلات عن السيادة الوطنية .

(يتبع)

الرئيس

- ٦ -

شالشا - عن استراتيجية مصر في هذه المرحلة

ان الهدف الاستراتيجي الذي يتحمل المسئولية

السياسية في اعطائه للقوات المسلحة المصرية .. وعلى

اساس كل ما سمعت وعرفت من اوضاع الاستعداد يتلخص

فيما يلي :

تحدى نظرية الامن الاسرائيلي وذلك عن طريق عمل

مجه الانجاز القوان المسل

عسكري (يكون هدفه الحاق اكبر قدر من الخسائر بالعدو

واقناعه انه

والمحتمل من مواصلة احتلاله لاراضينا بفرض عليه ثمننا

لا يستطيع دفعه .. وبالتالي فان نظريته في الامن - على

اساس التخويف النفس والسياس والعسكري - ليس درعا من

الذلولاد يدميه الان او في المستقبل .

واذا استطعنا بنجاح ان نتحدى نظرية الامن الاسرائيلي

فان ذلك سوف يؤدي الى نتائج محققة في المدى القريب

وفي المدى البعيد .

(يتبع)

الرئيس

- ٧ -

في المدى القريب : فان تعدى نظرية الامسـسن
الاسرائيلي يمكن أن يصل بنا الى نتائج مدققة تجعل
في الامكان ان نصل الى حل مشرف لازمة الشرق الاوسط .

وفي المدى البعيد : فان تعدى نظرية الامسـسن
الاسرائيلي يمكن أن يحدث متغيرات تؤدي بالتراكم الى
تغيير اساس في فكر العدو ونفسيته ونزعاته العدوانية .

رابعاً - عن التوقيـست

ان الوقت من الان ، ومن وجهة نظر سياسية
ملائمة كل الملائمة لمثل هذا العمل الذي اشرت اليه
في ثالثاً من هذا التوجيه .

ان اوضاع الجبهة الداخلية واوضاع الجبهة العربية
انعامة بما في ذلك التنسيق الدقيق مع الجبهة الشمالية ،
واوضاع المسرح الدولي تعطينا من الان فرصة مناسبة
للبدء .

(يتبع)

الرئيس

- ٨ -

ومع العزلة الدولية للعدو .. ومع الجو

الذي يسود عنده بنزاعات الانتخابات الحزبية

ومنازعات الشخصيات - فان احتمالات الفرصة المناسبة

تصبح احسن امانا .

رئيس الجمهورية
المستشار
المستشار

المحرر
١٤٩٤ هـ
اول النوبة ١٩٧٥

توجيه إستراتيجي من رئيس الجمهورية ربيع
والقائد الأعلى للقوات المسلحة

إلى : الفريق أول أحمد اسماعيل علي

وزير الحربية والقائد العام للقوات المسلحة

١- بناء على التوجيه السياسي العسكري الصادر لكم في
في أول أكتوبر ١٩٧٢ وبناء على الظروف الميدانية بالوقت
السياس واليد استراتيجي :

قررت تكليف القوات المسلحة بتنفيذ الواجبات الاستراتيجية التالية :
٢- إزالة الجور العسكري الحاد كجسر وقف المهرج لبار واعتبار من
يوم ٦ أكتوبر ١٩٧٢

ب- تجريد العدو أكبر عناصر مركبة في الدفرار والدمار والهدنة

ج- العمل على تحرير الأرض المحتلة على مراحل متتالية حسب نموذج
إمكانات وقدرات القوات المسلحة

د- تنفيذ خطة دراسة القوات المسلحة المصرية بمنفردة أو بالتعاون مع
القوات المسلحة العربية

السيد الرئيس
رئيس الجمهورية

٩ رمضان ١٣٩٢ هـ
٥ أكتوبر ١٩٧٢ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
مكتبته الشخصية

برقية

رقم ٢٠ بتاريخ ٢٠ / ١٠ / ١٩٧٣

الى الرئيس حافظ الأسد

لقد حاربنا اسرائيل الى اليوم الخامس عشر . وفى الاربعة
الايام الاولى كانت اسرائيل وحدها فكشفنا موقفها فى الجبهة
المصرية والسورية وسقط لهم باعترافهم ٨٠٠ دبابة على
الجبهتين واكثر من مائتى طائرة .
اما فى العشرة الايام الاخيرة فاننى على الجبهة المصرية
أحارب امريكا بأحدث ما لديها من اسلحة . اننى ببساطة لا استطيع
أن أحارب امريكا أو أن اتحمل المسؤولية التاريخية لتدمير
قواتنا المسلحة مرة اخرى .
لذلك فاننى أخطرت الاتحاد السوفيتى بأننى اقبل وقف اطلاق
النار على الخطوط الحالية بالشروط التالية :

- ١- ضمان الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة لانححاب اسرائيل
كما عرض الاتحاد السوفيتى .
- ٢- بدء مؤتمر سلام فى الامم المتحدة للاتفاق على تحوية شاملة
كما عرض الاتحاد السوفيتى .

ان تلى لمقطر دما واسا أخطرت بهذا ولكننى أحس أن
مسؤوليتى تحتم على اتخاذ هذا القرار . وسوف أواجه شعبنا
وأمتنا فى الوقت المناسب لكر يحامينى الشعب .
مع أطيب تمنياتى

١٩٧٣/١٠/٢٠

خطاب الرئيس
السادات في الكنيست
(٢٠-١١-١٩٧٧)

السيد الرئيس
أيها السادات والسادة
السلام عليكم . . ورحمة الله
والسلام لنا جميعاً . . بإذن الله

السلام لنا جميعاً . . على الأرض العربية وفي إسرائيل . . وفي كل مكان من
أرض هذا العالم الكبير المعقد بصراعاته الدامية ، المضطرب بتناقضاته الحادة ،
المهدد بين الحين والحين بالحروب المدمرة ، تلك التي يصنعها الإنسان ليقضي
بها على أخيه الإنسان وفي النهاية ، وبين أنقاض ما بنى الإنسان وبين أشلاء
الضحايا من بني الإنسان ، فلا غالب ولا مغلوب ، بل إن المغلوب الحقيقي
دائماً هو الإنسان . . أرقى ما خلقه الله . . الإنسان الذي خلقه الله - كما يقول
غانسدي قديس السلام - « لكي يسعى على قدميه » بين الحياة . . ويعبد الله . .
وقد جئت إليكم اليوم على قدمين ثابتتين ، لكي نبني حياة جديدة لكي نقيم
السلام وكلنا على هذه الأرض ، أرض الله : كلنا مسلمون ومسيحيون ويهود . .
نعبد الله ولا نشرك به أحداً . . وتعاليم الله . . ووصاياه . . هي حب وصدق
وطهارة وسلام .
وإنني أتمنى العذر لكل من استقبل قرارى عندما أعلنته للعالم كله ، أمام
مجلس الشعب المصري ، بالدهشة ، بل بالذهول بل أن البعض قد صورت له
المفاجأة العنيفة أن قرارى ليس أكثر من مناورة كلامية للاستهلاك أمام الرأي
العالم العالمى ، بل وصفه بعض آخر بأنه تكتيك سياسى لكي أخفى به نواياى
في شن حرب جديدة .

ولا أخفى عليكم أن أحد مساعدى في مكتب رئيس الجمهورية أتصل بي
في ساعة متأخرة من الليل بعد عودتى إلى بيتى من مجلس الشعب ، ليسألنى
في قلبي : ومادا تفعل يا سيادة الرئيس لو وجهت إليك إسرائيل الدعوة فعلا
فأجيبته بكل هدوء : سأقبلها على الفور . .
لقد أعلنت أنني سأذهب إلى آخر العالم . سأذهب إلى إسرائيل لإننى أريد
أن أطرح الحقائق كاملة أمام شعب إسرائيل .
إننى أتمنى العذر لكل من أذهله القرار . أو تشكك في سلامة النوايا وراء
إعلان القرار فلم يكن أحد يتصور أن رئيس أكبر دولة عربية ، تتحمل العبء
الأكبر والمسئولية الأولى في قضية الحرب والسلام ، في منطقة الشرق الأوسط
يمكن أن يعرض قراره بالاستعداد إلى الذهاب إلى أرض الخصم . ونحن لا نزال
في حالة حرب ، بل نحن جميعاً لا نزال نعانى من آثار أربع حروب قاسية خلال
ثلاثين عاماً ، بل أن أسر ضحايا حرب أكتوبر ٧٣ لا تزال تعيش مآسى الترميل
وقد الأبنساء واستشهاد الآباء والأخوات .

كما أنني - كما سبق أن أعلنت من قبل - لم أنداول في هذا القرار مع أحد من زملائي
وأخوتي رؤساء الدول العربية ، أو دول المواجهة . . ولقد اعترض من اتصل بي منهم
بعد إعلان القرار ، لأن حالة الشك الكاملة ، وفقدان الثقة الكاملة ، بين الدول
العربية والشعب الفلسطيني من جهة وبين إسرائيل من جهة أخرى ، لا تزال
قائمة في كل النفوس ويكنى أن أشهراً طويلة كان يمكن أن يحل فيها السلام ، قد
ضاعت بسدى ، في خلافات ومناقشات لا طائل منها حول إجراءات عقد
مؤتمر جنيف ، وكلها تعبر عن الشك الكامل ، وفقدان الثقة الكاملة .

ولكننى - أصارحكم القول بكل الصدق أنني اتخذت هذا القرار بعد تفكير
طويل ، وأنا أعلم أنه مخاطرة كبيرة ، لأنه إذا كان الله قد كتب لى قدرى أن
أثوى المسئولية عن شعب مصر ، وأن أشارك في مسئولية المصير بالنسبة للشعب
العربى وشعب فلسطين ، فإن أول واجبات هذه المسئولية أن أستغنى كل السبل ،
لكى أجنب شعبي المصرى العربى ، وكل الشعب العربى ، ويلات حروب
أخرى مخططة ، مدمرة ، لا يعلم مداها إلا الله .

وقد اقتنعت بعد تفكير طويل ، أن أمانة المسئولية أمام الله ، وأمام الشعب ،
تفرض على أن أذهب إلى آخر مكان في العالم . . بل أن أحضر إلى بيت المقدس ،
لأخاطب أعضاء الكنيست ممثلى شعب إسرائيل بكل الحقائق التي تتمثل في نفسى ،
وأترككم بعد ذلك لكي تقررُوا لأنفسكم وليفعل الله بنا بعد ذلك ما يشاء .
أيها السادات والسادة :

إن في حياة الأمم والشعوب لحظات يتعين فيها على هؤلاء الذين يتصفون
بالحكمة والرؤية الثاقبة أن ينظروا إلى ما وراء الماضى بتعقيداته ورواسبه من أجل
انطلاقة جسورة نحو آفاق جديدة .

وهؤلاء الذين يتحملون مثلنا تلك المسئولية الملقاة على عاتقنا هم أول من يجب
أن تتوفر لديهم الشجاعة لاتخاذ القرارات المصيرية التي تتناسب مع جلال
الموقف ، ويجب أن ترتفع جميعاً فوق جميع صور التعصب وفوق خداع
النفس وفوق نظريات التفوق البالية فن المهم ألا ننسى أبداً أن العصمة لله وحده . .
ولذا قلت إننى أريد أن أجنب كل الشعب العربى ويلات حروب جديدة مفعجة ،
فإننى أعلن أمامكم بكل الصدق ، إننى أحمل نفس المشاعر وأحمل نفس المسئولية
لكل إنسان في العالم وبالتأكيد نحو الشعب الإسرائيلى
ضحية الحرب : الإنسان . .

إن الروح التي تزهق في الحرب ، هي روح إنسان ، سواء كان عربياً أو إسرائيلياً . .
إن الزوجة التي ترمي . . هي إنسانة من حقها أن تعيش في أسرة سعيدة سواء
كانت عربية أو إسرائيلية . .

إن الأطفال الأبرياء الذين يفقدون رعاية الآباء وعطفهم هم أطفالنا جميعاً .
على أرض العرب ، أو في إسرائيل لهم علينا المسئولية الكبرى في أن نوفر لهم
الحاضر المأمى والغد الجميل . .

من أجل كل هذا ، ومن أجل أن نحى حياة أبنائنا وأخواننا جميعاً .
من أجل أن تنتج مجتمعاتنا ، وهي آمنة مطمئنة . . من أجل تطور الإنسان
وإسعاده وإعطائه حقه في الحياة الكريمة ، من أجل مسئوليتنا أمام الأجيال المقبلة .
من أجل بسمه كل طفل يولد على أرضنا .

من أجل كل هذا اتخذت قرارى أن أحضر إليكم - رغم كل المحاذير -
لكى أقول كلمتى . .

ولقد تحملت وتحمل متطلبات المسئولية التاريخية ، من أجل ذلك أعلنت من قبل
ومنذ أعوام وبالتحديد في ٤ فبراير ١٩٧١ ، أنني مستعد لتوقيع إتفاق سلام مع
إسرائيل ، وكان هذا هو أول إعلان يصدر من مسئول عربى منذ أن بدأ الصراع
العربى الإسرائيلى وبكل هذه الدوافع التي تفرضها مسئولية القيادة أعلنت
في السادس عشر من أكتوبر ١٩٧٣ وأمام مجلس الشعب المصرى ، الدعوة إلى
مؤتمر دولى يتقرر فيه السلام العادل الدائم .

ولم أكن في ذلك الوقت في وضع من يستجدى السلام ، أو يطلب وقف النار .
وبهذه الدوافع كلها ، التي يلزم بها الواجب التاريخى والقيادى ، وقمنا باتفاق
فك الاشتباك الأول ، ثم اتفاق فك الاشتباك الثانى في سيناء . ثم سعينا لتطرق
الأبواب المفتوحة والمغلقة لإيجاد طريق معين نحو سلام دائم عادل وفتحنا قلوبنا
لشعوب العالم كله لكي يتفهم دوافعنا ، وأهدافنا ، ولكي تفتح فعلاً أننا دعاة
عدل ، وصناع سلام .

وبهذه الدوافع كلها ، قررت أن أحضر إليكم ، بعقل مفتوح وقلب
مفتوح وإرادة واعية ، لكي نقيم السلام الدائم القائم على العدل .

وشامت المقادير أن نجى رحلتى إليكم ، رحلة السلام ، في يوم العيد
الإسلامى الكبير عيد الإضحى المبارك عيد التضحية والفداء ، حين أسلم إبراهيم
عليه السلام ، جد العرب واليهود . أقول حين أمره الله ، وتوجه إليه بكل جوارحه
لا عن ضعف بل عن قوة روحية هائلة وعن إختيار حر للتضحية بفلذة كبده . .
يدافع عن إيمانه الراسخ الذى لا يززع بمثل عليا تعطى الحياة مغزى عميقاً . ولعل هذه
المصادفة تحمل معنى جديداً ، في نفوسنا جميعاً ، لعله يصبح أملاً حقيقياً في نباشير
الأمن والأمان والسلام .

أيها السيدات والسادة :

دعونا نتصارع ، بالكلمة المستقيمة ، والفكرة الواضحة التي لا تحمل أى التواء . دعونا نتصارع اليوم والعالم كله بغربه وشرقه يتابع هذه المخططات القريضة . التي يمكن أن تكون نقطة تحول جذري في مسار التاريخ في هذه المنطقة من العالم ، إن لم يكن في العالم كله .

دعونا نتصارع ونحن نجيب عن السؤال الكبير : كيف يمكن أن نحقق السلام الدائم العادل .

لقد جئت إليكم أحمل جوابي الواضح الصريح على هذا السؤال الكبير ، لكي يسمعه الشعب في إسرائيل ، ولكي يسمعه العالم أجمع ، ولكي يسمعه أيضاً كل أولئك الذين تصل أصوات دعوات أصواتهم المخلصة إلى أذني ، أملاً في أن تتحقق في النهاية النتائج التي يريجوها الملايين من هذا الاجتماع التاريخي .

وقبل أن أعلن لكم جوابي ، أرجو أن أؤكد لكم ، أنني أعتمد في هذا الجواب الواضح الصريح ، على عدة حقائق لا مهرب لأحد من الاعتراف بها : - الحقيقة الأولى : أنه لا سعادة لأحد على حساب شقاء الآخرين .

- الحقيقة الثانية : إنني لم أتحدث ، ولن أتحدث بلغتين ولم أتعامل ولن أتعامل بسياستين ولست أتعامل مع أحد ، إلا بلغة واحدة ، وسياسة واحدة ، ووجه واحد .

- الحقيقة الثالثة : إن المواجهة المباشرة وأن الخط المستقيم هما أقرب الطرق وأنجحها للوصول إلى الهدف الواضح .

- الحقيقة الرابعة : إن دعوة السلام الدائم العادل ، المبني على احترام قرارات الأمم المتحدة ، أصبحت اليوم دعوة العالم كله ، وأصبحت تعبيراً واضحاً عن إرادة المجتمع الدولي ، سواء في العواصم الرسمية التي تصنع السياسة وتتخذ القرار ، أو على مستوى الرأي العام العالمي الشعبي ، ذلك الرأي العام الذي يؤثر في صنع السياسة واتخاذ القرار .

- الحقيقة الخامسة : ولعلها أبرز الحقائق وأوضحها أن الأمة العربية لا تتحرك في سعيها من أجل السلام الدائم العادل ، من موقع ضعف أو إهمال ، بل إنها على العكس تماماً تملك من مقومات القوة والاستقرار ما يجعل كلمتها نابعة من إرادة صادقة نحو السلام ، صادرة عن إدراك حضاري بأنه لكي نتجنب كارثة محققة ، علينا وعليكم وعلى العالم كله ، فإنه لا بد من إقرار سلام عادل ، لا ترعزعه الأنسواء ولا تعذب به الشكوك ، ولا يهزه سوء المقاصد أو التواء النوايا .

من واقع هذه الحقائق ، التي أردت أن أضعكم في صورتها ، كما أراها ، أرجو أيضاً أن أحذركم بكل الصدق ، أحذركم من بعض الخواطر التي يمكن أن تطرأ على أذهانكم .

إن واجب المصارحة يقتضي أن أقول لكم ما يلي :

أولاً : إنني لم أجيء إليكم لكي أعقد اتفاقاً منفرداً بين مصر وإسرائيل . ليس هذا وارداً في سياسة مصر ، فليست المشكلة هي مصر وإسرائيل ، وأى سلام منفرد بين مصر وإسرائيل أو بين أية دولة من دول المواجهة وإسرائيل فإنه لن يقيم السلام الدائم العادل في المنطقة كلها ، بل أكثر من ذلك ، فإنه حتى لو تحقق السلام بين دول المواجهة كلها وإسرائيل ، بغير حل عادل للمشكلة الفلسطينية فإن ذلك لن يحقق أبداً السلام الدائم العادل الذي يلمح العالم كله اليوم عليه .

ثانياً : إنني لم أجيء إليكم لكي أسعى إلى سلام جزئي ، بمعنى أن نهي حالة الحرب في هذه المرحلة . ثم ترجى المشكلة برمتها إلى مرحلة تالية .

فليس هذا هو الحل الجذري الذي يصل بنا إلى السلام الدائم .

ويربط بهذا أنني لم أجيء إليكم ، لكي نتفق على فض إشباك ثالث في سيناء . أو في سيناء والجولان والضفة الغربية ، فإن هذا يعني إننا نؤجل فقط إشعال الفتيل إلى أي وقت مقبل .

بل هو يعني ، إننا نفتقد شجاعة مواجهة السلام ، وإننا أضعف من أن نتحمل أعباء ومسئوليات السلام الدائم العادل .

لقد جئت إليكم ، لكي نفي معاً ، السلام الدائم العادل حتى لا نراق نقطة دم واحدة من جسد عربي أو إسرائيلي .

ومن أجل هذا أعلنت إنني مستعد أن أذهب إلى آخر العالم .

وهنا أعود إلى الإجابة على السؤال الكبير : كيف نحقق السلام الدائم العادل ؟ في رأيي . . وأعلنها من هذا المنبر للعالم كله . أن الإجابة ليست مستحيلة ولا هي بالمسيرة على الرغم من مرور أعوام طويلة . . من ثار الدم . والأحقاد والكرهية . وتنشئة أجيال على القطيعة الكاملة والعداوة المستحكم .

الإجابة ليست عسيرة ولا هي مستحيلة ، إذا طرقتنا سبيل الخط المستقيم بكل الصدق والإيمان .

أنتم تريدون العيش معنا في هذه المنطقة من العالم .

وأنا أقول لكم بكل الإخلاص : إننا نرحب بكم بيننا . . بكل الأمن والأمان .

إن هذا في حد ذاته يشكل نقطة تحول هائلة . . من علامات تحول تاريخي حاسم . .

لقد كنا نرفضكم ، وكانت لنا أسبابنا ودعوانا . . نعم . .

لقد كنا نرفض الاجتماع بكم . . في أي مكان . . نعم . .

لقد كنا نرفضكم بإسرائيل المزعومة . . نعم . .

لقد كانت تجمعنا المؤتمرات أو المنظمات الدولية ، وكان ممثلونا ولا يزالون لا يتبادلون التحية والسلام . نعم . .

حدث هذا ولا يزال يحدث .

لقد كنا نشترط لأي مباحثات وسيطاً يلتقي بكل طرف على إنفراد . نعم . .

هكذا تمت مباحثات فض الاشتباك الأول . . وهكذا أيضاً تمت مباحثات فض الاشتباك الثاني .

كما أن ممثلينا التقيوا في مؤتمر جنيف الأول ، دون تبادل كلمة مباشرة . نعم . .

هذا حدث . .

ولكنني أقول لكم اليوم . . أعلن للعالم كله . . إننا نقبل بالعيش معكم في سلام دائم وعادل . . ولا نريد أن نخيطكم أو نحيطوننا بالصواريخ المستعدة للتدمير أو بقذائف الأحقاد والكرهية .

ولقد أعلنت أكثر من مرة . إن إسرائيل أصبحت حقيقة واقعة أعترف بها العالم ، وحملت القوتان العظيمتان مسئولية أمنها وحمايتها وجودها .

ولما كنا نريد السلام فعلاً وحقاً فإننا نرحب بأن تعيشوا بيننا في أمن وسلام فعلاً وحقاً . .

لقد كان بيننا وبينكم جدار ضخيم مرتفع حاولتم أن تنوه على مدى ربع قرن من الزمان ، ولكنه تحطم في عام ١٩٧٣ ، كان جداراً من الحرب النفسية المستمرة في التهايبا وتصاعدها .

كان جداراً من التخويف بالقوة القادرة على إكتساح الأمة العربية من أقصاها إلى أقصاها .

كان جداراً من الترويج بأننا أمة تحولت إلى جنة بلا حراك . . بل أن منكم من قال إنه حتى بعد مضي خمسين عاماً مقبلة ، فلن تقوم للعرب قائمة من جديد كان جداراً يهدد دائماً بالذراع الطويلة القادرة على الوصول إلى أي موقع وإلى أي بعد . كان جداراً يحذرنا من الإبادة والقضاء إذا نحن حاولنا أن نستخدم حقنا المشروع في تحرير أرضنا المحتلة .

وعلياً أن نعترف معاً . بأن هذا الجدار قد وقع وتحطم في عام ١٩٧٣ . ولكن بقي جدار آخر .

هذا الجدار الآخر ، بشكل حاجزاً نفسياً معقداً بيننا وبينكم .

حاجزاً من الشكوك حاجزاً من النقص ، حاجزاً من خشية الخداع حاجزاً من الأوهام حول أي تصرف أو فعل أو قرار ، حاجزاً من التفسير الخنثي الخاطيء لكل حدث أو حديث .

وهذا الحاجز النفسي هو الذي عبرت عنه ، في تصريحات رسمية ، بأنه يشكل سبعين في المائة من المشكلة .

وإنني أسألكم اليوم - بزيارتي لكم - لماذا لا نمد أيدينا بصدق وإيمان وإخلاص ، لكي نحطم هذا الحاجز معاً ؟

ولكن كيف يتحقق هذا ؟

كيف يمكن أن نصل إلى هذه النتيجة لكي نصل بها إلى السلام الدائم العادل ؟ هناك حقائق لابد من مواجهتها بكل شجاعة ووضوح .

هناك أرض عربية احتلتها - ولا تزال تحتلها - إسرائيل بالقوة المسلحة ونحن نصر على تحقيق الإنسحاب الكامل منها بما فيها القدس العريضة . . القدس التي حضرت إليها باعتبارها مدينة السلام . .

والتي كانت وسوف تظل على الدوام التجسيد الحي للتعايش بين المؤمنين بالديانات الثلاث .

وليس من المقبول أن يفكر أحد في الوضع الخاص لمدينة القدس في إطار الضم أو التوسع وإنما يجب أن تكون مدينة حرة مفتوحة لجميع المؤمنين .

وأهم من كل هذا فإن تلك المدينة يجب ألا تفصل عن هؤلاء الذين اختاروها مقراً ومقاماً لعدة قرون . . وبدلاً من إيقاف الحروب الصليبية فإننا يجب أن نحيا روح عمر بن الخطاب وصلاح الدين . . أي روح التسامح واحترام الحقوق . . إن دور العبادة الإسلامية والمسيحية ليست مجرد أماكن لأداء الفرائض والشعائر بل إنها تقوم شاهد صدق على وجودنا الذي لم ينقطع في هذا المكان سياسياً وروحياً وفكرياً .

وهنا . . فإنه يجب ألا يخطئ أحد تقدير الأهمية والإجلال اللذين نكتهما للقدس نحن معشر المسيحيين والمسلمين . .

ودعوني أقول لكم بلا أدنى تردد أنني لم أجد إليكم تحت هذه القبة لكي أتقدم برجاء أن تجلوا قواكم من الأرض المحتلة . إن الإنسحاب الكامل من الأرض العربية المحتلة بعد ١٩٦٧ أمر يديهي لا تقبل فيه الجدل ولا رجاء فيه لأحد أو من أحد . .

ولا معنى لأي حديث عن السلام الدائم العادل ولا معنى لأي خطوة لضمان حياتنا معاً في هذه المنطقة من العالم في أمن وأمان وأنتم تحتلون أرضاً عربية بالقوة المسلحة فليس هناك سلام يستقيم أو يبنى من إحتلال أرض الغير .

نعم . .

هذه يديهي لا تقبل الجدل والنقاش إذا خلصت النوايا وصدق النضال لإقرار السلام الدائم العادل لجيلنا ولكل الأجيال من بعدنا .

أما بالنسبة للقضية الفلسطينية فليس هناك من ينكر أنها جوهر المشكلة كلها وليس هناك من يقبل اليوم في العالم كله شعارات رفعت هنا في إسرائيل تتجاهل وجود شعب فلسطين بل وتتساءل أين هو هذا الشعب ؟ !

إن قضية شعب فلسطين وحقوق شعب فلسطين المشروعة لم تعد اليوم موضع تجاهل أو إنكار من أحد . بل لا يحتمل عقل يفكر أن تكون موضع تجاهل أو إنكار . إنما واقع استقبله المجتمع الدولي غرباً وشرقاً . بالتأييد والمساندة والإعتراف في موافق دولية وبيانات رسمية لن يبدى أحد أن يصم آذانه عن دويها المسموع ليل نهار أو أن يغمض عينيه عن حقيقتها التاريخية وحتى الولايات المتحدة الأمريكية حليفكم الأول التي تحمل قمة الالتزام لحماية وجود إسرائيل وأمنها والتي قدمت - وتقدم إلى إسرائيل - كل عون معنوي ومادي وعسكري .

أقول حتى الولايات المتحدة أختارت أن تواجه الحقيقة والواقع وأن تعترف بأن للشعب الفلسطيني حقوقاً مشروعة وأن المشكلة الفلسطينية هي قلب الصراع وجوهره وطالما بقيت معلقة دون حل فإن النزاع سوف يزداد ويتصاعد ليلعب أبعاداً جديدة وبكل الصدق أقول لكم إن السلام لا يمكن أن يتحقق بغير الفلسطينيين وأنه لخطأ جسيم لا يعلم مداه أحد أن نفخ الطرف عن تلك القضية أو أن نحيا جانبا .

ولن أستطرد في سرد أحداث الماضي منذ صدر وعد بلفور لستين عاماً خلت فأنتم على بينة من الحقائق جيداً . . وإذا كنتم قد وجدتم المبرر القانوني والأخلاقي لإقامة وطن قومي على أرض لم تكن كلها ملكاً لكم فأولى بكم أن تفهموا إصرار شعب فلسطين على إقامة دولته من جديد في وطنه .

وحين يطالب بعض الغلاة والمتطرفين أن يتخلى الفلسطينيون عن هذا الهدف الاسمي . . فإن معناه في الواقع وحقيقة الأمر مطالبة له بالتخلي عن هويته وعن كل أمل لهم في المستقبل .

لماذا لا نتفق لإرادتنا ، بصدق وإيمان وإخلاص ، لكي نزيل معاً كل شكوك الحروف والغدر والتواء المقاصد وإخفاء حقائق النوايا ؟

لماذا لا نتصدى معاً بشجاعة الرجال ، وبمسيرة الأبطال الذين يهبون حياتهم لمهدف أسمى ؟

لماذا لا نتصدى معاً بهذه الشجاعة والجسارة لكي نقيم صرحاً شامخاً للسلام يحمي ولا يهدد . . يشع لأجيالنا القادمة أضواء الرسالة الإنسانية نحو البناء والتطور ورفعة الإنسان ؟ . .

لماذا نورث هذه الأجيال نتائج سفك الدماء . . وإزهاق الأرواح ، وتيتيم الأطفال وترمل الزوجات ، وهدم الأسر ، وأنين الضحايا ؟

لماذا لا نؤمن بحكمة الخالق أوردنا في أمثال سليمان الحكيم :

« الفس في قلب الذين يفكرون في الشر ، أما المشيرون بالسلام فلهم فرح » .

« لقمة يابسة ومعها سلام ، خير من بيت مليء بالذبائح مع الخصام » .

لماذا لا نردد معاً من مزامير داود النبي .

« إليك يا رب أصرخ . . أسمع صوت تضرعي إذا أستغث بك ، وأرفع يدي إلى محراب قدسك ، لا تجذبني مع الأشرار . ومع فعلة الإثم ، المخاطبين أصحابهم بالسلام والشر في قلوبهم ، أعطهم حسب فعلهم ، وحسب شر أعمالهم ، أطلب السلامة وأسمى وراءها » .

أيها السادة :

الحق أقول لكم أن السلام لن يكون اسماً على مسمى ما لم يكن قائماً على العدالة وليس على إحتلال أرض الغير .

ولا يسوغ أن تطلبوا لأنفسكم ما تنكرونه على غيركم .

وبكل صراحة . وبالروح التي حدثت بي إلى القدوم إليكم اليوم فإنني أقول لكم : إن عليكم أن تتخلوا نهائياً عن أحلام الغزو وأن تتخلوا أيضاً عن الاعتقاد بأن القوة هي خير وسيلة للتعامل مع العرب .

إن عليكم أن تستوعبوا جيداً دروس المواجهة بيننا وبينكم فلن يجديكم التوسع شيئاً .

ولكي نتكلم بوضوح فإن أرضنا لا تقبل المساومة ، وليست عرضة للجدل . إن التراب الوطني والقومي يعتبر لدينا في منزلة الوادي المقدس طوى الذي كلم فيه الله موسى عليه السلام « ولا يملك أي منا ولا يقبل . أن يتنازل عن شبر واحد منه ، أو أن يقبل مبدأ الجدل والمساومة عليه » .

والحق أقول لكم أيضاً : إن أماننا اليوم الفرصة السانحة للسلام وهي فرصة لا يمكن أن يمحو بملحها الزمان إذا كنا جادين حقاً في النضال من أجل السلام .

وهي فرصة لو أضعناها أو بددناها فلسوف نحمل بالتآمر عليها ، لعنة الإنسانية ولعنة التاريخ .

ما هو السلام بالنسبة لإسرائيل ؟ أن تعيش في المنطقة مع جيرانها العرب . . في أمن وإطمئنان . .

هذا منطقي أقول له نعم . .

أن تعيش إسرائيل في حدودها ، أمنة من أي عدوان .

هذا منطقي أقول له نعم . .

أن تحصل إسرائيل على كل أنواع الضمانات التي تؤمن لها هاتين الحقيقتين هذا مطلب أقول له نعم . .

بل إننا نعلن إننا نقبل كل الضمانات الدولية التي تتصورونها وعن ترضونه أنتم .

نعلن إننا نقبل كل الضمانات التي تريدها من القوتين العظميين ، أو من إحداهما ، أو من الخمسة الكبار ، أو من بعضهم .

وأعود فأعلن بكل الوضوح أننا قابلون بأي ضمانات ترضونها لأننا في المقابل ، سنأخذ نفس الضمانات .

خلاصة القول إذن عندما نسأل : ما هو السلام بالنسبة لإسرائيل ؟

يكون الرد هو أن تعيش إسرائيل في حدودها مع جيرانها العرب ، في أمن وأمان وفي إطار كل ما ترضيه من ضمانات يحصل عليها الطرف الآخر .

إنني أحس أصواتاً إسرائيلية . . طالبت بالاعتراف بحقوق الشعب الفلسطيني وصولاً إلى السلام وضماناً له .

ولذلك ، فإنني أقول لكم أيها السادة والسيدات أنه لا طائل من وراء عدم الاعتراف بالشعب الفلسطيني وحقوقه في إقامة دولته وفي العودة .

لقد مررنا نحن العرب بهذه التجربة من قبل . . معكم . . ومع حقيقة الوجود الإسرائيلي وانتقل بنا الصراع . . من حرب إلى حرب . . ومن ضحايا إلى مزيد من الضحايا حتى وصلنا اليوم - نحن وأنتم - إلى حافة هاوية رهيبية وكارثة مروعة إذا نحن لم نغتنم اليوم معاً فرصة السلام الدائم والعدل .

عليكم أن تواجهوا الواقع مواجهة شجاعة كما واجهته أنا . ولا حل لمشكلة أبداً بالهروب منها أو التعلل عليها .

ولا يمكن أن يستقر سلام بمحاولة فرض أوضاع وهمية . . أدار لها العالم كله ظهره . . وأعلن نداءه الاجتماعي بوجوب احترام الحق والحقيقة .

ولا داعي للدخول في الحلقة المفرغة مع الحق الفلسطيني . . ولا جدوى من خلق العقبات . . إلا أن تتأخر مسيرة السلام . . أو أن يقتل السلام .

وكما قلت لكم . . فلا سعادة لأحد على حساب شقاء الآخرين . . كما أن المواجهة المباشرة والخط المستقيم هما أقرب الطرق وأنجحها للوصول إلى الهدف الواضح والمواجهة المباشرة للمشكلة الفلسطينية . . واللغة الواحدة لعلاجها نحو سلام دائم عادل هي في أن تقوم دولتهم .

ومع كل الضمانات الدولية التي تطلبونها فلا يجوز أن يكون هناك خوف من دولة وليدة تحتاج إلى معونة من كل دول العالم لقيامها . . وعندما تدق أجراس السلام فلن توجد يد لتدق طبول الحرب وإذا وجدت فلن يسمع لها صوت . ونصبروا معي إنفاق سلام في جنيف نرفه إلى العالم المتعطش إلى السلام . . إنفاق سلام يقوم على :

أولاً : إنهاء الاحتلال الإسرائيلي للأراضي العربية التي احتلت في عام ١٩٦٧ .
ثانياً : تحقيق الحقوق الأساسية للشعب الفلسطيني وحقه في تقرير المصير بما في ذلك حقه في إقامة دولته .

ثالثاً : حق كل دول المنطقة في العيش في سلام داخل حدودها الآمنة والمضمونة عن طريق إجراءات يتفق عليها تحقق الأمن المناسب للحدود الدولية ، بالإضافة إلى الضمانات الدولية المناسبة .

رابعاً : تلزم كل دول المنطقة بإدارة العلاقات فيما بينها طبقاً لأهداف ومبادئ ميثاق الأمم المتحدة ، وبصفة خاصة عدم اللجوء إلى القوة . . وحل الخلافات بينهم بالوسائل السلمية .
خامساً : إنهاء حالة الحرب القائمة في المنطقة .

أيها السادة والسادة .

إن السلام ليس توقيعاً على سطور مكتوبة ، إنه كتابة جديدة للتاريخ .

إن السلام ليس مباراة في المسادة به للدفاع عن أية شبهات أو لسترأية الطماع ، فالسلام في جوهره نضال جبار ضد كل الأطماع والشهوات .

ولعل تجارب التاريخ القديم والحديث تعلمنا جميعاً ، أن الصواريخ والبراج والأسلحة النووية لا يمكن أن تقيم الأمن ولكنها على العكس تحطم كل ما ينيه الأمن .

وعلينا :

من أجل شعوبنا .

من أجل حضارة صنعها الإنسان ، أن نحمل الإنسان في كل مكان . . من سلطان قوة السلاح .

علينا أن نعمل سلطان الإنسانية بكل قوة القيم والمبادئ التي تعلى مكانة الإنسان .

وإذا سمحتم لي أن أتوجه بندائي من هذا المنبر إلى شعب إسرائيل فأنتي أتوجه بالكلمة الصادقة الخالصة إلى كل رجل وامرأة وطفل في إسرائيل . . أنني أحمل إليكم من شعب مصر الذي يبارك هذه الرسالة المقدسة من أجل السلام .

أحمل إليكم رسالة السلام رسالة شعب مصر الذي لا يعرف التعصب ، ولقد عيش أبناؤه من مسلمين ومسيحيين ويهود بروح المودة والحب والتسامح .

هذه هي مصر التي حملت شعباً أمانة الرسالة المقدسة . . رسالة الأمن والأمان والسلام .

فيا كل رجل وامرأة وطفل في إسرائيل شجعوا قيادتكم على نضال السلام ، ولتتجه الجهود إلى بناء صرح شامخ للسلام ، بدلاً من بناء القلاع والمخابئ المحصنة بصواريخ الدمار .

قدموا للعالم كله ، صورة الإنسان الجديد ، في هذه المنطقة من العالم ، لكي يكون قدوة لإنسان العصر . . إنسان السلام في كل موقع ومكان .

بشروا أبنائكم . . أن ما مضى ، هو آخر الحروب ونهاية الآلام وإن ما هو قادم هو البداية الجديدة ، لحياة الجديدة حياة الحب والخير والحرية والسلام ويا أيها الأم الثكلى .

ويا أيها الزوجة المترملة .

ويا أيها الأبن الذي فقد الأخ والأب .

يا كل ضحايا الحروب .

املأوا الصدور والقلوب ، بآمال السلام . . أجعلوا الانشودة حقيقة تعيش وتثمر . . أجعلوا الأمل دستور عمل ونضال . . وإرادة الشعوب هي من إرادة الله . .

أيها السادة والسادة .

قبل أن أصل إلى هذا المكان ، توجهت بكل نبضة في قلبي ، وبكل خلجة في ضميري ، إلى الله سبحانه وتعالى ، وأنا أؤدي صلاة العيد في المسجد الأقصى وأنا أזור كنيسة القيامة توجهت إلى الله سبحانه وتعالى بالدعاء أن يلهمني القوة : وأن يؤكد يقين إيماني بأن تحقق هذه الزيارة أهدافها التي أرجوها من أجل حاضر سعيد ، ومستقبل أكثر سعادة .

لقد اخترت أن أخرج على كل السوابق والتقاليد التي عرفها الدول المتحاربة ، ورغم أن إحتلال الأرض العربية لازال قائماً ، بل كان إعلاني عن إستعدادي للحضور إلى إسرائيل مفاجأة كبرى هزت كثيراً من المشاعر ، وأذهلت كثيراً من العقول ، بل شككت في نواياها بعض الآراء ، ورغم كل ذلك فلأنني استلهمت القرار بكل صفاء الإيمان وطهارته وبكل التعبير الصادق عن إرادة شعبي ونواياه واخترت هذا الطريق الصعب ، بل أنه في نظر الكثيرين أصعب طريق .

اخترت أن أحضر إليكم . . بالقلب المفتوح والفكر المفتوح .

اخترت أن أعطي هذه الدعوة لكل الجهود العالمية المبذولة من أجل السلام . .

واخترت أن أقدم لكم - وفي بيتكم - الحقائق الجردة عن الأغراض والأهواء .

لا لكي أناور .

ولا لكي أكسب جولة ، أخطر الجولات والمعارك في التاريخ المعاصر .

معركة السلام العادل والدائم .

إنها ليست معركة فقط ، ولا هي معركة القيادات فقط ، في إسرائيل .

ولكنها معركة كل مواطن على أرضنا جميعاً ، من حقه أن يعيش في سلام . .

لأنها التزام الضمير والمسئولية في قلوب الملايين .

ولقد تساءل الكثيرون ، عندما طرحت هذه المبادرة عن تصوري لما يمكن إنجازه في هذه الزيارة وتوقعاتي منها .

وكما أجبت السائلين ، فإنني أعلن أمامكم إنني لم أفكر في القيام بهذه المبادرة من منطلق ما يمكن تحقيقه أثناء الزيارة وإنما جئت هنا لكي أبلغ رسالة ألا هل بلغت اللهم فاشهد .

اللهم أني أردد مع زكريا قوله « أحبوا الحق والسلام » .

واستلهم آيات الله العزيز الحكيم حين قال : « قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ، ونحن له مسلمون » .

« صدق الله العظيم »

والسلام عليكم .

(ب)

بارليف : ٣٣٧ - ٣٨٤ - ٣٨٨
 بلسر : ٧٦
 بديعة مصابني : ٥٠
 بريجنيف : ١٧٠ - ٢٥٩ - ٣٠١ - ٣٠٢ - ٣٠٨ - ٣١٠ - ٣٤٠ -
 ٣٥٠ - ٣٥١ - ٣٨١ - ٣٩٥ - ٤٠٨
 بطاطا : ٢٥٢
 بن بلا : ٢١٤ - ٣٢٤
 بن جوربون : ١٨٩ - ١٩٠ - ١٩٢ - ١٩٩
 بودجورني : ٣٠٦ - ٣٠٧ - ٣٢٧ - ٣٢٨ - ٣٧٤ - ٣٧٧
 بورقية : ٣٢٤
 بوفر : ٣٥٤ - ٣٨٦
 بولجانين : ١٩١
 بومدين : ٢١٤ - ٢٨٣ - ٣٢٤ - ٣٢٥ - ٣٥٠ - ٣٥١ - ٣٥٤
 بيجين : ٤٠٣ - ٤٠٦ - ٤٠٧ - ٤١٠ - ٤١٢
 بيريا : ٣٤٥
 بيريز : ٤١٢
 بينو : ١٩٠

(ت)

تشرشل : ٥٦
 توفيق (خديوي) : ٢٨
 توفيق السعيد : ٩٠ - ٩١ - ٩٢ - ٩٤
 تيتو : ١٧٣ - ٢٠٠ - ٢٤٤ - ٢٤٧ - ٣٤٠ - ٣٤١ - ٣٥٤

(ج)

جابر الأحمد الصباح : ٣٢٣
 جاكوب مالك : ٢٤٨
 جان بول سارتر : ٢٢٣
 جرينشكو : ٣٠١ - ٣١٠ - ٣١١
 الجزائر : ٩٠ - ٩١ - ٩٢ - ٩٤
 جلوب باشا : ١٧٩
 جمال سالم : ١٥٠ - ١٥١ - ١٦٤ - ١٨٠
 جمال عبد الناصر : ٢٧ - ٣٢ - ٣٣ - ٣٤ - ٣٥ - ٤٩ - ٧٨
 ١٠٥ - ١٠٦ - ١٠٧ - ١٠٩ - ١١٠ - ١١٦ - ١١٧ - ١٢٠
 ١٣٣ - ١٣٤ - ١٣٥ - ١٣٦ - ١٣٧ - ١٣٨ - ١٣٩ - ١٤٠
 ١٤١ - ١٤٥ - ١٤٦ - ١٤٩ - ١٥٥ - ١٥٦ - ١٥٧ - ١٥٨
 ١٥٩ - ١٦٢ - ١٦٣ - ١٦٤ - ١٦٥ - ١٦٦ - ١٦٧ - ١٦٩
 ١٧٠ - ١٧٣ - ١٧٤ - ١٧٥ - ١٧٦ - ١٧٧ - ١٧٨ - ١٨٠
 ١٨١ - ١٨٢ - ١٨٣ - ١٨٤ - ١٨٧ - ١٨٨ - ١٩٠ - ١٩١

(أ)

أبا إيمان : ٤١١
 إبراهيم : ٥٤
 إبراهيم مندلر : ٣٤١ - ٣٤٧
 إبراهيم حسن : ٣٨
 إبراهيم خيرى باشا : ٢٥ - ٢٦ - ٢٧
 إبراهيم عطا الله باشا : ٤٥
 أبلر (حسين جعفر) : ٥٠ - ٥١ - ٥٣ - ٥٤ - ٥٦ - ٦٤ -
 ٦٨ - ٨٦
 أبو زيد الهلالي : ١٥
 أبو سعدة : ٣٤١
 أبو شادى : ٧١
 إحسان عبد القلوس : ١٢٩ - ١٤٤
 أحمد أبو الفتح : ١٤٠
 أحمد اسماعيل على : ٣٤ - ٢٤٣ - ٢٥٥ - ٣٢٠ - ٣٢١ - ٣٢٢ -
 ٣٢٦ - ٣٢٧ - ٣٢٨ - ٣٢٩ - ٣٣١ - ٣٣٤ - ٣٣٨ - ٣٣٩ -
 ٣٤٠ - ٣٤٨ - ٣٤٩ - ٣٨١ - ٤٠١
 أحمد رياض : ٥٣
 أحمد سعودى حسين : ٣٤ - ٤٢ - ٤٩ - ٨٢
 أحمد على : ١٢٢
 أحمد فؤاد : ١٥٠ - ١٦٦
 أحمد ماهر : ٧٦ - ٨٣
 إدجار والاس : ٦٩
 أدهم الشرقاوى : ١٥ - ٢٣
 أرمسترونج : ٤٤
 إسكندر فهمى أبو السعد : ٣٤
 أشرف مروان : ٣٠٥
 أشكول : ٢٢٤ - ٢٢٦
 أكرم حوراني : ١٩٦
 ألان دالاس : ١٩٤
 أمين عثمان : ٨٣ - ٨٤ - ٨٥ - ٨٦ - ٩٠ - ٩١ - ١٠٢ - ١٢١ -
 ١٢٨ - ١٤٧ - ١٦٢
 أنور أحمد : ٧٦
 إيسلن : ١٧٧ - ١٨٩ - ١٩٠ - ٢٩٣
 أيزنهاور : ١٩١ - ١٩٢ - ١٩٣ - ١٩٤ - ٣٦٨

حسين ذو الفقار صبرى : ٤٤-٤٥-٤٦
 حسين (الملك) : ١٩٧-٢٠٥-٢٦٢
 حسين سرى عامر : ١٣٩
 حسين الشافعى : ١٥١-٢٢٤-٢٤٨-٢٤٩-٢٥٠-٢٥٢
 ٢٥٤-٢٥٦-٢٩٨-٢٩٩
 حسين فريد : ١٤٠
 حكمت فهمى : ٥٠-٦٤
 حمدى سيف النصر باشا : ٢٧-٢٨
 حميد فرنجية : ٣٢٤
 حيدر باشا : ١٣٣-١٤١

(خ)

خالد محي الدين : ٣٤-١٣٥-١٧٥
 خروشوف : ١٩١-٢٠٠-٢٠١-٢١٤-٣٤٥

(د)

دانيوس : ١٧٢
 ديستان : ٤٠٧-٤٠٨
 دين راسك : ٣٨٧

(ر)

رايموندهير : ١٩١
 رشاد مهنى : ١٦٦
 رشيد غالى الكيلانى : ٤٣-٤٦
 روجرز : ١٧٠-٢٥٨-٢٥٩-٢٦١-٢٩٩-٣٠٠-٣٠٢
 ٣٠٣-٣٠٨-٣٦٧-٣٦٨-٣٦٩-٣٧٠-٣٧٢-٣٧٣
 ٣٧٤-٣٧٦-٣٧٧-٣٧٨-٣٧٩-٣٨٠-٣٨٢-٣٨٧
 روميل : ٤٧-٤٨-٤٩-٥١-٥٧-٦٨-٨٢
 ريتشاردسون : ٢٩٦-٣٦٧-٣٦٨-٣٦٩

(ز)

زكريا محي الدين : ٤٨-١٤٨-٢١٣-٢١٥-٢١٩-٢٢٤
 ٢٣٢-٢٣٣-٢٤٨-٢٤٩-٢٥٠-٢٥٢
 زهران : ١٥-١٦-٢٣-٢٩-٥٨-١٥٥

(س)

ساي شرف : ٢٢١-٢٨٥-٢٩٦-٣٠٥
 ساندى : ٥١-٥٤-٥٦
 سنالين : ١٦٩-٣٤٥
 سعد زغلول : ٢٤
 سعد الشافلى : ٣٤٨-٣٤٩

١٩٢-١٩٣-١٩٤-١٩٥-١٩٦-١٩٧-١٩٨-١٩٩
 ٢٠٠-٢٠١-٢٠٢-٢٠٣-٢٠٥-٢٠٦-٢٠٧-٢٠٨
 ٢٠٩-٢١٠-٢١١-٢١٣-٢١٥-٢١٧-٢١٨-٢١٩
 ٢٢٠-٢٢١-٢٢٢-٢٢٣-٢٢٤-٢٢٥-٢٢٦-٢٢٧
 ٢٢٨-٢٢٩-٢٣٠-٢٣١-٢٣٢-٢٣٧-٢٣٩-٢٤٠
 ٢٤٣-٢٤٤-٢٤٥-٢٤٦-٢٤٧-٢٤٨-٢٤٩-٢٥٠
 ٢٥١-٢٥٢-٢٥٣-٢٥٤-٢٥٥-٢٥٦-٢٥٧-٢٥٨
 ٢٥٩-٢٦٠-٢٦١-٢٦٢-٢٦٣-٢٦٤-٢٨٣-٢٨٤
 ٢٨٥-٢٨٦-٢٨٨-٢٨٩-٢٩٠-٢٩١-٢٩٤-٢٩٥
 ٢٩٦-٢٩٧-٣٠١-٣٢٠-٣٢٢-٣٢٣-٣٢٤-٣٢٨
 ٣٢٩-٣٣٠-٣٦٧-٣٦٩-٣٧١-٣٧٤-٣٧٥-٣٧٦
 ٣٧٧

الجنسى : ٣١٣-٣٢٦-٣٤٩-٣٥٥

جولندا مائير : ١٩٢-٣٠٩-٣٤١-٣٤٦-٣٧٣-٣٧٤

٣٧٨-٣٨٠-٣٨١-٣٨٦-٤١١-٤١٥

جونار يارنج : ٢٥٨-٣٦٨-٣٧٠

جون ستيوارت مل : ١٣٢

جونسون : ٢١٣-٢٢٦-٣٧٠-٣٧٤-٣٧٥-٣٨٣-٣٩٩

٤٠٤

جون فوستر دالاس : ١٦٩-١٨٧-١٨٨-١٨٩-١٩٤

١٩٥-٣٨٧

جى موليه : ١٨٩-١٩٠

جيهان السادات : ١٢٨-١٢٩-١٣٠

(ح)

حافظ الأسد : ٢٩٦-٢٩٧-٣٢٦-٣٢٧-٣٣٢-٣٣٨

٣٣٩-٣٤٦-٣٤٨-٣٥١-٤٠٥-٤٠٩-٤١٠

حافظ اسماعيل : ٣١٧-٣١٨-٣٢٢-٣٢٣-٣٨٢

حسن ابراهيم : ٣٤-١٣٥-١٣٩

حسن البنا : ٣٥-٣٦-٣٧-٣٨-٤٠-٩٩-١٣٤

الحسن الثانى : ٣٢٤

حسن جعفر : ٥٠-٦٨-٦٩

حسن الشريف : ١٨

حسن عباس زكى : ٢٩٥

حسن عزت : ٣٤-٤٢-٤٩-٥٠-٥١-٥٣-٥٦

٦٤-٦٦-٦٧-٧٢-٧٣-٧٤-٧٧-٧٨-١٢٧-١٢٨

١٣٠-١٣١

حسنى مبارك : ٣٣٥-٣٤٩-٣٥٠-٤٠٧

حسين توفيق : ٨٢-٨٣-٨٤-٨٦-٨٧-٨٨-٨٩-٩١

٩٣-٩٤-١٢٣

٢٣٩ - ٢٤٠ - ٢٤٦ - ٢٤٧ - ٢٤٨ - ٢٤٩ - ٢٥٠ - ٢٥١ -
 ٢٥٢ - ٢٥٣ - ٢٥٤ - ٢٩١
 عبد الحميد (السلطان) : ٣٣
 عبد الحميد السراج : ٢٠٤ - ٢٠٥
 عبد الحميد (الشيخ) : ١٣
 عبد العزيز آل سعود : ٨٦
 عبد الغنى سعيد : ٥١
 عبد الكريم قاسم : ٢٠١ - ٢٢٤
 عبد القادر حاتم : ٣٤٠
 عبد اللطيف بغدادى : ٣٤ - ٤٩ - ١٣٥ - ١٩٦
 عبد الله (الملك) : ١٢١ - ١٢٢
 عبد الله مبارك الصباح : ٣٢٣
 عبد المحسن أبو التور : ٢٨٤
 عبد المنعم رياض : ٢٤٠ - ٢٤٣ - ٢٤٩ - ٢٥٠ - ٣٢٨
 عبد المنعم عبد الرؤوف : ٣٤ - ٣٧ - ٤٢ - ٤٤ - ٤٥ - ٤٦ -
 ١٣٤ - ١٣٥
 عبد المنعم واصل : ٣٢٠
 عراقى : ٢٩
 عزيز صدق : ٣٢٢
 عزيز المصرى باشا : ٣١ - ٣٨ - ٤٠ - ٤٢ - ٤٣ - ٤٤ - ٤٥ -
 ٤٦ - ٥٦
 عساف ياجورى : ٣٤١
 على صبرى : ١٤٣ - ٢١٣ - ٢٢١ - ٢٢٤ - ٢٥٢ - ٢٩٠ -
 ٢٩٦ - ٢٩٧ - ٢٩٨ - ٣٠٣ - ٣٠٤ - ٣٧٧ - ٣٧٨
 على ماهر : ٣٨ - ٤١ - ٤٤ - ٤٥ - ٤٦ - ٤٨ - ٤٩ -
 ١٥٠ - ١٦٠ - ١٦٤ - ١٧٢
 على موافى باشا : ٥٦ - ٥٧
 عمر أبو على : ٨٢ - ٨٩ - ٩٣ - ٩٤

(غ)

غاندى : ٢٤
 غويبة : ٧٨ - ٧٩

(ف)

فاروق الملك : ١٧ - ٢٦ - ٤٤ - ٤٧ - ٨٠ - ٨٦ - ١٤٣ - ١٥١
 فانس : ٤٠٧
 فرديناند دى ليبس : ١٨٨
 فؤاد (الملك) : ١٧ - ٢٦
 فؤاد عزيز : ٣٢٨
 فسورد : ٦٩ - ٣٦٣ - ٣٩١ - ٣٩٣ - ٤٠٥
 فيتس باتريك : ٢٧

سعد مأمون : ٣٢٠ - ٣٥٧
 سعود (الملك) : ١٩٤ - ٢٠٥ - ٢١١ - ٢١٢
 سلوين لويد : ١٨٩
 سليمان فرنجية : ٣٢٤ - ٣٢٥
 السنوسى (الملك) : ٢٩٠
 سيد قطب : ٧١
 سيد مرعى : ١٧٢ - ٣١٧
 سيف اليزل : ٥٢ - ٥٣
 سيمينوف : ٢٢٤

(ش)

شارون : ٣٢٥ - ٤١١
 شازوروف : ٢٥٦ - ٢٦٠ - ٢٦١
 الشاطر : ١٥
 شاه إيران : ٢٩١ - ٢٩٢
 شاونيسكو : ٤٠٦
 شعراوى جمعه : ٢٢١ - ٢٩٦ - ٢٩٨
 شكرى زيدان : ١٢٩
 شكرى القوتلى : ١٩١ - ١٩٧ - ١٩٨ - ١٩٩ - ٢٠٠
 شمس بلران : ٢٠٧ - ٢١٥ - ٢٢١ - ٢٢٦
 شمعون : ١٧٩ - ١٩٧
 شواين لاي : ١٦٩ - ١٧٠ - ١٧٨ - ٢١٤
 شيبولوف : ١٧٨
 شيلبين : ٢١٤

(ص)

صادق : ٣٢٠
 آل الصباح : ٣٢٣
 صدق باشا : ٢٤
 صدق سليمان : ٢١٥ - ٢٢٤ - ٢٢٥
 صدق محمود : ٢٢١ - ٢٢٦
 صلاح سالم : ١٣٥ - ١٦١ - ١٦٢ - ١٦٤ - ٢٠٣

(ط)

طلعت السادات : ١٨ - ٥٣ - ٩٩ - ١٠٠ - ١٠١

(ع)

عبد الحكيم عامر : ١٣٣ - ١٣٥ - ١٤٠ - ١٦٦ - ١٩٧ - ١٨٤ -
 ٢٠٠ - ٢٠٢ - ٢٠٤ - ٢٠٥ - ٢٠٦ - ٢٠٧ - ٢٠٨ - ٢٠٩ -
 ٢١٠ - ٢١١ - ٢١٥ - ٢١٦ - ٢١٩ - ٢٢٠ - ٢٢١ - ٢٢٢ -
 ٢٢٤ - ٢٢٥ - ٢٢٧ - ٢٢٨ - ٢٢٩ - ٢٣٠ - ٢٣٢ - ٢٣٧ -

محمد علي فهمي : ٣٤٩
 محمد فوزي : ٢٠٩ - ٢٤٠ - ٢٤٣ - ٢٤٦ - ٢٤٨ - ٢٥٠ - ٣٢٠ - ٣٠٤
 محمد كامل : ٨٩ - ٩٤
 محمد مصطفى المراغي : ٤٠
 محمد نجيب : ١٤١ - ١٤٦ - ١٤٨ - ١٥١ - ١٦١ - ١٦٤ - ١٦٦ - ١٦٧ - ١٧٢ - ١٧٥ - ١٧٧ - ١٨٠
 محمود فوزي : ١٨٩ - ٢٨٤ - ٢٩٩ - ٣٦٨ - ٣٧٠ - ٣٧١
 محمود لبيب : ٣٧
 محمود يونس : ١٧٢
 مرسى : ٨٤ - ٨٥
 مصطفى كامل : ٢٣ - ٢٨ - ٢٩
 معمر القذافي : ٢٦٢ - ٢٦٣ - ٢٩٦ - ٢٩٧ - ٣١٨
 ممدوح سالم : ٣١٧ - ٣٥٣
 موردخاي جور : ٤١١
 موشي ديان : ٢٢٦ - ٢٤٢ - ٣٢٧ - ٣٢٨ - ٣٤٣ - ٣٤٦ - ٤١١
 مونتهجومري : ٥٦ - ٥٧ - ٦٨
 مينا (سيو) : ١٤

(ن)

نابليون : ٢٣ - ٢٨ - ٣٩ - ٦٩
 النحاس باشا : ٢٤ - ٢٧ - ٤٧ - ٧٠ - ٧٦ - ٨٢ - ٨٣
 نيمري (جعفر) : ٢٩٧ - ٢٩٨ - ٣٠٧ - ٤١٢
 نهرو : ١٧٨ - ١٨٠ - ١٨١ - ١٨٣
 نوري السعيد : ١٧٩ - ١٨٩
 نيكسون : ٢٥٨ - ٢٩٦ - ٣١٠ - ٣١١ - ٣١٢ - ٣٦٨ - ٣٦٩
 ٣٧٠ - ٣٧٣ - ٣٧٩ - ٣٩١

(هـ)

هتلر : ٢٤ - ٢٥ - ٣٤ - ٣٥ - ٤٠ - ١٢٠ - ١٢١
 همفري : ٣٧٤
 هواكوفنج : ٤٠٧ - ٤٠٨
 هيث : ٣٤٣ - ٣٤٤ - ٣٨٥
 هاريمان : ٢١٧
 هيكلان : ٦١ - ٦٤

(و)

وجيه خليل : ٦٩

(ي)

ياسر عرفات : ٢٦٢ - ٢٦٣ - ٣٩٥ - ٤٠٩
 يوسف رشاد : ٤٤ - ١٣٢ - ١٣٣ - ١٣٨ - ١٣٩ - ١٤٩
 يوسف صديق : ١٤٠

فيصل (ملك السعودية) : ١٩٧ - ١٩٨ - ٢١١ - ٢١٢ - ٢٤٥ - ٣٢٤ - ٣٦٣
 فيصل (ملك العراق) : ١٨٩ - ١٩٧
 فيتوجرادوف : ٢٥٨

(ك)

كانترير : ٤١١
 كارتير : ٣٩٥ - ٣٩٦ - ٣٩٧ - ٤٠٠ - ٤٠١ - ٤٠٢ - ٤٠٤
 ٤٠٥ - ٤٠٦ - ٤٠٧ - ٤٠٨ - ٤١٤
 كافري : ١٤٣ - ١٤٨ - ١٦٨
 كالاهان : ٤٠٧ - ٤٠٨
 كامل فاويز : ٨٦ - ٩١ - ٩٢ - ٩٣ - ٩٤ - ١٠١ - ١٠٢
 كمال ألتورك : ٢٣ - ٢٥ - ٢٨ - ٢٩ - ٣١ - ٤٥
 كمال حسن علي : ٢٤٢
 كمال الدين حسين : ١٣٥
 كمال رياض : ٥٤
 كورول هول : ٣٩٨
 كوسيجين : ٣٠١ - ٣٤٤ - ٣٤٥ - ٣٨٥ - ٣٨٨
 كيسنجر : ٦٩ - ٣١٧ - ٣٢٢ - ٣٢٣ - ٣٤١ - ٣٤٣ - ٣٤٤
 ٣٥١ - ٣٥٥ - ٣٥٦ - ٣٥٧ - ٣٦٣ - ٣٦٥ - ٣٦٦ - ٣٨٢
 ٣٨٣ - ٣٨٤ - ٣٨٥ - ٣٨٧ - ٣٨٨ - ٣٨٩ - ٣٩٢ - ٣٩٣
 كيلرن : ٤٧ - ٤٨ - ٨٤

(ق)

قائيل : ٣٤٩ - ٣٥٤

(ل)

لافون : ١٩٢
 لي ستاك (سير) : ١٧

(م)

ماكس : ٦٥
 ماوتسي تونج : ٤٠٧
 مايلز لامبسون : ٣٨
 محسن فاضل : ٧٤ - ٧٥ - ٧٦
 محمد (الحاج) : ٧٨
 محمد إبراهيم : ٥٧
 محمد عبده : ٦٩
 محمد الخامس (الملك) : ٢٠٢
 محمد علي باشا : ٨٠ - ١٥٠ - ١٥١
 محمد علي (الأمير) : ٢٧

فصول الكتاب

الفصل الأول :	
من ميت أبو الكوم إلى سجن الأجانب	٩
الفصل الثاني :	
نحو تحرير الأرض	٥٩
الفصل الثالث :	
نحو تحرير الذات « الزنانة ٥٤ »	٩٥
الفصل الرابع :	
العمل من أجل قيام الثورة	١٢٥
الفصل الخامس :	
الثوار يحكمون	١٥٢
الفصل السادس :	
عجز القوة « مصر في حكم عبد الناصر من يوليو ٥٦ إلى يونيو ٦٧ »	١٨٥
الفصل السابع :	
فترة إنتقالية « الكفاح من أجل البقاء »	٢٣٥
الفصل الثامن :	
الثورة الثانية	٢٨١
الفصل التاسع :	
حرب أكتوبر	٣١٥
الفصل العاشر :	
الطريق إلى السلام	٣٥٩
وثائق	٤١٩
فهرس	٤٥١

مطابع المكتب المصري الحديث

رقم الإيداع ٧٨ / ٢٤٤٥

الترقيم الدولي ٦-٧٠-٧٠٤٩-٩٧٧ ISBN

مطابع المكتب المصري للحريث

**** معرفتي ****

www.ibtesama.com

منتديات مجلة الإبتسامة